حملة لويس التاسع على مصر

وهزيمته في المنصورة

تأليف

محمد مصطفى زيادة

المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية



حملة لويس التاسع على مصر

وهزيمته في المنصورة

الطبعة الأولى

اهداءات ٢٠٠٠

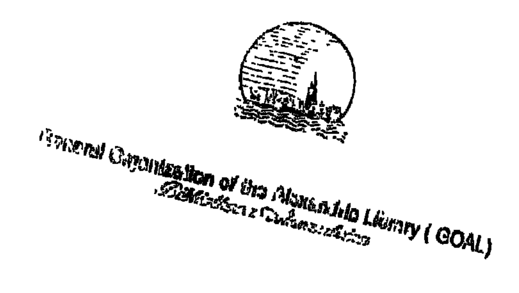
المرحوم ا.د. فريـــد الشافعـــى
أستاذ العمارة الإسلامية - القاهرة

حملة لويس التاسع على مصر
وهزيمته في المنصورة

تأليف

محمد مصطفى زيادة

(سابقاً)
أستاذ تاريخ العصور الوسطى ورئيس قسم التاريخ
بكلية الآداب بجامعة القاهرة



المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية

قام بتأليف هذا الكتاب ، بناء على تكليف خاص من المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعـلوم الاجتماعية

الأستاذ الدكتور محمد مصطفى زيادة

أستاذ تاريخ العصـور الوسطى ، ورئيس قسم التاريخ بكلية الآداب بجامعة القاهرة سابقاً ، وعضو لجنة التاريخ والآثار بالمجلس .

تصدير

نقطة البداية فى هذا البحث قيام الحروب الصليبية ، وما تولّد عن تلك الحروب من تفكير صليبى ، للاستيلاء على مصر ، دون تحديد بحادثة بذاتها ، أو بسنة هجرية أو ميلادية مختارة . والحروب الصليبية نفسها حركة أوربية اعتدائية — توسعية — استمدّت جذورها من قديم التنافس العميق بين الشرق والغرب ، ومن توغّل الفتوح العربية الإسلامية الأولى فى أطراف الإمبراطورية البيزنطية ، وفى أجواف الممالك المسيحية الغربية ، فى إسبانيا وفرنسا وإيطاليا ، وجزر البحر المتوسط . وتضاف إلى هذه العوامل العالمية الكبرى ، عوامل أوربية محلية ، وهذه ترجع إلى القرن الحادى عشر الميلادى ، وإلى صميم التاريخ الأوربى فى ذلك القرن .

بعبارة أخرى ، ليست فاتحة هذا البحث مشروعاً للملك الفرنسى لويس التاسع ، فى سبيل استيلاء صليبىّ على مصر ، بل تفكير زعماء الصليبيين السابقين جميعاً فى ذلك المشروع ، فى صورة أو أخرى ، منذ أخذت أرجال الحملة الصليبية المعروفة بالأولى تصل تترى إلى الشام ، أى قبل وصول حملة الملك لويس التاسع إلى الشواطئ المصرية ، بنحو مائة وخمسين سنة .

ولذا سوف يبدأ هذا البحث من البداية ، أى منذ الحلول الصليبى الأول بالشام ، وتأسيس دولة بيت المقدس الصليبية بفلسطين ، سنة ١٠٩٩ م ، مع التنبيه هنا بأن طول المسافة الزمنية ، بين الحملة الصليبية المعروفة بالأولى ، وحملة الملك لويس التاسع على مصر ، لا يمحو شيئاً من الواقع التاريخى ، وهو أن الملك لويس التاسع ينتهى نسبه الصليبى إلى

جودفرى دى بويون ، أوّل حكام دولة بيت المقدس الصليبية ، وأوّل المفكرين من أولئك الحكام فى الاستيلاء على مصر . وكلا الرجلين فرنسى ، وما بينهما من شخصيات وحوادث صليبية كثيرة ، لا يعدو أن يكون سلسلة نبتت بعضها من بعض ، فى حلقات زمنية متصلة متحمّسة ، ومزاجها إلحاح عنيد ، للاستيلاء على البلاد المصرية .

وبالقياس إلى الملك لويس التاسع ونسبته الصليبية ، تبدو شخصية السلطان الصالح نجم الدين أيوب كذلك واضحة جلية ، فهو الذى تلقّى مطالع الزحف الصليبى على مصر بقيادة الملك لويس التاسع ، وهو السليل الحقيقى لعمّه الأعلى ، أى للسلطان صلاح الدين الأيوبى نفسه ، فى الجهاد العام ضدّ الصليبيين ، فى مصر والشام . على أن هذا القياس يكشف عن فارق كبير بين الأيوبيين والصليبيين ، وهو أنه على حين جنح سلاطين الأسرة الأيوبية عموماً إلى سياسة المهادنة نحو الصليبيين بالشام ، مع اليقظة للجهاد الدفاعى فى أى وقت من الأوقات ، لم يأل ملوك أوربا والبابوية جهداً فى تكرار الاعتداء على مصر ، مرّة بعد أخرى ، منذ قيام الحروب الصليبية بالشام ، وهو ما سوف يتضح للقارئ فى الصفحات التمهيدية لهذا البحث .

ومن البديهى أن تجرى الكتابة — فى هذه الصفحات التمهيدية — على وتيرة إجمالية متدرّجة نحو التوسع النّسبى ، ليكون الدخول بعد ذلك فى صُلب الموضوع ، على مستوًى واحدٍ من التفصيل والتحليل ، وهو ما تمليه قواعد التناسب التاريخى ، والتوزيع والتركيز . غير أن هذا البحث ، كغيره من البحوث التاريخية الكبرى ، يستطيع أن يطلّ عليه مختلف المؤرخين من زوايا مختلفة ، ومن منظور تاريخى محدود لكل واحدٍ منهم بجغرافيته ، وقوميته وحضارته . وليس معنى هذا أن اختلاف الزوايا يغيّر الحقائق التاريخية ، أو يؤثر فى ترتيبها الزمنى ، بل معناه أنه يغيّر النظرة إلى تلك الحقائق التاريخية

تغييراً كفيلاً بعرضها فى أبعاد وأشكال مختلفة ، وتقويمها قيماً متنوعة تصل أحياناً إلى درجة العكسـية والتضادّ ، ولا سيما عند تعارض المصالح القومية الطبيعية :

وهكذا لا يستطيع المؤرخ الفرنسى الحديث ، على سبيل المثال ، أن يرى فى حملة الملك لويس التاسع وهزيمته فى المنصورة ، ما يراه المؤرخ العربى المصرى ، إذ الأول معتدٍ والثانى معتدًى عليه ، والاثنان لا يتفقان ، مع العلم بأن الجانب العربى المصرى هنا هو الجدير بالتقدير والاعتبار : لكن كلاً من هذين الطرفين المختلفين ، لا يستطيع أن يغير شيئاً من الحوادث التاريخية التى حدثت ، مع العلم بأن هذه الحوادث التى حوّلت معسكر المنصورة من منزلة حربية من منازل السلاطين الأيوبيين ، على فرع دمياط ، إلى مقبرة لأطماع فرنسية صليبية ، هى بذاتها الحوادث التى جعلت مدينة المنصورة الحالية موضع مجادٍ من أمجاد التاريخ المصرى ، فى مرحلة من أشدّ مراحله حرجاً فى التاريخ كله .

ومنذ سنوات مضت ، أعددتُ نفسى لكتابة هذا الموضوع ، فجمعتُ ما استطعت من مادة تاريخية معاصرة ومتأخرة ، وغربلتها واختزنتها فى مودع الآمال ، ولم يبق إلا أن أجد الوقت المتصل لكى أنصرف إلى الكتابة . ثم تعاقبتْ السنون ، واندفنتْ أوراق هذه المادة التاريخية تحت أوراق أخرى ، ولم أستخرج منها إلا بمقدار ما احتجتُ إليه فى أعمال التدريس والمحاضرة ، بقسم التاريخ بكلية الآداب ، بجامعـة القاهرة . ثم كلفنى المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية بتأليف كتاب فى هذا العنوان وموضوعه ، ولولا ما أعددتُ واختزنتُ سابقاً من مادة ما استطعت الإلمام بمراجعه الكثيرة ، أصلية وثانوية ، عربية وغير عربية ، للانتهاء من هذا البحث فى الوقت المحدّد له .

ومن المعروف أن الجزء الأكبر من مادة هذا البحث يأتى من مراجع أجنبية ، وهذه مكتوبة طبعاً فى نغمة صليبية ، ومن زاويتها ، على عكس المراجع العربية التى يتكوّن منها الجزء الآخر من مادة هذا البحث . ولذا ينبغى للكاتب العربى المصرى أن يكون على حــذرٍ دائمٍ من مادة المراجع الأجنبية ، وأن يفرّق بين مفهوم لفظ " أعداء " ، كما تستعمله هذه المراجع ، ومفهومه عنده ، وأن يذكر دائماً زاويته التى ينظر ويرى منها ، ليكتب كتابة تاريخية خالصة ، لخدمة القارئ العربى الجديد .

ومن باب التدليل والبرهان على سلامة هذا التنبيه جعلتُ فى آخر هذا البحث ملحقين ، من مرجعين متعاصرين متضادّين ؛ وأولهما القاضى جمال الدين محمد بن سالم بن واصل الحموى ، وهو أهمّ المراجع العربية وأوفاها فى حوادث حملة الملك لويس التاسع فى مصر ، وثانيهما جوانفيل ، وهو مؤرخ فرنسى شاهد عيان ، لا يدانيه غــيره فى بعض النواحى الوصفية لحوادث تلك الحملة الصليبية الفرنسية ، ولا سيما وقعة جديلة الكبرى ، وهى التى اشترك فيها جوانفيل بكتيبته وشخصه . وبفضل هذين الملحقين استطعتُ كذلك أن أوفّر على القارئ متابعة الكثير من الحواشى ، فى صفحات هذا البحث ، مع العلم بأنى أوردتُ هذين الملحقين بعد استئذان زميلىّ وصديقىّ ، وهما الأستاذ الدكتور جمال الدين محمد الشيال الذى يقوم على نشر تاريخ ابن واصل ، والدكتور حسن حبشى الذى يشتغل بترجمة تاريخ جوانفيل إلى اللغة العربية ، منذ سنين .

ويوجد هنا ، عدا هذين الملحقين ، خمس لوحات توضيحية ، منقولة من الكتب الأجنبية المعروفة فى تاريخ الملك لويس التاسع وحملته على مصر ، وهى لوحات تصف بعض حوادث هذه الحملة ، ومعظمها مرسوم بعد مائتين وسبعين سنة من تلك الحوادث ؛ والفضل فى حصولى على ثلاثٍ من هذه اللوحات يرجع إلى زميلى وصديقى الدكتور جوزيف نسيم يوسف .

وبالإضافة إلى هذه اللوحات ، يوجد عدد من الخرائط التخطيطية ، فى ثنايا هذا البحث ، ليستعين بها القارئ على ضبط مواضع البلاد والقرى المتعلقة بحملة الملك لويس التاسع ، وما سبقها من الحملات الصليبية على مصر .

وفى سبيل خدمة القارئ العربى ، رأيتُ كذلك أن أحقّق بنفسى مواضع البلاد والأماكن التى تتعلق بهذه الحملة وحدها ، لا من الخرائط التفصيلية الدقيقة التى تصدرها مصلحة المساحة المصرية ، بل عن طريق الزيارة الخاصة ، والبحث التؤدة ، والرؤية العينية غير المستعجلة . ولذا سافرتُ إلى دمياط ، أواخر شهر سبتمبر سنة ١٩٦٠ م ، صحبة صديقى العالم الأثرى حسن عبد الوهاب ، ووقفتُ أوّلَ ما وقفتُ عند اللسان الحاجز بين النيل والبحر المتوسط ، وهو الموضع الذى أرست بقربه السفن الصليبية ، غداة وصولها إلى الشواطئ المصرية . ثم مشيتُ فى طول مصيف رأس البرّ الحالى ، بعد أن غدا خالياً من زحمة المصيّفين ، ووصلتُ إلى جنوبىّ هذا المصيف ، عند قرية الجربى وجزيرة الرملة الصفراء ؛ وكان هذا الموضع معروفاً فى العصور الوسطى باسم جيزة دمياط ، وهو الذى اجتازت عليه حملة لويس التاسع نهر النيل وقتذاك إلى برج السلسلة . ولذا عبرتُ النيل من هناك إلى برج السلسلة ، وهو البرج الذى زحف منه الصليبيون إلى دمياط القديمة ، ولا يزال اسمه مقروناً باسم عزبة البرج الحالية . وهذه الأماكن والمواضع كلها لا يوجد من بقاياها ، فيما رأيتُ وشهدتُ ، سوى أسمائها ، ما عدا جامع أبى المعاطى القديم ، وقبة فاتح الأسمر ، والمنشية ، حيث توجد مقابر دمياط الحالية .

ثم ذهبتُ من دمياط إلى فارسكور جنوباً ، فى محاذاة الشاطئ الشرقى للنيل ، كما فعل الصليبيون من قبل ، ووقفتُ عند منية الخولى عبد الله ، وشرمساح ، والبرمون ، كما وقفتْ حملة لويس التاسع ؛ واخترقتُ هذه البلاد كلّها ، من مداخلها على الطريق الزراعى العام إلى سواحلها على النيل . ثم

وصلتُ أخيراً إلى المنصورة ، حيث أقمتُ بضعة أيام ، ذهبتُ فى أثنائها إلى جديلة ، وموضع مخاضة سلمون ، كما زرتُ موضع دار ابن لقمان ، حيث أمضى الملك لويس معظم أيام أسره بالبلاد المصرية .

ولكلٍّ من هذه المواضع والأماكن قصة فى أخبار لويس التاسع وحملته على مصر ، برغم خلوّ معظمها من أية بقية أثرية دالّة على علاقتها بهذه الحملة . على أنى استطعتُ بهذه الزيارة أن أشهد مواضع حملة لويس التاسع وهزيمته ، وأن أعيش لحظات حيّة نادرة ، مع بعض رجال الجيش المصرى الأيوبى ، وهم الذين أبلوا أحسن البلاء فى تلك الأيام . وأرجو أن تظهر للقارئ ثمرة هذه الزيارة القصيرة ، كما أرجو أن يقوم من هو أكثر منى بصيرةً وقدرةً على التنقيب الأثرى ، بعملية مساحية تفصيلية لهذه المنطقة كلها ، لتصوير ملامحها الطبيعية ، وكتابة جغرافيتها التاريخية ، مع ملاحظة ما طرأ عليها من تغييرات وتعديلات ، بسبب أعمال مياه النيل ، وليونة التربة الطينية ، وانعدام الصخور والأرض الصخرية .

وأودّ هنا أن أحيّى نهضتنا العربية الكبرى بهذا البحث الصغير ، وأن أتقدّم به مشفوعاً بملء صفحاته شكراً دائماً إلى السيد الرئيس جمال عبد الناصر ، لسهره فيما يسهر على توجيه هذه النهضة الواعية الناشطة ، وحرصه فيما يحرص على تنشئة المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم االاجتماعية ، فضــلاً عن غيره من المجالس العلمية العليا ، التابعة لرياسة الجمهورية ، لتكون هذه المجالس مشاعلَ منيرةً ، هاديةً للطرق والمسالك المؤدية إلى المعرفة ، والفضيلة ، والمواطنة الطيبة ، والخير العام .

ثم أقدّم الشكر إلى السيد كمال الدين حسين ، نائب رئيس الجمهورية للإدارة المحلية ، ورئيس المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية ، لتكليفى بتأليف هذا الكتاب ، والسماح لى بمهلة إضافية استثنائية ، للتمكن من إنجازه على وجه جدير بالقارئ العربى الجديد . وأقدّم الشكر

كذلك إلى لجنة التاريخ والآثار بالمجلس ، وإلى مقرّرها الأستاذ عبد الرحمن الرافعى ، لاقتراحها قيامى بزيارة منطقة دمياط والمنصورة ، على النحو الذى شرحتُ .

ثم أقدّم بعد ذلك كلماتِ شكرٍ إلى جميع الذين عاونونى فى إخراج هذا الكتاب ، وهم زملائى وأصدقائى الذين أمدونى بكثير من الاقتراح الطيب ، والنصيحة العلمية السديدة ، ومنهم الدكتور مصطفى مسعد ، والدكتور إبراهيم أحمد العدوى . لمساعدة كلٍّ منهما لى بدوره ، فى إعداد الخرائط التخطيطية ، وقراءة تجارب المطبعة قبل اعتمادى إياها للطبع ، وهذا فضلاً عن الاشتراك فى عمل الفهرس الأبجدى . وأشكر كذلك السيد حسن عادل ، بقسم التحرير والنشر بالمجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية ، لحرصه على تسهيل النواحى الإدارية فى هذا العمل ، كما أشكر لعمال المطبعة بلجنة التأليف والترجمة والنشر صبرهم معى ، من أجل إخراج هذا الكتاب ، فى المستوى اللائق بالمكتبة العربية الجديدة .

مصر الجديدة { ٢ ذو القعدة ١٣٨١ هـ
١٨ أبريل ١٩٦١ م }

محمد مصطفى زيادة

محتوى هذا الكتاب

قائمة اللوحات

قائمة الخرائط

صفحة

قائمـــة الفصول

صفحة

الفصل الأول

الفصل الثانى

الفصل الثالث

الفصل الرابع

الفصل الخامس

الفصل السادس

الفصل السابع



الفصل الأول

مصر ومملكة بيت المقدس

١٠٩٧ – ١١٦٣ م = ٤٩٢ – ٥٩١ ﻫ

الإقليم المصرى من الجمهورية العربية المتحدة مركز جغرافى عظيم الجاذبية ، وسط مجتمع بناؤه السياسى عربى إسلامى بالشرق الأوسط ، منذ ألف وثلاثمائة وعشر ين سنة ، على وجه التدقيق . واحتوى هذا المركز فيما احتوى حتى ظهور الإسلام على دفائن فرعونية ، وعناصر قبطية ، وبقايا يونانية رومانية بيزنطية على التعاقب ، وهى بقايا من حضارات بادت بعضها تحت بعض درجات مختلفة ، من حيث المزايا والبقايا والآثار . وظل هذا المركز الجغرافى الجذاب أعظم إغراء سياسيا للمجتمع الأوربى المسيحى من سائر المراكز العربية الإسلامية الأخرى بالشرق الأوسط . وغدا لذلك أكثر تعرضا لما يتحرك أو يرتكض بين أحشاء المجتمع المسيحى الأوربى من حركات توسعية سياسية ، أو اقتصادية ، أو دينية ، أو هذه كلها مجتمعة فى حركة طامة واحدة ، كما حدث عند قيام الحروب الصليبية ، ووصول جيوشها من مختلف بلاد غرب أوربا إلى القسطنطينية عاصمة الإمبراطورية البيزنطية ، فى طريقها إلى الشرق الأوسط[1] ، أواخر القرن الحادى عشر الميلادى .

---

(١) الجديد فى هذا الفصل وما يليه من الفصول هو الزاوية التى يكتب منها المؤلف ، لأن هذه الزاوية بوضعها الجغرافى والثقافى الخاص تكشف ولا ريب عن منظور تاريخى معين ، دون أى تغيير فى الحقائق المتواترة فى مؤلفات الحروب الصليبية . أما هذه المؤلفات فأحدثها فى اللغة الفرنسية (R. Grousset : Histoire des Croisades, 3 Vols. Plon, Paris, 1934-1936) ، وفى اللغة الإنجليزية (S. Runciman : A Hist. of the Crusades. 3 Vols, Cambridge, 1951—1954) ؛ وليس يوجد فى اللغة العربية حتى العصر الحاضر ما يمكن أن يوازى هذين =

وتولى عرش الإمبراطورية البيزنطية وقتذاك ألكسيوس الأول كومنين ، وهو رجل واسع الحيلة خبير بأحوال الدول المجاورة جميعها . أما فى الشرق الأوسط فكانت شئون الحكم فى مصر فى أيدى الخلافة الفاطمية الشيعية ووزيرها القدير الأفضل شاهنشاه . وشئون الحكم فى سائر البلاد الشرقية فى أيدى أبناء البيت السلجوقى السنى وفروعه وأتابكته ، فضلا عن عدد كبير من الأمراء الأتراك والتركمان والعرب المستقلين ، بمدينة أو أخرى من المدن الكبرى بآسيا الصغرى وأعالى الفرات والشام ، مع وجود الخلافة العباسية فى بغداد . واشتدت روح العداوة المذهبية والبغضاء السياسى المتبادل بين الفاطميين والسلاجقة . كما اشتد التناحر بين أرباب المدن الإسلامية المستقلة . مما مهد للزحف الصليبي بالشرق الأوسط أعظم تمهيد . وذلك قبل أن تعبر الجيوش الصليبية من القسطنطينية إلى آسيا الصغرى والشام .

وبينما تجرى مفاوضات بين الإمبراطور ألكسيوس كومنين وقادة الجيوش الصليبية حول مستقبل العلاقات والولاءات بين الطرفين ، أشار الإمبراطور بوجوب استغلال ما بين السلاجقة والفاطميين من عداوة ، بالاتفاق مع الخلافة الفاطمية على اقتسام الممتلكات السلجوقية فى الشام . ويبدو أن الإمبراطور ألكسيوس أرسل إلى القاهرة بتفاصيل ما أشار به على قادة الجيوش الصليبية ، بدليل وصول سفارة فاطمية إلى معسكر

= المرجعين الكبيرين ، من حيث التعمق فى البحث ، مع العلم بحاجة المكتبة العربية إلى مؤلف عام مشابه .

أما المراجع الأصلية التى كتبها شهود العيان والمعاصرون فى أخبار المسلمين والصليبيين ، فهى كثيرة متفاوتة القيم ، فى اللاتينية والعربية وغيرهما من اللغات ، ويجب الرجوع إلى أسماء مجموعاتها المشهورة ، وإلى قوائم المراجع الواردة بكل جزء من أجزاء المرجع الثانى الإنجليزى المذكور هنا ، وأعظم هذه المجموعات ما هو معروف باسم : (Recueil des Historiens des Croisades, 14 Vol., Paris: 841–1906)

الصليبيين فى ربيع سنة ١٠٩٨ م ، وهم وتتذالك على حصار أنطاكية بشمال الشام . وتقدمت هذه السفارة بمشروع تقسيمى خلاصته أن يقنع الصليبيون بما سوف يفتحونه من بلاد الشام الشمالى ، وأن يتركوا البلاد الجنوبية — أى فلسطين الحالية — لتستولى عليها الجيوش الفاطمية من السلاجقة . ودارت حول ذلك المشروع مناوضات ظلت عدة أسابيع ، ورجع المفاوضون الفاطميون إلى القاهرة باتفاقات وإشارات عامة تقترح انتظار الحوادث ، قبل الوصول إلى تفاهم نهائى ؛ ووصل إلى القاهرة مع أولئك المفاوضين وفد صليبى صغير ، وعدد كبير من الهدايا الفخمة .

ثم سقطت مدينة أنطاكية فى أيدى الصليبيين فى يونيه ١٠٩٨ م ، ودلت خيبة المحاولات التى قام بها حلف من الأمراء الأتراك المسلمين لإنقاذ أنطاكية من أيدى سادتها الجدد ، على أن المقاومة السلجوقية التركية ضد الصليبيين انهارت تماما . ثم أخذت الجيوش الصليبية تستعد للزحف جنوباً ، على حين ظل الوفد الصليبى الصغير بالقاهرة لا يتحرك ساكنا . وعند ذلك تراءى واضحا للوزير الفاطمى الأفضل شاهنشاه أن الصليبيين لا يريدون اتفاقا مع الدولة الفاطمية ، وأن الوفد الصليبى الصغير لا يملك شيئاً نهائياً أو مؤقتاً على أية حال ، وأن البصيرة السياسية تشير بجنى ثمرات انهيار المقاومة التركية ضد الصليبيين قبل فوات الأوان . لذا زحفت الجيوش الفاطمية المصرية على فلسطين ، وانتزعت مدينة بيت المقدس من أيدى حاميتها السلجوقية فى أغسطس سنة ١٠٩٨ م ، ولم تلبث الجيوش الفاطمية المصرية أن استولت على فلسطين كلها ، وصار الحد الفاصل بينها وبين الصليبيين خطاً ممتداً من الساحل شمال بيروت ، على طول مجرى نهر العاصى .

غير أنه لم يمض عام حتى جاء الصليبيون إلى بيت المقدس ، وحاصروها حتى سقطت فى أيديهم فى يونيه ١٠٩٩ م ، وسلمت حاميتها الفاطمية المصرية

وقائدها افتخار الدولة بأمان لم يطبقه الصليبيون على السكان ، من المسلمين واليهود ، بل كالوا دخولهم المظفر بمذبحة كان لها أسوأ الأثر فى تاريخ العلاقات بين المسلمين والمسيحيين ، طول العصور الوسطى .

الواضح من هذه الإشارات العابرة ، بصدد الحوادث الصليبية الأولى فى الشرق الأوسط ، أن مصر قامت بدور غير ضئيل منذ بداية هذه الحوادث . وظلت مصر على هذه الحال إيجاباً وسلباً متناسباً مع أحوال الدولة الفاطمية ، حتى أواسط القرن الثانى عشر الميلادى ، فاحتجت لدى أول حاكم فى دولة بيت المقدس الصليبية ، وهو جودفرى دى بويون ، على نقض روح الاتفاقات التى جرت والصليبيون على حصار أنطاكية ، وهدّدت بإخراجهم من فلسطين . ولذا قامت الجنود والسفن الفاطمية المصرية بالهجوم على القوات الصليبية عند عسقلان وأرسوف وحيفا ، أواخر سنة ١٠٩٩ م ، وإذا كانت هـــذه المحاولات المتعددة لم تأت بأية نتيجة انتصارية ، بل أدت إلى هزيمة فاطمية فى عسقلان ، فإنها دفعت جودفرى دى بويون أخيراً إلى فكرة الاستيلاء على مصر . وأعلن جودفرى استعداده للتنازل عن مركزه فى الدولة الصليبية فى بيت المقدس ، بعد تنفيذ هذه الفكرة ، لكنه مات فى يوليه سنة ١١٠٠ م ، قبل أن يشرع فى تنفيذ فكرته .

بينما تجرى هذه الحوادث مجراها . انحرف فرع من الجيوش الصليبية الرئيسية ـ وهى لا تزال فى آسيا الصغرى ، واتخذ طريقاً جانبياً شرقياً ، بقيادة بلدوين أخى جودفرى دى بويون ، على حين كان التيار الصليبى الرئيسى يسير جنوباً نحو أطراف الشام . واستقر هذا الفرع الجانبى أخيراً فى مدينة الرها ، فى أعالى الفرات الأرمنى ، حيث أسس بلدوين لنفسه إمارة شهيرة بتعمة تأسيسها على حين غفلة من أهاليها الأرمن المسيحيين . على أن موضع الأهمية فى إقامة هذه الإمارة الصليبية فى أعالى الفرات . قبل أن تصل الجيوش الصليبية الرئيسية إلى بيت المقدس ، هو أولا أن الحركة الصليبية

دلت على اتجاهات ترسمية نائية جغرافيا عن فلسطين ، وثانياً أن زعماء الصليبيين حتى الأولين منهم لم يكن غرضهم جميعاً خدمة الدين فحسب ، وثالثاً أن أحد أولئك الزعماء — وهو بلدوين أمير الرها — ورث أخاه جودفرى فى الدولة الصليبية ببيت المقدس ، بعد أن انتقل إليها وأعلنها ملكية سافرة ، وأعلن نفسه ملكاً متوجاً على طريقة الملوك السياسيين ؛ وتم ذلك ليلة عيد الميلاد — أى ٢٥ ديسمبر — سنة ١١٠٠ م .

وأدرك الملك بلدوين أن الدولة الفاطمية هى منبع الخطر الناشط على مملكته الجديدة ، وأن أحسن وسائل الدفاع عن هذه المملكة هو البداية بهجمات خاطفة جريئة على المراكز الفاطمية . على أن هذه الهجمات لم تكن كفيلة بالنجاح الصليبى المطلوب ، بل إن سوء خطط القادة الفاطميين ، وقلة تنسيقها فى البرّ والبحر ، هى التى رجحت كفة بلدوين سنة بعد أخرى ، كما جعلت أطراف مملكة بيت المقدس تقترب رويداً رويداً من الأطراف المصرية . وهكذا غدت هذه المملكة ، منذ سنة ١١١٥ م ، مسيطرة على جميع فلسطين والساحل من بيروت إلى قرب العريش ، ما عدا مينائى صور فى الشمال وعسقلان فى الجنوب ، وما عدا كذلك طريق جبلى ممتد من الطرف الجنوبى للبحر الميت إلى ميناء أيلة على خليج العقبة ، وهو الطريق المشرف على صحراء النقب الحالية .

وانطلق بلدوين نحو هذه الجهات فى تلك السنة ، وراح يستكشف أجزاءها ، وبنى قلعة الكرك ، ووصل أخيراً إلى خليج العقبة وميناء أيلة سنة ١١١٦ م . ومن ثم سار بلدوين نحو جبل موسى فى شبه جزيرة سينا ، ووصل إلى قرب دير سان كاترين ، وأرسل كتيبة صغيرة من الفرسان عدتها أربعون فارساً — على ما قيل — لمفاوضة رهبان الدير ، لإمداده بالمعلومات اللازمة والمؤونة الضرورية للزحف إلى أطراف الدلتا . غير أن الرهبان امتنعوا عن القيام بأية مساعدة ، خشية أن يصل الخبر بذلك إلى السلطات الفاطمية التى أحسنت مثواهم ومعاملتهم ، منذ سنين . لذا رجع

الفرسان الصليبيون أدراجهم ، وتصدى لهم بعض عربان الصحراء ، وأبادوهم ، ولم يبق منهم سوى اسمهم العددى — أى الأربعين — وهو اسم لمكان يعرفه أهل شبه جزيرة سينا ورهبانها حتى العصر الحاضر ، وينسبونه إلى فرسان بلدوين ، أو بردويل كما تقول المراجع العربية .

ثم رأى بلدوين أن يعيد الكرة على الأراضى المصرية من طريق آخر سنة ١١١٨ م ، فحاول كشف الطريق الشمالى إليها من ناحية العريش ورفح ، وأعدّ لذلك فرقة صليبية مكونة من ستمائة من الفرسان والرجالة . ويتضح من عدد هذه الفرقة ، كما يتضح من أنواع أسلحتها الخفيفة ، أن بلدوين لم يقصد بمشروع إغارته هذه سوى الاستكشاف فى الأراضى المصرية ، والتمهيد بذلك لحملة صليبية ثقيلة فى المستقبل القريب . وزحف بلدوين بفرقته . وأوغل بها إيغالاً جريئا ، معتمداً على سرعته وخفة حركته ، فوصل إلى رفح ليلا ، وبغتها بالإغارة عليها فى الظلام ، وهو لا يدرى أنه على موعد مع القدر . فى بضعة أسابيع . ذلك أنه أعقب إغارته على رفح بالتقدم فى اليوم التالى على طول الأراضى الساحلية السبخة حتى الفرما (بلوزيوم) ، شرقى بور فؤاد الحالية ، فذعرت حاميتها لاقترابه منها . ولاذت بالفرار . وأشعل بلدوين النار فى قلعة الفرما ، كما أشعلها فى قلعة جزيرة تنيس . وموضعها على مسافة قصيرة من مصب الفرع البلوزى للنيل فى الشمال الشرقى من بحيرة المنزلة . وأمعن بلدوين فى التمهل بجزيرة تنيس حتى بدت فرقته الصليبية كأنها فى نزهة ، وأعجبته أنواع الأسماك فى طعامه ، فأكثر من أكلها مرة بعد مرة حتى أصيب بتخمة أدت إلى مرضه . وخشى بلدوين من ازدياد هذا المرض به ، وهو بعيد عن مملكته ، فأمر فرقته الصليبية بالاستعداد للعودة ، وعاد هو معها محمولا فى محفة ، لعجزه عن السير أو الركوب . واستطاع بلدوين أن يصل فى صعوبة إلى العريش ، ومات

هناك فى أبريل سنة ١١١٨م ، وخلّف بها اسما يطلقه السكان حتى العصر الحاضر على كثير من المعالم الجغرافية المجاورة : وهى سبخة البردويل ، وشبه جزيرة البردويل ، ومحطة البردويل ، وكلها نسبة إلى الملك الذى أغار على الأطراف المصرية مرتين ، والدولة الصليبية لم تبلغ من العمر عشرين سنة . وهذا الملك هو الذى دلّل بمغامرته فى تأسيس إمارة الرها أن الحركة الصليبية تنطوى على أغراض توسعية ، وهاهو يدلل على هذه التوسعية مرة أخرى ، بإغارتيه على الأطراف المصرية ، رغبة منه — فيما يبدو — فى تحقيق فكرة أخيه جودفرى دى بويون فى الاستيلاء على مصر .

وبعد موت بلدوين الأول بثلاثة أعوام ، توفى الأفضل شاهنشاه وزير الدولة الفاطمية ، وهو الوزير الذى سيطر على شئون تلك الدولة تمام السيطرة داخليا وخارجيا مدة ربع قرن ، وهو صاحب مشروع الاتفاق الأول مع الصليبيين ، وإليه يرجع تطور السياسة الفاطمية — بعد انهيار ذلك الاتفاق — إلى عداء ضد مملكة بيت المقدس ، وإلى إرسال الحملات العسكرية الفاطمية فى البرّ والبحر لدفع القوات الصليبية عن فلسطين . وهـذا الوزير كذلك هو صاحب الفضل فى سياسة الحلف بين الدولة الفاطمية وإمارة دمشق السنية المستقلة ، وأميرها الأتابك طغتكين التركى السلجوقى ، أملا فى الهجوم على مملكة بيت المقدس من ناحيتين فى وقت واحد . ونجح الوزير الأفضل فى تحقيق هذه السياسة إلى حدّ كبير ، وتمنى طغتكين اتباعها حين صارت له مقاليد الزعامة ضد الصليبيين فى فلسطين بعد وفاة الأفضل . غير أن هذه السياسة لم تغير من الأوضاع القائمة شيئاً ، بسبب الاضطرابات الداخلية التى أقعدت الدولة الفاطمية عن القيام من ناحيتها بأى هجوم جدى ضد الصليبيين ، فضلا عن اضطرار طغتكين إلى الانصراف أحياناً كثيرة لمساعدة إمارة حلب ضد الصليبيين الشماليين . ثم توفى طغتكين كذلك ، أوائل سنة ١١٢٨ م ، دون أن

يخلف أحداً من عياره فى دمشق أو القاهرة ، لزعامة الحرب ضـ
مملكة بيت المقدس الصليبية .

ولذا تحولت حركة المقاومة ضد الصليبيين نحو محور جديد بدأ ه
الموصل وامتد إلى حلب ، وسيطر على طرفيه منذ ١١٢٩ م أتابك ترك
آخر من أتابكة السلاجقة ، وهو عماد الدين زنكى الذى لم يلبث أن أضحى
أقوى شخصية إسلامية فى زمنه .

وهنا يتطلب الموضوع وقفة قصيرة لتسجيل بعض الحقائق التى لا بـ
من معرفتها ، لفهم ما أعقب ظهور زنكى من حوادث الشرق الأوسط كله
ذلك أن الصدفة جمعت سنة ١١٣٢ م بين الأتابك عماد الدين زنكى وأخوين
كرديين هما نجم الدين أيوب وأسد الدين شيركوه ، وأولهما أبو صلاح الدين
يوسف مؤسس الدولة الأيوبية فى مصر والشام فيما بعد . ووقعت هذه
الصدفة التاريخية حين وصل زنكى إلى قرب قلعة تكريت منهزماً يريد
عبور نهر دجلة ، حتى لا يقع بجيشه فريسة باردة فى أيدى أعدائه من جنود
الخلافة العباسية والسلاجقة الناقمين عليه وقتذاك . وساعد حاكم تلك
القلعة — وهو نجم الدين أيوب — الأتابك زنكى على العبور ، والوصول
سالماً إلى الموصل ؛ ومن هذه المروءة نشأت صداقة متينة بين زنكى
وأيوب وشيركوه .

ثم حدث سنة ١١٣٨ م ما حمل الأخوين الكرديين أيوب وشيركوه على
الرحيل بأهلهما فى شىء من السرعة ليلا عن تكريت ، ويقال إن مولد
صلاح الدين يوسف بن أيوب تلك الليلة لم يؤخر ذلك الرحيل ،
مما ينبئ بأن سبباً خطيراً هو الذى دعا إلى انتقال الأخوين وأهلهما عن
تكريت . وذهب أيوب وشيركوه إلى زنكى بالموصل ، ودخلا فى
خدمته ، واشتركا فى حروبه ، وهدفها وقتذاك الاستيلاء على إمارة
دمشق ، تمهيداً لتكوين جبهة إسلامية مثلثة العواصم والقوى ، لإخراج

الصليبيين جميعاً من فلسطين والشام . ولذا زحف زنكى للمرة الثانية نحو دمشق سنة ١١٣٩ م ، على أنه قنع من ذلك الزحف باستيلاء قائديه شيركوه وأيوب على حمص وبعلبك ، دون قتال ، وكلا البلدين من أملاك دمشق . ثم لم يلبث شيركوه أن تعين حاكما على حمص ، كما تعين أيوب حاكما على بعلبك ؛ وترتب على ذلك ارتماء دمشق وإمارتها فى أحضان الصليبيين ومملكة بيت المقدس ، لعدة سنين .

على أن زنكى استطاع أن يخطو بمشروع توحيد الجبهة الإسلامية خطوة معنوية من نوع آخر ، إذ استولى على الرها بعد حصارها ، فى ديسمبر ١١٤٤ م ، وعلى سروج فى يناير سنة ١١٤٥ م ، وختم بذلك على الحركة الصليبية الضاغطة على أعالى الفرات والأطراف الفراتية . ثم توفى زنكى فى سبتمبر سنة ١١٤٦ م ، إذ اغتاله خادم له وهو على حصار قلعة جعبر الواقعة على الطريق الواصل من الفرات إلى دمشق .

وبدت وفاة زنكى فرصة لبعض أمراء البلاد الإسلامية والصليبية أن يستردوا بلادهم من أبناء البيت الزنكى وورثته ، ومن تلك البلاد بعلبك التى استردها أمراؤها الدمشقيون . ولم يقو حاكمها نجم الدين أيوب على دفعهم عنها ، ففضل الرضوخ للأمر الواقع ، بأن ظل فى بعلبك والياً تابعا لإمارة دمشق ، ولم يلبث أن أوغل فى سياستها الداخلية والخارجية . أما شيركوه فانتقل إلى خدمة نور الدين محمود بن زنكى بحلب ، ولم يلبث هو الآخر أن صار القائد العام فى الدولة النورية الممتدة من الرها إلى حماة وحمص ، وهى الدولة التى نشأ فيها صلاح الدين يوسف الأيوبى .

وفى تلك الأثناء وصلت الحملة الصليبية المعروفة بالثانية إلى ساحل الشام ، بقيادة لويس السابع ملك فرنسا ، وغرضها الذى تحركت من أوربا

من أجله استرداد الرها من أيدى ورثة زنكى . لكن هذه الحملة قررت فى حمق عجيب ، بتأثير من الصليبيين المحليين ، أن تحاول الاستيلاء على دمشق ، وهى الإمارة الصديقة عموماً للصليبيين حتى وقتذاك . ولذا حاصرت جيوش هذه الحملة دمشق حصاراً فجائيا ، ودخلت ضواحيها فى غير خجل ، ثم اضطرت هذه الجيوش إلى الرجوع عن الحصار نهائيا فى يوليه سنة ١١٤٨ م ، بعد أن أوضحت للعالم الإسلامى قيمة الصداقة الصليبية ، كما أوضحتها سابقاً أيام الوزير الفاطمى الأفضل شاهنشاه والحملة الصليبية المعروفة بالأولى .

وأثارت هذه الحماقة الصليبية نور الدين نحو محاولات متلاحقة للاستيلاء على دمشق ، سواء عن طريق الزحف المباشر ، أو التحريض الداخلى ، أو المفاوضة . وبينما هو يتحين الفرص لهذه المحاولات المتنوعة ، سنة بعد أخرى ، كان بلدوين الثالث ملك بيت المقدس يعمل بدوره للاستيلاء على عسقلان ، وهى آخر الممتلكات الفاطمية بفلسطين . وأرسل الوزير الفاطمى وقتذاك ، وهو على بن السلار ، الفارس العربى الشهير أسامة بن منقذ الشيزرى إلى حلب ، لطلب المساعدة الحربية من نور الدين . غير أن أسامة وجد نور الدين مشغولا بإحدى محاولاته نحو دمشق ، فعاد من عنده بغير نتيجة[1] . وأخيراً سقطت عسقلان فى أيدى الصليبيين ، بعد حصار قصير فى أغسطس سنة ١١٥٣ م ، وولى بلدوين الثالث عليها أخاه أمورى كونت يافا ، وصار أمورى بذلك كونت يافا وعسقلان .

وجعـــل نور الدين من سقوط عسقلان سبباً لتشديد محاولاته نحو دمشق ، وأمعن فى تشديده عليها حتى سلمت له ودخلها بنفسه فى أبريل

---

(١) انظر أسامة بن منقذ : كتاب الاعتبار – نشر فيليب حتى – ، ص ٦ – ١٤ ، حيث شرح هذا الفارس العربى المعروف بنشاطه فى الدوائر الإسلامية والصليبية تفاصيل مهمته هذه شرحاً وافياً .

سنة ١١٥٤ م ، بفضل جهود دبلوماسية ماهرة قام بها كل من الأخوين أســد الدين شيركوه ونجم الدين أيوب ، هذا بصفته قائد الجيوش النورية ، ورسول نور الدين إلى الدماشقة ، وذاك بصفته والى بعلبك التابعة لأمراء دمشق .

وأخذت الأوضاع والاتجاهات السياسية تتغير تغيراً كبيراً بسبب ما حدث بعسقلان ودمشق ، إذ انتهت ممتلكات الدولة الفاطمية بفلسطين بذهاب عسقلان ، وتبين أن الفاطميين لم يعودوا قادرين على الوقوف فى وجه جيوش مملكة بيت المقدس ، وأنهم باتوا فى حال داخلية طافحة بالفتن والمؤامرات . ثم إن مملكة بيت المقدس أضحت مسيطرة على عموم فلسطين ، وفى نية ملكها بلدوين الثالث أن يجرب حظه جنوباً ، بالزحف نحو الأطراف المصرية . أما الدولة النورية فغدت كما أنشأها نور الدين مثلثة العواصم ، وهى بحكم توحيدها أقوى كثيراً من مملكة بيت المقدس .

وفى هذه الدولة النورية بلغ الأخوين أسد الدين شيركوه ونجم الدين أيوب ذروة النفوذ والمجد ، إذ تعين شيركوه نائباً للسلطان فى العاصمة حلب ، وصار له أقطاع كبير بحمص ، كما تعين نجم الدين أيوب حاكماً على دمشق ، وميزه نور الدين على سائر رجال دولته بإعطائه حق الجلوس فى حضرته ، رعاية لسابق مودته وعلاقته بأبيه زنكى . وأما الشاب صلاح الدين يوسف بن نجم الدين أيوب ، وهو الذى سوف يدور حوله مستقبل الحوادث ، فليس يوجد بالمراجع الأصلية المعروفة ما يشرح تفاصيل حياته وقتذاك ، ما عدا أنه عاش فى البلاط النورى بدمشق وحلب ، وأنه تقلب فى بيئة عالية ، ولا بد أنه قضى معظم أيامه فى دراسة علوم طبقته الاجتماعية وفنونها . ويستخلص كذلك مما هو معروف من إشارات مبعثرة فى ذلك الصدد ، أن السلطان نور الدين عيّن الشاب صلاح الدين ، وهو فى الحادية والعشرين من

عمره ، أى سنة ١١٦٠ م ، فى وظيفة شحنة دمشق ، وهى وظيفة رئيس الشرطة والأمن بها .

وفى تلك السنة كانت أخبار المتاعب الداخلية فى الدولة الفاطمية تملأ الآذان ، واستغل بلدوين الثالث هذه الحال بالتهديد بغزو البلاد المصرية ، ولم يرجع عن تهديده إلا بعد أن وعده الوزير ابن رزيك ، باسم الخليفة الطفل العاضد ، بجزية سنوية مقدارها ٠٠٠ ر ١٦٠ دينار . ومات بلدوين الثالث سنة ١١٦٢ م ، وتولى حكم مملكة بيت المقدس بعده أخوه أمورى الأول ، دون أن تقوم القاهرة بدفع شىء من هذه الجزية .

ثم ازدادت أحوال الخلافة الفاطمية سوءاً بمقتل الوزير ابن رزيك وابنه ، وحلول شاور حاكم الصعيد فى الوزارة ، وهروب شاور من القاهرة بعد عزله من الوزارة على يد حاجبه ضرغام . ولذا اتخذ أمورى الأول من مسألة الجزية ذريعة ، وأغار فجأة على الأطراف المصرية ، فعبر برزخ السويس فى سبتمبر سنة ١١٦٣ م ، ووصل إلى مصب الفرع البلوزى من النيل ، وحاصر الفرما (بلوزيوم) . وتصدى له ضرغام ، وقطع بعض جسور الفرع البلوزى ، والنيل وقتذاك فى أواسط أيام الفيضان . فاضطر أمورى إلى التقهقر والرجوع أدراجه إلى فلسطين .

وبعد ذلك بقليل ظهر الوزير شاور فى البلاط النورى بدمشق ، وطلب من نور الدين أن ينجده بحملة يستعيد بها مركزه فى القاهرة ، مقابل أربعة شروط مغرية ، وهى أن يدفع شاور نفقات الحملة المطلوبة ، وأن ينزل عن بعض الأطراف المصرية لنور الدين ، وأن يعترف بسلطان نور الدين على مصر عامة ، وأن يؤدى جزية سنوية للبلاط النورى ، مقدارها ثلث الإيرادات المصرية . ومع هذا كله تردّد نور الدين ، ثم استجاب أخيراً فى أبريل سنة ١١٦٤ م ، وأرسل مع شاور أعظم أصحاب ثقته وقتذاك ، وهو أسد الدين شيركوه ، على رأس حملة كبيرة إلى مصر .

وذهب مع هذه الحملة صلاح الدين يوسف بن أيوب ، وعمره وقتذاك سبع وعشرون سنة . وعلم ضرغام بما استقر عليه الاتفاق بين شاور ونور الدين ، فأرسل إلى أمورى يطلب كذلك منه النجدة ؛ وتحركت حملة صليبية لهذا الغرض نحو مصر . وهكذا عمد كل من المتنافسين الاثنين على الوزارة الفاطمية إلى اللعب بالنار ، وتغالى كل منهما فى اللعب بها حتى التهمت كلا منهما بدوره ، مع العلم بأن هذه النار هى التى أضاءت الطريق لصلاح الدين يوسف ابن أيوب . ومهّدت لظهوره . وهكذا كذلك تطورت السياسة النورية والصليبية إلى سباق ميدانه الرئيسى شرق الدلتا ، من الفرما إلى القاهرة ؛ وفرسانه نور الدين وشيركوه وصلاح الدين وأمورى ، وعدة من بارونات مملكة بيت المقدس . ووراء هؤلاء وأولئك شاور من ناحية ، وضرغام من ناحية أخرى ؛ وأهمهم جميعاً صلاح الدين وأمورى ، وكلاهما دون الثلاثين من العمر . ومعنى هذا أن صار محتوماً على مصر أن تظل جزءاً جوهرياً لمعترك الحروب الصليبية ، لا هامشاً عرضياً من هوامشه ، وأن تغدو أخبارها جديرة بالتفصيل والتحليل ، ما بقى ذلك المعترك الصليبى مفتوحاً لحركات التسابق والتنافس بين الصليبيين والنوريين ، داخل الأراضى المصرية .

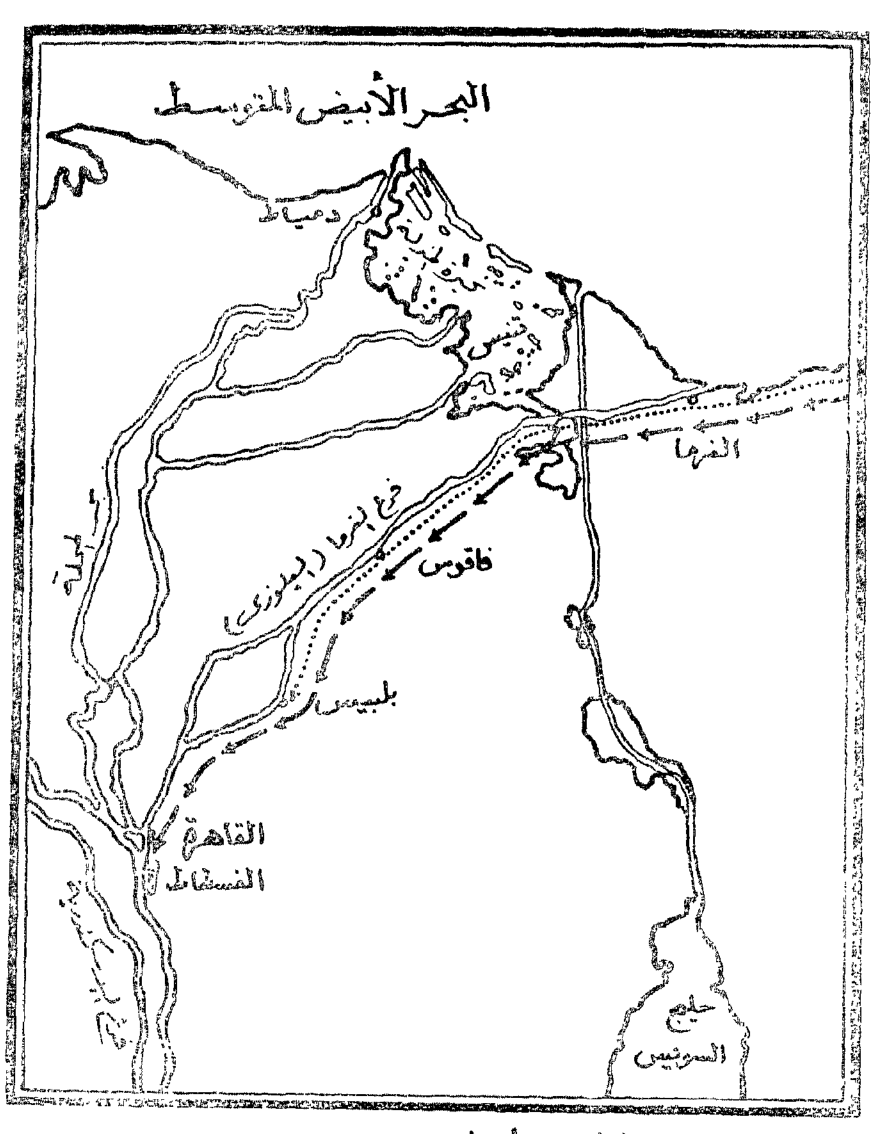
واستطاعت الحملة النورية بقيادة شيركوه أن تصل إلى الفرما ، قبل أن يتمكن أمورى من الوقوف فى طريقها أو اللحاق بها . وانهزم قائد الحامية الفاطمية المرابطة بالفرما ، وزحف شيركوه نحو القاهرة ، وضرب معسكره عند أسوارها . وبذا استعاد شاور مركزه ، ولا سيما بعد مقتل ضرغام ، ورجعت إليه الوزارة ، وصار صاحب السلطان فى الدولة الفاطمية مرة أخرى . غير أنه نكث بتعهداته كلها ، وأبى أن يسمح لشيركوه بالدخول إلى القاهرة ، بل طلب إليه أن يعود إلى الشام .

ورفض شيركوه الرضوخ لهذه المعاملة ، فتراجع قليلا إلى الوراء ، واحتل بلبيس ، علماً منه بأنها مفتاح الطريق إلى القاهرة . عند ذلك انقلب شاور إلى الجانب الصليبي ، واستنجد بالملك أمورى ، وبذل له وعوداً عريضة على عادته ، ومنها نفقات الحملة الصليبية كلها . ولبّى أمورى الدعوة ، ووصل إلى فاقوس الحالية في أغسطس سنة ١١٦٤ م ، حيث انضم إلى قوات شاور ، وتقدم الاثنان إلى حصار بلبيس[1] . غير أن شيركوه استطاع أن يقاوم الحصار ثلاثة أشهر طويلة ، واضطر أمورى أخيراً إلى رفع الحصار والاتفاق على رحيل النوريين والصليبيين معاً عن الأراضي المصرية ، في وقت واحد . وكان منبع اضطرار أمورى إلى هذا الاتفاق وصول الأخبار إليه بقيام نور الدين بهجوم على الأراضي الصليبية بشمال الشام ، أملا في تخفيف الضغط عن شيركوه بمصر ؛ وهذه المناورة هي التي التزمها نور الدين في كثير من حركاته في السنوات التالية ، حرصا منه — فيما يبدو — على الاشتراك بنصيب شخصي في الاستيلاء على مصر .

لم يكن من المنتظر بعد ذلك أن يخلو الجو للوزير شاور في داخل الدولة الفاطمية أو خارجها ، إذ أخذ أمورى يغرى رجال الحكم في مملكته بفوائد الاستيلاء على مصر ، ويفاوض من أجل ذلك إمبراطور القسطنطينية مانويل كومنين . كما أخذ شيركوه من ناحيته يغرى نور الدين بنفس المشروع . والواقع أن شيركوه منذ رجوعه من بلبيس لم يبرح يعمل على إقناع نور الدين بضرورة العودة إلى غزو مصر ، قبل احتمال تغلب شاور على صعوباته الداخلية ، وقبل إمكان هجوم أمورى فجأة على الأراضي المصرية مرة أخرى . واستطاع شيركوه أخيراً أن يحصل من نور الدين على الإذن له بتجهيز حملة جديدة للزحف على مصر أواخر سنة ١١٦٦ م ، بعد أن أقنع الخليفة العباسي ببغداد بإعلان هذا الزحف جهاداً سنّياً ضد الخلافة الفاطمية الشيعية .

---

(١) انظر الخريطة رقم ١ ، وهي المقابلة لهذه الصفحة .



الخريطة رقم ١

حملة أمورى الأولى على مصر ، سنة ١١٦٤ م .

وخرج شيركوه من دمشق بحملته الثانية هذه على مصر في يناير سنة ١١٦٧م ، وصحبته كذلك صلاح الدين يوسف . ولم يكن لدى شاور إلا أن يستنجد بالملك أموري ، فأنجده أموري بحملة صليبية مكونة من جيش مملكة بيت المقدس بأكمله . ووصلت الحملتان النورية والصليبية إلى الأراضي المصرية في وقت واحد تقريبا ، دون أن يرى أحد الفريقين غريمه ، وذلك لأن كلاً من الجيشين زحف نحو القاهرة عن طريق مخالف . عبر مديرية الشرقية الحالية . ثم سار شيركوه جنوبا حتى نزل على إطفيح ، الواقعة على النيل قبالة العياط الحالية ، على مسافة أربعين كيلو متراً تقريباً جنوبي القاهرة ، وعبر النيل عندها ، ومن هناك زحف شمالا حتى وصل إلى الجيزة ، حيث أقام معسكره . أما أموري فسار على طريق فاقوس ، وبلبيس ، واستقبله شاور خارج القاهرة ، وأنزله في موضع مختار على الشاطئ الشرقي للنيل ، في منتصف الطريق بين القاهرة والفسطاط . وهناك عقد شاور مع أموري اتفاقا خلاصته أن تدفع الخلافة الفاطمية لمملكة بيت المقدس مائتي ألف دينار معجلة ، ومثلها فيما بعد ، على شرط أن يقطع أموري على نفسه ألا يرحل إلى مملكة بيت المقدس إلا بعد إجلاء شيركوه عن مصر.

وأرسل أموري صحبة شاور سفيرين من رجاله العارفين باللغة العربية ، وهما هيو حاكم قيصرية وجودفري رئيس هيئة الفرسان الداوية ، لعقد معاهدة رسمية بهذه الشروط ، مع الخليفة العاضد نفسه ووصل السفيران إلى القاهرة ، ودخلا القصر الفاطمي الكبير ، واستقبلهما الخليفة الطفل ، وصادق على المعاهدة مصافحة بالأيدي ، وهو جالس على عرش كبير من الذهب مرصع بالجواهر والأحجار الثمينة ، وحول عمامته الصغيرة نقاب منسدل يخفي وجهه تماماً[1] .

---

(١) (William of Tyre : History .... ed. Babcock, II, pp. 320—321) ، حيث يوجد وصف رائع لشخص الخليفة العاضد ، وما شهده السفيران الصليبيان بالقصر الفاطمي من ذخائر ومراسيم . انظر كذلك المرحوم زكي محمد حسن : كنوز الفاطميين ، ص ٧١ — ٧٦ ، وما به من مراجع .

أما الجيشان النورى والصليبى فظلا متواجهين على شاطئ النيل مدة شهر تقريباً ، ثم قرر أمورى ومعه شاور أن يعبر الجيش الصليبى ، وهو الأكبر عددا ، إلى برّ الجيزة ، عن طريق جزيرة الطين (جزيرة الذهب الحالية) ، ولم يلبث أن هجم بغتة على فرقة من جيش شيركوه بالجيزة . عند ذلك رأى شيركوه أن يتقهقر جنوبا حتى جنوبى المنيا الحالية ، وعبر النيل إلى مدينة الأشمونين ، وعسكر بها لمدة قليلة ، وفى حسابه أن يرجع بجيشه فى سرعة إلى برزخ السويس ، ليقطع خط الرجعة تماما على أمورى وجيشه . غير أن أمورى لحق بشيركوه قرب الأشمونين عند بلدة اسمها البابين ، وهناك دارت معركة بين الطرفين فى مارس سنة ١١٦٧ م ، وكان للشاب صلاح الدين يوسف بن أيوب من النصر فيها نصيب ملحوظ . ولم يشأ شيركوه بعد ذلك أن يزحف شمالا نحو القاهرة ، بل عبر النيل مرة أخرى ، وقصد إلى الفيوم ، ومنها إلى الإسكندرية ، وهما من الأقاليم الكارهة للوزير شاور وسياسته ، والخلافة الفاطمية وميولها الصليبية[١] .

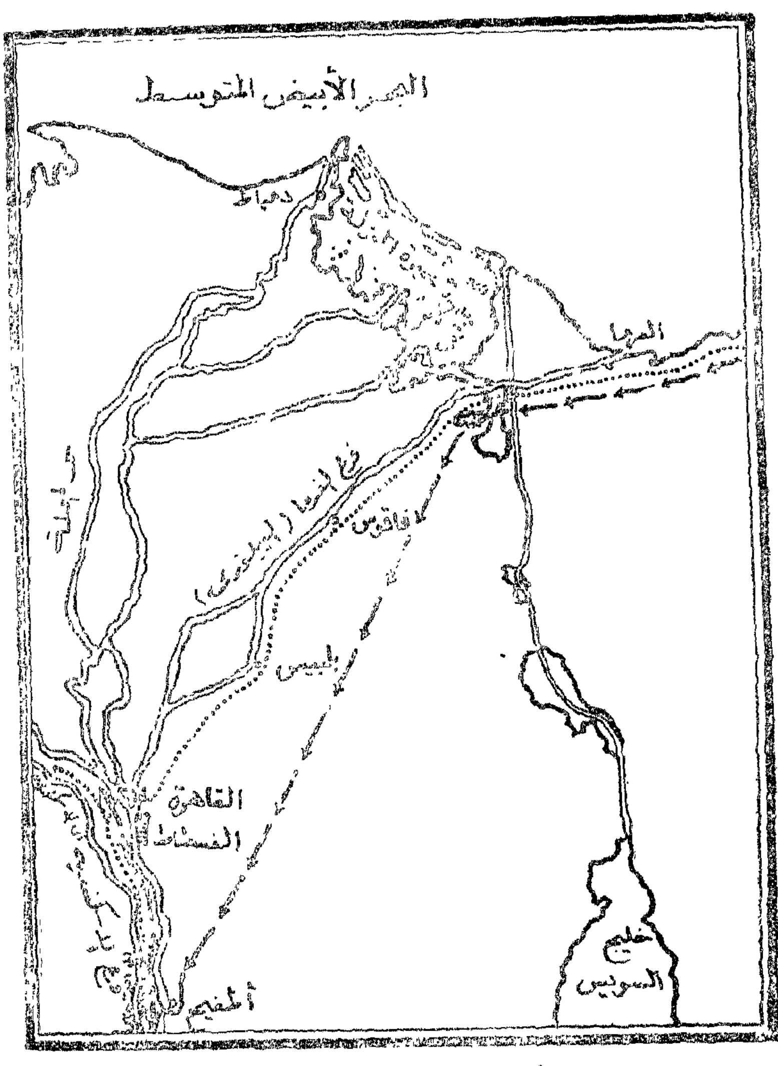
وأعطت هذه الحركات الطويلة أمورى وشاور فرصة لتنظيم قوات صليبية فاطمية جديدة للزحف على الإسكندرية ، وحصار شيركوه وجيشه بها . واشتركت فى ذلك الحصار جنود وسفن صليبية وصلت خصيصاً إلى الشواطئ المصرية ، وبذا تم حصار الإسكندرية براً وبحراً . ولذا لم يلبث شيركوه أن أحس بحرج موقفه ، فترك صلاح الدين لمقاومة الحصار ، وخرج خلسة من الإسكندرية فى مايو سنة ١١٦٧ م ، يريد أن يجمع من الصعيد مالا ورجالا لتكوين قوة تكفل له الوقوف فى وجه أمورى وشاور ، فضلا عن رفع الحصار عن الإسكندرية . وأرسل شيركوه فى نفس الوقت يعرض على أمورى فكرة جلاء الجيشين النورى والصليبى

---

(١) انظر الخريطة رقم ٢ ، ص ١٩ .

عن مصر فى غير قيد أو شرط ، ما عدا الحصول من شاور على وعد بعدم الانتقام من أهل الإسكندرية وغيرها من البلاد التى عاونت الجيش النورى بالرجال والأموال . ووافق أمورى على ذلك ، بعد أن وصل إليه الخبر بقيام نور الدين بحركات حربية ضد بعض المواقع الصليبية بالشام ، على عادته . ثم أخذ الجيشان النورى والصليبى فى الجلاء عن الأراضى المصرية فى أغسطس سـنة ١١٦٧ م ، فأخلى صلاح الدين الإسكندرية ولحق بعمه ، ووصل الاثنان معاً إلى دمشق أواسط الشهر التالى . أما أمورى فلم يترك مصر إلا بعد أن عقد مع شاور اتفاقية مكتوبة ، ومن شروطها دفع جزية سنوية مقدارها مائة ألف دينار للصليبيين ، وقبول معتمد صليبى مقيم بالقاهرة على رأس حامية صليبية صغيرة تتوزع بين أبوابها . وبذا خالف أمورى مبدأ الجلاء بلا قيد ولا شرط ، على عكس ما فعل شيركوه ، وخلق بهذه المخالفة مشروع سباق نورى صليبى ثالث ميدانه الأراضى المصرية ، كالمعتاد :

والواقع أن قصة السباق لم تتم فصولاً برحيل أمورى وشيركوه للمرة الثانية عن مصر ، لأنه فضلاً عن الاتفاقية المكتوبة ونتائجها المستقبلة ، أخذ المحيطون بالملك أمورى فى الإلحاح عليه منذ أواسط سنة ١١٦٨ م بضرورة الاستيلاء على مصر ، قبل فوات الفرصة ، لأن الدولة الفاطمية توشك على الانهيار ، ولأن شاور لم يقم بدفع الجزية المقررة ، وهو على أية حال غير مأمون الجانب ، ولأن أخباراً وصلت من عند رجال الحامية الصليبية بالقاهرة تنبئ بأن ابن شاور — واسمه كامل — يفاوض شيركوه فى المجىء إلى مصر ، وفى الزواج من أخت صلاح الدين . واقتنع أمورى بهذه الأسباب ، وأرسل إلى إمبراطور القسطنطينية مانويل كومنين يعرض عليه الاشتراك فى حملة مزدوجة على مصر ، وذهب المؤرخ الصليبى الشهير وليام الصورى للمفاوضة فى ذلك ، وعاد من القسطنطينية



خط سير الصليبيين
" جيش نور الدين

الخريطة رقم ٢

حملة أمورى الثانية على مصر ، سنة ١١٦٧ م .

فى خريف سنة ١١٦٨ م ، بمعاهدة خلاصتها أن يقوم الملك والإمبراطور بالاستيلاء على مصر ، واقتسامها فيما بينهما[١] .

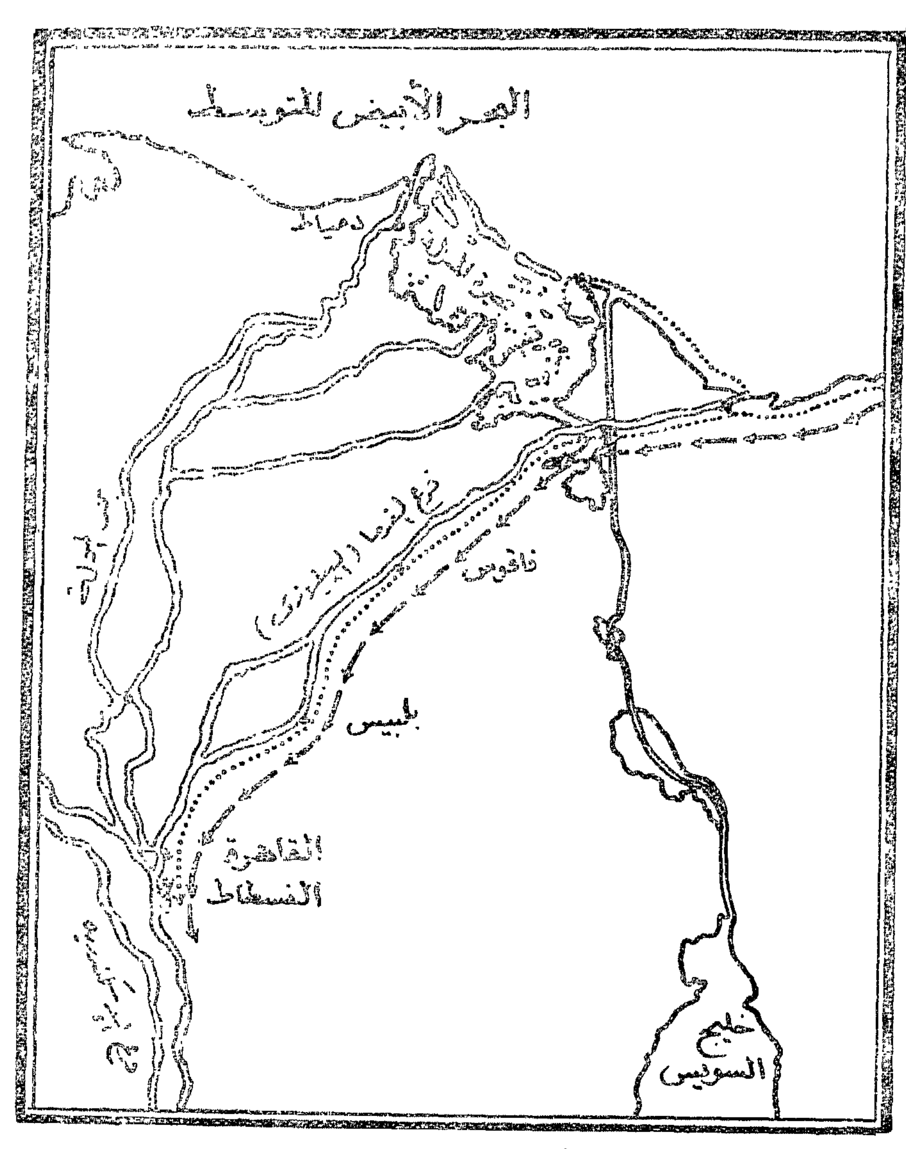
غير أن رجال مملكة بيت المقدس لم ينتظروا حتى عودة وليام الصورى من القسطنطينية ، بل حملوا أمورى على المسير سريعاً بحملته الثالثة إلى مصر ، فوصل إلى بلبيس فى أواخر أكتوبر سنة ١١٦٨م . وانهارت حامية بلبيس بقيادة طى بن شاور أمام هجوم أمورى . واستباحت العساكر الصليبية بلبيس نفسها ، وأحدثت السفن الصليبية بمدينة تنيس ببحيرة المنزلة مثلما أحدثت العساكر بأختها بلبيس . ثم زحف أمورى نحو القاهرة ، وأقام معسكره عند الفسطاط ، على حين عسكرت فرقة صليبية عند ضاحية المطرية الحالية ، قريبا من المسلة المعروفة هناك . وخشى شاور أن يعجز عن الدفاع عن الفسطاط ضد هذا الزحف الصليبى السريع ، فأشعل فيها نارا لا تزال آثارها باقية فى خرائبها حتى العصر الحاضر ، وأرسل إلى أمورى أنه سوف يضرم النار كذلك بالقاهرة ، إذا حاول الصليبيون الاقتراب منها . غير أن أمورى أرسل إلى شاور يعلمه برغبته فى وقف القتال ، بشرط الحصول على مال عاجل . ووجد شاور فى هذه الرغبة وسيلة لكسب الوقت ، فأخذ فى المساومة على المال الذى يستطيع تأديته فورا ، وقام بدفع مائة ألف دينار فدية لفك ابنه طى من الأسر ، ووعد بدفع مبالغ أخرى فى المستقبل القريب[٢] .

وكما ألحّ بارونات مملكة بيت المقدس على أمورى بضرورة الزحف سريعاً على مصر ، ألح شيركوه كذلك على نور الدين لذلك الغرض ، ولا سيما بعد أن أجرى معه كامل بن شاور مفاوضات سرية جذابة . ولم يكن شاور راضيا عن مفاوضات ابنه ، خوفا من شيركوه وأطماعه العلنية ، لكنه

---

(١) لمتابعة هذه السفارة والمعاهدة التى جاء بها وليام الصورى من عند الإمبراطور ، راجع (William of Tyre : Op. Cit. II. pp. 347—851) .

(٢) انظر الخريطة رقم ٣ ، وهى المقابلة لهذه الصفحة .



.... خط سير الصليبيين

←—— ←—— « « جيش نور الدين

الخريطة رقم ٣

حملة أمورى الثالثة على مصر ، سنة ١١٦٨ م .

وافق عليها مكرها آخر الأمر ، وكتب إلى حلب باسم الخليفة العاضد يطلب النجدة مرة أخرى من نور الدين ، مقابل ثلث خراج مصر ، وإقطاعات ضخمة لقادة الجيش النورى . ولم يكن ثمة مجال للتردد أو الإبطاء ، فأرسل نور الدين يستدعى شيركوه من حمص ، فوجده بحلب كأنه هو على موعد معه . ثم جهز نور الدين شيركوه بجيش كبير عدته ثمانية آلاف فارس ، وأمدّه بمال مقداره مائتا ألف دينار لنفقات الحملة ، وأمر صلاح الدين بمرافقة عمه . ويقال إن صلاح الدين تمنع كثيراً فى قبول الذهاب مع شيركوه تلك المرة الثالثة ، بسبب ما لقيه من مصاعب فى حصار الإسكندرية ، أثناء الحملة السابقة .

ووصل شيركوه بالحملة النورية الثالثة إلى قرب بلبيس ، حيث خرج إليه أمورى وفى أمله أن يصطدم به ، ويقطع عليه طريق الزحف نحو القاهرة . غير أن شيركوه استطاع أن يفلت منه ، وأن يصل إلى قرب القاهرة فى أوائل يناير سنة ١١٦٩ م ، وانضم إلى قوات شاور ، وعسكر أخيرا عند جهة باب اللوق ، على مسافة قصيرة من الأسوار القاهرية الفاطمية . وهكذا بات أمورى فى مأزق ، بعد أن خدعه شاور بوعوده المالية ، وبعد أن غلبه شيركوه بمهارته الحربية ، ولم يبق لديه إلا أن يعود أدراجه إلى فلسطين .

ثم دخل شيركوه القاهرة ، وغرضه الرسمى إنقاذ شاور والدولة الفاطمية ، وهدفه الحقيقى الاستيلاء على مصر ، وذهب تواً الى القصر الفاطمى ، حيث فرح به الخليفة الطفل وشكره ، وبالغ شاور فى إكرامه . لكنه لم يرق فى عين شاور أن تنتهى الحوادث إلى ما انتهت إليه من وجود الجيش النورى معسكراً على مسافة قصيرة من أسوار القاهرة ، واستئثار قائده بعطف الخليفة ، فعمد إلى سجيته من المراوغة والنفاق ، ريثما يحزم تدبيره للتخلص من هذه الحال . ولم يكن ذلك خافياً على شيركوه ، ولا سيما حين اقترح عليه شاور ضرورة اقتسام منصب الوزارة الفاطمية بالقاهرة ، بدلا من الوفاء بالوعود المالية والإقطاعية المتفق عليها . وأشار صلاح الدين

على عمه بوجوب التخلص من شاور فى سرعة ، والحصول على الإذن بذلك أولا من الخليفة العاضد . واضطلع صلاح الدين ، وخال له من قادة الجيش النورى اسمه جورديك ، بتدبير وسيلة للقبض على شاور ، وتم ذلك على مقربة من قبر الإمام الشافعى ، فى أواسط شهر يناير المتقدم ، ولم تمض ساعة حتى صدر أمر الخليفة الطفل بقتل وزيره شاور الذى ملأت أخبار مراوغاته التاريخ المصرى الفاطمى ، لعدة سنين .

وبعد بضعة أيام من مقتل شاور تولى شيركوه الوزارة بدعوة من الخليفة العاضد ، دون أن يخشى خاشية من ناحية أمورى والصليبيين ، اعتماداً منه على كراهية أهل مصر للتدخل الصليبى الذى جلبته سياسة شاور إلى البلاد . ولم يجعل شيركوه من التناقض بين قيادة الجيش النورى ووزارة الخلافة الفاطمية منبعاً لحيرة ، بل سلك سلوكاً متزناً نحو الخليفة العاضد الذى استوزره ، واقتصر على إباحة دار شاور للنهب العام ، وتوزيع إقطاعات الأسرة الشاورية الضخمة على رجال الجيش النورى ؛ وبذا لقى تعيين شيركوه فى الوزارة صمتاً راضياً فى القاهرة والأقاليم . غير أن شيركوه الوزير لم يتمتع طويلا بجاه منصبه ، ولم يعش ليرى ما سوف يتمخض عنه منطق الحوادث ، إذ توفى أواخر مارس سنة ١١٦٩ م ، وهو فى غير شك صاحب الفضل فى إدراك أهمية مصر ومواردها الاقتصادية والبشرية فى مشكلة إخراج الصليبيين من الشرق ، وسياسته هذه هى التى جنى ثمارها ابن أخيه وخليفته فى قيادة الجيش النورى والوزارة الفاطمية بالقاهرة .

وكان من المعقول أن يجىء صلاح الدين بعد عمه شيركوه فى قيادة الجيش النورى بالقاهرة ، ولا سيما أنه دل على مهارة حربية ملحوظة فى معظم الحملات النورية الثلاث ، فضلا عن أنه ناب عن عمه فى القيادة الفعلية أكثر من مرة ، خلال تلك الحملات . غير أنه لم يكن من المنتظر أن يقع اختيار

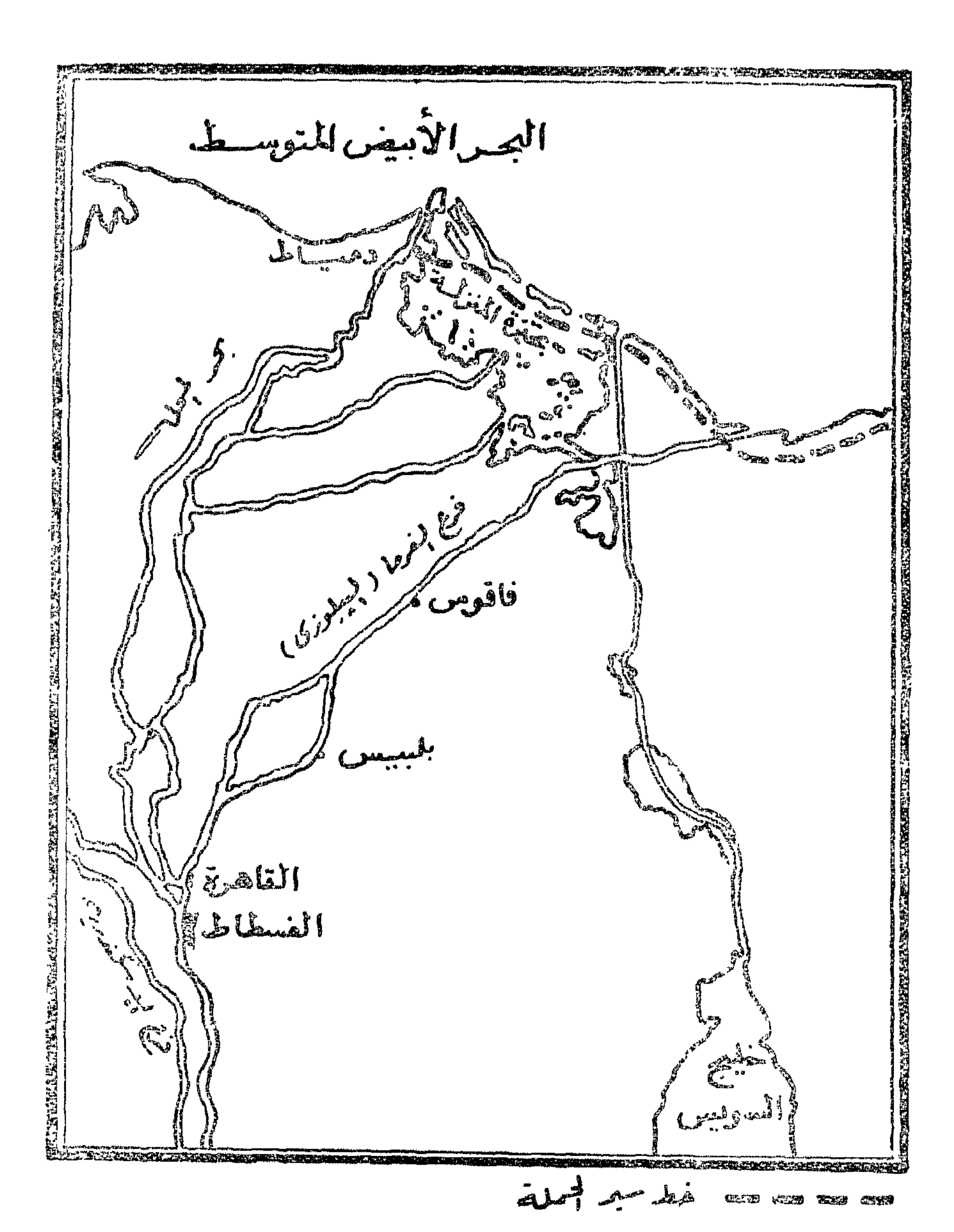
الخليفة العاضد على صلاح الدين لمنصب الوزارة ، وهو أقل رجال الجيش النورى سناً ، وأقصرهم خبرة بالمسائل السياسية والإدارية ، لولا أن رجال القصر الفاطمى ظنوا أن فى هاتين الصفتين السالبتين ما سوف يجعل صلاح الدين كثير الاعتماد عليهم فى شئون الحكم . ولذا صار صلاح الدين وزيراً للخلافة الفاطمية فضلا عن وظيفة القائد العام للجيش النورى ، ولم يلبث أن خيّب الظنون المنتظرة منه ، بإخماده حركات الفاطميين من رجال القصر والجيش فى سرعة خارقة ، كما خيّب آمال أمورى ومحاولته الرابعة للاستيلاء على مصر (١) .

وتعد هذه المحاولة الأمورية الرابعة نقطة تحول كبرى ، لا فى تاريخ المحاولات الصليبية للاستيلاء على مصر ، بل فى تاريخ ظهور صلاح الدين الأيوبى ، وتأسيس الدولة الأيوبية فى القاهرة . والواقع أن مقدمات هذه المحاولة الرابعة وحوادثها ونتائجها تكاد تفوق فى أهميتها جميع المحاولات الأمورية السابقة ، إذ أخذ أمورى منذ عودته الفاشلة إلى بيت المقدس يدعو لحملة صليبية تأتى إليه من غرب أوربا ، لمساعدته على إعادة الكرة على البلاد المصرية ، وبذا جعل مشروع الاستيلاء على مصر هدفاً صليبياً أوربياً عاماً ، لا حلماً محلياً خاصاً من أحلام مملكة بيت المقدس . ثم أدرك أمورى أن ملوك غرب أوربا فى شغل عنه بمشاكلهم الداخلية التى لا تنقطع ، فانقلب إلى تجديد مشروع القيام مع إمبراطور القسطنطينية مانويل كومنين بحملة مزدوجة على مصر ، ووافقه الإمبراطور ، وأمده بقوة بحرية بيزنطية كبيرة ، وصفها أحد المؤرخين الأوربيين بأنها كانت " أرمادا " ، إشارة إلى كثرة عدد سفنها .

وعلم صلاح الدين بقرب زحف هذه الحملة المزدوجة إلى مصر ، على طريق الفرما ثم بلبيس كالمعتاد ، كما علم بمفاوضات سرية بين أمورى ورجال القصر الفاطمى ، لانضمام الحرس الخليفى من النوبيين والأرمن إلى العسكر

---

(١) انظر الخريطة رقم ٤ ، وهى المقابلة لهذه الصفحة .



الخريطة رقم ٤

حملة أمورى الرابعة على مصر ، سنة ١١٦٩ م .

الصليبي ، عند أول فرصة . وكان هذا هو السبب فى سرعة قمع صلاح الدين لحركات رجال القصر الفاطمى والجيش بالقاهرة ، وتركيز معظم قواته النورية فى بلبيس ، مع بقائه بجزء منها بالقاهرة . غير أن الحملة المزدوجة اتخذت طريقا جديداً فى الأراضى المصرية ، بفضل ما توفر لها من سفن بيزنطية عديدة ، إذ زحفت من الفرما غرباً على طول الساحل حتى وصلت إلى دمياط ، أواخر أكتوبر سنة ١١٦٩ م ، وهى وقتذاك من أحصن الحصون الفاطمية المصرية ، بما لها من سلسلة حديدية مانعة عبر النيل ، وأسوار وأبراج ضخمة متينة البنيان . وفوجئ صلاح الدين بهذه المحاولة البرمائية الضخمة ، وأمد الحامية الدمياطية بالجند والمؤونة فى سرعة ، وكتب بنفسه إلى نور الدين يستغيث به ، فأغاثه بفئة كبيرة من الجند وكمية غير قليلة من السلاح والمال ، فضلا عن إغارة نورية على الكرك كالمعتاد .

وشدد أمورى الحصار على دمياط ، وأخذ فى بناء أبراج متحركة للرمى منها على أسوارها . ومع هذا خابت هذه الحملة الأمورية الرابعة ، برغم استمرارها على حصار دمياط خمسين يوماً ، ومرجع ذلك استماتة الحامية الدمياطية فى الدفاع ، واستمرار الأمداد الواردة إليها من عند صلاح الدين ، وعجز أمورى عن تنسيق أعمال الحصار فى البر والنهر ، لانعدام الثقة بينه وبين قائد السفن البيزنطية . وأخيراً قرر أمورى رفع الحصار ، وانجلت حملته المزدوجة عن دمياط ، بعد أن أحرقت أدواتها الحربية الثقيلة ، حتى لا تقع غنيمة باردة فى يد صلاح الدين ؛ وعاد أمورى إلى بيت المقدس أواخر ديسمبر سنة ١١٦٩ م .

على أن موضع الأهمية الكبرى فى فشل هذه الحملة بالذات هو ما صار لصلاح الدين الأيوبى من مكانة مرموقة وسلطان فى قلوب أهل مصر ، إذ اقتنع الخاص والعام بأن فى استطاعته حماية البلاد من إغارة المغيرين ، وبأن الدولة الفاطمية سوف تعتمد عليه كل الاعتماد . واطمأن صلاح الدين إلى

متانة مركزه ، سواء عند سيده نور الدين ، أو لدى الخليفة الطفل العاضد ، وأرسل إلى نور الدين فى أبريل سنة ١١٧٠ م يطلب حضور والده نجم الدين أيوب وسائر أهله إلى القاهرة ، وغدا بمقدمهم وتوزيع بعض الوظائف الرئيسية عليهم صاحب السيطرة التامة فى مصر . ثم دلل صلاح الدين على متانة مركزه دلالة معنوية بالإغارة على أطراف مملكة بيت المقدس ومهاجمة العريش ، فضلا عن الاستيلاء على أيلة على خليج العقبة ، أواخر تلك السنة ، أى ١١٧٠ م ، وكلاهما وقتذاك من ممتلكات الصليبيين . وبذلك افتتح صلاح الدين سلسلة من عمليات حربية هجومية ضد مملكة بيت المقدس ، على مقياس يشبه ما كان عليه الحال أيام الوزير الفاطمى الأفضل شاهنشاه .

ثم حدث أوائل سنة ١١٧١ م أن صارت الموصل وبلاد الجزيرة كلها فى قبضة نور الدين ، وغدا اللواء النورى مرفرفا على دولة مخمسة العواصم ، وهى دمشق وحلب والرها والموصل والقاهرة ، كما غدا نور الدين أكبر ملوك المسلمين المتمتعين ببيعة الخلافة العباسية ببغداد . لذا أرسل نور الدين إلى صلاح الدين يقترح عليه إلغاء اسم الخليفة الفاطمى من خطبة الجمعة بالقاهرة ، وإحلال اسم الخليفة العباسى محله ؛ وتم ذلك دون أى احتجاج ، فى أول يوم جمعة من سنة ٥٦٧ هـ (١٠ سبتمبر سنة ١١٧١ م) ، فى جامع عمرو بن العاص بالفسطاط ، على يد خطيب موصلى اصطحبه نجم الدين أيوب إلى الجامع العتيق لذلك الغرض . وكان الخلفية العاضد مريضاً طريح الفراش وقتذاك ، ولم يعلمه أحد من حاشيته بما حدث ، بناء على تعليمات من صلاح الدين . ومات العاضد قبل أن يحل يوم الجمعة التالى ، وزالت دولة آبائه بعد أن حكمت فى مصر ما يزيد على قرنين من الزمان .

وبموت آخر الفاطميين صار صلاح الدين وجها لوجه أمام سيده نور الدين ، وأخذ ما تداوله الناس سابقاً على سبيل الإشاعة من أخبار الوحشة بين الرجلين يتأدى واضحا للعيان . غير أن هذه الوحشة لم تنقلب إلى عداء سافر ، برغم ما تخللها من تهديد ومباغضة ؛ ومات نور الدين فى ١١ شوال سنة ٥٦٩ هـ ، أى منتصف مايو سنة ١١٧٤ م . ثم مات أمورى الأول صاحب المملكة الصليبية ببيت المقدس فى يوليه من السنة نفسها ، وغدا الميدان خاليا تماما لزعامة صلاح الدين ، وشخصيته ومواهبه .

وشاءت المقادير أن تختبر هذه الزعامة وملحقاتها فى فجأة وسرعة ، إذ عكف أمورى الأول لعدة سنوات قبل وفاته على تهيئة السبل لمعاودة الكرة على مصر ، فعمل على استمرار الحلف بين الدولة البيزنطية ومملكة بيت المقـــدس ، وحاول الوقيعة بين نور الدين وصلاح الدين فى غير جدوى ، واجتذب إليه طائفة الحشيشية الناقمة على كل من نور الدين وصلاح الدين لإزالتهما الدولة الفاطمية . وحصل من وليام الثانى ملك صقلية على وعد بالمساعدة البحرية للإغارة على الشواطئ المصرية . واتصل أمورى ببقايا الفاطميين بالقاهرة ، وزعيمهم وقتذاك الشاعر عمارة اليمنى ، لتنسيق الجهود بحيث يعلن الفاطميون الثورة بالقاهرة ، غداة وصول أمورى وأحلافه إلى الأراضى المصرية ، وبذا يقع صلاح الدين بين نارين . غير أن صلاح الدين علم بالتفاصيل الداخلية والخارجية لهذه المؤامرة المتشعبة الوسائل والغايات ، قبل تنفيذ أى ركن من أركانها ، ونور الدين وأمورى وقتذاك لا يزالان على قيد الحياة . لذا قبض صلاح الدين على الفاطميين من رجال المؤامرة بالقاهرة ، وشنقهم جميعاً ، بما فيهم زعيمهم . ثم وقعت وفاة نور الدين وأمورى ، ولم يعلم بذلك وليام الثانى ملك صقلية ، ووصلت مساعدته البحرية الموعودة إلى مياه الإسكندرية على غير انتظار أواخر يوليه سنة ١١٧٤ م . واعتقد قائد

الأسطول الصقلى أن جنوده سوف يدخلون الإسكندرية عنوة أو تسليما ، رفقة جنود أمورى . لكن شيئاً من ذلك لم يحدث ، ما عدا مجىء صلاح الدين بجيش كبير إلى الإسكندرية ، كذلك على غير انتظار ، وكان مجيؤه إليها كافياً لجلاء السفن الصقلية عنها ، بعد سبعة أيام فقط من وصولها إلى السواحل المصرية ؛ وهذه هى خاتمة المحاولات الصليبية للاستيلاء على مصر فى القرن الثانى عشر الميلادى .

أما صلاح الدين فازدادت قامته السياسية طولاً ، وعظمت شخصيته الحربية هيبة ، فى مختلف الدوائر المعاصرة فى مصر والشام وفلسطين ، ولم يبق لديه لإثبات زعامته سوى أن يعالج فى حزم ورزانة ما نجم عن وفاة نور الدين من مشاكل متنوعة ، ليصبح الوريث الفعلى للدولة النورية الشاملة روحياً وسياسياً لمعظم الشرق الأوسط ، وليستطيع أن ينصرف لحرب عامة ضد مملكة بيت المقدس . واستقام ذلك الدور الكبير لصلاح الدين باحتلاله دمشق أواخر سنة ١١٧٤ م ، وإعلان نفسه ملكا على مصر والشام ، بموافقة الخليفة العباسى فى مايو سنة ١١٧٥ م ، ووفاة الوريث الشرعى للدولة النورية ، وهو إسماعيل بن نور الدين ، بعد ذلك بست سنين ، أى فى ديسمبر سنة ١١٨١ م . ثم دخلت الرها فى طاعة صلاح الدين فى سبتمبر سنة ١١٨٢ م ، وأعقبتها حلب فى يونيه ١١٨٣ م ، ثم الموصل فى فبراير سنة ١١٨٦ م ؛ وأصبحت إمبراطوريته ممتدة من الإسكندرية إلى الموصل ، أو من النيل إلى دجلة ، مضافا إليها برقة والنوبة واليمن .

وبديهى أن صلاح الدين جعل من مصر والشام ومواردهما الاقتصادية الوفيرة قاعدة ومصدراً لعملياته الحربية والديبلوماسية التى تطلبها هدفه الكبير ، سواء ضد مملكة بيت المقدس ، أو ضد الأمراء المسلمين المعادين له بالشام والجزيرة ، فضلا عن العمليات الداخلية ذات الطابع الحربى فى مصر

نفسها ، وهى إعادة تحصين القاهرة ، وتكميل تسويرها مع الفسطاط ، وبناء القلعة ، وتحصين الإسكندرية ودمياط وتنيس ، وهذه بالإضافة إلى العمليات السلمية الثقافية ، ومنها بناء المدارس المشهورة ، ولاسيما مدرسة الإمام الشافعى .

وفى خلال إحدى تلك السنوات المزدحمة ، وصلاح الدين مشغول بعملياته التى انتهت باستيلائه على الرها ، أى فى خريف سنة ١١٨٢ م ، وقع حادث صليبى اهتز لجرأته العالم الإسلامى عامة . وتفصيل ذلك الحادث أن أميراً صليبياً اسمه رينالد شاتيون (أرناط فى المراجع العربية) ، وهو وقتذاك صاحب حصن الكرك الواقع فى الجنوب الشرقى من البحر الميت ، أعد سفناً نقلها أجزاء على ظهور الجمال إلى خليج العقبة ، وقام بحملة بحرية جريئة غرضها الهجوم على مكة والمدينة . واستولى أرناط أولاً على ميناء أيلة ، وهى التى صارت حديثاً من ممتلكات صلاح الدين ، ثم حاصر قلعتها بنفسه ، على حين أبحرت معظم سفنه جنوباً على طول الساحل الإفريقى للبحر الأحمر ، وأخذت تغير على الموانى المصرية الصغيرة حتى وصلت إلى ميناء عيذاب . وخربت السفن الصليبية هذا الميناء ، ونهبت ما به من متاجر وقوافل ، وهو وقتذاك الميناء الرئيسى للتجارة المصرية الدولية بين الشرق والغرب . ثم عبرت هذه السفن إلى ساحل بلاد العرب ، واستولت على مراكب راسية بميناء الحوراء شمالى ينبع والمدينة المنورة ، وأبحرت منها إلى رابغ ، وهى إحدى موانى مكة ، ثم عادت أدراجها محملة بما اجتمع لها من أنهاب وأسلاب .

وأرسل العادل محمد أخى صلاح الدين — وهو نائبه وقتذاك بمصر — حملة بحرية مصرية أيوبية بقيادة أمير اسمه حسام الدين لؤلؤ ، لتعقب حركات هذه السفن الصليبية ، فهجمت على أرناط عند أيلة ، وألجأته إلى الفرار بعد رفع الحصار عن قلعتها . ثم أبحر حسام الدين جنوباً حتى بغت الحملة الصليبية على مقربة من ميناء الحوراء ، فأحرق معظم سفنها . وهناك أسرع

الصليبيون إلى الساحل ، ووراءهم الجند المصرى الأيوبى والبدو يقتلون ويأسرون . وحملت السفن المصرية الأيوبية من أولئك الأسرى عدداً إلى القاهرة ، وشهدهم الرحـــالة المغربى ابن جبير يطاف بهم فى شوارع الإسكندرية ، ووصف موكبهم وأخبار حملتهم كلها وصف شاهد عيان ، ونصه فيما عدا ما بين الأقواس التوضيحية : " وذلك أنا لما حللنا الإسكندرية . . . عاينا مجتمعاً من الناس عظيما ، برزوا لمعاينة أسرى من الروم (كذا) ، أدخلوا البلد راكبين على الجمال ، ووجوههم إلى أذنابها ، وحولهم الطبول والأبواق . فسألنا عن قصتهم ، فأخبرنا بأمر تنفطر له الأكباد إشفاقاً وجزعاً ، وذلك أن جملة من نصارى الشام اجتمعوا وأنشأوا مراكب فى أقرب المواضع التى لهم من بحر القلزم، ثم حملوا أنقاضها على جمال العرب المجاورين لهم ، بكراء اتفقوا معهم عليه . فلما حصلوا ساحل البحر سمّروا مراكبهم ، وأكملوا إنشاءها وتأليفها ، ودفعوها فى البحر وركبوها ، قاطعين بالحجاج . وانتهوا إلى بحر اليمن ، فأحرقوا فيه نحو ستة عشر مركباً ، وانتهوا إلى عيذاب ، فأخذوا فيها مركباً كان يأتى بالحجاج من جدّة ، وأخذوا أيضاً فى البر قافلة كبيرة تأتى من قوص إلى عيذاب ؛ وقتلوا الجميع ، ولم يحيوا أحداً . وأخذوا مركبين كانا مقبلين بتجار من اليمن ، وأحرقوا أطعمة كثيرة على ذلك الساحل كانت معدة لميرة مكة والمدينة ، أعزهما الله . وأحدثوا حوادث شنيعة لم يسمع مثلها فى الإسلام ، ولا انتهى رومى (كذا) إلى ذلك الموضع قطّ ، ومن أعظمها حادثة تسد المسامع شناعة وبشاعة ، وذلك أنهم كانوا عازمين على دخول مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وإخراجه من الضريح المقدس . [و] أشاعوا ذلك ، وأجروا ذكره على ألسنتهم ، فأخذهم الله باجترائهم عليه ، وتعاطيهم ما يحول عناية القدر بينهم وبينه . ولم يكن بينهم وبين المدينة أكثر من مسيرة يوم ، فدفع الله عاديتهم بمراكب عمرت من مصر والإسكندرية ،

وصل فيها الحاجب المعروف بلؤلؤ ، مع أنجاد من المغاربة البحريين ، فلحقوا العدو وهو قد قارب النجاة بنفسه . فأخذوا عن آخرهم ، وكانت آية من آيات العنايات الجبارية ، وأدركوهم عن مدة طويلة كانت بينهم من الزمان نيّفت (فى الأصل نيف) على شهر ونصف أو حوله . وقُتلوا وأسروا ، وفُرق من الأسارى على البلاد ليقتلوا بها ، ووُجه منهم إلى مكة والمدينة . وكفى الله بجميل صنعه الإسلام والمسلمين أمراً عظيما ، والحمد لله رب العالمين[1] » .

على أن مصائر هؤلاء الأسرى لم يكن كل ما هنالك من ذيول تلك الحملة الجريئة الهوجاء ، إذ المعروف أن صلاح الدين أقسم وقتذاك يمينا مغلظة لينتقمن من أرناط على إساءته المهينة واعتدائه ، ولا سيما أنه اعتدى سابقا على بلاد العرب من ناحية البرّ حتى تيماء . والواقع أن الاقتصاص من أرناط وتخريب حصنه بالكرك صار غاية من أهم غايات صلاح الدين ، واتجه هو بنفسه أكثر من مرة لتحقيق هذه الغاية .

غير أن أرناط ازداد عتوا واستهتارا ، برغم ما بين صلاح الدين ومملكة بيت المقدس وسائر الإمارات الصليبية من هدنة أملتها عليه بعض مشاغله ببقايا المقاومة الموصلية ضده وقتذاك . واختار أرناط لإظهار عتوه واستهتاره قافلة تجارية من القاهرة ، وهى مارة قرب حصنه بالكرك فى طريقها إلى دمشق ، سنة ١١٨٦ م ، فاعترضها واستولى على جميع متاعها . وبذلك نقض أرناط الهدنة العامة ، وجعل الحرب قاب قوسين بين صلاح الدين ومملكة بيت المقدس ، وهى أدنى من ذلك بكثير ، منذ تغلّب صلاح الدين على آخر مشاغله بخضوع الموصل نهائياً لسلطانه ، أوائل تلك السنة .

---

(١) ابن جبير : تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار ، وهو الكتاب المعروف باسم رحلة ابن جبير (Ed. Wright) ، ص ٥٨ - ٦٠ .

ثم ترتب على هذا النقض للهدنة العامة سلسلة حوادث أدت ، يوم ٢٥ ربيع الثانى سنة ٥٨٣ هـ ، أى ٤ يوليه سنة ١١٨٧ م ، إلى وقعة حطين غربى طبرية ، وهى الوقعة التى جمع لهـا صلاح الدين معظم جنود إمبراطوريته الواسعة ، وحشدت لها مملكة بيت المقدس أكبر عدد من الجنود الصليبية بفلسطين والشام . وانتهت هذه الوقعة بتطويق الجيش الصليبى ، وإبادة معظمه ، ووقوع قادته أسرى فى قبضة صلاح الدين ، ومنهم جاى لوزنيان صاحب مملكة بيت المقدس ، وأرناط شاتيون صاحب حصن الكرك ، ومرتكب الإساءات السابقة ، وهمفرى تورون ، ومقدم طائفة الفرسان الداوية ، وغيرهم .

ويجمع المؤرخون على أن وقعة حطين كانت ناقوس الفناء لكيان المملكة الصليبية ببيت المقدس ، وللصليبيين جميعاً بالشرق . والواقع أن هزيمة حطين كانت بداية النهاية لجميع الأحلام الصليبية المحلية والأوربية ، ويكفى للبرهان على ذلك تسجيل خطوات صلاح الدين مباشرة بعد هذه الهزيمة . ففى اليوم التالى لهذه الواقعة الحاسمة عاد صلاح الدين إلى طبرية ، فسلمت إليه قلعتها دون مقاومة ، وهى التى استعصت عليه حين استولى على مدينة طبرية نفسها قبيل حطين . ثم وجّه صلاح الدين هجمات خاطفة نحو مدن الساحل ، ليقطع بالاستيلاء عليها ما عساه يرد من نجدة أوربية لمملكة بيت المقدس ، فضلا عن أنه يصل بذلك بين مصر وفلسطين . وكان أقرب هذه المدن الساحلية من مواقع صلاح الدين وقتذاك مدينة عكا ، فسلمت له على شروط منها أن يقيم الصليبيون حيث هم ، مع دفع جزية معينة ، أو أن يرحلوا عن البلد ، فمن اختار الرحيل ضاعت عليه أملاكه الثابتة ، ومن شاء الإقامة بقيت أملاكه فى يده . وأسرع إلى التسليم بهذه الشروط معظم مدن الساحل شمالى عكا وجنوبها ، فضلا عن المدن الداخلية ، وكل ذلك فى مدة لم تتجاوز ثلاثة أشهر . ثم سلمت مدينة بيت المقدس نفسها ، ودخلها صلاح الدين يوم

٢٧ رجب سنة ٥٨٣ ﻫ ، وهو يوم المعراج، الموافق ٢ أكتوبر سنة ١١٨٧ م . ولم يحدث صلاح الدين بها شيئاً يشبه — من قريب أو من بعيد — ما أحدثه قادة الحملة الصليبية المعروفة بالأولى من مذابح ، بين أهلها من المسلمين واليهود ، رغم تأمينهم على أرواحهم حينذاك ، أى سنة ١٠٩٩ م .

والخلاصة أنه لم تأت سنة ١١٨٩ م حتى أصبحت مدن مملكة بيت المقدس كلها فى يد صلاح الدين ، ما عدا مدينة صور التى نجحت فى مقاومة الحصار الصلاحى مرتين ، بسبب ما اجتمع بها من جاليات المدن الصليبية التى سلمت سابقا ، وبسبب وصول حملة صليبية أوربية غير صغيرة إلى صور وقتذاك ، على غير انتظار :

ومن مدينة صور بدأت المقاومة الصليبية ضد صلاح الدين ، إذ سارت منها سفارة إلى أوربا تستنهض ملوكها لتجهيز الحملة الصليبية المعروفة بالثالثة ، ومنها كذلك تحركت القوات الصليبية نحو عكا . ولذا غدت عكا منذ أواسط سنة ١١٨٩ م ميدانا لعمليات حربية على ثلاثة خطوط نصف دائرية متوازية تقريباً ، أولها حامية أيوبية داخل عكا نفسها ، وثانيها قوات صليبية محاصرة لهذه الحامية ، وثالثها قوات أيوبية بقيادة صلاح الدين ، وغرضها هدم الحصار الصليبى للحامية الأيوبية .

ثم لم تلبث الحملة الصليبية المعروفة بالثالثة أن وصلت كذلك إلى عكا من ناحية البحر ، بقيادة ريتشارد الأول قلب الأسد ملك إنجلترا ، وفيليب أغسطس ملك فرنسا . واتصلت السفن والجنود الإنجليزية والفرنسية بالقوات الصليبية المحاصرة لمدينة عكا ، وصارت الحامية الأيوبية داخل عكا بين عدوّين كبيرين ، واشتد عليها الحصار حتى سلمت فى يوليه سنة ١١٩١ م ، أى بعد سنتين مريرتين تخللتهما حوادث بطولة حقيقية وقصصية ، وكثير منها يدور حول صلاح الدين وريتشارد قلب الأسد .

ثم رحل فيليب أغسطس ملك فرنسا عن الشرق إلى بلاده ، على حين بقى به ريتشارد قلب الأسد ملك إنجلترا سنة كاملة . وفى خلال هذه السنة لم يستطع ريتشارد أن يتغلب على قوات صلاح الدين سوى مرة واحدة عند أرسوف ، وأن يستولى بعد ذلك على يافا . غير أن ريتشارد أخفق فى جميع محاولاته للزحف الصليبي على مدينة بيت المقدس ، ولم تغير أعماله الحربية شيئاً من مجرى الحوادث ، لأن ما أحـــدثه صلاح الدين بالصليبيين احتاج إلى مجهود لا تستطيع حملة واحدة أن تنهض به فى بضعة أشهر ، مهما بلغت شخصية قائدها من عبقرية فى فن الحرب . ومن الدليل على ذلك أن ريتشارد قلب الأسد عمد بعد الاستيلاء على يافا إلى فكرة المفاوضة والمصالحة ، لعلها تكفل بقاء دولة صليبية بفلســطين إلى جانب دولة صلاح الدين الشاملة للشرق الأوسط كله . وتخلل هذه المفاوضات مساومات وعروض ظاهرها سلام وهدايا ومشروع زواج بين الملك العادل محمد أخى صلاح ، والملكة جوانا الصقلية أخت ريتشارد قلب الأسد . غير أن مشروع هذا الزواج لم يتم ، وربما كان المقصود بإذاعته خلق جوّ من الصداقة العامة ، كما قال صلاح الدين ، ثم انتهت المفاوضات بصلح الرملة فى سبتمبر سنة ١١٩٢ م ، وهو الصلح الذى اتفق فيه الطرفان على أن تظل المدن الساحلية بين عكا ويافا بيد الصليبيين ، وأن يؤذن لفئات الحجيج المسيحى بزيارة بيت المقدس ، على شرط قدومها من عكا من ناحية البحر ، وأن تغدو مدينة عسقلان منطقة حراماً ، منزوعة الحصون والسلاح .

ثم أبحر ريتشارد قلب الأسد من عكا إلى بلاده ، فى الشهر التالى لعقد الصلح ، أى أكتوبر سنة ١١٩٢ م ، وفى رأسه أن الطريق لاسترداد مملكة بيت المقدس المفقودة يبدأ أولا بالاستيلاء على مصر ، وقال بضرورة تنفيذ هذه الفكرة أكثر من واحد من رجاله ، قبل رحيلهم عن الشرق .

وكيفما كان الأمر يتضح من صلح الرملة أن صلاح الدين حقق فى عهده أقصى ما تطلعت الزعامات الإسلامية بالشرق الأوسط إلى تحقيقه ، منذ حلول الصليبيين بفلسطين . وأحس صلاح الدين وهو فى أوج مجده أن مهمته تحققت فعلا ، غير أن الحروب والجهود التى تجشمها من أجل ذلك أنهكت صحته ، فأصابه المرض ، وتوفى بدمشق فى ٢٧ صفر سنة ٥٨٩ هـ ، الموافق ٤ مارس سنة ١١٩٣ م ، ولما يبلغ من العمر سوى خمس وخمسين سنة ؛ وقبره على مسافة يسيرة من قبر نور الدين والجامع الأموى بدمشق .

وبوفاة صلاح الدين توارت عن الأنظار شخصية ظلت ملء العين والقلب ، وموضع الإعجاب والهيبة ، فى الأوساط الشرقية الإسلامية والغربية المسيحية ، منذ العصور الوسطى حتى العصر الحاضر . ولمؤرخ أوربى فى تقدير أعماله ومواهبه عبارة تغنى عن الإسهاب والتفصيل ، ونصها مترجمة عن الإنجليزية : " لم يحظ قائد من قادة الحرب والسياسة بتقدير خصومه وإعجابهم — باستثناء نابليون بونابرت — مثلما حظى صلاح الدين الأيوبى بتقدير خصومه من الصليبيين[1] " .

(١) انظر (Minorsky : Studies in Caucasian History, p. 107) .

الفصل الثانى

نشأة مدينة المنصورة

١٢١٩ م = ٦٦١ هـ

ظل التفكير فى الاستيلاء على مصر مشروعا يراود الصليبيين ، ويتناوبه المدّ والجزر فى مجالسهم ، طواعية لعوامل مختلفة ؛ وهى أولا مختلف الحاجات المادية اللازمة للدول الصليبية الباقية بالشرق بعد فتوح صلاح الدين ، سواء مملكة بيت المقدس التى غدا اسمها مملكة عكا ، أو إمارة أنطاكية ، أو إمارة طرابلس ، أو مملكة لوزنيان فى قبرص ؛ وثانيا مدى استجابة الدول الأوربية الغربية لسدّ هذه الحاجات المادية المختلفة ، بحملات حربية كبيرة أو صغيرة ؛ وثالثا أحوال الإمبراطورية الأيوبية ، بعد صلاح الدين . والعامل الثالث هو المفتاح للموضوع كله ، بل هو الباب الذى دخلت منه مشروعات الصليبيين أدوار التحدى والمحاولة والتنفيذ فى جوف الأراضى المصرية ، كما حدث سابقاً أيام دولة الفاطميين ، وهو كذلك الباب الذى صدرت منه أنواع المقاومة الأيوبية ضد هذه المشروعات ؛ وفى أثناء هذا وذاك كانت نشأة مدينة المنصورة الحالية .

والباحث لا يستطيع إلا أن يشعر بالفراغ الكبير الذى أحدثته وفاة صلاح الدين ، ومما يزيد فى هذا الشعور أن الإمبراطورية الأيوبية المتحدة سرى عليها بعد صلاح الدين ما سرى على أمثالها من إمبراطوريات شرقية أو غربية فى العصور الوسطى عامة ، إذ قسم صلاح الدين إمبراطوريته بين أولاده وأخوته وبنى عمومته وأولادهم فى وصيته ، وامتلأت بسبب ذلك مصر والشام بعدة مشاحنات وحروب داخلية . غير أنه لم تمض سبع سنوات على وفاة صلاح الدين حتى طوى هذه الوصية أخوه الأكبر العادل محمد نهائياً ، وملأ هو الفراغ الذى أحدثته وفاة صلاح الدين ، وذلك بعد أن

أخضع لسلطانه جميع أبناء البيت الأيوبى بمصر والشام ، ووحد معظم ممتلكاتهم وإقطاعاتهم تحت يده . وأعلن العادل محمد موقفه هذا سنة ١٢٠٠ م ، حين خطا الخطوة النهائية فى سبيل توحيد الدولة الأيوبية وإعادتها سيرتها الأولى ، بخلع حفيد صبى من أحفاد صلاح الدين من منصب السلطنة الأيوبية العظمى بالقاهرة ، وقوله فى مجلس من أمراء الدولة تبريرا لذلك ، ما نصه : " إنه قبيح بى أن أكون أتابك صبى ، مع الشيخوخة والتقدم ؛ والملك ليس هو بالإرث وإنما ، هو لمن غلب . وإنه كان يجب أن أكون بعد أخى الملك الناصر صلاح الدين ، غير أنى تركت ذلك إكراما لأخى . ورعاية لحقه . فلما كان من الاختلاف ما قد علمتم ، خفت أن يخرج الأمر عن يدى ، ويد أولاد أخى . فسست الأمر إلى آخره ، فما رأيت الحال ينصلح إلا بقيامى فيه ، ونهوضى بأعبائه . فلما ملكت هذه البلاد ، وطنت نفسى على أتابكية هذا الصبى ، حتى يبلغ أشده . فرأيت العصبيات باقية ، والفتن غير زائلة . . . ولا آمن أن يجتمع جماعة ويطلبون إقامة سلطان آخر ، وما يعلم ما يكون عاقبة ذلك . والرأى أن يمضى هذا الصبى إلى الكتاب ، وأقيم له من يؤدبه ويعلمه . فإذا تأهل وبلغ أشده نظرت فى أمره ، وقمت بمصالحه[١] " . وأقام العادل محمد بعد ذلك نفسه سلطانا على الإمبراطورية الأيوبية كلها ، وامتد حكمه ثمانى عشرة سنة (١٢٠٠ – ١٢١٨ م) ، وظلت السلطنة فى سلالته دون غيره من أبناء البيت الأيوبى . ولذا كان تاريخ الإمبراطورية الأيوبية بعد العادل محمد ، كما كان بعد صلاح الدين ، سلسلة من المنازعات الداخلية حتى نهاية الأيوبيين فى مصر سنة ١٢٥٠ م .

وفى السنة التى تولى فيها العادل محمد منصب السلطنة الأيوبية العظمى بالقاهرة – أى سنة ١٢٠٠ م – كانت فكرة استرداد مملكة

---

(١) المقريزى : كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك – نشر زيادة ، ج ١ ، ص ١٥٢ .

بيت المقدس من الأيوبيين آخذة فى التطور فى غرب أوربا . غير أنه وضح للزعماء الصليبيين أصحاب التجارب السابقة فى الحروب الصليبية بالشرق ، أن اجتماع القوى الأيوبية فى يد السلطان العادل محمد سوف يعود بهم إلى أيام السلطان صلاح الدين ، وأن مصر سوف تغدو مركز التموين المادى والروحى ، كما كانت فى الأيام الصلاحية . ولذا أضحى الاستيلاء على مصر قضية منطقية ، وضرورة حربية ، لضمان استرداد مملكة بيت المقدس . ونهض البابا أنوسنت الثالث للدعوة لحملة صليبية يكون هدفها البلاد المصرية ، واتفق زعماء تلك الحملة مع جمهورية البندقية على نقل جنودهم وعتادهم على سفن بندقية ، مقابل إيجار مالى معين ، فضلا عن نصف الأراضى التى سوف تستولى عليها الحملة . وخرجت التعليمات الحربية النهائية فى يونيه سنة ١٢٠٢ م ، بوجوب اجتماع الفئات الصليبية بمدينة البندقية ، استعداداً للإبحار إلى مصر . غير أن البندقية لم تكن راغبة جدّياً فى الاشتراك فى هجوم على السواحل المصرية ، ولم تكن مستعدة لمعاداة السلطان العادل ، بل كان سفراؤها بالقاهرة يفاوضونه فى عقد معاهدة تجارية رابحة ، فى الوقت الذى كان زعماء الصليبيين يفاوضونها فى شروط نقل حملتهم إلى السواحل المصرية .

ثم تبين عجز الزعماء الصليبيين عن الوفاء بالشروط المالية المتفق عليها ، على حين اجتمعت الفئات الصليبية بمدينة البندقية للسفر . واستغل دوج داندولو الشهير هذا المأزق استغلالا ماهراً ، إذ أعلن استعداد الجمهورية لتأجيل دفع المبالغ المطلوبة لها حسب الاتفاق ، مع القيام بنقل الصليبيين فى البحر فوراً إلى حيث يريدون ، على شرط أن تؤدى حملتهم للبندقية خدمات حربية خاصة . وقبل الصليبيون هذا الشرط ، وأبحرت بهم السفن البندقية أواخر سنة ١٢٠٢ م إلى ميناء زارا التابع للمجر ، فاحتلوه للبنادقة ، وأقاموا به شتاء تلك السنة . ثم توجه الصليبيون بعد ذلك

إلى القسطنطينية ، حيث كان للبندقية مصالح مرتبطة بمشكلة الخلاف على العرش البيزنطى وقتذاك ، ولم يلبثوا أن انصرفوا عن مشروع حملتهم إلى محاربة الإمبراطورية البيزنطية المسيحية ، وإخراجها طريدة شريدة من عاصمتها ، فضلا عن تقسيم أقاليمها بينهم وبين البندقية . ووقعت هذه الحوادث خلال سنتى ١٢٠٢ — ١٢٠٤ م ، وهى المعروفة فى مجموعها عند المؤرخين باسم الحملة الصليبية الرابعة ، وما هى بالحملة التى احترمت اسمها ، وما هى بالصليبية التى حفظت وعدها ، بل هى إحدى الأدلة الدامغة على أن الحروب الصليبية شابتها منذ أيامها الأولى أغراض اعتدائية توسعية ، وحوافز سياسية اقتصادية[١] .

لم يكن عجباً بعد هذه الحوادث أن ينكمش مشروع الاستيلاء الصليبى على مصر إلى هجوم محلى ضئيل من ناحية البحر على ثغر رشيد ومدينة فوه[٢] ، أوائل سنة ١٢٠٤ م ، وأن يسعى صاحب مملكة عكا ، وهو وقتذاك أمورى الثانى ، إلى عقد هدنة مع السلطان العادل فى سبتمبر من تلك السنة ، لمدة ست سنوات . وكان جنوح الطرفين للسلم واضحاً ، لأن أمورى الثانى لم يأمل من غرب أوربا أية معونة حربية يشد بها أزر مملكة عكا لعدة سنين ، بعد أن غدت أقاليم الإمبراطورية البيزنطية مرتعاً لكل مطمع صليبى عارم ، ولأن السلطان العادل آثر ما سوف يعود على دولته من ثمار السلم عن طريق التجارة والعلاقات الاقتصادية الرابحة ، وذلك فضلا عن مشاغله الداخلية التى لا بد له من مواجهتها آجلا أو عاجلا ، من ناحية أبناء البيت الأيوبى الخاضعين له . ولذا ظلت الهدنة موضع مراعاة الجانبين ،

---

(١) اقرأ فيشر : تاريخ أوربا العصور الوسطى ، ترجمة زيادة والعرينى ، ج ١ ، ص ٢٤٣ — ٢٥٠ ، حيث يوجد فصل شامل لأخبار هذه الحملة ومغزاها فى التاريخ الأوربى .

(٢) أبو شامة : الذيل على الروضتين ، ص ٥٠ .

بل أرسل السلطان العادل فى طلب تجديدها ، فى يوليه سنة ١٢١٠ م ، أى قبل شهرين من تاريخ انتهائها .

وحوالى ذلك الوقت أهلت شخصـــية صليبية جديدة على مسرح الحوادث ، إذ حكمت فى مملكة عكا وقتذاك ملكة شابة هى ماريا ابنة أمورى الثانى ، ثم تزوجت هذه الملكة من نبيل فرنسى ناهز الستين اسمه حنا برين ، فى أكتوبر من تلك السنة ، وهذا هو الشخصية الجديدة . وظنت الأوساط الصليبية فى فلسطين أن الملك الزوج سوف يتخذ سياسة هجومية ، على غرار السالفين من الملوك الأولين ، ولا سيا بعد أن سمح لبعض أتباعه بالقيام صيف سنة ١٢١١ م بحملة بحرية هجمت على دمياط وبورة هجوماً سريع العودة قليل الجدوى[١] . غير أن حنا برين لم يلبث أن قبل تجديد الهدنة مع السلطان العادل ، لمدة خمس سنوات تبدأ من يوليه ١٢١٢ م ، على حين أرسل إلى غرب أوربا يرجو إعداد حملة صليبية يكون وصولها إلى فلسطين بعد انتهاء الهدنة المجددة ، ليستطيع استرداد مملكة بيت المقدس فى الوقت المناسب ، والطريقة المناسبة . ولذا لم يحدث خلال هذه السنوات الخمس ما يعكر صفو الهدنة العامة بين السلطان العادل والدول الصليبية ، أى مملكة عكا ومملكة قبرص ، وإمارة أنطاكية ، وإمارة طرابلس .

غير أن أوائل هذه السنوات الهدنية الخمس شهدت ما هو معروف فى مصطلح المؤرخين باسم حملة الأطفال الصليبية ، وهى حركة منبعها موجة دينية وعغلية ، تدل القرائن الزمنية على أنها انتشرت فى غرب أوربا فى أعقاب الفشل الأوربى فى إرسال حملة صليبية ، لاسترداد مملكة بيت المقدس من الأيوبيين . وأنجبت هذه الموجة الدينية فى فرنسا صبياً داعياً فى الثانية عشرة

---

(١) أبو شامة : الذيل على الروضتين ، ص ٧٧ .

من العمر اسمه ستيفن ، فأخذ يعظ فى باريس ، ويؤكد بأن العناية الإلهية اختارته لقيادة حملة من الفتيان الأبرياء الأطهار ، لاسترداد مملكة بيت المقدس التى عجز الجند عن الذهاب لاستردادها . واجتذب ستيفن حوله فئات بلغت بضعة آلاف من الصبية وصغار رجال الدين ، من أنحاء فرنسا ، وسار الجميع إلى مرسيليا ، وأبحروا منها إلى الشرق فى يونيه سنة ١٢١٢ م . وبينما هذه الحملة فى طريقها المجهول ، قام صبى ثان اسمه نيقولا فى مدينة كولونيا بوادى الرين ، ودعا إلى جمع حملة مشابهة من صبية ألمانيا ، وسارت فئات هذه الحملة الأخرى إلى إيطاليا عن طريق سويسرا ، بعد أن انقسمت قسمين ، فوصلت الفئة الأولى منهما إلى بيزا ، بقيادة نيقولا نفسه ، وأبحرت منها إلى فلسطين فى أغسطس من تلك السنة ، على حين وصلت الفئة الثانية إلى برنديزى ، وأبحرت منها فى السنة التالية . وكان من الطبيعى أن يتخلف من فئات الصبية الفرنسيين والألمانيين أعداد أنهكها المسير فى الأراضى الأوربية ، أو أخافها البحر عند رؤيته لأول مرة ، وأن تعود بعض هذه الأعداد إلى أهلها فى فرنسا وألمانيا ، حيث امتلأت البلاد بأخبار الصبيان الصليبيين وحملاتهم .

أما أخبار هذه الحملات بعد إبحارها من الموانى المتقدمة ، فليس يعرف عنها شىء كثير ، ما عدا أن قسيسا جاء إلى فرنسا من الشرق بعد ثمانى عشرة سنة من إبحار حملة ستيفن من مرسيليا ، وأخبر بأنه كان أحد صبية هذه الحملة ، وأن السفن التى أقلت الصبية وقعت فى أيدى قراصنة من المغاربة جنوبى جزيرة سردينيا ، فأخذتهم جميعاً أسرى ، وباعت منهم عدداً فى ثغر بجاية بالجزائر الحالية ، وعدداً آخر بمدينة الإسكندرية . وقال القسيس إن عدداً من أولئك الأسرى بيع أخيراً فى بغداد ، وأن الملك الكامل محمد نائب السلطنة الأيوبية فى القاهرة وقتذاك اشترى منهم كذلك ، واستخدمهم فى وظائف التراجمة والدواوين ، دون أن يطلب إلى أحد

منهم أن يعتنق الإسلام ؛ وكان مجىء ذلك القسيس إلى فرنسا سنة ١٢٣٠ م[1] .

غير أن هذه الأخبار تستطرد بالموضوع بعيداً عن عنوانه ، وهو نشأة مدينة المنصورة . كما تذهب به من الناحية التاريخية إلى ما بعد الحوادث التى نشأت من أجلها هذه المدينة ، ولا بد إذن من الرجوع إلى بضع السنوات السابقة مباشرة على انتهاء الهدنة المعقودة بين السلطان العادل والملك أمورى الثانى ، وهى السنوات التى تمنى الملك حنا برين زوج ماريا أن تصل حملة صليبية فى ختامها من غرب أوربا إلى فلسطين ، حتى لا تتعرض مملكة عكا لما عساه يتجدد من هجوم أيوبى مفاجىء .

وكان البابا إنوسنت الثالث يعمل — منذ تحولت الحملة الصليبية المعروفة بالرابعة عن أهدافها الأصلية — على تهيئة الفرصة لحملة صليبية كبرى يحقق بها ما تقدم وما تأخر من برامجه البابوية الفحلة . فأرسل مندوبيه إلى أنحاء غرب أوربا ، من سنة ١٢١٣ م فصاعدا ، للدعاية لمشروع هذه الحملة المرجوّة ، وجمع مجلس اللاتيران الكنسى العام سنة ١٢١٥ م ، لشرح حال مملكة عكا ، وترتيب بعض الوسائل المالية اللازمة للنفقات المطلوبة لها . وفى أثناء المناقشات حول أهداف هذه الحملة ، جرى ذكر مشروع الاستيلاء على مصر ، ضمن المشاريع المعروضة لاستعادة مملكة بيت المقدس .

ثم أرسل البابا إنوسنت الثالث سنة ١٢١٦ م إلى السلطان العادل محمد إنذاراً إنجيلياً يهدّد بقرب وصول الحملة التى تم إعدادها ، للاستيلاء على مصر ، إذا هو لم يدرك نفسه بتسليم بيت المقدس تسليما هادئاً بارداً ، بغير قتال . غير

---

(١) انظر (Runciman : Op. Cit. III. pp. 139—144) ، حيث توجد تفصيلات كثيرة بصدد حملة الأطفال الصليبيين . وفى الأدب الإنجليزى أكثر من قصة تاريخية حول هذا الموضوع ، ومنها (George Moore : Peter Abelard) ، وكذلك (Daphne Muir : The Lost Crusade) .

أن البابا مات فى يوليه من تلك السنة ، وخشى الملك حنا برين أن يؤدى ذلك الحادث إلى تأجيل سير الحملة إلى الشرق ، فكتب إليه البابا الجديد هونوريوس الثالث يؤكد له أنها واصلة إليه قريباً لا ريب فيه . وتحققت تأكيدات البابا هونوريوس بوصول فئات صغيرة متنوعة من هذه الحملة الصليبية المعروفة بالخامسة أرسالا متقطعة إلى عكا ، خلال سنة ١٢١٧م . لكن هذه الفئات لم تكن من قومية واحدة ، ولم تكن طبعاً تحت قيادة موحدة ، ولم ينتظر الملك حنا برين من قيادته الاسمية لها شيئاً مجدياً ، بل قام ببعض عملياته الحربية الوقائية بعد انتهاء أجل الهدنة بينه وبين السلطان العادل محمد ، دون أن يستعين بفئة من هذه الفئات . ثم وصل إلى عكا فى أبريل ١٢١٨ م عدد كبير من سفن فريزيا (هولندا الحالية) بفئة أخرى من الجند والعتاد الحربى ، ووصلت أنباء مع هذه السفن تخبر بأن الجزء الأكبر من هذه الحملة ، وهو ما أعده البابا هونوريوس نفسه ، وشيك الوصول كذلك إلى عكا ، غداة تدبير السفن اللازمة للنقل من إيطاليا ؛ وكان معظم ذلك الجزء الكبير مؤلفاً من الفرنسيين والإنجليز . وبذا تغير الموقف تماما ، وأشار المشيرون على الملك حنا برين بالتحول إلى مشروع الاستيلاء على مصر من ناحية البحر ، وأغروه بالانتفاع بالسفن الفريزية العديدة التى وصلت إليه بخيلها ورجالها من حيث لا يحتسب ؛ وبما سوف ينضم إليه من الفرق البابوية الفرنسية والإنجليزية ، وهذا وذاك فضلا عما لدى مملكة عكا من خبرة قريبة العهد بطرق الهجوم على الإسكندرية ، أو رشيد وفوة ، أو دمياط وبورة .

وسمع السلطان العادل محمد بكل هذه الأخبار وهو بدمشق ، فلم يصدق أولا أن الصليبيين — وخاصة الملك حنا برين — سوف ينقلبون إلى الحرب بعد الهدنة ، بل اعتقد كما اعتقد ابنه ونائبه فى مصر ، وهو الكامل محمد ، أن الزعامات الصليبية فى غرب أوربا والشرق سوف تجنح إلى السلم جنوحا طويلا ، بعد أن وضحت ثمرات العلاقات السلمية فى ميادين

التجارة الدولية ، وبعد أن انصرفت المغامرات الصليبية إلى أقاليم الدولة البيزنطية . واستند السلطان العادل محمد ، كما استند ابنه الكامل كذلك ، على ما أظهرته جمهورية البندقية سنة ١٢١٧ م من اهتمام بعقد معاهدة تجارية جديدة مع مصر ، لضمان استمرار الحال على ما هو عليه منذ أوائل القرن الثانى عشر ، وهذا فضلا عن وجود جالية تجارية أوربية ناجحة بالموانى المصرية ، ويناهز عددها ثلاثة آلاف من مختلف الجمهوريات الإيطالية . ولذا فوجئ السلطان العادل محمد وابنه الكامل بوصول قوات صليبية كبيرة من عكا بحراً ، بقيادة الملك حنا برين ، إلىالشواطئ المصرية ، ونزول هذه القوات عند قرية بورة ، ثم زحفها على شاطئ البحر حتى الشمال الغربى قبالة دمياط القديمة[1] . وأسرع العادل إلى إعداد جيش بالشام ، على حين زحف الكامل محمد من القاهرة شمالا بما لديه من القوات المصرية الأيوبية ، فمرّ على فارسكور فى يونيه سنة ١٢١٨ م ، وعسكر أخيراً عند بلدة العادلية على فرع دمياط ، حيث أخذ يعدّ العدة للقتال .

ثم بدأ الصليبيون عملهم بأن حفروا حول معسكرهم[2] خندقا ، وشرعوا فى الرمى فجأة فى شهر أغسطس على برج دمياط ، وهو برج منيع فيه سلاسل من حديد ممدودة عبر النيل ، لتمنع المراكب التى فى البحر من الدخول إلى الأراضى المصرية ، ومن بقاياه قرية الجربى وعزبة البرج الحاليتين . غير أن المفاجأة الهجومية مكنت للصليبيين الاستيلاء على ذلك البرج ، ولم يلبثوا أن قطعوا السلاسل المتصلة به ، لكى تسير مراكبهم فى النيل وتتقدم بهم إلى أسوار دمياط .

---

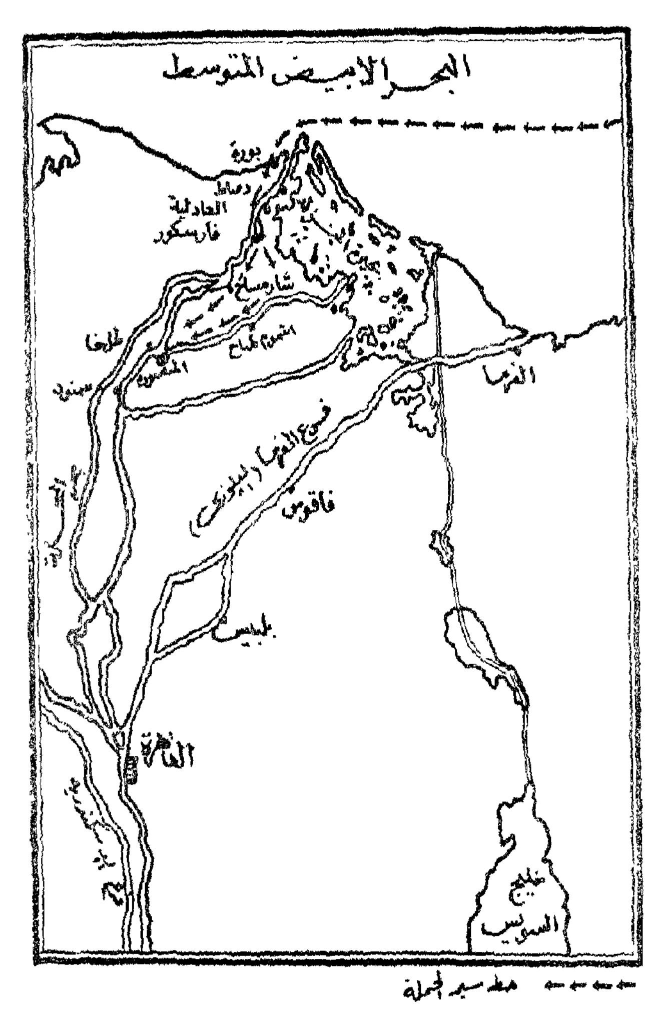
(١) تقع دمياط القديمة شمالى دمياط الحالية ، وموضعها حول جامع أبى المعاطى القديم وقبة فاتح الأسمر وقرافة دمياط ، فى العصر الحاضر .

(٢) انظر الخريطة رقم ٥ ، وهى فى صفحة ٤٧ .

ووصلت أخبار هذه الكارثة إلى السلطان العادل محمد وهو مريض بدمشق ، وخشى أن تكون هذه الأخبار مقدمة إلى ما هو أسوأ وأفدح ، ولم يحتمل الصدمة ، وتوفى بسببها أواخر أغسطس ١٢١٨ م،وكان عمره وقتذاك خمسا وسبعين سنة .

وخلف السلطان العادل فى مصر ابنه الكامل محمد ، وفى الشام ابنه المعظم عيسى . ولم يكن شيئاً قليلا أن ينشأ السلطان الكامل محمد ابناً للسلطان العادل ، وأن يرى هذا الابن أباه يعمل دائبا بمختلف الوسائل الديبلوماسية الطويلة والقصيرة ، فضلا عن الاستعداد العسكرى ، لتجنيب بلاده ويلات الحروب . وكان الكامل متوليا منذ سنين نيابة السلطنة فى القاهرة ، متمرسا بأساليب الحكم والسياسة والديبلوماسية ، والمهارة فى الحرب . ولذا نهض الكامل نهوضاً حميداً ، لتعويض ما نجم عن استيلاء الصليبيين على برج دمياط ، فجعل بدل السلاسل الحديدية جسرا من السفن فى عرض النيل ، لمنع السفن الصليبية من التقدم نحو أسوار دمياط . غير أن فرقة صليبية برّية استطاعت أن تخترق هذا الجسر ، تمهيدا لمحاولة الوصول إلى أسوار دمياط براً ، فأجاب السلطان الكامل على هذه الحركة بإغراق عدد من مراكبه فى النيل ، واستحال بذلك تقدم الصليبيين بحراً أو براً ، من هذه الناحية .

وحوالى ذلك الوقت وصلت الفرق الفرنسية الإنجليزية المنتظرة إلى المعسكر الصليبى ، بقيادة نائب بابوى اسبانى الأصل اسمه بيلاجيوس . وكان مجىء هذا الرجل كفيلا ببذر عوامل الشقاق والبغضاء فى صفوف الصليبيين ، إذ أنكر ما للملك حنا برين من قيادة عامة للحملة ، وأعلن أن حنا ملك فقط بحق الزواج من ماريا بنت أمورى الثانى ، ثم بعد وفاتها بحق أبوته لابنتها منه ، وهى يولاندا التى سوف يرتبط مستقبل مملكة عكا بمستقبلها الزواجى كائنا ما يكون . وأضاف بلاجيوس أنه هو الجدير وحده بالقيادة العامة ، وأنه سوف يحمل هذه المسئولية نيابة عن البابوية التى بذلت مابذلت فى سبيل إعدادهذه الحملة الصليبيةالكبيرة . وبناء على تعليمات هذهالقيادة ـ



الخريطة رقم ٥

حملة حنا برين على مصر ، سنة ١٢١٨ - ١٢٢١ م .

الجديده تحول الصليبيون فى أكتوبر إلى تسـيير مراكبهم فى فرع قديم من فروع النيل مصبه قرب بورة ، واسمه الخليج الأزرق ، فحفروه حفرا عميقا ، وجرت المراكب الصليبية فيه إلى بلدة صغيرة اسمها بستان بورة ، على الشاطئ الغربى للنيل ، قبالة العادلية التى كان فيها معسكر السلطان الكامل . وبذا صارت القوات الصليبية البحرية على مقربة من دمياط القديمة ، وصار الجيشان الأيوبى والصليبى وجها لوجه ، يفصل بينهما ماء النيل ؛ وتقاتل الطرفان قتالا بحريا غير حاسم دون نتيجة منظورة حتى دخل الشتاء .

ثم جرت المقادير فى مصلحة الصليبيين مؤقتاً ، وذلك حين اضطر السلطان الكامل محمد إلى الرحيل ذات ليلة من أوائل فبراير سنة ١٢١٩ م عن معسكره فى العادلية ، اجتناباً لمؤامرة ضده . وأصبح العسكر المصرى الأيوبى ، فوجدوا أنفسهم بغير سلطان ، فتركوا أثقالهم وخيامهم وأسلحتهم ، ورحلوا هم أيضاً عن العادلية ، على مرأى من الصليبيين على الضفة الغربية للنيل . عند ذلك بادر بلاجيوس وجنوده إلى عبور النيل إلى الضفة الشرقية ، وهى الضفة التى تقع عليها دمياط ، واحتل العادلية بغير قتال ، واستولى على ما كان بالمعسكر المصرى الأيوبى من سلاح ومؤونة . وبذا تم تطويق الصليبيين لميناء دمياط القديمة ؛ فأحاطوا بأسوارها من البر والبحر ، وضيقوا عليها ، ومنعوا الأقوات أن تصل إلى حاميتها أوأهلها . واستغرق ذلك شهر فبراير كله من تلك السنة ، أى أن الصليبيين لم يستطيعوا أن يلقوا الحصار التام على دمياط إلا بعد مضى تسعة أشهر من حلولهم بالشواطئ المصرية .

أما السلطان الكامل فانتقل إلى بلدة أشموم طناح ، قبالة دكرنس الحالية تقريباً ، ثم استقر أخيراً فى فارسكور ، حيث لحق به جيشه ، وانضمت إليه عساكر أخيه المعظم عيسى القادم لمساعدته من دمشق . غير أن الكامل برغم نجاحه فى هدم المؤامرة السابقة ضده ، وبرغم انضمام عساكر أخيه المعظم

عيسى لجيشه ، لم تتوفر لديه القوات الكافية لرفع الحصار الصليبي عن دمياط ، أو الهجوم على المعسكرات الصليبية في بورة وبستان بورة والعادلية . لذا اضطر إلى القنوع بمناوشات حربية خفيفة على مختلف المراكز الصليبية ، وبمحاولات متكررة لإيصال المؤونة إلى دمياط ، ريثما تصل إليه نجدات إضافية من الملوك الأيوبيين إخوته وأقاربه بالشام والجزيرة ، ومن الخلافة العباسية ببغداد .

ولم يكن الصليبيون في الواقع أحسن حالا ، لاشتداد الخلاف بين الملك حنا برين والنائب البابوي بلاجيوس حول خطة القتال ، وانتشار أخبار ذلك الخلاف بين عامة الجنود الصليبية .

ثم حدث وقتذاك ما لم يكن في الحسبان ، وهو أن السلطان الكامل أخذ يتشكك في قرب وصول ما يحتمل أن يسعفه من نجدة خارجية ، وتحول في سرعة ملحوظة إلى فكرة فريدة لم تكن من مألوف العصور الوسطى أو مقبولها أو معقولها ، بين المسلمين أو الصليبيين . ومحور هذه الفكرة أن الصلح خير من الحرب ، وأن السلام الدائم سيد العلاقات بين أي طرفين متحاربين ، إذا توفرت بينهما حسن النية والرغبة في التوفيق . ولذا عمد الكامل في سبتمبر سنة ١٢١٩م ، بموافقة أخيه المعظم عيسى ، إلى محاولة حل المسألة الصليبية الغربية الجاثمة بجيشها حول دمياط ، عن طريق المفاوضة والمصالحة ، مع المحافظة على كرامة الطرفين .

وخلاصة ما عرض السلطان الكامل على الصليبيين أن تجلو الحملة الصليبية عن الشواطئ المصرية جلاء تاماً ، فتعود دمياط وغيرها من البلاد المحيطة بها إلى أهلها ، وأن تبحر السفن الصليبية عن المياه المصرية . وفي مقابل ذلك يقدم السلطان الكامل للصليبيين صليب الصلبوت الذي استولى عليه صلاح الدين عند فتح مدينة بيت المقدس ، وأن يردّ عليهم مدينة بيت المقدس نفسها ، ومعظم البلاد الفلسطينية التي استردها منهم صلاح الدين ، ما عدا

بلدتين صغيرتين واقعتين فى منطقة الأطراف المصرية بفلسطين ، وهما الكرك والشوبك ، إذ رأى السلطان الكامل وجوب بقائهما فى يده ، تأميناً لهذه الأطراف البرية من عادية المعتدين .

غير أن الصليبين لم يقبلوا هذه العروض السخية ، ولو كان غرضهم دينياً فقط لما ترددوا فى قبولها ، بعد أن وضح لهم أن السلطان الكامل ينزل لهم عن مدينة بيت المقدس وغيرها من المدن المتعلقة بأصول الديانة المسيحية ، وهى المدن التى قامت الحروب الصليبية من أجلها ، على قول أهلها . أما السبب الذى دعا إلى رفض عروض السلطان الكامل ، فهو أن المندوب البابوى بلاجيوس رأى أن مفاوضة المسلمين لا تكون إلا بعد هزيمتهم ، لإملاء شروط خضوعهم ، وأن مهادنتهم لا تكون إلا بعد دفع مبلغ كبير من المال ، بمثابة فدية يتسلمها الصليبيون قبل أن يتحولوا عن دمياط . وهناك سبب آخر بعيد كل البعد عن الأغراض الصليبية الدينية ، وهو أن المدن الإيطالية التى اشتركت فى هذه الحملة الصليبية ، بجنودها وأموالها وأطماعها ، عزّ عليها أن تقبل شروطاً معناها عدم البقاء فى دمياط ، وهى الثغر التجارى الهام الذى تستطيع المصالح الإيطالية خاصة ؛ والأوربية عامة ، أن تنفذ منه إلى جوف البلاد المصرية . ومن الحق هنا أن يقال إن الملك حنا برين اقترح قبول شروط السلطان الكامل ، لسبب واضح ، وهو أن تصبح مملكة بيت المقدس الصليبية حقيقة جغرافية مرّة أخرى ، لا رمزاً فقط ، وليس له من هذه المملكة سوى عكا . ومن هنا يتبين من جديد أن الأغراض السياسية والاقتصادية ، لا الدينية فحسب ، هى التى حركت الحروب الصليبية جيلا بعد جيل .

وبينما تجرى المفاوضات بين السلطان الكامل والقيادة الصليبية مجراها الفاشل ، جاء إلى المعسكر الصليبى فى دمياط رجل مشرف على الأربعين من العمر ، بالى الثياب ، وليس فى مظهره إلا ما يثير سخرية الجاهل . كان هذا الرجل هو القديس فرنسيس الذى يرجع إليه تأسيس جماعة الرهبان

الفرنسسكان ، وهم الذين أطلق عليهم اسم الإخوان الفقراء ، أو الفقراء الرماديين ، إشارة إلى لون ملابسهم الرهبانية . ووصل القديس فرنسيس إلى المعسكر الصليبي ، حيث وجد الزعامات الصليبية مختلفة حول قبول عروض السلطان الكامل ، للجلاء الناجز الشامل عن دمياط والسواحل المصرية . واشترك القديس فى النقاش المضطرب ، ونصح بقبول عروض السلطان ، حقنا للدماء . غير أن نصيحته لم تلق مجيبا ، فرحل عن المعسكر الصليبي إلى أطراف معسكر المسلمين فى فارسكور ، حيث قبض عليه الحرسية المصريون دون أن يبدى أية مقاومة ، وهو يتكلم كلاما لم يفهم أحد منه شيئاً سوى لفظ " صلدان " ، يريد بذلك أنه يرغب فى المثول بين يدى السلطان الكامل . وأخيراً وجد القديس نفسه فى حضرة السلطان الكامل ، تحيط به حاشية قليلة من قادته وتراجمته ، وربما كان بعض أولئك التراجمة ممن اشتراهم الكامل أيام نيابته عن أبيه بالقاهرة من أفراد حملة الأطفال . وشرح القديس للسلطان الكامل سبب قدومه إليه ، واستأذن أن يعظه ويصف له المسيحية ، ويدعوه إليها . وأذن السلطان للقديس فى الكلام ، واستمع له فى دماثة المتمكن من عقيدته ، المحترم لعقيدة غيره .

ومما يدعو إلى الالتفات هنا أن الكامل لم يجادل القديس فرنسيس فيما قال ، ولم يستدع أحدا من علمائه لمجادلته ، بل اكتفى بالمبالغة فى إكرامه . واكتفى القديس بدوره بالإمعان فى إطراء السلطان ، بعد أن أوصاه بحسن معاملة الأسرى من الصليبيين ، وبعد أن طلب إليه إعطاء الإخوان الفرنسسكان سدانة كنيسة القيامة ببيت المقدس . ثم استأذن القديس فرنسيس السلطان فى الاتصال بالجنود الأيوبيين المسلمين ، والحديث إليهم ، فأذن له . وظل القديس المسيحي يتقلب فى معسكر المسلمين بضعة أيام حتى قرر الرحيل ، فرده السلطان الكامل محروسا إلى أطراف معسكر الصليبيين . ورجع القديس فرنسيس إلى أصحابه ، ليخبرهم بما شهد وسمع من أحوال .

المسلمين وسلطانهم ، ولينذرهم بما عساه يتطور إليه مشروع الهجوم على دمياط ، وليكرر عليهم فوائد عروض السلطان . لكنه وجد النية معقودة على الحرب ، وهى عكس ما أراد أن يسهم به فى خدمة المسيحية ، فاقتنع بأن لا مصلحة فى مقامه ، ونفض تراب المعسكر الصليبى عن قدميه ، ويمم نحو الشام وفلسطين بإذن من السلطان الكامل ، حيث أقام بضع سنوات ليؤسس للإخوان الفرنسسكان نواة أعمالهم فى سدانة كنيسة القيامة ببيت المقدس ، حتى العصر الحاضر[1] .

أما دمياط فاشتد حولها حصار الصليبيين ، وتمعن المراجع العربية والأوربية فى وصف ما حدث لحاميتها وسائر أهلها منذ أوائل الحصار الصليبى ، فتقول إن الحامية الدمياطية صامدت الحصار ، وقاومت مقاومة مجيدة ، وأن الدمياطيين أنفسهم صبروا على ويلات الحرب ، وندرة الأقوات ، وغلاء الأسعار ، وفتك الأمراض الوبائية . ومما خفف عنهم قليلا أن السلطان الكامل دأب ، منذ استقرار معسكره فى فارسكور ، على إرسال قوارب تموينية لمساعدة جند الحامية والسكان فى محنتهم ، واستعان فى ذلك برجال شجعان ذوى معرفة بنظام الحراسة بين السفن والعساكر الصليبية المحاصرة . وكان من أولئك الشجعان رجل اسمه شمايل الشامى ، وهو من أبناء قرية من قرى حماة ، ووظيفته فى المعسكر السلطانى ترتيب البريد السرّى الوارد للسلطان الكامل من دواوين القاهرة . واختار السلطان الكامل هذا البريدى ليكون رسوله إلى أهل دمياط ، لشجاعته الفائقة . وخاطر شمايل بنفسه ليلة بعد ليلة ، فسبح بين السفن الصليبية المحيطة بميناء دمياط فى الظلام ، وحمل إلى الحامية الدمياطية رسائل السلطان بوجوب استمرار المقاومة ، وأمدهم بأخبار القوارب التموينية الصغيرة وأماكن وصولها فى ساعات الفجر ، محملة بالأطعمة

---

(١) انظر (Roncaglia : St. Francis and the Middle East. pp. 25—30).

من دقيق وسكر ، وجبن وعسل ؛ واتسعت أعمال هذا البريدى الباسل ، فاستخدم المعاونين والمساعدين فى البر والنهر ، وخصص لكل منهم عملا ينهض به ، فاختص بعضهم بالمحافظة على استمرار وسائل المواصلات البريدية مفتوحة بين السلطان وأهل دمياط ، وقام بعض ثان بإحضار المؤن إلى شاطئ النيل ، ليحملها إلى الدمياطيين فى القوارب الصغيرة ، وعمل بعض ثالث فى إرشاد هذه القوارب وتوجيهها فى غسق الليل إلى مواضع خافيـــة آمنة ، لتفريغ حمولاتها وتسليمها إلى المكلفين بتوزيعها على أهل دمياط . وهكذا تشعبت أعمال هذا الرجل حتى بات اسمه أحدوثة مقرونة بالنجدة والإغاثة ، فضلا عن الشجاعة والجسارة .

غير أن طول الحصار ، وانتشار الأمراض ، وقلة الأقوات عموما ، هدم المقاومة الدمياطية ، واستطاع الصليبيون أن يدخلوا دمياط بعد حصار ظل عدة أشهر ؛ وكان دخولهم إليها فى نوفمبر ١٢١٩ م . وأعقب ذلك احتلال فرقة صليبية لمدينة تانيس الواقعة على مصب الفرع التانيسى من النيل ، جنوبى بحيرة المنزلة . ووجد السلطان الكامل نفسه مهددا من ناحيتين ، كما يتضح من الخريطة[١] ، فرحل بجيشه عن فارسكور جنوباً، أواخر تلك السنة ، إلى موضع اختاره سابقا فيما يبدو ، وأودعه فى حساب خططه الدفاعية المستقبلة ، لنقل معسكره إليه إذا هو اضطر مؤقتا للانسحاب من فارسكور . ولم يكن لهذا الموضع اسم معروف وقتذاك ، كما لم تكن له أية صفة طبوغرافية تميزه عن سائر ما حوله من أراضى الدلتا الرخوة ، ماعدا أنه موضعٌ فضاء فسيح ، معتدل الهواء ، مثلث الشكل تقريبا ، بين بحر أشموم طناح (البحر الصغير الحالى) والشاطئ الشرقى للنيل ، قبالة قرية اسمها جوجر ، وهى الآن من قرى طلخا الحالية[٢] .

---

(١) انظر ص ٤٧ .

(٢) انظر الملحق رقم ١ ، فيمايلى ، حيث ذكر المؤرخ المعاصر جمال الدين بن واصل أن السلطان الكامل أنشأ معسكره قبالة قرية اسمها جوجر . انظر كذلك المقريزى : المواعظ والاعتبار - بولاق - ج ٢ ، ص ٤٦٤ ، ٤٧٠ ، وأيضا على مبارك : الخطط التوفيقية ، ج ١٠ ؛ ص ٧٠ - ٧١ .

وكان طبيعياً أن يختار السلطان الكامل هذا الموضع الفضاء الفسيح لمعسكره الجديد ، لا اعتباطاً أو خبط عشواء ، بل بناءً على اعتبارات استراتيجية واضحة الأهمية لأغراض السلطان الحربية . ضد الحملة الصليبية التي باتت مسيطرة على دمياط ، وسوف تزحف منها عاجلاً أو آجلاً للاستيلاء على القاهرة ، لتحقيق ما عجزت عنه المحاولات الصليبية السابقة جميعاً . ومن هذه الاعتبارات الاستراتيجية كذلك — رغم صمت المراجع عن أية إشارة قصيرة أو طويلة بصددها — أن هذا الموضع المثلث الشكل حصين بضلعين مائيين هما البحر الصغير والنيل ، فلا تستطيع الحملة الصليبية أن تصل إليه براً إلا بعد عبور البحر الصغير المعروف بشدة انحدار جانبيه وسرعة تياره ، كما لا تستطيع أن تصل إليه عن طريق النيل إلا بأسطول نهرى طويل بعيد عن قواعده . ثم إن هذا الموضع تنتهى عنده أقصر مسافة لوصول النجدات الأيوبية المنتظر قدومها من الشام، عبر شبه جزيرة طورسينا والأطراف الشرقية المصرية ، وأنه كذلك قريب من طريق البريد والمواصلات الرئيسية من القاهرة ، فضلا عن قربه من ميناء سمنود ذات الصوارى والسفن النيلية التجارية الكثيرة ، والمحاصيل الزراعية الوفيرة ، والمركز الجغرافى الواصل بين مختلف بلاد الدلتا . ومن هذا وذلك وذاك ، مما يسهل استنتاجه وإدراكه ، يتضح أنه لم يكن فى الإمكان أحسن مما كان من اختيار السلطان الكامل لهذا الموضع لنقل معسكره إليه . للوقوف فى طريق الزحف الصليبي جنوباً . وليس أدل على حسن هذا الاختيار من مجموعة الحوادث التى جرت فى مسالكها ، ودونت حركات الحملة الصليبية غداة زحفها من دمياط ، وسجلت أوصاف النشأة الأولى لمدينة المنصورة الحالية .

أما الحملة الصليبية فاختلفت قيادتها حول موعد الخطوة التالية، بعد دخول دمياط وتنظيم حكومتها ، وقرر بلاجيوس الانتظار لحين وصول حملة إضافية .

منتظرة بقيادة الإمبراطور فردريك الثانى هوهنشتاوفن ، قبل الشروع فى حركة عامة نحو الجنوب . وازداد اختلاف القيادة شدة بسبب ذلك الانتظار ، ورحل الملك حنا برين منضباً إلى عكا ، فى فبراير سنة ١٢٢٠ م ، وخلا الجو للنائب البابوى وسياسته الانتظارية فى دمياط . ولذا لم يقم الصليبيون بعمل ما حتى أواسط ١٢٢١ م ، ما خلا ترميم الأسوار الدمياطية ، وتحويل جامع دمياط الكبير (جامع أبى المعاطى القديم) إلى كنيسة كتدرائية للعذراء ، ومهاجمة بلدة البرلس هجوماً أدى إلى وقوع فئة صليبية فى كمين ، ولذا عادت هذه الفرقة إلى قواعدها غير سالمة .

وفى تلك الأثناء انتظر السلطان الكامل كذلك قدوم الإمداد إليه من مختلف البلاد الإسلامية ، غير أنه لم يكن عارفاً بأسباب جمود الصليبيين عن الحركة ، بل خشى أن يكون جمودهم هذا مقدمة لهجوم كبير . ولذا عكف الكامل فى هذه المدة البالغة ثمانية عشر شهراً على تحصين معسكره الجديد ، وبناء الدور والأسواق اللازمة لاستقبال النجدات التى وصلت إليه أولا بقيادة أخيه المعظم عيسى ، وأخيه الأشرف موسى بعده . هكذا نشأت واتسعت المدينة العسكرية التى عرفها التاريخ فيما بعد باسم المنصورة ، والتى لا يوجد من أخبار ازدياد نموها الحربى الأول ، حتى سنة ١٢٢١ م ، سوى ما أورده المقريزى ، ونصه : " المنصورة ، هذه البلدة على رأس بحر أشموم ، تجاه ناحية طلخا . بناها السلطان الملك الكامل ناصر الدين محمد بن الملك العادل أبى بكر بن أيوب فى [أواخر] سنة ست عشرة وستمائة ، عندما ملك الفرنج مدينة دمياط ، فنزل فى موضع هذه البلدة ، وخيَّم به ، وبنى قصراً لسكناه ، وأمر من معه من الأمراء بالبناء ، فبنى هناك عدة دور ، ونصبت الأسواق . وأدار [الكامل] عليها سوراً مما يلى البحر ، وستره بالآلات الحربية والستائر[١] "

---

(١) المقريزى : المواعظ والاعتبار — بولاق — ج ١ ، ص ٢١٧ ، ٢٣١ .

وبديهى أن بناء هذه المدينة العسكرية فى ثمانية عشر أشهراً ، فى بقعة من أرض طينية خالية من أحجار البناء والصخور الطبيعية ، لم يتسع لمتانة معمارية أو زخرفة هندسية ، من طراز أيوبى أو غيره من الطرز المعمارية ، بل غلب على عملية البناء كلها طابع السرعة والبساطة ، والمنفعة العسكرية وحدها . وكيفما كان الأمر ، فمن هذه المدينة العسكرية التى اعتبرها المؤرخون منزلة من منازل دلتا النيل ، وسموها لذلك أولا باسم المنزلة فحسب ، أنفذ السلطان الكامل عيونه فى يوليه سنة ١٢٢١ م ، لتحقيق مدى ما ترامى إليه من وصول الحملة الإضافية المنتظرة إلى دمياط ، ولكشف شىء مما رتبه بلاجيوس من خطة حربية ، بعد جموده الطويل . ثم لم تلبث الأخبار أن جاءت إلى السلطان مصدقة بوصول الحملة الإضافية ، لا بقيادة الإمبراطور فردريك الثانى هوهنشتاوفن ، كما كان متفقاً عليه ، بل بقيادة لويس دوق بافاريا ، وهذا فضلا عن عودة الملك حنا برين من عكا إلى دمياط ، للمشاركة بجيشه فيما انعقدت النيات الصليبية البليدة على القيام به ، بعد هذه الشهور الطويلة ، وبعد أن أوشك نهر النيل على موسم الفيضان .

وأخيراً زحف الصليبيون جنوباً فى قوات برية بحرية كبيرة نحو فارسكور ، واستولوا عليها فى منتصف يوليه سنة ١٢٢١ م ، ورتبوا صفوفهم عندها استعداداً لقتال قريب . وزحف السلطان الكامل بدوره شمالا ، فعبر بحر أشموم ، وتقدم نحو شارمساح ، غير أنه رجع عنها إلى معسكره الحصين ، واختار أن يجعل منه محور الارتكاز لجميع خططه المستقبلة . ولذا زحف الصليبيون جنوباً مرة أخرى حتى وصلوا إلى شارمساح واحتلوها ، ومدّوا كتائبهم على طول مجرى بحر أشموم إلى قرب أضحال بحيرة المنزلة ، ولم يفصل بينهم وبين القوات المصرية الأيوبية سوى هذا المجرى المائى ؛ وكان ذلك فى أواخر يوليه سنة ١٢٢١ م .

ويتضح من دراسة الأوضاع الحربية للفريقين ، ومن الأحوال

الداخلية فى المعسكرين ، أن القوات المصرية الأيوبية كانت أحسن مكاناً وجمعاً وروحاً معنوية ، فالمعسكر الكاملى مسيطر على ضفتى النيل الرئيسى ، بما فى ذلك جوجر وطلخا ، متحصن بمواقعه وراء بحر أشموم طناح ، والأمداد الإسلامية المطلوبة واصلة إليه تباعاً من بلاد الشام والجزيرة ، والأرض التى سوف يشتبك عليها الجيشان ذات قنوات وترع كثيرة ، تعرفها القوات المصرية الأيوبية ، ولا يعرفها الصليبيون ، وخاصة بعد أن وضحت تباشير الفيضان . ثم إن الجيش المصرى الأيوبى صار خلواً من المؤامرات والدسائس التى أقلقت السلطان الكامل قبلاً ، كما أنّ أبناء البيت الأيوبى من إخوة السلطان وأقاربه جاءوا إليه على رأس أمدادهم فى حماسة ظاهرة .

وهنا كانت المعرفة بأحوال النيل ، وقنواته ومياه فيضانه ، ذات أثر عظيم فى تطور الحوادث ، إذ غفل الصليبيون فى حركتهم الانتشارية — جنوبى شارمساح على طول بحر أشموم — عن قناة تجرى وقت الفيضان بين النيل وفرع قديم من فروعه ، وسوف تمتلئ هذه القناة وشيكاً بماء الفيضان ، وتصبح حائلاً بينهم وبين خط الرجعة إلى دمياط ، كما غفلوا عن زحف فئات من جيش السلطان الكامل شرقاً ، وعبورها بحر أشموم قرب أضحال المنزلة . ثم حلّ الفيضان فى أغسطس ، وامتلأ هذا وذاك بالماء ، وصار من المتعذّر على الصليبيين أن يعبروا بحر أشموم ، على حين قطعت عليهم الفئات المصرية الأيوبية خط الرجعة إلى دمياط ؛ ووقفت السفن المصرية الأيوبية لسفنهم بالمرصاد فى عرض النيل .

والواقع أن البحرية المصرية الأيوبية اضطلعت وقتذاك بدور حاسم ، إذ استولت على بضع سفن صليبية كبيرة ، محملة بالمؤونة وأدوات القتال ، وأسرت معظم رجالها . ثم أبحر عدد من السفن المصرية الأيوبية فى بحر المحلة ، وهو فرع هامّ كان يخرج وقتذاك من النيل قرب بنها الحالية ، ويلتقى به جنوبى فارسكور . فحالت هذه السفن بين الصليبيين وما سوف يهبط إليهم من النجدات عن طريق النيل من دمياط ، كما قطعت خط الرجعة

كذلك على السفن الصليبية . ثم أمر السلطان الكامل بقطع جسر النيل شمالى طلخا ، فضلا عن قطع الجسر الفاصل بين النيل وبحر المحلة ، ففاض الماء ، وركب مساحة شاسعة من الأرض شمالى مواضع الصليبيين ، وصارت هذه المساحة الغارقة على جانبى النيل حائلا بينهم وبين دمياط ، ما عدا طريق ضيق عند أشموم طناح سدّه السلطان الكامل كذلك بعدد من عساكره .

هكذا انحصر الصليبيون ، وتبددت آمالهم فى الزحف جنوباً نحو القاهرة ، ولم يبق لهم محيص ، إلا أن يشقوا لأنفسهم طريقاً شمالياً نحو قاعدتهم فى دمياط . ولذا أحرقوا خيامهم ومجانيقهم ، وسائر أثقالهم ، واهتبلوا فرصة المستميت للانسحاب فى جنح الظلام ، ليلة السادس والعشرين من أغسطس ، فحال الماء والعسكر بينهم وبين مقصدهم ، ولم يلبثوا أن أدركوا يأس موقفهم . عند ذلك — وليس قبله — انقلب النائب البابوى بلاجيوس إلى مشروع مفاوضة السلطان الكامل ، وطلب منه السماح للصليبيين بالعودة إلى دمياط ، للجلاء عنها فى غير قيد أو شرط أو مساومة جديدة ، إلا ما رضى به السلطان ، وذلك بعد طلب الأمان .

وعقد السلطان الكامل مشوراً ، لتقليب الرأى فيما ينبغى الإجابة به على الصليبيين ، فأشار عليه بعض قادته وأهله من البيت الأيوبى أن يخلّى بين الصليبيين ومأزقهم حتى تنفذ أقواتهم وقواتهم ، فتنتشر بينهم المجاعة ، ويأكل بعضهم بعضا ، أو يأكلهم الطاعون . وأشار بعض آخر بإعطاء الصليبيين الأمان ، من باب العفو عند المقدرة ، وإن كان هذا من غير المألوف فى أبواب السلوك عند قادة الحروب فى كل العصور . وبرهن السلطان الكامل على أنه منطقى مع نفسه — وتلك صفة من الصفات التى لم تذكرها له كتب التراجم ، إذ مال كل الميل إلى الرأى الثانى ، وهو على أية حال رأيه الأصلى ، منذ مجىء الصليبيين إلى الشواطئ المصرية . ولذا بعث السلطان الكامل إلى الصليبيين ليحيطهم بأمانه ، وباستعداده لقبول جلائهم الناجز عن دمياط . ثم انتهى الطرفان إلى هدنة مدتها ثمانية أعوام ، بشرط

موافقة الإمبراطور فردريك الثانى عليها ، كما انتهوا إلى إطلاق كل من الطرفين طوائف الأسرى عنده .

وفى اليوم الثامن من سبتمبر سنة ١٢٢١ م جلا الصليبيون عن دمياط ، ودخلتها القوات المصرية الأيوبية عصر ذلك اليوم نفسه . وقبل ذلك ببضعة أيام كوفئت مدينة المعسكر الكاملى – وهى التى بدأت منها هذه النتائج – باحتفال عظيم شهده السلطان الكامل وإخوته وأبناؤه ، وزعماء الصليبيين ، وعلى رأسهم الملك حنا برين ، والنائب البابوى بلاجيوس ، ودوق بافاريا . وتبادل المهنئون التهانى ، وتبارى الشعراء بقصائد المديح ، وهكذا انتهت الحملة الصليبية المعروفة بالخامسة ، وحُقَّ لمدينة المعسكر الكاملى أن تسمى "المدينة المنصورة" ، على قول المقريزى ، كما حقَّ لها أن تنمو نمواً ملحوظاً ، وأن تصير "مدينة كبيرة بها الحمامات والفنادق والأسواق" ، مع بقاء مبانيها وملامحها العسكرية على حالها ، مدة جيل أو جيلين على أقل تقدير[1] .

وتسامع الشرق والغرب بأخبار الحملة الصليبية التى هدفت إلى الاستيلاء على مصر ، وهال المعاصرين أن استولت هذه الحملة فعلاً على ثغر دمياط لمدة غير قصيرة ، كما هالهم أن رفض الصليبيون مرتين عروض السلطان الكامل ، للجلاء عن مدينة واحدة ، بالغة ما تبلغ فى الأهمية ، مقابل تسليمهم معظم مملكة بيت المقدس . ثم تسامع الشرق والغرب بما رضيت به هذه الحملة من تسليم دمياط ، ومن جلاء سريع عن الشواطئ المصرية ، دون قيد أو شرط . وعلم القديس فرنسيس ، وهو لا يزال بالشام . بتلك النتيجة الخائبة التى أراد هو أن ينقذ الصليبيين منها ؛ وتندر المتندرون ، ومنهم فيليب أغسطس ملك فرنسا ، بغفلة زعماء الحملة ؛ وعكف الدعاة للفكرة الصليبية على إثارة أوربا لحملة أخرى على مصر ، فى المستقبل القريب .

أما أهداف السلطان الكامل ، وسياسته القائمة على قاعدة الهدنة بين الصليبيين والمسلمين ، فلم يحاول فهمها سوى رجل واحد ، هو فردريك الثانى هوهنشتاوفن ، إمبراطور الدولة الألمانية الغربية .

---

(١) انظر ما يلى ، وكذلك المقريزى : المواعظ والاعتبار – بولاق – ج ١ ، ص ٢٣١ .

الفصل الثالث

الهدنة بين المسلمين والصليبيين

١٢٢١ – ١٢٤٨ م = ٦١٨ – ٦٤٦ ه .

ربما يبدو هذا الفصل الثالث غير ذى موضوع ، ولا محلّ له ، فى كتاب عنوانه " حملة لويس التاسع على مصر وهزيمته فى المنصورة " . والحقيقة أن هذا هو ما تبادر إلى عقل المؤلف ، ولزم تفكيره خلال عمله كله ، حتى إذا انتهى منه إلى آخره ، وضحت الحاجة عنده للعودة إلى إدراج هذا الفصل هنا ، بعد استبعاده لاشتماله على مرحلة الهدنة التى أعقبت جلاء الصليبيين عن دمياط سنة ١٢٢١ م ، والتى تطورت إلى سلام حتى سنة ١٢٣٩ م ، ثم انقلبت إلى محاولة صليبية جديدة متشعبة المرامى . وهذه الحوادث فى مجموعها العام هى المقدمات المباشرة التى أنتجت حملة لويس التاسع على مصر سنة ١٢٤٩ م ، وهى لذلك جديرة لا بإدراجها فى فصل بذاته فحسب ، بل بإيرادها فى تفصيل مناسب لوضعها الزمنى . والمدة الزمنية التى استغرقتها حوادث هذا الفصل ثمان وعشرون سنة ، وبديهى أن أهمية هذه المدة ليست لسبقها الزمنى على تاريخ حملة لويس التاسع ، بل لأنها تكشف عن دلالات وإشارات ضرورية لفهم أطوار هذه الحملة الأخيرة من نوعها على مصر ، فى العصور الوسطى .

أما سنوات هذه الهدنة التى أعقبت جلاء الصليبيين عن دمياط ، فلم يحدث خلالها ما يعكر صفو العلاقات الطيبة بين الطرفين ؛ ولذا يدور موضوع هذا الفصل أولاً حول عقد معاهدة سلام بين المسلمين والصليبيين . والفضل

فى هذه المعاهدة يرجع إلى شخصيتين تحتل كل منهما مقاما ممتازاً فى تاريخ العصور الوسطى ، فى الشرق والغرب ، وأولهما السلطان الكامل محمد الذى وقف لأزمة استيلاء الصليبيين على دمياط وقفات مثابرة ، وبرهن على أن اكتساب معركة ديبلوماسية تؤدى إلى هدنة أجدى فى نظره من وقعة حربية تنتهى إلى نصر محتمل ، أو هزيمة . أما ثانيهما ، فهو فردريك الثانى هوهنشتاوفن ، إمبراطور الدولة الألمانية الغربية ، وهو الذى اقترن اسمه بالحملة الصليبية الإضافية التى انتظر النائب البابوى بلاجيوس وصوله على رأسها إلى دمياط ، لكن فردريك أرسل بديلا عنه دوق بافاريا . على أن نصيب الإمبراطور من معاهدة السلام بين المسلمين والصليبيين يتطلب الرجوع قليلا إلى سنة ١٢١٤ م ، حين صار فردريك إمبراطورا ، بمساعدة وصية البابا إنوسنت الثالث ، صاحب الدعوات المشهورة للحملات الصليبية الرابعة والخامسة .

وافتتح فردريك الثانى عهده الإمبراطورى سنة ١٢١٥ م ، وفى عنقه نذر للذهاب فى حملة صليبية ألمانية إلى الشرق ، وأقسم فى حماسة الشباب أن يقوم على رأس حملته المرجوة دون إبطاء ، إرضاء للبابوية التى ساعدته على الوصول إلى العرش الإمبراطورى . غير أن فردريك استطاع تأجيل الوفاء بنذره ، مرة بعد مرة ، بسبب مشاغله الداخلية فى إمبراطوريته . ثم تغيّر موقفه تماما ، بعد أن تزوج سنة ١٢٢٥ م من يولاندا ابنة الملك حنا برين ، والوريثة الشرعية لمملكة عكا ، والإمبراطور فردريك وقتذاك فى الحادية والثلاثين من العمر ، والأميرة يولاندا فى سن الرابعة عشرة . وأصبح الإمبراطور بحق ذلك الزواج صاحب مملكة عكا ، كما أصبح نذره القديم واجبا مزدوجا ، وعليه توفيته واستغلاله فى آن واحد ، وذلك بالذهاب إلى الشرق ، للنظر فى شئون مملكته الجديدة .

وبينما عكفت البابوية على إلحاحها ومطالبتها فردريك بضرورة الإسراع

إلى الذهاب للشرق ، بدأ السلطان الكامل محمد مبادلة الإمبراطور فردريك رسائل ودية ، منذ سنة ١٢٢٦ م ، تمهيداً لتفاهم إسلامى صليبى عام . وكان السلطان الكامل هو الساعى إلى هذا التفاهم ، على يد سفيره فخرالدين يوسف بن حمويه ، بسبب ما خشيه السلطان دائماً من سوء العلاقات المستقبلة بينه وبين إخوته من ملوك البيت الأيوبى بالشام والجزيرة . ولذا أعد فردريك سفناً صليبية صغيرة أبحر هو على رأسها ، من ثغر برنديزى بإيطاليا ، سنة ١٢٢٧ م ، لتحقيق مشروع التفاهم الكاملى الفردريكى المأمول ، وللنظر فى شئون مملكته الجديدة بفلسطين . غير أنه لم تمض بضعة أيام حتى عاد فردريك بسفنه إلى الشواطئ الإيطالية ، بسبب إصابته بالحمى . لكن البابوية اعتبرت المرض تمارضا ، وأعلنت سخطها على الإمبراطور فردريك ، بأن قطعته من رحمة الكنيسة .

ثم توفيت الإمبراطورة يولاندا زوجة فردريك ، سنة ١٢٢٨ م ، بعد أن ولدت له ابنا هو كونراد هوهنشتاوفن ، فأخذ فردريك فى المطالبة بمملكة عكا ، بحق زوجته المتوفاة ، فضلا عن حق الوصاية على ابنه منها ؛ وكل ذلك والملك العجوز حنا برين لا يزال على قيد الحياة . ويبدو أن المراسلات الكاملية الفردريكية وصلت وقتذاك إلى مرحلة الاتفاق على هدنة رضى الطرفان عنها مبدئياً ، ولم يبق إلا أن يذهب الإمبراطور فردريك إلى الشرق ، لتوقيع هذه الهدنة ، وتنفيذ ما يمكن تنفيذه من شروطها فوراً . لذا غادر فردريك إيطاليا فى أسطول صغير ، وفرقة عسكرية صغرى ، عدتها ستمائة فارس ، فى أواخر يوليه ١٢٢٨ م . عند ذلك أصدرت البابوية قراراً ثانيا بقطع الإمبراطور فردريك مرة أخرى من رحمة الكنيسة ، لأنه قرر الذهاب إلى الشرق ، قبل أن ترفع البابوية غضبها وقرار حرمانها عنه ، ودون أن يحصل على إذن خاص منها للقيام بحملته ، ووصفته أشنع الأوصاف الهرطقية المعهودة فى العصور الوسطى ، بل دعت إلى حملة صليبية لمحاربته فى إمبراطوريته ، وهو غائب عنها فى فلسطين .

وفى فلسطين أرسى الإمبراطور فردريك سفنه الصغيرة عند مدينة عكا، فى أوائل سبتمبر سنة ١٢٢٨ م ، حيث استقبل رسل السلطان الكامل ، وهم الأمير فخر الدين يوسف بن حمويه ، وأخوه كمال الدين ، والشريف شمس الدين الأرموى قاضى نابلس ؛ وأول أولئك الثلاثة هو الذى شهد أدوار المفاوضات الكاملية الفردريكية منذ بدايتها . وتم توقيع الهدنة على شروط مماثلة لما عرضه السلطان الكامل سابقاً على زعماء الحملة الصليبية المعروفة بالخامسة ، وهى أن يتسلم فردريك مدينة بيت المقدس وبيت لحم، وأن يكون للصليبيين ممر من الأرض يصل بين عكا وبيت المقدس ، بما فى ذلك اللد ويافا والناصرة والجليل ، على أن يبقى المسجد الأقصى وقبة الصخرة وقرى بيت المقدس فى أيدى المسلمين . واتفق الطرفان أن تظل هذه الهدنة لمدة عشر سنوات ، وأن يمنع فردريك فى أثنائها أية حملة صليبية أوربية عن السواحل المصرية والشامية .

وأعقب الإمبراطور فردريك هذه الهدنة بزيارة المسجد الأقصى ، بإذن من السلطان الكامل ، فى صحبة شمس الدين قاضى نابلس . وطاف فردريك بمزارات المسجد الأقصى ، مستفسراً عنها فى لسان عربى واضح . ولم يكن ذلك غريباً على إمبراطور أجاد الكتابة والكلام فى ست لغات أخرى غير اللغة العربية ، كما لم يكن غريباً على الحاضرين من المسلمين أن يسمعوه وهو يتكلم فى غير لكنة ظاهرة ، فإن كثيراً من الصليبيين الأوربيين المقيمين بالشام كانوا يتكلمون العربية ، منذ استقر مقامهم بالشرق . وبات الإمبراطور فردريك ليلتين بدار القاضى شمس الدين ببيت المقدس ، ثم رحل إلى عكا ، بعد أن توج نفسه بكنيسة القيامة ملكاً على مملكة بيت المقدس .

ولأحد المؤرخين المسلمين المعاصرين فى وصف شخص الإمبراطور فردريك ، وحوادث إقامته بفلسطين ، فقرات شهيرة مبنية على المشاهدة ، ونصها : " وفيها دخل الأنبرور إلى القدس . . . وجرى (كذا) له عجائب ،

منها أنه لما دخل [قبة] الصخرة ، رأى قسيساً قاعداً عند القدم ، يأخذ من الفرنج القراطيس ، فجاء إليه [الأنبرور] كأنه يطلب منه الدعاء ، ولكمه فرماه إلى الأرض وقال له يا خنزير ! ! السلطان قد تصدق علينا بزيارة هذا المكان ، وأنتم تفعلون فيه هذه الأفاعيل . لئن عاد واحد منكم دخل (كذا) على هذا الوجه لأقتلنه . وحكى صورة الحال قوّام الصخرة ، قالوا : ونظر [الأنبرور] إلى الكتابة التى فى القبة ، و[قرأ نصها ، وهو] قد طهر هذا البيت المقدس صلاح الدين من المشركين ، فقال ومن هم المشركون ؟ وقال للقوّام : هذه الشباك التى على أبواب الصخرة من أجل أيش ؟ قالوا [له] لئلا تدخلها العصافير . فقال قد أتى الله إليكم بالخنازير . . . . قالوا وكان الأنبرور أشقر ، فى عينيه ضعف ، لو كان عبداً ما ساوى مائتى دينار . قالوا والظاهر من كلامه أنه كان هدياً[1] ، وإنما كان يتلاعب بالنصرانية . قالوا وكان [السلطان] الكامل قد تقدم إلى القاضى شمس الدين قاضى نابلس أن يأمر المؤذنين — ما دام الأنبرور فى القدس — لا تصعدوا المنائر ، ولا تؤذنوا فى الحرم . فأنسى القاضى أن يعلم المؤذنين ، وصعد عبد الكريم المؤذن فى تلك الليلة فى وقت السحر ، والأنبرور نازل فى دار القاضى ، فجعل يقرأ الآيات التى تختص بالنصارى . . . فلما طلع الفجر استدعى [شمس الدين قاضى نابلس] القاضى عبد الكريم ، وقال له إيش عملت ؟ السلطان رسم كذا وكذا ، قال فما عرفتنى والتوبة . فلما كانت الليلة الثانية ما صعد عبد الكريم المأذنة ، فلما طلع الفجر استدعى الأنبرور القاضى ، وكان

---

(١) كذا فى الأصل ، وهو وارد بصيغة " دهريا " ، فى المقريزى (كتاب السلوك ، ج ١ ، ص ٢٣١ ، حاشية ٣) ، وغيره من المراجع المتأخرة . وهذه الصيغة المثبتة بالمتن هنا مأخوذة ، فيما يبدو ، من لفظ ألمانى الأصل استخدمه فردريك أثناء أحاديثه باللغة العربية المختلطة أحياناً بالألمانية ، أى لفظ (Heiden) ، ومعناه غير مؤمن بدين من الأديان ، ومنطوقه الألمانى مطابق تقريباً لمنطوقه بالحروف العربية .

قد دخل القدس فى خدمته ، وهو الذى سلم إليه القدس ، فقال له : يا قاضى ! أين ذاك الرجل الذى طلع البارحة المنارة ؟ . . فعرّفه أن السلطان أوصاه . فقال الأنبرور : أخطأتم يا قاضى ، تغيّرون أنتم شعاركم وشرعكم ودينكم لأجلى ، فلو كنتم عندى فى بلادى هل كنت أبطل ضرب الناقوس لأجلكم ؟ الله ! الله ! لا تفعلوا ، [هذا] أول ما تنقصون عندنا ، ثم فرّق [الأنبرور] فى القوّام والمؤذنين والمجاورين جملة ، أعطى كل واحد منهم عشرة دنانير ؛ ولم يقم بالقدس سوى ليلتين ، وعاد إلى يافا ، [خوفاً] من الداوية ، فإنهم طلبوا قتله »(١) .

وعاد الإمبراطور فردريك الثانى إلى أوربا فى يونيه ١٢٢٩ م ، دون قتال أو جرحى أو خسائر فى الأرواح ، بل بمكاسب لم تستطع الحملات الصليبية الضخمة أن تعود بها ، منذ أيام صلاح الدين . غير أن الإمبراطور وجد البابوية حانقة على جميع ما حدث أشد الحنق ، لأن الصليبيين لا ينبغى لهم مصالحة المسلمين ، بل يجب عليهم مقاتلتهم حتى النهاية . ثم اقتنعت البابوية أخيراً بفضل فردريك على العالم المسيحى ، وأدركت أن حملته الصليبية السلمية أحرزت من النجاح قدر ما أحرزته الحملة الصليبية المعروفة بالخامسة من فشل ، على قول مؤرخ أوربى فاحص مشهور(٢) . وبذا رضيت البابوية عن الهدنة الكاملية الفردريكية ، كما أعلنت عودة الإمبراطور إلى رحمة الكنيسة ، سنة ١٢٣٠ م .

أما السلطان الكامل محمد ، فلم يقتنع أحد بأنه أدّى بهذه الهدنة خدمة ما للإسلام ، أو للمسلمين . وامتلأت مساجد القاهرة ودمشق وبغداد وغيرها ، بالشانئين الناقمين على السلطان الذى ضحّى بالمصلحة الإسلامية العامة ،

---

(١) سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان — طبعة حيدر أباد ، ج ٨ ، ص ٦٥٥ ، وما بعدها .

(٢) انظر (Barker : The Crusades. P.77) .

من أجل مصلحته الخاصة ، بالتهاون مع الإمبراطور فردريك الثانى ، فى سبيل المحافظة على دولته من عادية إخوته وأقاربه من الأيوبيين . ولم يشفع للسلطان الكامل أنه أرسل البعوث إلى مختلف العواصم الإسلامية ، لشرح فوائد الهدنة للطرفين الإسلامى والمسيحى سواء ، ولا سيما تجنيب مصر والشام ويلات الحروب مدة عشر سنين ، قابلة للتجديد . ولعلّ فى عبارة الفقيه المعاصر ابن الأهدل ،ما يدل دلالة واضحة على مبلغ ما أحس به المسلمون وقتذاك نحو السلطان الكامل ، رغم الدعاية الواسعة التى نهضت بها هذه البعوث ، لشرح سياسته ، ونص هذه العبارة : " وللكامل هفوة جرت منه عفا الله عنه ، وذلك أنه سلّم مرة بيت المقدس إلى الفرنج اختيارا ، نعوذ بالله من سخط الله ، وموالاة أعداء الله " .

غير أنه لا سبيل إلى إنكار أن الهدنة الكاملية الفردريكية أنتجت سلاما عاما بين المسلمين والصليبيين ، منذ سنة ١٢٢٩ م ، لمدة عشر سنوات ، وأن هذا السلام مكّن للسلطان الكامل أن ينصرف انصرافا ناجحا إلى شئون توحيد الدولة الأيوبية ، كما مكّن له الوقوف فى وجه اعتداءات الدولة الخوارزمية الممتدة على طول الأطراف الأيوبية عند الرها ، فضلا عن الدولة السلجوقية بالروم ، وهى الدولة المطلة من الأناضول وآسيا الصغرى على حلب والبلاد الفراتية .

ثم توفى السلطان الكامل محمد بدمشق ، فى مارس ١٢٣٩ م ، وهو فى سن الستين ، وانفرط بذلك عقد الدولة الأيوبية المتحدة للمرة الثالثة ، إذ تولى السلطنة بالقاهرة العادل الثانى بن الكامل ، على حين قام أخوه الأكبر — وهو الصالح أيوب — أميراً فى دمشق ، بعد أن أخرّج الصالح منها قريباً له اسمه الجواد . واستعان الصالح أيوب فى هذه العملية الدمشقية بشراذم من الخوارزمية الذين دخلوا فى خدمته ، منذ انهيار دولة خوارزمشاه نهائياً على أيدى المغول .

غير أن الصالح أيوب عزم على الحلول محل أبيه فى السلطنة الأيوبية المتحدة ، بالقاهرة ، لكنه بينما هو يعد العدة الحربية للزحف على مصر ، طرده عمّه الصالح إسماعيل من إمارة دمشق ، وأقام نفسه بها . وبذا تشرد الصالح أيوب مدة غير قصيرة ، وقبض عليه قريب آخر له اسمه الناصر داود أمير الكرك ، وتبددت بذلك أحلامه فى الوصول إلى القاهرة . ثم اتفق الصالح أيوب الشريد ، والناصر داود أمير الكرك ، على حملة مزدوجة للهجوم على مصر . ولم يكن الموقف السياسى بالقاهرة بحاجة فى الواقع إلى مثل هذه الخطوة الإيجابية ، إذ استطاعت مؤامرة داخلية بالقاهرة أن تخلع العادل الثانى فى غير جلبة ، وأن تدعو الصالح أيوب لاعتلاء السلطنة بدله ؛ وكان ذلك فى يونيه سنة ١٢٤٠ م .

وكافأ السلطان الصالح أيوب قريبه الناصر داود على موقفه الودّى منه ، بأن جعله حاكما على الكرك وعموم فلسطين ، على حين ظل الصالح إسماعيل متربعاً فى إمارة دمشق . وبذا غدت الدولة الأيوبية منقسمة على نفسها ، من غير حرب سافرة بين أبناء البيت الأيوبى . وتعدى ذلك الانقسام إلى سائر أجزاء الدولة الأيوبية ، إذ استغلت تلك الحال شراذم الخوارزمية العاملة رسمياً فى خدمة السلطان الصالح أيوب ، فجعلت الملك الأيوبى المظفر صاحب ميافارقين معدوم السلطة فى إمارته ، وبسببهم كذلك غدا الملك المعظم تورانشاه بن السلطان الصالح أيوب عاجزاً عن المحافظة على حصن كيفا ، ضد اعتداءات جيوش السلاجقة من أطراف الروم (آسيا الصغرى) ، كما غدا الملك الناصر يوسف صاحب حلب ، فضلا عن أقاربه فى حمص وحماة ، يتمنون زوال السلطان الصالح أيوب ، لأنه ظهير الخوارزمية .

وفى أثناء هذا الاضطراب الداخلى فى الدولة الأيوبية دنا أجل الهدنة الكاملية الفردريكية ، وكانت البابوية ترقب ذلك الميعاد ، وتستعد له ، فأرسلت إلى ملوك إنجلترا وفرنسا والإمبراطور فردريك الثانى تطلب

اشتراكهم فى حملة صليبية جديدة ، وأنفذت دعاتها إلى مختلف الأقاليم الأوربية لذلك الغرض . غير أن النداء البابوى لم يلق مجيباً فى البلاطين الإنجليزى والفرنسى ، على حين أعلن فردريك الثانى أنه يأمل الحصول بالديبلوماسية على شروط سلمية أحسن من شروط الهدنة الوشيكة الانتهاء ، وذلك بالتدخل بين ملوك البيت الأيوبى المنقسمين على أنفسهم . ومع هذا اجتمعت حملة صليبية ضخمة معظمها فرنسى ، بقيادة تيبالد الشمبانى ملك نافار ، وانضمت إليها فئات فرنسية أخرى ، من برجنديا ونيفر وبريتانى وغيرها .

ثم أبحرت هذه الحملة الصليبية من ميناءى أيجمور ومرسيليا بجنوب فرنسا ، فى أغسطس سنة ١٢٣٩ م ، وأرست سفنها فى اليوم الأول من الشهر التالى عند عكا ، وهو يوم انتهاء أجل الهدنة الكاملية الفردريكية ، حيث أنزلت جيشاً عدته بضعة آلاف من الفرسان والرجّالة . وكان الخلاف بين ملوك البيت الأيوبى وقتذاك على أشده ، والعادل الثانى لا يزال سلطاناً فى مصر ، فرأى فريق من الشخصيات الصليبية المحلية ، ورأى معهم جماعة من زعماء الحملة الجديدة ، أن تتجه الجهود مرة أخرى نحو غزو مصر ، لما فى ذلك من ضمان لحيدة سائر ملوك البيت الأيوبى ، لأنهم مجمعون تقريباً على كراهة العادل الثانى والمحيطين به . ورأى فريق آخر من الزعماء الصليبيين المحليين والأوربيين أن الخطر المباشر على الأراضى الصليبية دائماً هو دمشق ، وأن المصلحة الحقيقية توجب الهجوم عليها ، وملوك الأيوبيين بما لديهم من خلاف مشغولون .

ولم يشأ الملك تيبالد أن يرجح رأياً على رأى ، بل قرر القيام على تنفيذ هذا وذاك ، بالهجوم أولا على الأطراف المصرية عند عسقلان وغزة ؛ حتى إذا اطمأن بذلك إلى تأمين الأراضى الصليبية من ناحية الجنوب ، تحول فى سرعة إلى مهاجمة دمشق . وبناء على هذا القرار العظيم التفاؤل زحفت حملة الملك تيبالد من عكا ، فى أوائل نوفمبر سنة ١٢٣٩ م ، صوب

الأطراف المصرية ، وهاجمت فرقة منها قافلة إسلامية كبيرة جنوبي يافا ، واستولت على متاعها غنيمة باردة . وأثارت هذه الفعلة غضب الملك الناصر داود أمير الكرك وعموم فلسطين ، وجعلت منه عدواً للحملة التي بنت أعمالها على قاعدة التظاهر بالودّ نحو ملوك البيت الأيوبي بالشام .

وبينما الملك تيبالد في طريقه قرب غزة ، جاءت إليه أنباء بوصول جيش مصري أيوبي إلى الأطراف المصرية ، بقيادة أمير مملوكي اسمه ركن الدين بيبرس ، وهو غير بيبرس الذي صار فيما بعد سلطاناً مشهوراً . وأخطأت المعلومات الصليبية في تقدير قوة هذا الجيش ، واستهانت به وبقائده . ثم اقتربت الفرقة الصليبية من غزة ذات يوم في الفجر ، تريد اقتحامها فجأة ، والمدينة نائمة ، فلم تلبث هذه الفرقة أن وجدت نفسها محوطة بالجيش المصري الأيوبي إحاطة تكاد تكون تامة ، ووقع معظم رجالها أسرى في أيدي الأمير ركن الدين ، وفرّ الباقون إلى عسقلان . عند ذلك أمر الملك تيبالد بالزحف العام نحو غزة ، غير أنه لم يجد استجابة ، إذ خشي الفرسان الباقون وجنودهم سوء المصير ، بعد أن ذاعت بينهم أخبار الكثرة العددية في الجيش المصري الأيوبي ؛ ولذا انقلب أمر الزحف الصليبي جنوباً نحو غزة إلى تقهقر شمالاً إلى عكا . وتشجع الملك الناصر داود ، فهبّ للانتقام من الهجوم السابق على القافلة الإسلامية داخل جغرافيته ، وزحف على بيت المقدس بغتة ، واحتلها بعد تسليم حاميتها له ، في السابع من ديسمبر تلك السنة ؛ وهدم الملك الناصر تحصينات بيت المقدس الجديدة ، ثم رجع عنها إلى عاصمته بالكرك .

ونتيجة لهذه الخاتمة التي انتهى إليها الشطر الأول من أهـــداف هذه الحملة ، تحول الملك تيبالد شمالاً نحو إمارة طرابلس الصليبية ، استعداداً لتلبية نداء وصل إليه من الملك الأيوبي المظفر أمير حماة ، لمساعدته ضد تهديدات الملوك الأيوبين أعمامه وأقاربه ، أصحاب حلب وحمص ودمشق

والكرك . غير أن هذه التهديدات المتبادلة بين أبناء البيت الأيوبى لم تتطور إلى حرب حامية ، وبالتالى لم تتطلب من الملك تيبالد وحملته الصليبية حركة لمساعدة المظفر أمير حماة . ولذا بقيت هذه الحملة حائرة فى طرابلس ، ووقعت فى أثناء إقامتها بتلك المدينة حوادث خلع العادل الثانى بالقاهرة ، وحلول الصالح أيوب محله فى سلطنتها .

غير أن قيام الصالح أيوب فى السلطنة بالقاهرة ، أدى إلى تدهور العلاقات بينه وبين الملك الصالح إسماعيل ، صاحب دمشق . وهنا لاحت فرصة جديدة للملك تيبالد ، فأسرع بحملته جنوباً ، وعسكر عند صفورية ، وهى البلدة التى اجتمعت عندها الجيوش الصليبية يوماً ، قبيل وقعة حطين . ثم لم يلبث أن جاء إلى الملك تيبالد فى معسكره ، فى يوليه سنة ١٢٤٩ م ، رسول من عند الصالح إسماعيل ، يطلب مدداً صليبياً ، لحماية دمشق من هجوم يحتمل صدوره من ناحية مصر والكرك ، بقيادة الحليفين الأيوبيين الجديدين ضدها ، وهما السلطان الصالح أيوب والملك الناصر داود أمير الكرك . وفى مقابل هذه المساعدة الصليبية ، وعد الملك الصالح إسماعيل بتسليم صفد وما حولها من الحصون للصليبيين ؛ وتم الاتفاق على ذلك ، كما تم تنفيذ شروطه فى أغسطس سنة ١٢٤٠ م . ولذا انتقل الملك تيبالد بحملته الحائرة إلى المنطقة الساحلية بين يافا وعسقلان ، للانضمام إلى جيش الصالح إسماعيل .

غير أن السلطان الصالح أيوب استطاع — بالدعاية الدينية — أن يؤلب أهل دمشق ضد حلف الصالح إسماعيل مع الصليبيين ، كما استطاع بالديبلوماسية أن يغرى إلى جانبه الملك تيبالد ، وذلك بوعده إطلاق سراح أصحابه من أسرى وقعة غزة . ولذا انتهى هذا الحلف إلى لا شىء ، وغضب الصليبيون المحليون من نكث الملك تيبالد لاتفاقه مع دمشق وملكها الصالح إسماعيل ، حتى أنه لم يبق له سوى أن يغادر بحملته مدينة عكا إلى أوربا ، فى أواخر سبتمبر سنة ١٢٤٠ م .

. وهكذا انتهت هذه الحملة الصليبية التى ظنت أن فى مقدورها هدم المقاومة الإسلامية ، بالقاهرة ودمشق على التعاقب ، ولم تستطع تحقيق شىء من هذا الحلم المزدوج العريض ، بل فشلت فى كل خطوة من خطواتها ، ما عدا الاستيلاء على عسقلان وصفد . وربما يرجع إلى هذا الفشل عدم تسمية هذه الحملة باسم عددى فى كتب الحروب الصليبية ، ولو أنها استطاعت أن تستولى على دمشق ، أو أن تنفذ بجيوشها من غزة إلى الأراضى المصرية ، لأضفى عليها المؤرخون الأوربيون اسم الحملة الصليبية السابعة مثلاً ، نظراً لما انعقد عليها من الآمال ، بعد سنوات طويلة من الهدنة الكاملية الفردريكية . لكن المقادير شاءت أن تدخر هذه التسمية لحملة لويس التاسع على مصر ؛ وذلك بعد تسع سنين من رحيل الملك تيبالد وحملته الصليبية عن الشرق .

وفى هذه السنوات التسع وقعت حوادث كبيرة وصغيرة ، وهى المسئولة فى مجموعها عن حملة لويس التاسع على مصر ، وهى لذلك جديرة بتحليل على مقياس واسع . وأول هذه الحوادث وصول أمير إنجليزى اسمه ريتشارد كورنول ، على رأس حملة سلمية إلى عكا ، فى أكتوبر سنة ١٢٤٠ م ، وهو أخو هنرى الثالث ملك إنجلترا ، وأخته زوجة ثانية للإمبراطور فردريك الثانى ؛ وجاء ريتشارد كورنول إلى الشرق بتعليمات من عند الإمبراطور فردريك الثانى ، لترتيب أحوال مملكة عكا ، وتهدئة ما بين أحزابها من اختلافات ومنافسات طاحنة ، مع تنظيم علاقاتها بالسلطنة الأيوبية بالقاهرة ، على قاعدة تجديد الهدنة ، بشرط احتفاظ الصليبيين بما كسبوا من عسقلان وصفد ، أيام حملة تيبالد الشمبانى . واستقبل ريتشارد من أجل ذلك سفراء السلطان الصالح أيوب فى عسقلان ، وفاوضهم بها ؛ كما استقبل السلطان الصالح أيوب سفراء من عند ريتشارد بالقاهرة ، ومعهم رسالة من عند الإمبراطور فردريك الثانى ،

لتهنئته بالسلطنة . لذا لم يكن عجباً أن تنتهى هذه الحركات الودية بالنجاح ، وأن تغدو الدولة الصليبية فى فلسطين كأنما عادت إلى مساحتها القديمة ، بعد أن عادت إليها جميع أراضيها غربى نهر الأردن ، على طول الساحل الفلسطينى حتى ضواحى مدينة غزة ، فضلا عن طبرية وبضع مدن داخلية أخرى .

ثم أبحر ريتشارد كورنول من عكا ، فى مايو سنة ١٢٤١ م ، عائداً إلى بلاده ، بناء على طلب من أخيه هنرى الثالث ملك إنجلترا ، بعد أن دلّ هذا الأمير على صلاحية فريدة ، ليكون نائباً عن الإمبراطور فردريك الثانى فى مملكة عكا . ولذا كان رحيله مؤذناً بعودة الفتنة الداخلية إلى مملكة عكا مرة أخرى ، وانقسام الرأى السياسى فيها إلى رأيين متعاكسين ، أحدهما جانح إلى السلام مع سلطان مصر وسائر الملوك الأيوبيين ؛ وثانيهما مقيمٌ على فكرة استمرار العداوة والبغضاء بين المسلمين والصليبيين ، إشباعا لروح التقوى العسكرية .

وتزعم الرأى الثانى من هذين الرأيين طائفة الفرسان الداوية ، أصحاب النفوذ والممتلكات الواسعة وقتذاك بفلسطين ؛ وأغار جنودها فى ربيع سنة ١٢٤٢ م على مدينة حبرون ، وهى تابعة للملك الناصر دواد صاحب الكرك ، وحليف السلطان الصالح أيوب . فأجاب الناصر داود على هذه الحركة الاعتدائية التى لا مبرر لها ، بأن أرسل فرقة من جيشه لقطع طريق الحاج المسيحى من الساحل الفلسطينى إلى بيت المقدس ؛ ولفرض رسوم ومقررات مالية على الحجاج والتجار الواردين على ذلك الطريق . غير أن الفرسان الداوية لم يزدادوا إلا عتوًّا ، إذ أنفذوا فرقة منهم إلى نابلس فى أكتوبر سنة ١٢٤٢ م ، فخربتها وأحرقت مسجدها ، وأنزلت بأهلها من المسلمين والمسيحيين مذبحة كبيرة .

وهنا تدخل السلطان الصالح أيوب ، لإيقاف اعتداءات الداوية عند حد ، فبعث جيشاً حاصر قاعدتهم فى يافا حصاراً قصيراً ، كما بعث جيشاً آخر لمهاجمة غزة مرتين ؛ واكتفى بذلك موقتا ، ريثما يسوّى حسابه مع

عمه الملك الصالح إسماعيل ، صاحب دمشق . وكان الداوية وحزب الحرب من الصليبيين المحليين يعملون على بناء حلف بينهم وبين الملك الصالح إسماعيل ، بل إنهم اجتذبوا إلى ذلك الحلف عدوّهم القديم الملك الناصر داود صاحب الكرك ، وكذلك الملك المنصور إبراهيم صاحب حمص . وفى مقابل ذلك الحلف الغريب . وبما به من الوعد الصريح بالمساعدة الحربية ضد السلطان الصالح أيوب . نزل الصالح إسماعيل للصليبيين عن منطقة المسجد الأقصى وقبة الصخرة ، وهى المنصوص فى الهدنة الكاملية الفردريكية على بقائها فى أيدى المسلمين . وهلّلت الدوائر الصليبية لذلك الحلف الذى أنتجته العداوات بين ملوك البيت الأيوبى ، وكتب رئيس طائفة الفرسان الداوية إلى أوربا ، أواخر سنة ١٢٤٣ م ، يعلن أخبار الاحتلال الصليبي لمنطقة المسجد الأقصى وقبة الصخرة كلها . ثم جاء الملك المنصور إبراهيم صاحب حماة إلى عكا ، فى ربيع السنة التالية (١٢٤٤ م) ، للمصادقة النهائية على ذلك الحلف الشائن ، ووعد الصليبيين بجزء من مصر ، بعد هزيمة السلطان الصالح أيوب ؛ وأقام المنصور هذا بعكا مدة ، تمتع خلالها بحفاوة بالغة رتبتها له طائفة الفرسان الداوية .

غير أن جيوش ذلك الحلف الأيوبى الصليبي لم تكن شيئاً ، بالقياس إلى ما لدى السلطان الصالح أيوب من قوة حربية كبيرة ، تساندها موارد مصر من المال والأسلحة ، فضلا عن شخصية السلطان نفسه . ذلك أن فئات الخوارزمية التى أدخلها السلطان الصالح أيوب فى خدمته منذ سنة ١٢٤٠ م ، وألقى الرعب بها فى قلوب ملوك البيت الأيوبى بالشام ، كانت فى الواقع جزءاً صغيراً من جموع خوارزمية هائمة فى الأراضى الواسعة الممتدة بين الرها وحرّان ، مستعدة لتأجير خدماتها الحربية لأية جهة راغبة فى تأجيرها . فلما تقرّر هذا الحلف الأيوبى الصليبي العجيب أرسل السلطان الصالح أيوب إلى قادة هذه الجموع الخوارزمية ، وأدخلهم وجموعهم

فى خدمته ، وأغدق عليهم من موارده الوفيرة ، وكلفهم بالاستيلاء على دمشق وبيت المقدس .

وبناء على ذلك التكليف عبرت الجموع الخوارزمية نهر الفرات إلى الشام ، فى يونيه سنة ١٢٤٤ م ، وعدتها عشرة آلاف من الخيالة ، وعلى رأسهم قادتهم حسام الدين بركه خان ، وخان بردى ، وصاروخان ، وكشلوخان . وهبطت هذه الجموع على البلاد الشامية تريد الاستيلاء فى سرعة على دمشق ، غير أنهم لم يلبثوا أن وجدوا أنفسهم بحاجة إلى حصارها ، وليس لديهم شىء من المعدات الثقيلة اللازمة لأعمال الحصار . ولذا تحولوا عن دمشق جنوباً إلى منطقة الجليل ، حيث استولوا على طبرية ، واحتلوا نابلس ، وزحفوا منها نحو بيت المقدس . ولم تستطع حامية بيت المقدس الصليبية أن تقاومهم طويلاً ، لضعف حصونها الجديدة ، وقلة ما لديها من أسلحة ؛ فدخلتها جموع الخوارزمية فى الحادى عشر من شهر يوليه من تلك السنة ، بعد أن أعطت الأمان لحاميتها . وأعلن الخوارزمية موافقتهم على جلاء المسيحيين من أهل بيت المقدس بأموالهم إلى حيث يريدون ، فخرجوا منها إلى يافا أواخر أغسطس . وهكذا فقد الصليبيون مدينة بيت المقدس ، وضاع منهم فى بضعة أشهر ما اجتهدت الهدنة الكاملية الفردريكية فى المحافظة عليه لعدة سنين ، وباتوا فى حال شبيهة بحالهم بعد الفتوح الصلاحية العظمى .

ثم رحل الخوارزمية عن بيت المقدس جنوباً مرة أخرى نحو غزة ، للانضمام إلى الجيش المصرى الأيوبى الرابض على مقربة منها ، بقيادة الأمير ركن الدين بيبرس ، صاحب الانتصار السابق هناك على الصليبيين .

وفى تلك الأثناء تجمعت حول عكا قوات من عند الملك الصالح إسماعيل صاحب دمشق ، والملك المنصور إبراهيم صاحب حمص ، والملك الناصر داود صاحب الكرك ، تنفيذاً لاتفاقية الحلف الأيوبى الصليبى ؛ وبلغت هذه القوات الأيوبية بضعة آلاف بين راكب وراجل . وهناك تجمعت

كذلك قوات مملكة عكا ، وسائر المراكز الصليبية حتى صور وأنطاكية وطرابلس ؛ وقدّر أحد المؤرخين الأوربيين الحديثين ، بأن هذه القوات الصليبية المحلية كانت فى مجموعها أعظم ما جمع الصليبيون المحليون من جند ، منذ وقعة حطين[1] .

ثم زحفت هذه القوات المتحالفة أوائل أكتوبر سنة ١٢٤٤ م ، من عكا جنوباً على طول الساحل ، وما زالت فى زحفها حتى عسقلان ، حيث دقت أوتادها وحصّنت مواقعها ، استعداداً لحرب عنيدة ، حسب خطة حربية رسمها الملك المنصور إبراهيم صاحب حمص ، وهو الذى صار له شئ من القيادة العامة بين جنود الحلف جميعاً . وقامت هذه الخطة الحربية على قاعدة أن الخيالة الخوارزمية التى تكوّن منها العمود الفقرى للجيش المصرى الأيوبى وقتذاك ، لا تميل بطبيعتها إلى مهاجمة المواقع الحصينة ، وأن الجيش المصرى الأيوبى وحده لن يزحف شمالاً أو يشن هجوماً كبيراً ، وأن تحصين عسقلان والوقوف خارجها بالجيوش الصليبية الأيوبية المتحالفة كلها سوف يؤدى لذلك — عاجلا أو آجلا — إلى رحيل الخوارزمية ، ورجوع الجيش المصرى الأيوبى إلى قواعده وراء غزة ، دون قتال .

غير أن الحوادث كذبت هذا الحساب ، إذ تقدم الجيش المصرى الأيوبى والخيالة الخوارزمية شمالاً ، واصطدمت الخوارزمية بالجيوش المتحالفة اصطداماً عنيفاً غير منتظر ، عند قرية حربيا الحالية (وهى قرية لافوربى زمن الصليبيين) ، فى منتصف الطريق تقريباً بين غزة وعسقلان ، وذلك فى السابع عشر من أكتوبر سنة ١٢٤٤ م . وهكذا انقلبت الخطة الحربية المرسومة رأساً على عقب ، وانهار الركن الأول من أركانها . ومع هذا ظنت القيادة المتحالفة أن الكثرة العددية فى جيوشها ، فضلا عن استناد

---

(١) انظر (Runciman : Op. Cit. III pp. 225) .

هذه الجيوش إلى مواقع حصينة فى موخرتها عند عسقلان ، سوف تأتى لها بنصر نهائى على الجيش المصرى الأيوبى والخيالة الخوارزمية . ثم لم تكن سوى بضع ساعات من ذلك اليوم حتى انجلى الاصطدام عن تدمير الجيوش المتحالفة ، ولا سيما الجيوس الصليبية التى أفردتها الخيالة الخوارزمية بأشد هجماتها عنفاً . وبلغ عدد القتلى من الصليبيين وحدهم فى تلك الوقعة خمسة آلاف ، على أقل تقدير ، كما بلغ عدد الأسرى منهم ثمانمائة ، أى أنه لم ينج منهم سوى فئة قليلة استطاعت الفرار إلى يافا ، والإبحار منها فى سرعة إلى عسقلان .

والخلاصة أن وقعة حربيا[1] أحدثت بالصفوف الصليبية مثلما أحدثته حطين قبلاً ، على وجه التقريب . وهذه الوقعة معروفة فى كتب الحروب الصليبية باسم وقعة غزة ، لسبب غير مفهوم[2] ، مع العلم بأن غزة شهدت انتصاراً إسلامياً سابقاً يكفل لها شهرتها وفضلها فى تلك الأزمنة . على أن موضع الأهمية هنا هو أن فقدان مدينة بيت المقدس فى يوليه سنة ١٢٤٤ م ، وخسران وقعة حربيا فى أكتوبر من السنة نفسها ، جعل الصليبيين المحليين فى يأس من جدوى أى عمل إيجابى من جانبهم فى فلسطين ، كما جعل مصيرهم بها موضع تفكير عميق فى بعض الدوائر الصليبية ، فى غرب أوربا .

أما الخيالة الخوارزمية المنتصرة ، فأسرعت راكضة ومعها الجيش المصرى الأيوبى ، بقيادة الأمير ركن الدين بيبرس والأمير حسام الدين أبو على الهذبانى إلى عسقلان ، أملاً فى الاستيلاء عليها سريعاً ، فى أعقاب وقعة حربيا ؛ غير أن عسقلان امتنعت على المهاجمين بفضل حصانتها ، ولم تستطع الخيالة الخوارزمية

---

(١) انظر وصفاً معاصراً لهذه الوقعة فى سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان — طبعة حيدر أباد ، جـ ٢ ، ص ٧٤٥ — ٧٤٧ .

(٢) حدد أبو شامة : الذيل على الروضتين ، ص ١٧٤ ، مكان هذه الوقعة بأنه " بين عسقلان وغزة " ، أى حربيا المذكورة بصيغتها الفرنسية (La Forbie) فى المراجع الأجنبية .

صبراً على حصارها ، فتركت هذه المهمة للجيش المصرى الأيوبى ، والسفن المصرية الأيوبية التى جيء بها خصيصاً لتطويق هذا الميناء الهام فى البر والبحر. ثم زحفت الخيالة الخوارزمية إلى يافا ، فلقيت من حصانتها مثلما لقيت من حصانة عسقلان، فتحولت عنها إلى غزة، وطلبت من السلطان الصالح أيوب أن يأذن لها فى دخول الأراضى المصرية . غير أن السلطان لم يشأ أن يأذن بذلك، لأنه قصد باستخدام الخوارزمية أن تساعده جموعهم على أخذ بيت المقدس ودمشق ، لا المجىء بأعدادهم الكبيرة الخطيرة إلى مصر . ولذا اكتفت الخيالة الخوارزمية بالعيث بين البلاد الصليبية حتى عكا لعدة أشهر ، ريثما يتم إعداد الجيش المصرى الأيوبى الذى عزم السلطان الصالح أيوب على إنفاذه ، للاستيلاء على دمشق .

ثم وصل هذا الجيش المصرى الأيوبى أخيراً إلى غزة، بقيادة الأمير معين الدين حسن بن شيخ الشيوخ ، حيث انضافت إليه الخيالة الخوارزمية ، وسار الجميع نحو ممتلكات الملك الناصر صاحب الكرك ، فاستولوا على البلاد التابعة له غربى نهر الأردن ، وهى حبرون وبيسان ونابلس . ثم زحفوا نحو دمشق ، وحاصروها فى أبريل سنة ١٢٤٥ م ، وبها صاحبها الملك الصالح إسماعيل ، ومعه الملك المنصور صاحب حمص . وامتد هذا الحصار ستة أشهر ، وعاثت الخيالة الخوارزمية فى أثنائه بضواحى دمشق ، وقطعت الطرقات على الناس ، كما فتح الملك الصالح إسماعيل سدود نهر بردى ، وأغرق الأراضى حول الأسوار الدمشقية حتى غدت هذه الأراضى مستنقعات وأوحالا . وفى أثناء هذا الحصار بعث الملك الصالح إسماعيل إلى القائد الأمير معين الدين سجادة وإبريقاً وعكازاً ، ومعها رسالة يقول له فيها : " اشتغالك بهذا أولى من اشتغالك بقتال الملوك " ، فبعث القائد معين الدين إلى الملك الصالح إسماعيل أدوات موسيقية وملابس حريرية حمراء

وصفراء ؛ ومعها ردّ تهكّمى من نوع رسالته[1] ، ويقترح فيه أن يلهو الصالح إسماعيل بهذه الأدوات والملابس لهو الخاملين من الملوك . وأخيراً أدت شدة الحصار المصرى الأيوبى إلى تسليم دمشق ، وخرج الملك الصالح إسماعيل فى النهاية منها بعد تسليمها ، مقابل تعويضه عنها ببعلبك وحوران ، مع ضمان عودة المنصور إبراهيم إلى إمارته فى حمص .

غير أنه مما يدعو إلى الالتفات هنا أن القائد معين الدين منع الخيالة الخوارزمية من دخول دمشق ألبتة ، وأن الزعماء الخوارزميين لم ينالوا شيئاً من التقدير ، مكافأة لهم على اشتراكهم فى حصار دمشق . ولذا لم يلبث الخوارزمية أن انقلبوا على السلطان الصالح أيوب . وأعلنوا انضمامهم إلى الملك الصالح إسماعيل ، ودخولهم فى خدمته ببعلبك . وسرعان ما زحف الملك الصالح إسماعيل بالخيالة الخوارزمية صوب دمشق . واستعان بهم على حصارها أوائل سنة ١٢٤٦ م . وظن الملك الصالح إسماعيل أن سوف يلحق به إلى هناك حلفاؤه الصليبيون القدماء ، فضلا عن سائر ملوك البيت الأيوبى الكارهين لامتداد سيطرة السلطان الصالح أيوب إلى الشام . غير أن الكراهية العامة ضد الخيالة الخوارزمية كانت هى الأقوى ، ولا سيما بعد أن بذلت ديبلوماسية السلطان الصالح أيوب من الوعود المغرية . والعطايا المالية الكبيرة . ما ألجم ألسنة الملك المنصور إبراهيم صاحب حمص والناصر صاحب حلب وغيرهما من الملوك الأيوبيين بالثناء ، فضلا عن الموافقة على حرب الملك الصالح إسماعيل والخيالة الخوارزمية .

وخرج السلطان الصالح أيوب من القاهرة فى مارس سنة ١٢٤٦م ، لقيادة ذلك الحلف الأيوبى الجديد ضد عمه الصالح إسماعيل . وفى عزمه إجلاؤه وأحلافه الخوارزمية عن حصار دمشق ، بأى ثمن . على أن الملك المنصور إبراهيم صاحب حمص وفّر عليه القيام بهذا العمل . إذ زحف بعسكر كبير من

---

(١) سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان — طبعة حيدرأباد ، ج ٢ ، ص ٧٥٢ .

حمص وحلب ، واتجه نحو دمشق راغباً فى الحصول على فضل السبق فى إنهاء حصارها بنفسه ، من باب التدليل على إخلاصه لسلطان مصر . وخشى الملك الصالح إسماعيل أن يكون ذلك الزحف بداية لحركة تطويقية متفق عليها بين المنصور إبراهيم والسلطان الصالح أيوب ، للإحاطة به من الشمال والجنوب ، أو للاجتماع عليه فى قوة مزدوجة تكفل إبادته وأحلافه من الخيالة الخوارزمية . ولذا بادر الصالح إسماعيل إلى رفع الحصار عن دمشق ، ورحل عنها شمالاً للوقوف فى طريق زحف الملك المنصور إبراهيم ، على حين وصل السلطان الصالح أيوب إلى دمشق ، ودخلها دون قتال .

ثم التقى الملك الصالح إسماعيل والخيالة الخوارزمية بالعسكر الحمصى الحلبى ، فى مايو سنة ١٢٤٦م ، عند بعلبك ، حيث وقعت بين الصالح إسماعيل وبين الملك المنصور إبراهيم وقعة حاسمة ، انهزمت فيها الخيالة الخوارزمية هزيمة قبيحة ، تبدد فيها شملهم ، ولم تقم لهم بعدها قائمة ، على قول المقريزى(١) . والحقيقة أن هزيمة بعلبك كانت أحسن وقعاً عند السلطان الصالح أيوب من أخذه دمشق ، لأنها أسدلت ستار التاريخ على الخوارزمية ، ولأنه لم يبق منهم بعدها سوى شراذم قليلة ، صحب بعضها الملك الصالح إسماعيل فى هروبه إلى شمال الشام ، ودخل بعضها خدمة الملك الناصر داود صاحب الكرك ، وهامت بقيتها شرقاً حتى التحقت بالجيوش المغولية المبعثرة فى ميادين غرب آسيا .

وهكذا شاءت الصدفة الحميدة أن تذهب جميع مشاكل السلطان الصالح أيوب الداخلية بدداً فى سنة واحدة ، وهى سنة ١٢٤٦ م ، وأن تغدو الدولة الأيوبية مرة أخرى كتلة متحدة شاملة لمصر والشام والبلاد الفراتية ، ما عدا إمارات حمص وحلب وحماة ، وهى على أية حال إمارات أيوبية معترفة بالصدارة عليها للسلطان الصالح أيوب . ولذا كان من الطبيعى أن ينصرف السلطان الصالح أيوب إلى ما تخلف لديه من مشاكل خارجية من

---

(١) المقريزى : كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك — نشر زيادة — ، ج ١ ، ص ٣٢٤ .

ناحية الصليبيين ، فاستطاع جيش مصرى أيوبى بقيادة الأمير فخر الدين يوسف ابن شيخ الشيوخ استرداد مدينة طبرية ، فى يونيه سنة ١٢٤٧ م ، فضلا عن حصنى جبل الطور وكوكب الهواء ، بعد ذلك بقليل . ثم زحف ذلك الجيش المصرى الأيوبى نحو عسقلان التى توقف حصارها منذ مدة ، بسبب انضمام الأمير ركن الدين بيبرس إلى الخوارزمية ؛ فضرب الأمير فخر الدين بن شيخ الشيوخ عليها الحصار ، كما أحاط ميناءها بسفن مصرية أيوبية عدتها واحد وعشرون غليونا . وبذلت حامية عسقلان الصليبية مقاومة مستميتة من وراء حصونها المانعة ، وجاءت إليها من عكا وجزيرة قبرص نجدة برية بحرية كبيرة فى خمسة عشر غليوناً ، وخمسين سفينة صغيرة . واشتبكت هذه النجدة الصليبية الضخمة بالسفن المصرية الأيوبية فى عرض البحر ، وتغلبت عليها لكثرتها العددية ، وبذا استطاعت أن تصل إلى ميناء عسقلان ، وأن تمد حاميتها الصليبية بالجند والمؤونة . غير أن استمرار سوء الأحوال الجوية أدى بهذه النجدة إلى الرحيل إلى عكا وقبرص ، فعادت السفن المصرية الأيوبية إلى تطويق الميناء ، وأمست عسقلان بذلك محوطة من البر والبحر . ولهذا انهارت المقاومة الصليبية تماماً ، ودخل الجيش المصرى الأيوبى عسقلان فى الخامس عشر من أكتوبر سنة ١٢٤٧ م ، وهدم الأمير فخر الدين يوسف حصونها القوية التى طالما استعصت على كل المحاولات السابقة للاستيلاء عليها ، منذ أيام صلاح الدين .

هكذا كانت كارثة عسقلان هى الكارثة الثالثة على الصليبيين ، فى مدة لا تزيد على ثلاث أو أربع سنين ، واكتفى السلطان الصالح أيوب بهذه التوفيقات المتوالية التى نالها ضد الصليبيين والملوك الأيوبيين المعارضين له ، فلم يستغل الحال الصليبية الكئيبة الناجمة عن طردهم من عسقلان ، بالزحف مثلاً على عكا أو طرابلس أو أنطاكية ، بل اكتفى بالذهاب زائراً إلى مدينة بيت المقدس ، حيث أمر بتجديد سورها تجديداً تاماً . وكان سبب انصراف السلطان الصالح أيوب عن استغلال هذه الحال السيكولوجية التى خيمت على الدوائر الصليبية

المحلية وقتذاك ، انشغاله بحركات عدائية جديدة من ناحية ملوك البيت الأيوبى ، فى حلب والكرك وحماة ، فضلا عن بداية ظهور مرضه بالسل المزمن ، ووصول أخبار إليه من عند الإمبراطور فردريك الثانى بقرب وصول حملة صليبية كبيرة إلى الشرق ، على رأسها لويس التاسع ملك فرنسا ، واسم هذا الملك فى المراجع الأوربية القديس لويس ، وفى المراجع العربية لُوَيْس بن لُوَيْس ، ويقال له الفرنسيس ، وكذلك رِيدافْرَنْس[1] ، بهذا الضبط على الحروف .

ولذا ركّز السلطان الصالح أيوب جهوده فى مراقبة حركات الملوك الأيوبيين الكارهين له ، وترميم ما يحتاج إلى الترميم من حصون البلاد المصرية والشامية التى ربما تتعرض لهجوم هذه الحملة الصليبية المنتظرة . وتنقل السلطان من أجل هذا وذاك بين مصر والشام ، برغم مرضه العضال ، ومضاعفاته المتزايدة ؛ فمرّ مثلاً فى صيف سنة ١٢٤٨ م على المنصورة التى أنشأها أبوه السلطان الكامل محمد سابقاً ، فى المساحة المثلثة بين النيل والبحر الصغير ، وجال بها — فيما يبدو — لمعاينة مبانيها العسكرية وأسوارها وقصرها الكاملى . غير أن السلطان الصالح لم يمكث طويلاً بالمنصورة ، بل تحول عنها إلى أشموم طناح ، حيث أقام مدةً بقصره الخاص هناك ، للاستشفاء . وفى أثناء إقامته بأشموم طناح أمر السلطان ببناء محلة عسكرية حصينة ، فى أطراف مديرية الشرقية الحالية ، وسماها الصالحية نسبة إليه ، وجعل لها سوقاً كبيراً تتجهز منه العساكر المقيمة بها ، أو المارة عليها ؛ ولم تلبث هذه المحلة العسكرية أن تطوّرت إلى مدينة كبيرة[2] . لكنه ليس من المعقول — أو الميسور زمنياً — أن السلطان الصالح أيوب أنشأ

---

(١) انظر مثلا المقريزى : كتاب السلوك — نشر زيادة ، ج ١ ، ص ٣٣٣ ، وكذلك ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة — طبعة القاهرة ، ج ٦ ، ص ٣٢٩ ، وابن العبرى : تاريخ مختصر الدول ، ص ٤٥٢ ، وغير ذلك من المراجع .

(٢) المقريزى : كتاب السلوك — نشر زيادة ، ج ١ ، ص ٣٣٠ — ٣٣١ .

بمحلة الصالحية العسكرية الجديدة أبنية من طراز ما أنشأ بالقاهرة ، أو فى متانتها ، أو من مادتها الحجرية ، بدليل عدم وجود أى أثر من آثار هذه المبانى ، على نحو ما هو باقٍ من مبانى هذا السلطان بالقاهرة ، فى العصر الحاضر . وينطبق هذا على قصر السلطان الصالح فى أشموم طناح كذلك ، كما ينطبق على جميع أبنية السلطان الكامل محمد بمدينة المنصورة ، بالقياس إلى نظائرها بالقاهرة[١] .

ودلّ السلطان الصالح ، بإنشائه محلة الصالحية العسكرية ، على أن رأيه واعتقاده بأن أية حملة صليبية مستقبلة هدفها مصر ، سوف تزحف على الأراضى المصرية من ناحية الأطراف الشرقية ، كما فعلت الحملات الأمورية التى استطاعت أن تصل فعلاً إلى القاهرة ، أكثر من مرة ، زمن شيركوه وصلاح الدين . وبنى السلطان الصالح هذا التفكير على استنتاجه العسكرى السليم بأن قيادة الحملة الصليبية المنتظرة لن تسمح لجيوشها بالهبوط على دمياط ، والسير منها جنوباً نحو القاهرة ، لتشتبك بمياه النيل وقنواته ومعاثره الطينية ، وبالجنود المصرية الأيوبية ، فى آن واحد ، كما حدث لحملة حنا برين ، قبل ذلك بثلاثين سنة فقط . ويبدو أن هذا التفكير الحربى المعقول هو الذى سيطر على توزيع الجيوش والحاميات المصرية الأيوبية بأطراف مصر والشام ، منذ انتهاء السنوات الهدنية الكاملية الفردريكية ، وبداية المحاولات التى قام بها تيبالد الشمبانى للوصول إلى مصر ، عن طريق غزة . وهذا التفكير هو الذى أثر تأثيراً واضحاً فى تعيين مواضع استعدادات السلطان الصالح ، لمقاومة الحملة الصليبية المنتظرة ، إذا هى هبطت على مصر ، ببناء محلة الصالحية العسكرية .

وثمة برهان تطبيقى دالّ على سيطرة هذا التفكير على الاستراتيجية المصرية الأيوبية وقتذاك ، أن المنصورة بقيت على حالها الأصلى ،

(١) يوجد من بقايا مبانى السلطان الصالح أيوب بالقاهرة فى العصر الحاضر المدرسة الصالحية ، وكذلك الضريح الخاص به بالنحاسين ، كما يوجد من بقايا مبانى السلطان الكامل محمد ، بالقاهرة كذلك ، بضعة آثار من المدرسة الكاملية بالنحاسين أيضاً ، فضلا عن برج الحداد وبرج الإمام ، بالقلعة الحالية .

وخيّمت عليها سكينة الريف ، وقلّت مواصلاتها الخارجية وحركاتها العمرانية الاستثنائية ، منذ غادرها السلطان الكامل وجيشه إلى القاهرة . ومعنى ذلك أن المنصورة احتفظت بمعظم ملامح نشأتها الأولى،من حيث الطابع العسكرى البسيط البناء ، والطرق الضيقة الكثيرة المنعطفات بين المساكن العسكرية ، والمساحة الفضاء المحيطة بذلك كله ، من جميع الجهات . وليس يوجد بالمراجع المتداولة هنا ما ينقض هذا الترجيح ، بل يدل خلوّ هذه المراجع من أية إشارة إلى نتيجة الزيارة السلطانية أن السلطان الصالح لم يرَ من حالها ، عند مروره بها سنة ١٢٤٨ م ، ما ينبئ عن حاجة مبانيها أو أسوارها أو قصرها الكاملى إلى ترميم ، أو تجديد أو تحصين ، ولو كانت المنصورة بحاجة إلى شيء من ذلك ، ما تردّد السلطان الصالح أيوب فى إصدار الأمر بالقيام به ، على طريقته التنفيذية السريعة الصامتة .

ثم انتقل السلطان الصالح أواخر تلك السنة من القاهرة إلى دمشق ، وأقام بها مدة فى انتظار تسوية عاجلة لبعض الشئون الأيوبية الخاصة بإعادة الملك المنصور إبراهيم إلى إمارته فى حمص . وأرسل السلطان لذلك فرقة حربية بقيادة الوزير الأديب جمال الدين يحيى بن مطروح ، للاستيلاء على حمص من مغتصبيها ، وإرجاع الملك المنصور إبراهيم إليها ؛ وبذا خلا بال السلطان لشئون الاستعداد النهائى للحملة الصليبية القادمة .

على أن الملك الفرنسى لويس التاسع وحملته ، والبابا إنوسنت الرابع ودعايته إلى هذه الحملة ، منذ سنة ١٢٤٥ م ، أى منذ سقوط بيت المقدس فى أيدى الخيالة الخوارزمية ، أواخر السنة السابقة على هذا التاريخ ، لم تقتصر أهدافهما على خدمة المصلحة الصليبية المباشرة ، بمحاولة استرجاع مدينة بيت المقدس فحسب ، بل انطوت كذلك على فكرة اجتذاب القوة المغولية الوثنية التى هدمت دولة خوارزمشاه الإسلامية ، نحو مشروع حلف صليبى مغولى ؛ لهدم الدولة الأيوبية فى مصر والشام ، وجعل الشرق الأوسط الإسلامى كله بين شقّى رحى طاحنة ، وفتح أبواب آسيا للتبشير بالمسيحية

الرومانية الكاثوليكية بين المغول والتتار الوثنيين ، فضلا عن الأتراك والفرس المسلمين فيما بعد ، فى الوقت المناسب ، على غرار ما تمناه ودعا إليه القديس فرنسيس الأسيسى ، زمن السلطان الكامل محمد .

والواقع أن فكرة مشروع حملة الملك لويس التاسع ، وفكرة الحلف الصليبي المغولى ، نشأتا ونضجتا فى وقت واحد تقريباً ، فى رأس البابا إنوسنت الرابع ، إذ جاء إليه النذير بسقوط مدينة بيت المقدس والمجلس الدينى منعقد برآسته فى مدينة ليون بفرنسا ، فى يونيه سنة ١٢٤٥ م ، لمناقشة الوسائل الضرورية لكبح حركات الإمبراطور فردريك الثانى ضد البابوية . وأثارت أخبار بيت المقدس وحربيا وعسقلان مخاوف الحاضرين ، فتحولت المناقشة من مشكلة الإمبراطور فردريك الثانى والبابوية إلى دعوة إلى حملة صليبية ، لإنقاذ ما يمكن إنقاذه ؛ واختار البابا إنوسنت الرابع ملك فرنسا لويس التاسع لقيادة هذه الحملة . وتراءى للبابا إنوسنت الرابع وقتذاك أن القوة المغولية تستطيع أن تهجم على الشرق الأوسط الإسلامى كله من الناحية الشرقية ، على حين تقوم الحملة الصليبية المنتظرة بهجوم على فلسطين والشام ، من ناحية البحر الأبيض المتوسط ، إذا اتفق الجانبان على خطط حربية متناسقة . وبذا تزول ملامح الشرق الأوسط الإسلامى من مسارح التاريخ إلى كتبه ، ويعود الصليبيون إلى ما فقدوا من البلاد منذ أيام صلاح الدين ، ويخلو الجو للبابوية وأحلامها ، لإيصال المسيحية الرومانية الكاثوليكية إلى آسيا ، بالإضافة إلى توحيد الكنيستين الكاثوليكية والأرثوذكسية تحت رآسة بابوية واحدة .

وتحقيقاً للركن الأساسى من هذه الأحلام المثيرة أرسل البابا إنوسنت الرابع بعثتين إلى بلاد المغول ، وخرجت أولاهما من مدينة ليون ، فى أواسط سنة ١٢٤٥ م ، وعلى رأسها الراهب الفرنسسكانى يوحنا بيان دلكاربينو . وسافرت هذه البعثة على الطريق البرى عبر ألمانيا والمجر ، وبولندا ، وروسيا الجنوبية ، وآسيا السهوبية الوسطى ، مدة خمسة عشر شهراً . ووصلت البعثة أخيراً فى أغسطس

سنة ١٢٤٦م إلى الخيام المغولية الإمبراطورية المضروبة عند مدينة سيرا أوردا ، قرب مدينة قراقوم ، حيث شهدت البعثة اختتام جلسات القوريتلاى المغولى الذى اجتمع لانتخاب الخان الأعظم الجديد ، أى جويوك خان . وعلمت البعثة أن حاشية الخان الأعظم الجديد تحتوى على كثير من المسيحيين النساطرة ، وإلى هؤلاء يرجع الفضل فى حسن استقبال المبعوثين البابويين فى البلاط المغولى . غير أنه عند ما قرأ دلكاربينو خطاب البابا إنوسنت الرابع ، فى حضرة جويوك خان ، وتبين أن هذا الخطاب يدعو المغول إلى المسيحية ، كاد الخان الأعظم يتميّز من الغيظ ، وأمر بكتابة ردّ يذكر فيه أن المغول لا يرضون عن وثنيتهم بديلاً ، وأنهم يطلبون من البابا أن يعترف لهم بالسيادة على بلاد البابوية ، وغيرها من البلاد القريبة والبعيدة ، وأنهم يرحبون بقدوم ملوك أوربا المسيحية إلى حضرة الخان الأعظم ، ليقدموا له فروض الطاعة والتبعية ، على أن يكون مفهوماً أن الخان الأعظم ينتظر ، فضلا عن تقديم فروض الطاعة والتبعية ، أن تأتى إليه الجزيات والأموال سنوياً من عند أولئك الملوك .

وعاد دلكاربينو إلى أوربا ، فى أواخر سنة ١٢٤٧ م ، وسلّم البابا إنوسنت الرابع فى روما خطاب الخان الأعظم جويوك ، مرفقاً بتقرير شخصى طويل ، وخلاصته — على قول دلكاربينو — أن المغول قوم لا يريدون من الحياة سوى الحرب والفتح والنصر ، مع التخريب والنهب والهدم ، وهذا ما جعلهم يوصفون فى كتب التاريخ بأنهم أساتذة الدمار .

غير أن البابا إنوسنت الرابع لم يرض أن ينزل عن فكرة الحلف الصليبى المغولى ، وكأنه لم يصدق ما حمله إليه وقصّه عليه دلكاربينو ، أو أنه أراد أن يجرّب الفرع المغولى القريبة جغرافيته من الشرق الأوسط الإسلامى ، لعله يجد فى دوائره إحساساً كفيلاً بعداء إيجابى ناشط ضد المسلمين . لذلك أرسل البابا بعثته البابوية الثانية ، وعلى رأسها راهب دومنيكانى اسمه آسكلين اللمباردى . وسافرت هذه البعثة الثانية من إيطاليا عبر البحر الأبيض

المتوسط إلى الشام ، ومنها براً إلى فارس ، حيث قابلت القائد المغولى بيغو[1] فى تبريز ، فى مايو سنة ١٢٤٧ م . ووجد الراهب آسكلين من القائد المغولى بيغو استعداداً شخصياً لبحث مشروع حلف صليبي مغولى محدود الهدف ، أى ضد الملوك الأيوبيين فحسب ، لأنه كان يعمل من ناحيته الخاصة للجهوم على بغداد ، ويهمّه أن ينسق هجومه مع حركة صليبية ضد البلاد الأيوبية الفراتية .

ورجع آسكلين بهذا المشروع الصليبي المغولى إلى روما ، وصحبته مبعوثان من عند بيغو ، واسم أحدهما أيبك والراجح أنه تركمانى الأصل ، وثانيهما سركيس ، وهو فيما يبدو مسيحى نسطورى . غير أن هذين المبعوثين لم يكن لديهما سلطة للمفاوضة فى شيء معين ، بل اقتصر الغرض من إرسالهما إلى روما على أن يتصلا بالدوائر البابوية ، وأن يقيما فى روما ، حتى تأتى إليهما شروط القائد المغولى لعقد الحلف المطلوب . لكن شروطاً لم تصل إلى روما ألبتة ، برغم إقامة المبعوثين بها مدة سنة طويلة ، فى ضيافة البابا . ولذا تقرّر أخيراً إعادة أيبك وسركيس إلى تبريز ، فرحلا من روما فى نوفمبر سنة ١٢٤٨ م ، ومعهما شكوى من البابا إنوسنت الرابع إلى القائد المغولى بيغو من عقم المشروع الذى بنت عليه البابوية أحلامها الكثيرة .

---

(١) نقل المؤلف جميع الاسماء المغولية الواردة هنا ، وفى سائر هذا الكتاب ، من منطوق صيغتها الواردة فى (Grousset : Histoire des Croisades, etc.) ، وهو من كبار الأخصائيين الأوربيين فى تاريخ المغول ، والقارة الأسيوية عموما .

الفصل الرابع

لويس التاسع واستيلاؤه على دمياط

١٢٤٥ – ١٢٥٠ م = ٦٤٣ – ٦٤٨ هـ .

من هنا فصاعدا يتطلب الموضوع شرحاً على مقياس تفصيلى واسع ، بقدر ما تسمح به مراجعه العربية والأجنبية من تفصيل وتوسعة ، فى حدود الواقع التاريخى ، والتصوير الموضوعى المستمدّ من حقائقه . والمراجع العربية المعاصرة لحوادث حملة لويس التاسع على مصر خمسة ، وهى بحسب ترتيب أهميتها : مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب لابن واصل الحموى ، ومرآة الزمان فى تاريخ الأعيان لسبط بن الجوزى ، والذيل على الروضتين لأبى شامة ، وتاريخ مختصر الدول لابن العبرى ، ووفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان لابن خلكان . وهذه المراجع على أهميتها ومعاصرتها ، واستخدام مؤلفيها ضمير المتكلم فى الكتابة فى حوادث هذه السنين ، لا تحتوى فيما بينها على أكثر من خمسين صفحة ، متشابهة الحقائق والحوادث والعبارات ، فى أخبار حملة الملك الفرنسى ، وحوادث الدفاع والمقاومة المصرية الأيوبية ضد هذه الحملة . ولم يشترك أحد من أصحاب هذه المراجع العربية بشخصه ، فى هذه الحوادث المصرية الأيوبية ، سوى ابن واصل الذى كثرت تنقلاته بين القاهرة والمنصورة ، صحبة صديقه الوزير الأيوبى حسام الدين أبى على الهذبانى ؛ ولذا كان ابن واصل هو المؤرخ الوحيد الذى سجل فى تاريخه ما رأى وما سمع من حوادث وأخبار جرت حوله ، وتحت سمعه وبصره .

غير أن النقص الكمّى فى المراجع العربية المعاصرة ، يعوّضه ما تشتمل عليه المؤلفات العربية الموسوعية المتأخرة ، من صفحات ضافية بمعلومات منقولة

بحذافيرها من أصول مفقودة ، أو مجهولة ، ومن وثائق ومراسلات استطاعت أن تجد طريقها إلى الضوء والمعرفة العامة ، بعد أيامها بمدة طويلة . ومن هذه المؤلفات المتأخرة : نهاية الأرب فى فنون الأدب للنويرى ، وكنز الدرر وجامع الغرر لابن أيبك ، والعبر وديوان المبتدا والخبر لابن خلدون ، والسلوك لمعرفة دول الملوك للمقريزى ، والمواعظ والاعتبار فى ذكر الخطط والآثار للمقريزى كذلك ، ثم عقد الجمان فى تاريخ أهل الزمان للعينى ، والنجوم الزاهرة فى أخبار مصر والقاهرة لابن تغرى بردى .

أما المراجع الأجنبية المعاصرة ، فتختلف عن قريناتها العربية بكثرة أخبارها وتفاصيلها اليومية ، فى كثير من المناسبات والأحيان ، لاشتراك مؤلفيها فى حملة الملك لويس التاسع اشتراكاً فعلياً ، منذ مطالع مشروعها إلى خواتيم حوادثها النهائية ، فضلا عن حضور بعض أولئك المؤلفين مجالس الملك الفرنسى ، بصفتهم موظفين فى حاشيته ، موكلين بتنفيذ توجيهاته وأغراضه . وهذه المؤلفات مكتوبة باللغة اللاتينية ، أو الفرنسية القديمة ، وأهمها جميعاً تاريخ القديس لويس الذى كتبه جوانفيل ، وهو صديق الملك ورفيقه فى جميع مراحل الحملة على مصر . وهذا الكتاب مترجم إلى الإنجليزية فى عدة طبعات ، فضلا عن طبعاته الفرنسية المتعددة ، وميزته العظمى صراحة مؤلفه ، واستقلاله فى الرأى ، ودقته فى التفريق بين ما يرويه عن طريق المشاهدة العينية ، وما يرويه عن طريق السماع أو النقل . ويلى هذا الكتاب ، ويكمل بعض الناقص من حقائقه ، كتاب تاريخ روتلان ، المعروف باسم المخطوطة الروتلانية ، وكتاب معجزات القديس لويس تأليف وليام سانت باتوس ، وكتاب فضائل القديس لويس وأعماله تأليف وليام نانجى ، وكتاب الأخبار الكبرى تأليف ماثيو الباريسى[1] . وهذه المؤلفات الأجنبية المعاصرة وأشباهها من المراجع الأصلية العربية ، وارد معظمها فى مجموعة

---

(١) انظر جوزيف نسيم يوسف : لويس التاسع فى الشرق الأوسط ، ص ١ – ٢٣ ، وكذلك حسن حبشى : الشرق الأوسط بين شقى الرحى ، ص ١٩ ، حاشية ١ .

مؤرخي الحروب الصليبية التي تقدمت الإشارة إليها ، أو فى نظائرها من المجموعات التاريخية ، أو فى كتاب مستقل[1] .

وبديهى أن المراجع الأجنبية هى المصدر لجميع المعلومات الخاصة ببدايات مشروع حملة لويس التاسع ، واستجابات الدول والقوى الأوربية المهتمة بالإسهام فى ذلك المشروع ، إيجاباً أو سلباً ، وإمكانيات هذه الدول فى الاشتراك فى تكوين الجيش اللازم لذلك المشروع ، وعتاده وسفنه اللازمة لنقله عبر البحر الأبيض المتوسط إلى الشرق . أما بدايات المشروع ، فيقول فيها جوانفيل إن الملك لويس التاسع أصيب بحمى ملارية شديدة أواخر سنة ١٢٤٤ م ، ونذر أن يخرج على رأس حملة صليبية من فرنسا ، إذا هو شفى من مرضه ، ثم لم يلبث أن أعلن عزمه على الوفاء بنذره ، وهو فى دور النقاهة . وكان الملك لويس التاسع وقتذاك فى الثلاثين من عمره ، وبه من صفات التقوى العسكرية المحاربة ، وحرمان النفس ، وصلابة الرأى ، والتعصب اليابس لكل ما هو مسيحى ، والصرامة ضد الهرطقة ، والكراهية الشديدة لكل ما هو غير مسيحى ، ما جعله من أشهر الأسماء فى سجل القديسين الرسميين فى الكنيسة الرومانية الكاثوليكية ، فى العصور الوسطى .

ورحب البابا إنوسنت الرابع بأخبار نذر الملك لويس التاسع ، واستعداده للقيام على رأس حملة صليبية ، وأعلن فى مجلس ليون الكنسى ، المنعقد فى أواسط سنة ١٢٤٥ م ، إختيار البابوية له لقيادة هذه الحملة . وبعد قليل أرسل البابا أحد كرادلته ، واسمه أودو فراسكاتى ، لدعوة نبلاء فرنسا للانضواء إلى راية ملكهم ، كما أرسل آخرين من الدعاة البابويين إلى سائر البلاد الأوربية ، لشحذ هم ملوكها وأمرائها إلى الدخول فى سلك

---

(١) انظر ماسبق هنا ص١ ، حاشية ١ ، وكذلك المجموعة التى عنوانها (Michaud : Bibl. des Croisades) .

هذه الحملة ، وزوّدهم جميعاً بالإعفاءات والغفرانات التى دأبت البابوية على إصدارها إبان جميع الحملات الصليبية السابقة واللاحقة ، تشجيعاً لحركة الاندماج فى جيوش الصليبين . غير أنه لم يكن من المنتظر مثلاً أن يشترك الإمبراطور فردريك الثانى فى هذه الحملة ، لأنه كان فى حالة حرب مريرة ضد البابوية الداعية إليها ، ولأن ماضيه فى الشئون الصليبية بالشرق لم يشجع على بناء أية آمال حربية على اشتراكه . ويقال مثل ذلك تقريباً بشأن هنرى الثالث ملك إنجلترا ، فإنه كان قريب عهد بحروب ضد الملك لويس التاسع ، وعنده من المشاكل الإنجليزية الداخلية ما ملأ يديه إلى أواخر عهده ، وهو على أية حال لم يكن من عيار سلفه ريتشارد قلب الأسد ، لا فى الحماسة الصليبية ، ولا فى الشجاعة الشخصية .

واستغرقت استعدادات الملك لويس التاسع ثلاث سنوات بدأت بعقد مجلس عام فى باريس ، فى خريف سنة ١٢٤٥ م ، لأخذ العهود والمواثيق على الراغبين فى الاشتراك فى الحملة ، من أمراء فرنسا ونبلائها وفرسانها . ثم أخذ الملك لويس فى فرض العونات والعشور الإقطاعية الاستثنائية ، من العلمانيين ورجال الدين سواء بسواء ، للحصول على الأموال اللازمة لنفقات الحملة ، كما أعلن النفير الملكى الإقطاعى الخاص ، لتكون الجهود الملكية نموذجاً لغيرها من البيوت الإقطاعية الأخرى . ثم عين الملك لويس الملكة الوالدة بلانش القشتالية ، لتحل محله فى شئون الحكم فى فرنسا أثناء غيابه بالشرق ، وحصل من الملك هنرى الثالث على وعد بعدم قيام حرب بين فرنسا وإنجلترا فى تلك الأثناء ، وأحاط الإمبراطور فردريك الثانى هو هنشتاوفن بما هو عازم على القيام به ، واستأذنه فى الذهاب إلى فلسطين ، نظراً لأن فردريك ملك سابق لمملكة عكا ، ووالد لملكها الشرعى كونراد الذى أنجبه فردريك من الإمبراطورة المتوفاة يولاندا ، ابنة حنا برين .

وهكذا كان الإمبراطور فردريك الثانى على علم تام بكثير من تفاصيل مشروع الحملة ، ومواعيد رحيلها إلى الشرق ، وهو كما هو معروف عنه من القائلين بحل المسألة الصليبية عن طريق المفاوضة والهدنة والحسنى ، لا الحرب الباغية والاعتداء الدامى. ولذا كان فردريك الثانى صاحب فضل فى إيصال أوائل أخبار حملة الملك لويس التاسع إلى السلطان الصالح أيوب ، وهذه الأخبار هى التى حملت السلطان الصالح على القيام بجولته التفتيشية فى المعسكر الكاملى بالمنصورة ، ثم النزول على أشموم طناح للاستشفاء ، وبناء محلة الصالحية العسكرية ، فى أطراف مديرية الشرقية الحالية ، اعتقادا منه أن حملة الملك لويس التاسع سوف تتجنب طريق الحملة الصليبية المعروفة بالسادسة إلى دمياط ، وأنها سوف تختار طريقاً مشابها لحملات الملك أمورى ، أيام شيركوه وصلاح الدين[١] .

ولم يكن هدف حملة الملك لويس التاسع مقرراً نهائيا حتى وقتذاك ، بل الذى غدا فى حكم المقرر أن تكون قبرص هى القاعدة التى تلتقى عندها الجيوش الصليبية الذاهبة إلى الشرق . ومن أجل ذلك أرسل الملك لويس وكلاءه إلى قبرص ، لشراء ما سوف تحتاجه إقامة الحملة بها من الأطعمة والمؤونة ، لمدة ثلاثة أشهر ، وهى المدة التى اعتقدها كافية لاجتماع الفئات الصليبية المنتظرة ، وتنظيمها وتوحيد قيادتها ، وتقرير اتجاهها النهائى . غير أن البحرية الملكية الفرنسية لم تملك من السفن ما يكفى لنقل حملة حربية عبر البحر الأبيض المتوسط ، ولذا طلب الملك لويس التاسع من جمهورية جنوا ومدينة مرسيليا تأجير سفنهما لذلك الغرض ، بعد أن رفضت جمهورية البندقية أن تأخذ على عاتقها هذه المهمة ، كليا أو جزئياً ، أوأن توافق على مشروع الحملة ألبتة ، بسبب ما سوف يترتب عليها من اضطراب المصالح التجارية البندقية مع مصر والشام .

---

(١) انظر ما سبق ، ص ٨٢ .

وأخيراً رحل الملك لويس التاسع من باريس فى الثانى عشر من شهر أغسطس سنة ١٢٤٨ م ، وأبحر على رأس الفوج الأول من الحملة من ميناء إيجمور فى الخامس والعشرين من ذلك الشهر ، قاصداً قبرص . وكان مع الملك فى ذلك الفوج الأول زوجته الملكة مرجريت البروفنسالية ، واثنان من إخوته ، وهما روبرت كونت أرتوا ، وشارل كونت آنجو ؛ ولم يكن لهذين الأخوين أية خبرة سابقة بالحروب الصليبية ، أو بالشرق عامة .

ثم أبحر الفوج الثانى من ميناء مرسيليا ، وضمّ هذا الفوج اثنين من أبناء عمومة الملك لويس التاسع ، وهما هيودوق برجنديا ، وبطرس كونت بريتانى ، وكلاهما اشترك فى حملة تيبالد الشمبانى ملك نافار ، سنة ١٢٣٩ م ، وقام كل منهما فيها بنصيب كبير . وضمّ هذا الفوج الثانى كذلك هيولوزنيان كونت لامارش ، وهو ممن أسهموا فى حملة حنا برين ، سنة ١٢١٨ م ، ووليام دامبيير كونت فلاندرز ، وجاى سانت بول الذى اشترك أبوه فى الحملة الصليبية المعروفة بالثالثة ، سنة ١١٨٩ م ، كما اشترك كذلك فى الحملة المعروفة بالرابعة سنة ١٢٠٤ م . ويأتى بعد أولئك جميعاً جوانفيل ، صنجيل شامبانيا ، وهو أقدم صلة بالحروب الصليبية من هذه الشخصيات كلها ، إذ اشترك آباؤه وأقاربه فى حملاتها العددية وغير العددية ، جيلاً بعد جيل ، منذ سنة ١١٤٨ م ، أى منذ أيام الحملة الصليبية المعروفة بالثانية ، وكتابه الذى تقدمت الإشارة إليه لا ريب أهم المراجع فى تاريخ حملة الملك لويس التاسع .

وفى أعقاب هذا الفوج الثانى لحقت فرقة إنجليزية بقيادة وليام سالسبرى الإنجليزى ، وكان فى نية جماعة من نبلاء إنجلترا أن يذهبوا إلى الشرق مع هذه الفرقة ، لولا إعلان الملك هنرى الثالث أنه بحاجة إلى خدماتهم داخل المملكة ، وحصوله من البابا على قرار بإعفائهم من يمين الوعد بالذهاب فى هذه الحملة ، ومن أولئك سيمون دى مونتفرت ، صاحب الأخبار الطوال فى أصول الحركة البرلمانية فى إنجلترا ، فى النصف الثانى من القرن الثالث

عشر الميلادى . وكان من المأمول كذلك أن يشترك هاكون الثانى ملك النرويج بفرقة نرويجية فى هذه الحملة ، لكن اشتراكه ظل حلماً غير قريب التحقيق ، كما أبحر باتريك دانبار من اسكتلندا بفرقة اسكتلندية كبيرة للانضمام إلى جيوش الحملة ، لكنه مات قبل أن يصل إلى مارسيليا ، فعادت فرقته إلى بلادها .

ومن هذا كله يتضح أن الصفة الغالبة على هذه الحملة بدأت وظلت فرنسية جسماً وروحاً ، وأن قيام الملك الفرنسى لويس التاسع وحده على قيادة جيوشها جعلها بنجوة من تعدد القيادات التى أفسدت على الصليبيين معظم الحملات الصليبية السابقة . ولا بد أنه تراءى للملك لويس التاسع ، وهو يتأمل إرادة المقادير فى سرعة تكوين هذه الحملة ، وغلبة الصفة الفرنسية على جنودها وفرسانها وزعمائها ، وكثرة المشتركين فيها من سلائل نبلاء الحملات الصليبية السابقة على مصر ، وغيرها من الحملات الصليبية المشابهة . فضلا عن توحيد القيادة العليا فى هذه الحملة فى شخصه ، أنه سوف يكون له نعيم المكافأة وحسن العقبى ، حين يمسح بيده عار الحملات الصليبية السابقة على مصر ، ولا سيما حملة حنا برين ، وحين يردّ اعتبار القادة والفرسان الصليبيين الذين قتلوا أو أسروا فى حملة تيبالد الشمبانى ؟

ثم وصلت السفن التى حملت الفوج الملكى الأول إلى قبرص فى السابع عشر من شهر سبتمبر سنة ١٢٤٨ م ، وأرست عند ثغر ليماسول ، حيث نزل الملك لويس والملكة مرجريت فى ضيافة ملك قبرص . وهناك وفد على الملك لويس التاسع من عكا نائب مقدم طائفة الفرسان الاسبتارية ، ومقدم طائفة الفرسان الداوية ، وكثير من الشخصيات الصليبية المحلية .

وذات يوم عقد الملك لويس التاسع مجلسا لتقليب الرأى فيما ينبغى أن يكون اتجاه الحملة ، لتحقيق الغرض الذى جاءت إلى الشرق من أجله ، وهو على الأقل استعادة مدينة بيت المقدس من المسلمين ، وإرجاع الحال إلى

ما كانت عليه قبل انتهاء الهدنة الكاملية الفردريكية . وأجمع الحاضرون على أن مصر هى الجديرة بالهجوم ، وأن الاستيلاء عليها هو الكفيل بحل المسألة الصليبية على خير ما يشتهى العالم الصليبى الأوربى الغربى ، والصليبيون المحليون ، لأن البلاد المصرية هى المركز الاستراتيجى الحامى لظهر الحركات الحربية الإسلامية ، ضد الصليبيين بفلسطين والشام ، وهى كذلك المورد الوفير لتغذية هذه الحركات الحربية الإسلامية بالمال والرجال . وأضاف بعض الحاضرين إلى هذه الملحوظات العسكرية الدقيقة ، أن الهجوم على مصر ، والاستيلاء على دمياط بالذات ، فيه محو للعار الذى لحق الصليبيين بالجلاء عنها سابقاً ، زمن الملك حنا برين . ثم إن لدمياط فى أيدى الصليبيين قيمة يستطيع الملك لويس التاسع استخدامها للمساومة ، إذا عرض السلطان الصالح شروطاً للهدنة والمبادلة بمدينة بيت المقدس ، على غرار ما حدث وتكرر أيام أبيه السلطان الكامل . وفضلا عن ذلك فإن الاستيلاء على دمياط ، وإمكانياتها البحرية والتجارية ، سوف يضمن مكافأة الجمهوريات الإيطالية التى أسهمت بسفنها فى نقل جنود الحملة وعتادها ، من جنوب فرنسا إلى قبرص ، وسوف يغرى جمهورية البندقية ، وهى التى لم تزل حتى وقتذاك مبتعدة عن هذه الحملة ، بأن تشترك بسفنها فى العمليات الصليبية المقبلة ، نظير ما عسى يصبح لها من مصالح فى دمياط ، بعد الاستيلاء عليها .

ولهذه الاعتبارات المتنوعة رأى الملك لويس التاسع أن تبدأ الاستعدادات لعمليات الهجوم على مصر فى سرعة ، لكن رؤساء الاسبتارية والداوية والصليبيين المحليين أقنعوه بوجوب التأجيل إلى ما بعد انتهاء فصل الشتاء ، وعواصفه وأمطاره ، لصعوبة الرسو فى ذلك الفصل عند الشواطئ المصرية القليلة العمق ، فضلا عن قلة المياه فى النيل وقنواته ، مما يجعل دخول السفن التموينية فى المياه الضحلة عملية قريبة من المستحيل . ثم إن الصليبيين المحليين كانوا يرغبون ، قبل الشروع فى الاستعداد لأى هجوم على الشواطئ المصرية ، أن يستغل

الملك لويس التاسع ما بين ملوك الأيوبيين من اختلافات ومنافسات ، حادة ومزمنة . ذلك أنه كان من المعروف وقتذاك أن الملك الناصر يوسف صاحب حلب أخرج قريبه الملك الأشرف موسى بن الملك المنصور إبراهيم من إمارته فى حمص ، وأن هذا الملك الشابّ الطريد استغاث بالسلطان الصالح أيوب ، وأن السلطان الصالح أيوب سافر من القاهرة إلى دمشق ، خصيصا لتلبية هذه الاستغاثة برغم مرضه ، وأنه أرسل لذلك فرقة من عسكره سبقته إلى الشام ، لاسترجاع حمص وإعادتها إلى صاحبها الشرعى .

غير أن الملك لويس التاسع الذى اقتنع بضرورة تأجيل عملياته الحربية إلى ما بعد الشتاء ، لم يقبل التدخل بين الملوك الأيوبيين المسلمين ، أو النزول إلى مستويات الديبلوماسية والمفاوضة معهم ، لاعتقاده — على عكس الإمبراطور فردريك الثانى ، وكان فردريك لا يزال على قيد الحياة — أن المسألة الصليبية لا تحسمها المفاوضة والاتفاق الودى والهدنة ، بل السيف والنار والحديد والدمار . وعلم الملك لويس التاسع وقتذاك أن مقدم الداوية يمهد لرغبة سامية محلية طارئة ، بفتح باب مفاوضات ابتدائية مع السلطان الصالح أيوب ، من باب التدخل غير المباشر بين الملوك الأيوبيين ، فأمر الملك لويس بإغلاق هذا الباب الذى لا ينبغى لملك فرنسى قديس أن يقترب منه ، مهما كانت الفائدة من ورائه .

على أن الملك لويس التاسع لم يتردد فى الاقتراب من باب غير مسيحى آخر ، وهو باب المفاوضة مع المغول الوثنيين ، برغم ذيوع أخبار الفشل الذى حاق بالسفارتين البابويتين السابقتين[1] . ذلك أنه حدث فى ديسمبر سنة ١٢٤٨ م ، والملك لويس التاسع مقيم فى قبرص ، فى انتظار انتهاء الشتاء ،

---

(١) انظر ما سبق ص ٨٤ وما بعدها .

أن وصل إلى حضرته فى نيقوسيا ، وهى عاصمة مملكة قبرص ، اثنان من نساطرة أهل الموصل ، واسم أحدهما مرقص ، وثانيهما داود . وقال هذان المبعوثان إنهما يحملان رسالة من عند القائد المغولى ألجيغيداى ،وهو نائب عن الخان المغولى الأعظم جويوك بإقليم الموصل . ووصفت هذه الرسالة المغولية تعاليم الديانة المسيحية أحسن وصف ، وأكد كاتبها ميل المغول الوثنيين إلى مبادئها الإنسانية الكريمة .

وامتلأ الملك لويس غبطة بما جاء فى هذه الرسالة ، وأمر من فوره بقيام بعثة من الرهبان الدومنيكان إلى بلاد المغول ، وعيّن على رأسها أندراوس لونجيمو وأخاه ويليام ، لمعرفتهما باللغة العربية ، وخبرتهما السابقة ببلاد آسيا . وسافرت هذه البعثة من قبرص فى يناير سنة ١٢٤٩ م ، ومعها خيمة قرمزية اللون ، قماشها مطرّز بآيات إنجيلية وصور دينية ، فضلا عما احتوت عليه من أدوات ومخلفات دينية مسيحية ، بحيث تصلح بما فيها من أدوات ومخلفات لتكون كنيسة صغيرة متنقلة بين بلاد المغول ، وذلك بالإضافة إلى هدايا متنوعة ثمينة . ومن أنطاكية بدأت هذه البعثة طريقها البرى الطويل إلى معسكر القائد ألجيغيداى بالموصل ، ثم رحلت من الموصل فى حراسة ثلة من الجند المغول إلى جوف آسيا ، ووصلت أخيراً إلى مدينة قراقوم ، حيث مقرّ الخان الأعظم .

وهنا يروى جوانفيل أن البعثة قدمت هداياها المتنوعة الثمينة إلى الخان المغولى الأعظم ، وأن الخيمة القرمزية وكنيستها الصغيرة نُصبت فى حضرته ، وأن كثيراً من الملوك والأمراء المغول المشكوك فى إخلاصهم للدولة المغولية جاءوا ببركتها طائعين للخان المغولى الأعظم . وكان ذلك كله من نسج التمنى وأحلام اليقظة ، فى خيال الناقل لهذه القصة إلى جوانفيل ،إذ المعروف أن البعثة عرفت ــ غداة وصولها إلى قراقوم ــ أن الخان المغولى الأعظم جويوك مات ،

فى أوائل سنة ١٢٤٨ م ، وأن أرملته الأميرة أوغول قايميش قامت وصية على شئون الحكم ، ريثما ينتهى القوريتلاى من انتخاب الخان الأعظم الجديد . والمعروف كذلك أن الأميرة الوصية أوغول قايميش استقبلت الأخوين لونجيمو استقبالاً طيباً ، وتسلمت الهدايا التى كانت معهما كأنها جزية من الملك لويس التاسع ، بصفته تابعاً للخان المغولى الأعظم . ولم تستطع هى بطبيعة مركزها المؤقت أن تخرج فى حديثها عن نطاق المجاملة ، مع الوعد بعرض مشروع الحلف المغولى الصليبى المقترح على صاحب العرش الجديد ، فى الوقت المناسب . ولذا عادت بعثة الأخوين أندراوس ووليام لونجيمو أدراجها إلى قبرص ، بغير نتيجة ، ما عدا خطاب مغولى شاكر للملك الفرنسى هداياه الدالة على حسن تبعيته ، وتمام خضوعه ؛ وذلك بعد أن لبثت هذه البعثة فى سفرها ذهاباً وإياباً ثلاث سنوات : ومعنى ذلك أن البعثة وصلت إلى قبرص أوائل سنة ١٢٥٢ م ، أى بعد سنتين من إبحار حملة الملك لويس التاسع من قبرص إلى السواحل المصرية .

أما الملك لويس التاسع ، فبينما هو فى انتظار انتهاء الشتاء القبرصى الجميل ، وفى أمله أن تصله أخبار مشجعة على يد بعثة لونجيمو ، إذا بحرب سافرة تنشب بين بعض الجاليات الإيطالية المقيمة فى المدن الصليبية بساحل فلسطين ، وهى الجاليات التى سوف يعتمد عليها الملك لويس ، لنقل حملته من قبرص إلى الشواطئ المصرية . وتفصيل ذلك أن الملك لويس أرسل إلى هذه الجاليات أوائل سنة ١٢٤٩ م ، يطلب منها تعيين مدى استعداد كل منها لمساعدته بسفنها ، فى عملياته الحربية المقبلة . فكرّر البنادقة رفض جمهوريتهم السابق لمشروع الحملة كله ؛ وأما الجنوية أصدقاء الملك منذ قيامهم بنقل معظم جنده من الموانى الفرنسية إلى قبرص ، فعملوا على إقناع البيازنة طوعاً أو كرهاً ، بضرورة اشتراك سفنهم مع السفن الجنوية ، فى خدمة أغراض الحملة . وغضب البيازنة من هذه الزعامة البحرية

الجديدة ، وهاجموا الجنويين فى بعض الموانى الفلسطينية ، ولم تهدأ الحرب بين الطرفين إلا بعد أن تدخل بينهما أمير أرسوف ، واستطاع أن يحملهما على عقد هدنة لمدة ثلاث سنوات . وبذا صار فى استطاعة الملك لويس التاسع أن يحصل على السفن اللازمة لنقل حملته ، من كل من الجنوية والبيازنة ، ولم يبق لديه من عائق مانع للرحيل صوب السواحل المصرية ، سوى ما نجم عن طول الإقامة فى دفء الشتاء القبرصى ، من نفاد الأطعمة والأشربة والأقوات ، وضآلة المخزون الباقى منها للتموين اللازم ، فضلا عما طرأ على بعض الشخصيات الصليبية من نعومة وتدهور فى الروح المعنوية .

وجاءت إلى حضرة الملك لويس التاسع فى نيقوسيا ، فى تلك الأثناء ، وفود صليبية ذات أغراض متنوعة ، ورحّب الملك لويس طبعاً بما كان من هذه الوفود مصدراً طيباً لإمداد الحملة بما هى فى حاجة إليه ، من أموال ومؤن ، وأسلحة كذلك . ووصل أول هذه الوفود من عند هيتوم ملك أرمينية الصغرى ، بهدايا فاخرة من هذا وذاك ، على حين وصلت سفارة من عند بوهمند أمير أنطاكية تطلب فرقة حربية صغيرة من الرماة الفرنسيين ، ليستعين بها بوهمند على تقوية جيشه ضد الإغارات التركمانية الدائبة على تهديد إمارته . ولم يتردد الملك لويس فى الاستجابة لهذا الطلب ، وربما تخلص به من بعض جماعات الجند الذين أفسدتهم حياة الركود والعافية ، فى جزيرة قبرص . لكنه رفض أن يمدّ الإمبراطورية اللاتينية بالقسطنطينية بأية مساعدة ، آنيّة أو مستقبلة ، برغم مجىء الإمبراطورة ماريا — وهى الابنة الثانية للملك حنا برين — إلى قبرص لذلك الغرض ؛ وعادت الإمبراطورة من عند الملك لويس التاسع خالية اليدين . ثم حدث ما هو أهم من ذلك كله ، إذ وصل إلى السواحل القبرصية ويليام فيلهاردوين ، صاحب إمارة أخايا اللاتينية ، بشبه جزيرة المورة ببلاد اليونان ، ومعه أسطول مكوّن من أربع وعشرين سفينة ، وفرقة حربية كاملة العدة والسلاح والمؤونة . وكان وصول

هذه الأمداد الكبيرة فى أوائل مايو سنة ١٢٤٩ م ، ويرجع الفضل فى إقناع الأمير فيلهاردوين بالمجىء بها إلى قبرص إلى دوق هيو البرجندى ، قائد الفرقة البرجندية فى حملة الملك لويس التاسع .

وذات يوم من أيام النصف الثانى من ذلك الشهر ، وهو يوم الخميس ٢١ مايو سنة ١٢٤٩ م على وجه التحديد ، تحركت حملة لويس التاسع من ميناء ليماسول نحو السواحل المصرية ، وعدتها حسب تقدير جوانفيل ٢٨٠٠ من الفرسان ، عدا المشاة والبحارة ، والتابعين والملحقين بالجيش من غير الجند ، مما يحتمل أن يكون فى مجموعه الكلى على أقصى تقدير ثمانية وعشرين ألفاً شاملة ، لا خمسين ألفاً أو أكثر ، كما تقترح معظم المراجع العربية(١) . وبلغ عدد السفن التى أقلعت بالحملة من قبرص ، كذلك حسب تقدير جوانفيل ، ١٨٠٠ سفينة ، ما بين كبيرة وصغيرة ومتوسطة ، وهو عدد يبدو كبيراً مبالغاً فيه على أية حال ، ولا سيما أن المؤرخين الأوربيين أنفسهم اختلفوا حول تقدير هذا العدد .

غير أن رياحاً عاصفة شديدة ، وصفها جوانفيل بأنها جاءت من ناحية مصر ، لم تلبث أن هبت على السفن الصليبية ، وهى فى أول يوم لها فى عرض البحر ، فبعثرتها فى كل ناحية شَذَرَ مَذَرَ . ولذا جنح معظم هذه السفن نحو عكا والسواحل الفلسطينية المجاورة ، ولم يبق منها مع السفينة الملكية مونتجوا سوى بضع قليل من السفن المتوسطة الحجم ، وهى تحمل حوالى تسعمائة فقط من الفرسان ، أى ربع عدد جنود الحملة تقريباً .

---

(١) اتخذ المؤلف تقدير جوانفيل (Histoire de Saint Louis, edit. De Wailly, p. 82) وضاعفه بعشرة أمثاله ، وجعل حاصل هذه العملية عدداً تقريبياً لحملة لويس التاسع ، على اعتبار أن الفارس الصليبى الواحد يحتاج فى هذه الحملة ، أو غيرها من حملات الحروب فى العصور الوسطى ، إلى عشرة من غير الفرسان ، أى المشاة والبحارة والخدم ، وغيرهم . انظر من المراجع العربية مثلاً : ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٢ ، ص ٣٥٥ ب ، وابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة – طبعة القاهرة ، ج ٦ ، ص ٣٦٩ ، لمقارنة تقديرات هذه المراجع للمجموع الكلى لهذه الحملة .

ولم تستطع السفن الجانحة أن تعود إلى ليماسول ، أو أن تتجمع فى ميناء قبرصى آخر ، لتبحر إلى مصرمع السفن الملكية وأسطول الأمير فيلهاردوين من قبرص ، فى ٣٠ مايو سنة ١٢٤٩ م ؛ بل لم تستطع هذه السفن أن تصل إلى الشواطئ المصرية ، إلا بعد مدة طويلة .

وقبل ذلك بشهرين تقريباً تأكدت الأخبار لدى السلطان الصالح أيوب بقرب وصول الحملة من قبرص إلى السواحل المصرية ، من غير تعيين لميناء دمياط أو غيرها من الموانى التى سوف تحاول الحملة أن ترسو عندها ، أو على مقربة منها . وكان السلطان الصالح مريضاً برّح به مرض السل المزمن ، فضلاً عن عوارض ناصور ظهرت فى ورم فى مأبضه ، وقرحة فى صدره . ومع هذا نهض السلطان الصالح لمعالجة الموقف الحربى بنفسه ، فأمر برحيل الوزير ابن مطروح وفرقته الحربية عن حمص ، والسير فوراً إلى مصر ، ورحل هو من دمشق إلى الأراضى المصرية : محمولاً على الأكتاف فى محفة ؛ ومرّ فى الغالب على الصالحية مدينته العسكرية الجديدة ، ليتفقد أحوالها من محفته ، ويستريح قليلا من متاعب الطريق . ثم نزل السلطان الصالح أول ما نزل بعد ذلك (أبريل سنة ١٢٤٩ م) على أشموم طناح ، حيث كان قصره الذى استشفى به سابقاً ، فجعل من هذه البلدة الصغيرة معسكره الرئيسى ، ومركز عملياته المستقبلة .

وهناك اجتمع قادة السياسة والحرب ، ورجال الحاشية السلطانية ، حول سرير السلطان المريض ، لفحص الموقف وتقليب الرأى ، وأول أولئك وأجدرهم بالانتباه فى ضوء الحوادث التالية ، السلطانة شجر الدرّ ، زوجة السلطان وجاريته السابقة ، وأم ولده ، وهى تركية أو أرمينية الأصل . وكانت شجر الدرّ فى مقتبل حياتها من جوارى الخليفة المستعصم العباسى ببغداد ، وجاءت إلى السلطان الصالح أيام إمارته بدمشق ، هدية من عند الخليفة . ثم لم تلبث شجر الدرّ أن صارت أحبّ زوجات السلطان إليه ،

كما صارت صاحبة نصيحته ومشورته ، مع ما هو معروف عنه من قلة الكلام في مسائله المتعدّدة ، حتى مع أخصائه ورجال دولته .

أما رجال دولة السلطان الصالح أيوب ، فكان أكبرهم مقاماً وشخصية الأمير فخر الدين يوسف بن حمويه الجويني ، وهو المعروف كذلك بابن شيخ الشيوخ ، وبهذا اللقب عُرف إخوته معين الدين وعماد الدين وكمال الدين ، وهم ممن تولوا الوظائف العسكرية والسياسية المسئولة في خدمة السلطان الصالح ، بل إن الأسرة الكبيرة التي ينتمون إليها ، وهي أسرة شيخ الشيوخ ، صاحبة فضل في تأسيس الدولة الأيوبية في قلوب الناس ، وفي توجيه سياستها ودبلوماسيتها ، وحروبها ومعاهداتها السلمية ، منذ أيام السلطان صلاح الدين[١] .

واشتهر الأمير فخر الدين يوسف بأنه هو الذي وضع قواعد الهدنة الكاملية الفردريكية ، في زيارته للإمبراطور فردريك الثاني بصقلية ، وأنه اجتذب بمواهبه انتباه الإمبراطور فردريك ، فأنعم عليه الإمبراطور بمرتبة الفروسية الأوربية ، وأنه ترقى في خدمة السلطان الصالح أيوب حتى صار القائد العام للجيش المصري الأيوبي ، وبهذه الصفة كان في مقدمة الحاضرين حول سرير السلطان المريض ، في أشموم طناح .

ومن أولئك الحاضرين كذلك بحكم وظائفهم الطواشي جمال الدين محسن ، وهو المختص بشئون القصر والحاشية ، وثلاثة من أمراء فرقة المماليك البحرية الصالحية الذين أنشأهم السلطان واستكثر منهم ، وجعلهم جيشه الخاص في إقاماته وأسفاره ، ونسبهم إلى لقبه ، تمييزاً لهم من الفئات البحرية المملوكية المنسوبة إلى أسلافه ، من السلاطين الأيوبيين . وهؤلاء الثلاثة الذين سوف تردّد

(١) انظر المقريزي : المواعظ والاعتبار – بولاق – ج ١ ، ص ٤٠٤ ؛ ج ٢ ، ص ٣٣ ، ٤١٥ ، حيث توجد تفصيلات هامة تشرح مقام هذه الأسرة العظيمة في تاريخ الدولة الأيوبية .

اسماؤهم فى مراحل حرب الدفاع والمقاومة ضد حملة الملك لويس التاسع ، هم أيبك التركمانى ، وأقطاى الجمدار ، وبيبرس البندقدارى ، وهو غير بيبرس الذى تقدمت الإشارة إليه فيما سبق ، فى وقعتى غزة وحربيا[1] . على أن المراجع لا تنبئ بكثير عن هذه الفرقة من المماليك البحرية الصالحية ، لأنها لم تظهر فى حرب أو قتال حتى وقتذاك ، كما أن هذه المراجع لا تنبئ بكثير عن هؤلاء ، الأمراء المماليك الثلاثة ، قبل أيام حملة الملك لويس التاسع ، وأولهم هو أول سلاطين الدولة المملوكية فى مصر والشام ، فيما بعد أيام هذه الحملة ، وثالثهم هو السلطان العظيم الذى اشتهر باسم الظاهر بيبرس .

وينبغى أن يضاف إلى اسماء هذه الشخصيات الكبيرة اسم تورانشاه بن السلطان الصالح أيوب ، وولى عهده ، وهو وقتذاك مقيم فى حصن كيفا عاصمة ولايته بالجزيرة وديار بكر ، كما ينبغى أن يضاف كذلك اسم الأمير حسام الدين ابن أبى على الهذبانى الكردى ، وهو نائب السلطان الصالح أيوب ووزيره الأكبر بالقاهرة ، وبيده مقاليد الإدارة والمالية والحكم الداخلى فى البلاد المصرية ، فضلا عن تنظيم القوات البرية والبحرية فى مصر ، وهى التى عنى السلطان الصالح بشئونها أكبر عناية ، منذ أوائل حكمه . وكان من أقرب المقربين إلى هذا الوزير الأكبر قاضى القضاة بدر يوسف السنجارى ، وهو كذلك صاحب مقام كبير وثقة لدى السلطان المريض .

ويبدو أن السلطان الصالح عرف بعض أركان الخطة الصليبية النهائية ، وهو فى أشموم طناح ، أو أن آراء مجلس شورته اتفقت على أن الصليبيين سوف يبدأون على الأقل بالرسو على الشاطئ الغربى للنيل ، قبالة دمياط ، كما فعلت حملة حنا برين ، قبل ذلك بثلاثين سنة ؛ وهذا على عكس ما اعتقد السلطان ورأى سابقاً . وكيفما كان الأمر ، فالمعروف أن الخطة السلطانية

---

(١) انظر ما سبق هنا ، ص ٦٩ .

استقرت ، قبيل وصول حملة الملك لويس التاسع فعلاً إلى الشواطئ المصرية ، على أن يسير الأمير فخر الدين يوسف ، بجزء كبير من الجيش المصرى الأيوبى ، شمالاً إلى دمياط ، فيعبر من عند البرج المشهور حالياً باسم عزبة البرج ، على جسر عائم من السفن ، إلى موضع كان معروفاً وقتذاك باسم جيزة دمياط ، وهو – فيما يبدو – اللسان من الأرض الممتدة قبالة دمياط القديمة ، على طول الشاطئ الغربى للنيل من ناحية ، وساحل البحر الأبيض المتوسط من ناحية أخرى ، أى رأس البرّ الحالية . وكانت دمياط القديمة حصينة بهذا البرج وسلاسله الحديدية الممتدة عبر النيل إلى برج منيع مقابل ، وموضعه هو المعروف باسم الجربى فى العصر الحاضر ، وذلك فضلا عن أسوار وأبراج أخرى ، وكلّها مشحونة بحاميات معظمها من جند العرب الكنانية ، أصحاب النفوذ والإقطاعات فى الأعمال الغربية بشمال الدلتا ، من البرلس إلى دمياط ، منذ أواخر أيام الخلافة الفاطمية ، وإليهم يرجع معظم الفضل فى مقاومة الحصار الصليبى لدمياط ، زمن حملة الملك حنا برين[1] .

ثم أرسل السلطان إلى الأمير حسام الدين بن أبى على الهذبانى نائبه بالقاهرة ، أن يجهز السفن الحربية ، من الشوانى والأغربة والطرائد والحراريق الراسية بدور الصناعة ، وأن يبعثها وحدة بعد أخرى رفقة السفن التموينية إلى دمياط ، لتكون حاجزاً مانعاً ضد أية حركة صليبية نهرية فى النيل . وهكذا استطاع السلطان أن يجعل قواته الحربية على أهبة تامة فى البر والنهر ، وأن يملأ دمياط وأبراجها وأسوارها بالعساكر والأسلحة والأقوات ، استعداداً لما عسى أن يقع عليها من هجوم أو حصار يتطلب مقاومة طويلة ، كما حدث أيام حملة حنا برين[2] .

---

(١) انظر المقريزى : المواعظ والاعتبار – بولاق – ج ١ ، ص ٢١٥ ، وما بعدها ، وكذلك المقريزى : كتاب السلوك – نشر زيادة – ج ١ ، ١٩٨ ، حيث ورد أن الأمير جمال الدين الكنانى هو الذى تزعم المقاومة المصرية الأيوبية ضد الحصار الصليبى الطويل ، زمن حملة حنا برين .

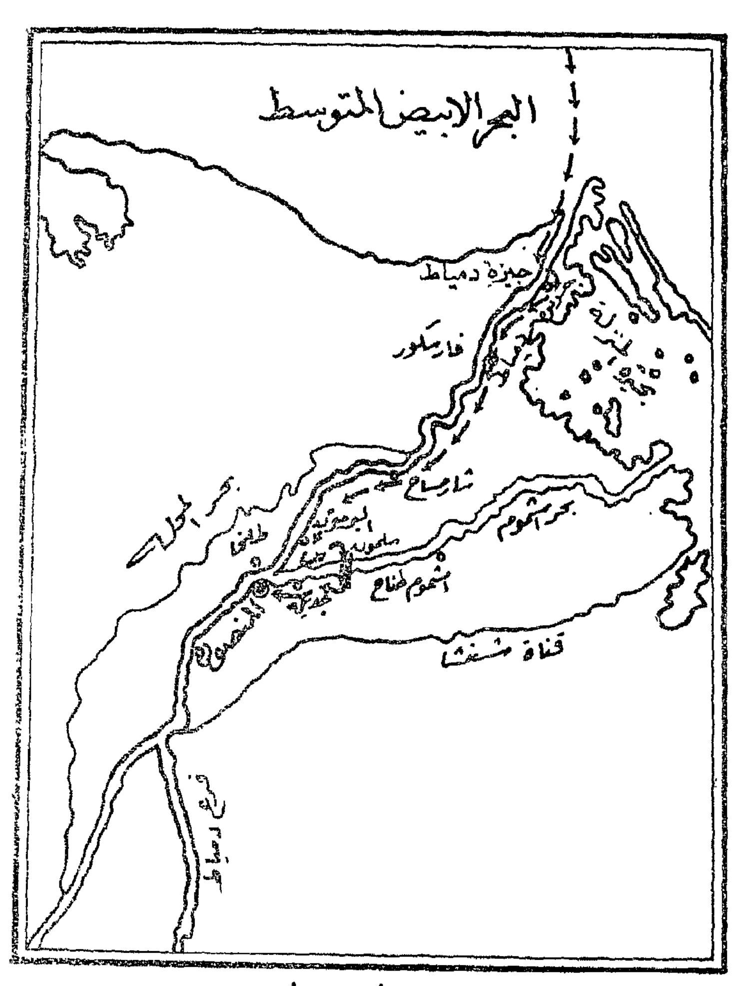
(٢) انظر ما سبق هنا ، ص ٤٦ ، لمراجعة بعض أخبار ذلك الحصار .

ويتضح من تركيز هذه الاستعدادات الحربية والتموينية الضخمة حول دمياط وأبراجها وأسوارها ، سواء في البر أو النهر ، أنّ الأخبار تأكدت أخيراً لدى السلطان الصالح أيوب بأن الملك لويس التاسع سوف يحاول الرسو بسفن حملته عند ميناء دمياط ، أو على مقربة من تلك الميناء ، وأنه سوف يعمد إلى الزحف من دمياط جنوباً إلى القاهرة ، كما عمدت حملة الملك حنابرين من قبل . وهنا يحقّ للباحث أن يندهش لهذا الاختيار الذى اختاره الملك لويس التاسع لحملته ، وهو يعلم تمام العلم بأن الاستراتيجية التى تجاهلت صعوبات هذا الطريق أدت — فيما أدت — إلى غلطات حربية وبيلة على حملة الملك حنابرين[1] . ولذا يستطيع الباحث أن يستشف ، على الرغم من عدم وجود ميناء صالح للرسو بشمال الدلتا بين فرعى النيل غير ميناء دمياط ، أن الملك لويس التاسع خضع فى اختياره هذا لرغبات الجمهوريات الإيطالية التى اشتركت بسفنها فى هذه الحملة ، كيما تعود هذه الجمهوريات إلى بيوتها التجارية التى أنشأتها فى دمياط سابقاً ؛ أى زمن حملة الملك حنابرين . وهكذا غدت الحملات الصليبية أداة لتنفيذ رغبات الجمهوريات الإيطالية التجارية ، لا العكس ، ولو كان وراء الحملة من هذه الحملات أعظم بابوات العصور الوسطى شموخاً ، وهو إنوسنت الثالث ، كما حدث للحملة الصليبية المعروفة بالرابعة ، أو نائب بابوى شديد الحماسة للفكرة الصليبية ، وهو بلاجيوس الإسبانى ، كما حدث أيام الحملة الصليبية المعروفة بالخامسة ، أو ملك فرنسى قديس ، وهو الملك لويس التاسع المعروفة حملته باسم الحملة الصليبية السابعة .

غير أن الجهود التى بذلها السلطان الصالح أيوب فى شحن دمياط وأبراجها وأسوارها ، بالعساكر والأسلحة والأقوات ، أدت إلى تدهور حاله

---

(١) انظر (Oman : A History of the Art of War in the Middle Ages, pp. 340 et seq. ، حيث يوجد نقد تفصيلى لخطط الملك لويس التاسع ، من أولها إلى آخرها .



خط سير حملة لويس على مصر

الخريطة رقم ٦

حملة الملك لويس التاسع على مصر ، سنة ١٢٤٩ م .

الصحية ، وهى البالغة أقصى درجات التدهور قبلاً ، على قول المؤرخ ابن العبرى ، وخصوصاً بعد أن عرض للسلطان فى فخذه مرض إضافى يسميه الأطباء فى تلك العصور ، " غانغرانا ، ثم استحكم الفساد فيها حتى آل أمرها إلى سفاقلس ، وهو موت العضو أصلاً ، فقطعوها وهو حى "[1] .

وبينما يكابد السلطان الصالح أيوب شديد آلام المرض العضال ، والجراحة اليائسة القليلة الأمل من الشفاء ، جاءت الأخبار إليه بأن السفن الصليبية وصلت إلى الشواطئ المصرية صبيحة يوم الجمعة العشرين من شهر صفر سنة ٦٤٧ هـ[2] ، الموافق ٤ من يونيه سنة ١٢٤٩ م ، وأنها ألقت مراسيها ونزلت إلى البر ، وعلى رأسها الملك لويس التاسع ، وهو يخوض فى الماء رافعاً ترسه وسيفه فوق رأسه ، وذلك فى فجر اليوم التالى ، وهو يوم السبت الواحد والعشرين من صفر ، الموافق ٥ يونيه ، عند طرف جيزة دمياط على الشاطئ الغربى للنيل ، شمالى المعسكر المصرى الأيوبى ، حيث وقف الأمير

---

(١) انظر ابن العبرى (تاريخ مختصر الدول — طبعة بيروت ، ص ٤٥٢) ، وهو كما تقدمت الإشارة إليه فى العبارات الافتتاحية بهذا الفصل ، ص ٨٧ ، من أهم المراجع المعاصرة لهذه السنوات ، وينفرد عنها جميعاً بدقة طبية ملحوظة فى شرح حال السلطان الصالح أيوب ، فى تلك الأيام الأخيرة من حياته . ولعل مرجع تلك الدقة الطبية صداقة ابن العبرى لبعض أطباء السلطان الصالح أيوب ، ومنهم ابن أبى الحوافر اليهودى . وهذه الدقة الطبية فى الشرح هى التى تجعل من المستطاع تفسير بعض نواحى سلوك السلطان نحو فرقة العرب الكنانية مثلاً ، بعد سماعه بسقوط دمياط غنيمة باردة فى أيدى الصليبيين ، كما سيلى .

(٢) سوف يدأب المؤلف من هنا فصاعداً على إيراد تواريخ الحوادث بصيغتيها الهجرية والميلادية معاً ، من غير التزام لقاعدة واحدة فى تقديم احداهما على الأخرى . وتوجد بالملحق رقم ٣ فى آخر الكتاب قوائم بهذه الحوادث وتواريخها ، لا ليكون لدى القارئ جداول تاريخية مقارنة فحسب ، بل ليستطيع أن يرى بنفسه مختلف المسافات الزمنية التى ازدحم بعضها ازدحاماً شديداً بالحوادث ، على حين خلا بعضها الآخر من أية حادثة من حوادث هذه الحملة ، أو خطوات المقاومة المصرية الأيوبية ضدها .

فخر الدين يوسف فى الانتظار ، أى عند الطرف الجنوبى من لسان رأس البر[1] ، وذلك برغم المناوشات العنيفة التى بذلها القائد فخر الدين لمنع الرسو والنزول إلى الساحل .

ثم لم تلبث الأخبار أن جاءت إلى السلطان الصالح ، بانسحاب القائد فخر الدين بجيشه من جيزة دمياط ، مساء ذلك اليوم ، وعبوره النيل على الجسر العائم من السفن إلى دمياط نفسها . ثم جلا فخر الدين كذلك عن دمياط ، وانسحب وراءه جنود حاميتها من الكنانية ، جافلين مذعورين يطلبون النجاة . وشهد الدمياطيون رحيل العساكر وقائدهم فخر الدين ، وخروج الحامية الدمياطية وزعمائها من الكنانيين ، وأحسوا ذهاب وسائل الطمأنينة والسلامة من المدينة ، فقرروا كذلك الرحيل عن دمياط أفواجا من المسلمين والأقباط ، بنسائهم وأطفالهم وشيوخهم .

ثم أصبح صباح يوم الأحد الثانى والعشرين من صفر ، الموافق ٦ يونيه ، فإذا جنود الحملة الصليبية تعبر النيل إلى دمياط ، على جسر السفن المهجور ، والملك لويس التاسع فى طليعتهم ، وذلك بعد أن تأكد له انسحاب عسكر الأمير فخر الدين والحامية الدمياطية . لكن الصليبيين لم يعلموا أن أهل دمياط خرجوا كذلك عن مدينتهم راحلين جنوباً ، وأنهم تركوا بيوتهم ومخازنهم

---

(١) من المعروف عند الجغرافيين أن الأراضى المصرية الشمالية عموماً تزداد مساحتها ، سنة بعد أخرى ، على حساب البحر الأبيض المتوسط ، وذلك على طول ساحل الدلتا ، من العريش وسبخة البردويل ، إلى الإسكندرية والعلمين تقريبا . والفضل فى تلك الظاهرة الجغرافية يرجع للكميات الرملية الطينية السوداء ، التى يرسبها فيضان النيل سنوياً فى هذه الجهات الساحلية ، فى انتظام . ومعنى ذلك أن أرض اللسان عند رأس البر الحالية كانت أقرب إلى عزبة البرج والجربى ودمياط القديمة فى العصور الوسطى ، عما هى فى العصر الحاضر . ولذا ينبغى للقارئ أن يلحظ هذا التغيير فى المسافات بين المواضع الساحلية التى أرست عندها حملة الملك لويس التاسع ، وبين مواضع عزبة البرج والجربى ودمياط القديمة ، فى العصور الوسطى . انظر الخريطة رقم ٦ ، وهى الخاصة بحملة الملك لويس التاسع على مصر ، ص ١٠٥ .

وحقولهم مشحونة بالأقوات والأزواد والمحاصيل والماشية ، فضلا عما تركته الحامية الدمياطية من الأسلحة والأموال والمعــدات الحربية الثقيلة . لذا دهش الصليبيون حين رأوا أبواب مدينة دمياط مفتوحة ، وحاراتها خالية من الناس ، وخشوا أن يكون فى الأمر مكيدة ، فتمهلوا حتى أيقنوا أن ليس فى المدينة أية مقاومة ، ثم لم تكن سوى ساعة قصيرة حتى دخلوها بغير قتال ، أو هجوم أو حصار[١] .

هكذا تتابعت حوادث هذه الكارثة المخمّسة المراحل ، فى سرعة مذهلة تنعكس صورها الراكضة فى أسلوب المؤرخين المعاصرين ، ولا سيما المؤرخ ابن واصل ، وهو الذى كان شاهداً قريباً من مسرح الحوادث وأخبارها ، كما هو واضح من روايته[٢] .

وفى أثناء تلك الحوادث المزعجة ، أو قبلها بقليل ، تبودلت بين السلطان المريض والملك لويس التاسع رسالتان ، لم يذكرهما أحد من المؤرخين المعاصرين ، لكنهما واردان فى كثير من المراجع المتأخرة ، ومنها ابن أيبك الذى عاش بالقاهرة بعد زمن الحملة بأربعين سنة ، ثم ابن دقماق ، ثم المقريزى ، ثم الإسحاقى ، وكل منهم مؤرخ موثوق به ، ولا سيما المقريزى الذى يذكر من باب القرينة المؤيدة لصحة هاتين الرسالتين ، أن ردّ السلطان الصالح على رسالة الملك لويس التاسع كان من إنشاء الكاتب الشاعر بهاء الدين زهير[٣] . ولذا فليس من المستبعد أن تكون الرسالة التى كتبها بعض العارفين باللغة العربية فى بلاط الملك

(١) انظر لوحة رقم ١ ، أمام ص ١١٢ .

(٢) انظر الملحق رقم ١ ، فى آخر الكتاب ، وهو متن ابن واصل فى أخبار حملة الملك لويس التاسع ، وحوادث المقاومة المصرية الأيوبية ضدها . وسوف يدأب المؤلف على الإشارة إلى هذا الملحق برقمه فقط ، فى المناسبات التالية ، دون حاجة إلى ذكر ابن واصل نفسه . ويلاحظ أن ابن واصل ، وكذلك (Joinville : Op. cit) ، هما المرجعان المعاصران الرئيسيان اللذان اعتمد المؤلف عليهما كل الاعتماد فى شرح هذه الحوادث ، مع العلم بأنهما كانا يكتبان من زاويتين مختلفتين تمام الاختلاف .

(٣) المقريزى : كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك - نشر زيادة - ص ٣٣٤ ، وما بعدها .

لويس ، والردّ الذى كتبه بهاء الدين زهير عليها بأمر السلطان الصالح ، مما بقى مجهولا مدفونا مدة فى محفوظات ديوان الإنشاء الأيوبى بالقاهرة ، حتى أيام الحركة الموسوعية المملوكية فى مصر والشام ، حين عثر ابن أيبك مثلاً على هاتين الوثيقتين ، وأدمجهما فى تأليفه الضخم ، وهذا هو نصهما من مخطوطته : " بسم الله النصيح ، صاحب الدين الصحيح ، عيسى بن مريم المسيح . أما بعد ، فإنه لم يخف عليك ، ولا على كل ذى عقل ثاقب ، وذهن لازب ، أنك أمين هذه الملة الحنيفية ، وأنا أمين هذه الملة النصرانية . وليس خفى عنك ما فتحنا من بلاد الأندلس والشابانا (كذا) ، وأخذنا النساء والعذارى ، وفرقناهم على ملة النصارى ، وجعلنا أرجالهم (كذا) أسارى ، ونساءهم عليهم حيارى . وقد علمت ما نحن فيه من حق الرعية ، لما فتحنا بلاد المهدية ، وعفونا (كذا) على ثغر الإسكندرية . فلا تلجىء العالم إلى العسف ، ولا تسيمهم (كذا) سيما الخسف . نقتل العباد ، وندوس البلاد ، ونطهر الأرض من الفساد . فإن قابلتنا بالقتال ، فقد أوجبت على نفسك ورعيتك النكال ، وأرميتهم (كذا) فى أشر الوبال ، يكثر فيهم العويل ، ولا نرحم عزيز ولا ذليل(كذا) ، ولا تجد إلى نصرتهم من سبيل .

ونحن نشرح لك مافيه الكفاية ، وبذلنا لك غاية النصيحة والهداية ، أن تنقل إلى عندنا ممّن عندك من الرهبان ، وتحلف لنا بعظايم الأيمان ، أن يكون لنا نائبا (كذا) على ممر الأزمان ، وتعجل لنا بما عندك من مراكب وطرايد وشوانى ، ولا يكون فيك فترة ولا توانى ، لتكون قلوبنا راضية عليك ، ولا تسوق البلاء بيدك إليك ، وتكون على نفسك وجيشك قد جنيت ، وتعود تقول ياليت ، وتضع الحرب أوزارها ، وتشعل (كذا) نارها ، ويتعالى شرارها ، ويغتم قتادها ، وتأخذ منكم بنارها (كذا) ، فسيوفنا حداد ، ورماحنا مداد ، وقلوبنا شداد ، ويحكم بيننا وبينكم رب العباد . فإن كانت لك فيديه (كذا) ألقت بين يديك ، وإن كانت لنا فيدنا العليا عليك ، إذا استحق

بالإضافة إمارة الملتين ، وحكم الشريعتين ، وبيد الله تعالى السعادة ، وهو الموفق للإرادة ، ثم كتب فى آخره يقول :

ستسلم إن سلّمت غير محارب ، فإنك لا ترجو أموراً ترومها . أتيناك فى خلق كرام ، وعصبة مسيحية لم يخف عنك علومها (كذا) ، وها أنا قد أنشدت بيتا مهدداً ، مخافة أن لا تلتقى النفس ضيمها :

ستعلم ليلى أى دين قد أتيت وأى غريم للتقـاضى غرامهـا

ولما وصلت هذه المكاتبة للسلطان الملك الصالح كان فى أشدّ ما يكون من المرض ، فكتب الجواب وأنفذه ، وهو ما هذا نسخته : "بسم الله الرحمن الرحيم ، وصلى الله على سيدنا محمد ، وعلى آله وصحبه أجمعين ، والحمد لله رب العالمين ، والعاقبة للمتقين ، ولا عدوان إلا على القوم الظالمين .

من عند الدارئ عن حرم المسلمين ، والقارئ كتاب رب العالمين ، المنزل على خير المرسلين ، محمد صلى الله عليه ، وعلى آله الطاهرين ، وأصحابه الأنصار والمهاجرين ، صلاة دائمة إلى يوم الدين .

أما بعد ، فقد وصل كتابك ، وفهمنا لفظك وخطابك ، وها أنا قد أتيتك بالخيل والرجال ، والخزائن والأموال ، والعساكر والأثقال ، والقيود والأغلال . فإن كانت لك فأنت الساعى ، وقد أمنت الناعى ، وإن كانت عليك فأنت الباغى لحتفك ، والجادع أنفك بظلفك . فإن رأيت أن لا تقيم بين الفيتين (كذا) ضغنا ، فلذلك منّ الله علينا وعليكم مننا ، وإن غير ذلك فقد قال الله تعالى : " أفمن زيّن له سوء عمله فرآه حسنا " .

ولما وصل الينا كتابك أعطيناك جوابك ، ومن يهد الله فهو المهتد ، ومن يضلل فلن تجد له وليا مرشدا . وفى كتابك تهددنا بجيوشك وأبطالك ، وخيلك ورجالك . أو ما تعلم أن نحن أرباب الحتوف ، وفضلات (كذا) السيوف ، ما ترانا على حصن إلا هدمناه ؛ ولا عدم منا فارسا (كذا) إلا جددناه ، ولا طغى علينا طاغ إلا دمرناه . فلو نظرت أيها المغرور حد

قلوبنا ، وجدّ حروبنا ، لرأيت فرسانا أسنتهم لا تملّ ، وسيوفهم لا تكل ، وقلوبهم لا تذلّ ، ولعضضت على يدك بسن الندم ، ولا ضرّك تحريك قدم عن قدم . فلا تعجبك العساكر التى بين يديك ، فهو يوم أوله لنا وآخره عليك إن أتاك كتابى هذا فلتكن منه بالمرصاد ، على أول سورة النحل وآخر سورة ص ، أتى أمر الله فلا تستعجلوه ، ولتعلمنّ نبأه بعد حين . هنالك تطاول نحوك الأعناق ، وتشخص صوبك العيون ، ويسوء بك الويل ، ويسوء (كذا) بك الظنون ، وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون »(١) .

وهنا تتطلب الموضوعية التاريخية شيئاً من الأناة فى الاستنتاج والحكم على ما حدث لدمياط ، وأهلها وحاميتها ، فضلا عما حدث للجيش المصرى الأيوبى ، بقيادة الأمير فخر الدين يوسف . أما المعروف من المراجع فهو أنه حين مثلت فلول الجيش المصرى الأيوبى فى حضرة السلطان المريض ، فى أشموم طناح ، قال السلطان مؤنباً الأمير فخر الدين ، على مسمع من الحاضرين : « أما قدرتم تقفوا ساعة بين يدى الإفرنج ؟ » ؛ ولم يزد السلطان على ذلك شيئاً ؛ بل كظم غيظه ، وكان من المجيدين كظم الغيظ ، واكتفى موقتاً بهذا الاستفهام .

---

(١) ابن أيبك : كنز الدرر وجامع الغرر – مخطوط بدار الكتب المصرية – ج ٧ ، ص ٢٩٥ – ٢٩٨ . وهذا النص هو أطول النصوص الموجودة لهاتين الوثيقتين بالمراجع المعروفة ، وأبعدها عن مظنة الحذف أو الاختصار . ولذا اختار المؤلف هذا النص وفضّله على سائر النصوص الواردة بالمراجع الرئيسية العربية الأخرى ، بما فى ذلك نص المقريزى (كتاب السلوك – نشر زيادة – ج ١ ، ص ٣٣٤ – ٣٣٥) ؛ وهو النص الذى اختارته إدارة متحف دار ابن لقمان ، بالمنصورة الحالية ، وكتبته على لوحة خاصة ، معلقة بالحائط الكائن على يمين الزائر لذلك المتحف . غير أنه برغم الاعتبارات التى تقدمت الإشارة إليها ، فى وصف هاتين الوثيقتين ، تحوم بضعة شكوك حول نسبة الوثيقة الأولى إلى الملك لويس التاسع ، وكذلك حول وثيقة الرد عليها المنسوبة إلى السلطان الصالح أيوب . لكن المجال لا يتسع هنا لشرح هذه الشكوك ، وهى مدونة فى مقال خاص تحت الطبع ، فى المستقبل القريب .

الإنكارى التوبيخى ، لأن الأمير فخر الدين أكبر شخصية فى الدولة بعد السلطان نفسه ، وليس من المصلحة الراهنة أن يوقع السلطان به أية عقوبة علنية عاجلة ، نظراً لمقام الأسرة العظيمة التى ينتمى إليها الأمير فخر الدين(١) .

ثم نودى على زعماء الكنانية ، وكانوا ستين نفراً ، عدا الغائبين الهاربين منهم خوفاً من صارم العقوبة . فأمر السلطان بشنق الحاضرين جميعاً ، من أولئك الكنانية التعساء ، من جزوع النخل المجاورة ، بملابسهم العسكرية ، ولم يستمع إلى قول بعضهم لبعض ، والمشانق تميد أمام أعينهم : " ما ذنبنا إذا كان عساكره وأمراؤه هربوا ، وأحرقوا الزردخاناه ، فايش نعمل نحن ؟ "(٢) ، وكان بين المنتظرين حبل المشنقة صبى وأبوه ، فتوسل الأب أن يشنق قبل ابنه ، لكن السلطان أصرّ إصراراً قاسياً عنيداً أن يشنق الابن أولاً ، مما يدلّ على مبلغ سورة غضبه وفقدانه توازنه ، بسبب مرضه المميت .

ويختلف تمام الاختلاف عن ذلك الإصرار القاسى العنيد أن السلطان لم يأمر أو ينذر بأية عقوبة لتوقيعها على الأمير فخر الدين ، ومعنى هذا — فيما يبدو — أنه لم يتولاّه شك فى إخلاصه ، ولم يتسرب إليه ظن فى مخامرته مع الصليبيين ، كما تبادر إلى ذهن بعض المؤرخين المعاصرين

(١) انظر ما سبق ، ص ١٠١ .

(٢) سبط بن الجوزى : مرآة الزمان — طبعة حيدرأباد — جـ ٨ ، ص ٧٧٢ — ٧٧٤ . يظهر من هذه العبارات أن جنود فرقة الكنانية خشوا أن يحلّ بهم مثلما حـلّ بآبائهم قبل ذلك بثلاثين سنة ، أى زمن السلطان محمد الكامل وحملة الملك حنا برين ، حين طال الحصار الصليبى على دمياط ، ولم يجد الكنانية والدمياطيون لأنفسهم مخرجاً من ذلك الحصار سوى التسليم للصليبيين . ولا معنى بعد ذلك لإلقاء التهم جزافاً على الكنانيين ، إذ المعروف أنهم كانوا من خيرة الجند زمن السلطان صلاح الدين ، وأنهم هم الذين حفظوا دمياط مدة طويلة قبل التسليم الاضطرارى لحملة الملك حنا برين ، انظر القلقشندى : صبح الأعشى ، ج ١ ، ص ٣٥٠ ، وأبو شامة : كتاب الروضتين فى أخبار الدولتين — طبعة بولاق — ج ١ ، ص ٢٧٣ ، والمقريزى : البيان والإعراب — نشر وستنفلد — ص ٢٩ ، وأحمد لطفى السيد : قبائل العرب فى مصر ، ص ٦٢ ، والسيد الباز العرينى : مصر فى عصر الأيوبيين ، ص ١٥٣ ، ١٥٥ .

(لوحة رقم ١ ، بين صفحتى ١١٢ ، ١١٣) .

وصول حملة الملك لويس التاسع إلى الشواطئ المصرية ونزولها إلى البر قبالة دمياط القديمة .



صورة محفورة على الخشب ، وهى مأخوذة من كتاب (Lacroix : La Chevalerie et les Croisades, p. 185) ، نقلا عن كتاب قديم عنوانه (Grand Voyage de Hiérusalem, Paris, 1522) ؛ أى بعد زمن حملة الملك لويس التاسع بمائتين واثنين وسبعين سنة ، مع العلم بأن هذه الصورة أقدم الصور المعروفة بالمراجع المتداولة هنا .



والمتأخرين . ولو أن قرينة قوية أمالت السلطان المريض نحو شيء من هذا أو ذاك ، ما تردّد فى الحكم بإعدام فخر الدين ، أو سجنه ، وهو فى هذه الحمأة الغاضبة المريضة ، مع العلم بأن السلطان الصالح اشتهر بتوقيع آلاف من العقوبات أثناء حكمه ، بما فى ذلك إصداره الأمر يوماً بخنق أخيه العادل الثانى ، بقلعة الجبل . يضاف إلى ذلك كله أن السلطان الصالح أبقى الأمير فخر الدين فى منصب القيادة العامة بالجيش المصرى الأيوبى ، بل إنه أسند إليه أهم أجزاء خطته الحربية المستقبلة ، وذاك بعد استيلاء الصليبيين على دمياط ، واستقرارهم بها إلى حين .

ولذا فالراجح أن السبب الأول فى كارثة دمياط لم ينشأ عن انسحاب القائد فخر الدين من جيزة دمياط ، ثم من دمياط نفسها إلى أشموم طناح ، بل نشأ كذلك عن غيبة السلطان عن ميدان المعركة ، بسبب مرضه وجراحته ، ثم سريان الإشاعة فى صفوف الجيش المرابط عند جيزة دمياط ، بأن السلطان قريب من الموت ، وهذا هو ما ذكره ابن واصل مرّتين صريحتين فى وصفه المعاصر للحوادث . وفى جوانفيل — وهو المرجع الأجنبى المعاصر الموازى لابن واصل فى الأهمية والدقة — أنه لما وصلت السفن الصليبية إلى طرف جيزة دمياط ، أرسل الأمير فخر الدين بأنبائها فى بطاقات على أجنحة حمام الزاجل ، كالمعتاد ، إلى كل من أشموم طناح والقاهرة[1] . وتعدّدت بطاقات الأمير فخر الدين بهذه الأنباء ثلاث مرّات فى يوم واحد ، دون أن يتلقى رداً واحداً ، فاعتقد أن السلطان مات . وانتشر هذا الاعتقاد

---

(١) انظر ما سبق ١٠٧ ، وفى أبى شامة (الذيل على الروضتين ، ص ١٨٣) إشارة إلى وصول إحدى البطاقات الحربية التى أرسلتها القاهرة بدورها إلى دمشق ، وهى تضبط تواريخ مراحل الكارثة الدمياطية ، وهذا هو نصها ، فى أخبار سنة ٦٤٧ هـ : " ثم ورد كتاب من مصر إلى بعض أصحابنا ، تاريخه حادى عشر ربيع الأول ، قرأت فيه : وصل الفرنج فى العشرين من صفر ، ونزلوا فى الحادى والعشرين إلى البر ، وفى الثانى والعشرين أخليت دمياط ، ودخلها الفرنج ، وهم فيها الآن " .

فى المعسكر المصرى الأيوبى بأنحاء جيزة دمياط ، فكان داعياً كافياً للأمير فخر الدين أن ينسحب سريعاً أمام هجوم صليبى ظنّه مناوشة افتتاحية خفيفة ، وسوف تتلوها مناوشات خفيفة مثلها لبضعة أيام ، قبل الدخول فى معركة كبيرة . ولذا اعتقد الأمير فخر الدين أن باستطاعته أن ينسحب بجيشه موقتاً من الميدان ، وأن يذهب إلى حيث يضطجع السلطان المريض حياً أو ميتاً ، ليشارك أولاً فى تقرير ما ينبغى تقريره من الشئون العليا فى سياسة الدولة ، والوراثة السلطانية .

والحق ، إنه بالإضافة إلى اختلاف معايير العصور الوسطى فى الشرق والغرب عن معاييرنا عموماً فى العصر الحاضر ، لم يكن من السهل ، ولا من المنطق الشخصى فى تلك العصور الوسطى ، أن يرضى القائد فخر الدين بالبقاء بعيداً عن المعترك السياسى البلاطى ، أى حول سرير المريض ، أو أن يظل مشغولاً بعمل حربى يمكن الانصراف إليه فيما بعد ، أى بعد تقرير مصير السلطنة . ثم إنه يبدو كأن القائد فخر الدين شعر بأنه مبعد عمداً عن الميدان السياسى الداخلى ، بناء على إشارة من بعض المحيطين بشخص السلطان المريض ، وأنه ربما يخدم مصالح السلطان والدولة الأيوبية ، ومصالحه الشخصية الخاصة به كذلك ، بذهابه فى سرعة إلى أشموم طناح .

أما هذه المصالح الشخصية الخاصة بالأمير فخر الدين ، فتشير إليها بعض المراجع فى صراحة أحيانا ، وفى غموض أحيانا أخرى ، ومنها مثلاً أن الأمير فخر الدين كان عجوزاً متقدماً فى السن ، مشغولاً عن القتال باحتمال وفاة السلطان ، وضرورة وجوده هو قريباً من المعسكر السلطانى ، لخدمة مطامع شخصية له فى السلطنة نفسها . وهكذا تعيّن على الأمير فخر الدين أن يذهب إلى حيث يوجد المخيّم السلطانى ، للاشتراك فى المؤامرات والمناقشات التى سوف تتلو وفاة السلطان . وتقول هذه المراجع من باب التدليل على هذا أن الأمير فخر الدين اكتفى بالمناوشة العنيفة

يوماً واحداً ضد الصليبيين ، وأنه اهتم بالانسحاب مساء ذلك اليوم ، تحت ستار الليل ، أكثر من اهتمامه بالاستمرار فى المناوشة ، بل إنه استمرّ فى الانسحاب حتى وصل إلى أشموم طناح ، حيث المخيم السلطانى . غير أن حوادث حملة الملك لويس التاسع بعد كارثة دمياط سوف تفند هذه الشكوك ، وسوف تبرهن على أن الأمير فخر الدين كان من المفترى عليهم فى التاريخ ، حسب معايير العصور الوسطى[1] .

وكيفما يكون الأمر ، فالواقع الراهن أن الموقف العام بدا مظلماً تماماً لأهل مصر فى حاضرهم ومستقبلهم ، فالصليبيون مستقرون فى دمياط ، والقوات المصرية الأيوبية ، وكذلك الحامية الكنانية الدمياطية ، كلها مختفية وراء ما غشيها من حزن وشعور بفداحة الكارثة ، والدمياطيون أنفسهم مبعثرون فى أنحاء البلاد ، والأمير فخر الدين أمسى ظلماً — أو عدلا — موضع شك ، والسلطان يعالج مرض الموت ، وهذا على حين أضحى الصليبيون على درجة كبيرة من القوة ، بفضل ما لديهم من سفن ومعدات حربية أوربية وقبرصية ، مضافاً إليها ما صار إليهم من أموال وأزواد وأسلحة فى دمياط ، وما سوف يصير إليهم من نجدات عاجلة وآجلة ، مما يحتمل أن تجود به المقادير .

---

(١) شدد المقريزى (السلوك لمعرفة دول الملوك — نشر زيادة — جـ ١ ، ص ٣٣٦) وغيره من المؤرخين ، عبارات النكير على سلوك الأمير فخر الدين فى كارثة دمياط ، برغم ما عرفه الجميع من أخبار هذا الأمير بعد ذلك ، كما سيلى .

الفصل الخامس

معركة المنصورة

الثلاثاء ٨ فبراير سنة ١٢٥٠ م = ٤ ذو القعدة ٦٤٧ هـ .

أمسى الموقف بين مصر وحملة الملك لويس التاسع ، بعد الاستيلاء الصليبى على دمياط ، شبيهاً تمام الشبه بما كان بين الطرفين زمن الملك حنا برين والحملة الصليبية المعروفة بالخامسة ، ولا سيا بعد أن أمر السلطان الصالح أيوب بنقل معسكره ومركز قيادته من أشموم طناح إلى مدينة المنصورة . وانتقل السلطان الصالح إلى مدينة المنصورة فى حراقة سارت به الهوينا فى بحر أشموم ، ثم ألقت مراسيها قبالة قصر والده السلطان الكامل ، على شاطئ النيل ؛ وذلك فى يوم الثلاثاء ٢٤ من صفر سنة ٦٤٧ هـ ، الموافق ٨ يونيه سنة ١٢٤٩ م .

ونزل السلطان المريض بهذا القصر ، ولم تلبث المدينة التى لم تبلغ وقتذاك من العمر سوى ثلاثين سنة أن امتلأت بالحركة الدائبة الصاخبة ، فشرع الجند فى ترميم دورها وأبنيتها المخصصة سابقاً لسكنى العسكر ، وعمر التجار مواضع أسواقها ، وأحضروا إليها البضائع . وقامت فرقة من عمال التحصينات الحربية بتقوية السور الكاملى المحيط بها ، ولا سيا الجزء المطل منه على ناحية النيل[1] . ثم وفدت أنواع الكتائب النظامية وغير النظامية من جند المماليك والعربان ، وكذلك المطوّعة الذين كان عملهم الوعظ

---

(١) انظر ما سبق هنا ، ص ٥٥ .

والإرشاد والحث على الجهاد ، فضلا عن طوائف العامة الذين قاموا بعمليات البيع والتجارة ، والخدمات اليومية . وامتلأت المنصورة كذلك بالأزواد والمعدات والأسلحة ، كما امتلأ النيل عندها بأنواع السفن الحربية . وهكذا صارت المدينة العسكرية ، وضواحيها حتى جديلة الحالية ، قطعة مائجة بالناس وأنواع النشاط ، كأنما يشرف على شئونها قائد متحمس فى شرخ الشباب ، لا سلطان مريض مثقل بالمرض . غير أن القرائن لم تزل تدل — حتى وقتذاك — على أن مدينة المنصورة العسكرية لم تتغير ملامحها أى تغيير ، من حيث طابعها العسكرى الأول ، وانعدام الطراز المعمارى بمبانيها ، وقلة الزخرفة التى تزدان بها العمائر السلمية ، فضلا عن قلة المتانة التى تنتج عن السرعة فى البناء . ويؤيد ذلك أن سلسلة المؤرخين ، من ابن واصل إلى المقريزى ، لم يذكر أحد منهم شيئاً يدل على بناء جديد بالمنصورة ، من طراز ما بنى الأيوبيون أنفسهم بمصر والشام ، من المدارس والعمائر والقلاع الشهيرة[١] ؛ ولعل هذا هو السبب فى عدم بقاء أى أثر من آثار مبانى المنصورة القديمة فى العصر الحاضر .

ومما يدل على يقظة السلطان الصالح ، وقدرته على مواجهة الموقف رغم مرضه ، أنه أرسل من المنصورة إلى قائد جيشه بدمشق يأمره بمهاجمة بعض البلاد الصليبية بفلسطين ، أو التهديد على الأقل بالقيام بحصارها ، من باب تحويل الأنظار والتخفيف قليلا عن مصر ، كما كان يفعل نور الدين محمود ابن زنكى ، أيام شيركوه وصلاح الدين والحملات النورية فى مصر . لكن السلطان الصالح لم ينتظر مساعدة كبيرة من ملوك البيت الأيوبى ، لأنه لم يكن بينه وبينهم سوى حبّ مفقود ؛ ولذا لم يحضر منهم إلى معسكره بالمنصورة إلا من ألجأته المنفعة المادية إلى الحضور[٢] .

---

(١) انظر ما سبق هنا ، ص ٨٢ — ٨٣ .

(٢) انظر الملحق رقم ١ (ص ٣٥٧ ب) ، وكذلك المقريزى : كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك — نشر زيادة — ، ج ١ ، ص ٣٣٧ .

وفى أثناء ذلك أدار السلطان عملية ديبلوماسية ماهرة ، إذ أرسل إلى الملك لويس التاسع يعرض شروطاً للهدنة ، بشرط جلاء الصليبيين عن دمياط ، مقابل إرجاع مدينة بيت المقدس إلى مملكة عكا الصليبية ، على قاعدة ما عرض السلطان الكامل سابقاً . غير أن التقوى العسكرية المحاربة تغلبت على الملك القديس ، كما تغلبت على النائب البابوى بلاجيوس من قبل ، فلم يتأثر الملك لويس التاسع بشىء من العوامل التى أمالت الملك حنا برين مثلاً نحو فكرة الهدنة ، ولم يوجس خيفة مما عسى أن تختتم به الحوادث — على مقياس أشبه بما اختتمت به الحملة الصليبية المعروفة بالخامسة ، أو أسوأ منه . بعبارة أخرى رفض الملك لويس التاسع أن ينزل إلى مستوى مفاوضة المسلمين ، أو مهادنتهم ؛ وكان هذا معروفاً عنه جيد المعرفة .

وفى رواية أخرى أن اقتراحات السلطان الصالح للهدنة لقيت شيئاً من القبول لدى القادة الصليبيين ، والملك لويس التاسع نفسه ، ما عدا كونت أرتوا أخى الملك ، أى أن هذا الكونت المشهور بخطأ الرأى ، مع التسرّع والعناد ، كان هو الذى رأى أنه لا ينبغى للصليبيين أن يشتروا السلام بالتخلى عن واجب الحرب المقدسة ضد المسلمين ، إلا إذا عرض السلطان تعويضاً عن دمياط بالإسكندرية ، مضافاً إلى شرط استرجاع مدينة بيت المقدس ؛ ولهذا السبب فشلت المفاوضات ، فيما قيل .

ويأسف المؤرخون الغربيون — طبعاً — لعجز الملك لويس التاسع وحملته عن استغلال الحال التى نجمت عن الاستيلاء السريع على دمياط ، بالزحف السريع جنوباً نحو القاهرة ، قبل أن يفيق السلطان الصالح من اللطمة التى حاقت بجيشه فجأة ، ولا سيما أن جيش الصليبيين لم يكن بحاجة إلى أية راحة ، أو أية إعادة لتنظيم الصفوف بعد دخول دمياط دون قتال ، بل كان فى استطاعته — على الأرجح — أن يبدأ فى الزحف فوراً نحو القاهرة(١) . غير أن الملك لويس التاسع

(١) انظر (Oman : Op. cit. I. p. 341) ، ومن الواضح كل الوضوح أن غلطات الملك لويس التاسع ؛ فى أثناء قيادته لهذه الحملة على مصر ، ليست مما يؤسف له هنا ، بل العكس . =

انصرف ، منذ أوائل يونيه سنة ١٢٤٩ م ، إلى عدة من الشئون الداخلية الكثيرة التى ترتبت على دخول الصليبيين دمياط ، وأول هذه تحويل جامع دمياط الكبير إلى كنيسة كتدرائية ، وتحويل قبة فاتح الأسمر المقابلة للجامع إلى مكان للمعمودية ، كما حدث أيام حملة الملك حنا برين . ثم أخذ الملك لويس التاسع فى توزيع الغنائم ، حسبما جرى عليه العرف والمعتاد بين الصليبيين بالشرق ، فكافأ الجنوية والبيازنة وأهل مرسيليا على خدماتهم ، بتخصيص حىّ من أحياء دمياط لكل جالية من جالياتهم الوافدة للتجارة ، كما وافق على أن يكون لجالية البنادقة مثل ذلك ، بعد أن وعدت جمهورية البندقية أخيراً بتقديم جميع المساعدات البحرية اللازمة للحملة فى المستقبل[١] .

ثم استدعى الملك لويس التاسع إليه زوجته الملكة مرجريت البروفنسالية ، وكانت أبحرت إلى عكا عند رحيل الحملة من قبرص ، فجاءت إلى دمياط فى أواخر يونيه سنة ١٢٣٩ م ، وأقامت بها ؛ ولذا كانت مشاهدات قسيسها الخاص ، واسمه ويليام سانت ، باتوس ، من أهم المراجع المعاصرة لحوادث الحملة أثناء إقامة جيوشها فى دمياط . واستقبل الملك لويس التاسع فى ذلك الشهر كذلك بلدوين الثانى ، وهو إمبراطور الدولة الصليبية اللاتينية بالقسطنطينية ، وكان مجيوءه إلى دمياط لتكرار طلبه السابق للحصول على نجدة مالية وعسكرية ينقذ بها إمبراطوريته المتداعية[٢] .

= وبدأت هذه الغلطات باختيار الملك لويس التاسع ميناء دمياط لتكون نقطة بداية لعمليات هذه الحملة ، وكانت الغلطة الثانية تأجيله الزحف نحو القاهرة ، وسوف تتلوها غلطات أخرى ، وكلها تدل على أن الملك لويس التاسع لم يكن على شىء كثير من المقدرة العسكرية التى ألصقها به المؤرخ الفرنسى جروسيه مثلاً انظر (Grousset : Op. Cit. III. p. 438 et seq.) .

(١) انظر ما سبق هنا ٩١ ، ٩٤ ، ١٠٤ .

(٢) انظر (Camb. Med. History. IV. p. 429) ، وكذلك ما سبق هنا ، ص ٩٨ .

وربما ظنّ الإمبراطور بلدوين الثانى أن الملك لويس التاسع سوف يمدّه بنجدة صغيرة من المال والجند ، على مقياس ما سمح به سابقاً للأمير بوهمند صاحب أنطاكية ، وخاصة بعد أن قرّر الملك لويس أن يتريث قليلاً بدمياط ، قبل الزحف جنوباً نحو القاهرة .

غير أن الملك لويس التاسع لم يقرّر تأجيل التحرك بجيشه من دمياط جنوباً ، ليجعل نفسه قريباً من المحتاجين إلى نجدته من الصليبيين المعدمين ، أو لينقص من جيشه — وكان قليل العدد وقتذاك — لتلبية حاجات أولئك الصليبيين ، بل بقى بدمياط لىزيد عدد جيشه ، بوسيلة أو بأخرى من الوسائل التى كانت فى معقول متناوله . والواقع أن الملك لويس التاسع رأى وجوب الانتظار بدمياط حتى تلحق به القوات التى بعثرتها الرياح ، إبان قيام الحملة من قبرص ؛ ويبدو كذلك أنه اعتقد أن جيوشه لن تكون كافية لهجوم جنوبى عام ، حتى بعد وصول هذه القوات إليه ، بدليل أنه أرسل إلى فرنسا يطلب مجىء أخيه الثالث ألفونسوكونت بواتييه ، بقوات فرنسية وأسلحة ومؤونة إلى دمياط . يضاف إلى ذلك أن الملك لويس أراد أن يجنّب حملته ويلات ما ارتطمت به حملة حنا برين من عراقيل ومعاثر مائية ، بسبب زحف تلك الحملة أثناء موسم فيضان النيل . ولم يعلم الملك لويس أن مياه الفيضان لا تصل إلى الدلتا قبل أواخر شهر يوليو من كل عام ، أى أنه كان باستطاعته أن يزحف جنوباً نحو القاهرة قبل ذاك الميعاد بمدة طويلة ، كما أنه لم يعلم بأن صعوبات النقل بين البلاد المصرية فى العصور الوسطى ، تستمرّ إلى ما بعد أيام الفيضان بمدة غير قصيرة . ومع هذا قرر الملك لويس نهائيا أن يبقى بحملته فى دمياط حتى بعد نهاية هذا الموسم ، واكتفى بتكليف الجند بحراسة الأبراج والأسوار والأبواب الدمياطية . غير أن ركود الحملة على هذا النمط ، وخلو جندها من أى عمل كبير أثناء شهور صيف سنة ١٢٤٩م ، وهى شهور الحرارة الشديدة والرطوبة فى أرض الدلتا ، أفسد الروح العسكرية العامة ، بل

أدى إلى ظهور بعض الأمراض الوبائية بين الجند ، فضلاً عن نفاد الأقوات ، فى جوّ من البطالة الرتيبة ، والإسراف العام ، والتدهور الخلقى .

وضاق السلطان الصالح أيوب وضاقت عساكره بهذا الركود الصليبى ، وتحولت الخطة الحربية المصرية الأيوبية تدريجياً من موقف دفاعي جامد — وراء تحصينات المنصورة — إلى حركات هجومية سريعة على مواقع الصليبيين فى دمياط . ونظم السلطان من أجل تلك الحركات الهجومية السريعة عدة سرايا من العربان القناصة ، والفلاحين والصناع وعامة أبناء النواحى المجاورة ، وأعدّها للعمل فى البر والنهر ، وعيّن لها المكافآت المالية الكبيرة المغرية . ولذا قامت هذه السرايا بإغارات فدائية ليلية جريئة ، حول مشارف دمياط ، وعلى طول ساحل البحر الأبيض المتوسط حتى قرب غزة شرقاً ، وعادت بين الفينة والأخرى إلى معسكر المنصورة ، بأعداد غير ضئيلة من الأسرى . وأرسل السلطان هذه الأعداد من الأسرى إلى القاهرة ، ولا بدّ أنه أمر بعرضها وتوكيبها فى الشوارع كالمعتاد ، لرفع الروح المعنوية وإبقائها عالية فى أنحاء البلاد . ومن طلائع أولئك الأسرى ، حسبما ورد فى ابن واصل ، ستة وأربعون أسيراً وصلوا إلى القاهرة مرة واحدة فى أوائل يوليه سنة ١٢٤٩ م ، وستة وتسعون أسيراً آخرون على ثلاث مرّات بسائر ذلك الشهر ، وخمسون أسيراً مرة واحدة فى أغسطس . واحتوت الفئة الأولى من هذه الفئات من الأسرى على اثنين من طبقة الفرسان الصليبيين ، كما احتوت الفئة الأخيرة منها على ثلاثة من الخيالة ، وهم دون طبقة الفرسان[١] .

وهال جوانفيل أن تبلغ الخسائر الصليبية هذا المنسوب الكبير ، دون حرب ، وأغفل ما هو معهود فيه من اتزان الرواية والنقل والتعبير ، وراح يذكر أن أعمال القناصة من المصريين والعربان لم تكن لاختطاف الجند

---

(١) انظر ما يلى بالملحق رقم ١ ، ص (٢٥٧ ب) .

وأخذهم أسرى ، بل لقتلهم وهم نيام ، وهو عمل لم يترفع المتحاربون عنه فى تلك العصور الوسطى ، بل العصور الحديثة كذلك ، ولو كان من الحقيقة فى شىء لردّدته المراجع العربية المعاصرة ، برغم بشاعته . وهذ هو نص جوانفيل : "وجاء المسلمون كل ليلة من الليالى سيراً على الأقدام إلى المعسكر ، وذبحوا من الجند كل من وجدوه نائماً منهم . ولهذا حدث أنهم ذبحوا جندى النوبة (النوبتجى) الخاص بالسيد كورتنيه ، وتركوا جثته ممدّدة على خوان ، بعد أن قطعوا رأسه ، وأخذوها معهم . وعكفوا على فعل ذلك ، لأن السلطان أعطى عن كل رأس صليبى جائزة قدرها بيزانت من الذهب . وحلّت هذه المصيبة بنا ، لأن الدوريات التى تناوبت حراسة المعسكر فى الليل كانت تقوم بالحراسة وهى راكبة ظهور الخيل . وكان المسلمون عندما يعتزمون التسلل إلى العسكر ينتظرون حتى تبتعد عنهم حركة الخيل والدوريات ، ثم يدخلون إلى المعسكر فى أعقاب ذلك ، ويخرجون منه قبيل الفجر . ولهذا السبب أمر الملك جميع الدوريات التى اعتادت الحراسة ، وهى راكبة ظهور الخيل ، أن تقوم بعملها وهى راجلة . وهكذا بات المعسكر كله آمناً بجنودنا المكلفين بالحراسة ، لأنهم صاروا من الترتيب بحيث أمسى الواحد منهم على مرأى ومسمع من جاره فى الحراسة "(١) .

ولم يكتف الملك لويس التاسع بهذا التدبير الوقائى ، لمنع القناصة المصريين والعربان من التسلل إلى المعسكر الصليبى فى دمياط ، فعمد إلى ترميم ما عسى أن يوجد من ثغرات فى الأسوار ، مع حفر خنادق حول أجزاء المعسكر ، وتعيين عدة وافرة من الرماة والرجالة ، للحراسة الليلية عند الأبواب والأبراج وحافات الخنادق . وهكذا غدا المعسكر الصليبى محترزاً عليه من الداخل والخارج ، ولم يعد للقناصة من المصريين والعربان سبيل إلى

---

(١) انظر . (Joinville : Op. Cit.p.97) .

الاقتراب منه ، أو العثور صدفة على أحد من جنده ، ولا سيا بعد أن أصدر الملك لويس لجميع الوحدات أمراً بمنع التجول ليلاً أونهاراً خارج الأسوار ، وخصوصاً من ناحية البرّ .

ولهذه الأسباب تحولت عمليات القناصة إلى مواضع جديدة ، وأخذ المصريون والعربان يطرحون شباكهم فى الجهات التى انتشرت فيها بعض الوحدات الصليبية الاحتياطية ، بين الشاطئ الغربى للنيل وبحيرة البرلس ، وجاءوا منها فى أواسط سبتمبر بسبعة وثلاثين أسيراً ، بينهم أحد عشر من طبقة الفرسان . ثم لم تمض بضعة أيام على تلك الغنيمة الكبيرة ، حتى استولى المسلمون عند بلدة نستراوة الواقعة فى الطرف الشرقى من بحيرة البرلس نفسها ، على سفينة من النوع المسمى بطسة ، مشحونة بالجند ؛ ولا بد أنهم اقتادوا هذه السفينة إلى معسكر المنصورة عن طريق فرع سمنود (سبنيتوس) وبحر المحلة ، لاستحالة دخولهم النيل وقتذاك من ناحية دمياط .

وفى تلك الأثناء هبت عواصف خريفية شديدة على منطقة دمياط كلها ، مدة ثلاثة أسابيع . وظلت الأحوال الجوية بدمياط سيئة تلك المدة الطويلة . وتحطمت بسبب ذلك أعداد من السفن الصليبية الكبيرة والصغيرة ، وهذه قدّرها جوانفيل بمائتين وأربعين سفينة ، فضلاً عما تلف بتلك السفن من أزواد وأسلحة . غير أن الملك لويس التاسع تعوّض عن تلك الخسائر الثقيلة بوصول أخيه ألفونسو كونت بواتييه إلى السواحل الدمياطية ، فى ٢٤ أكتوبر سنة ١٢٤٩م ، الموافق ١٥ رجب سنة ٦٤٧ هـ ، بالنجدات التى طال انتظار الملك لويس إياها من فرنسا . واعتقد الملك لويس وقتذاك أن انتهاء موسم الفيضان والمياه العالية ، منذ أوخر شهر سبتمبر السابق ، يجعل دلتا النيل وترعها وقنواتها وجسورها صالحة للزحف الصليبى جنوباً نحو القاهرة ، أى أن جميع العوامل التى أجّلت حركة الحملة جنوباً ، لمدة خمسة أشهر ، زالت كلها تمام الزوال . غير أن المعلومات الجغرافية الناقصة لم تخبر الملك لويس بأن هذه الترع

والقنوات والجسور تظل بعد ذلك مدة طويلة ، وهى قليلة الصلاحية للأغراض الحربية ، بسبب ما يتخلف عن الفيضان بها من تربة طينية رخوة ومستنقعات وبرك ذات مياه راكدة معظم الأحيان .

وأخيراً جمع الملك لويس التاسع مجلس الحرب لتقرير خطة الزحف ، فاقترح بطرس كونت بريتانى وبضعة من البارونات الأوربيين والمحليين الذين اشتركوا فعلاً فى حملة الملك حنا برين ، أن يكون المسير ، لا جنوباً نحو القاهرة ، بل غرباً نحو الإسـكندرية ، اجتناباً لطريق حملة حنا برين ، وأملاً فى الاستيلاء على مدينة المصب الرئيسى الآخر للنيل ، إذ كان الاعتقاد الجغرافى وقتذاك أن فرع رشيد الحالى ينتهى عند الثغر الإسكندرى ، أى أن الدلتا مثلث قاعدته خط واصل بين دمياط والإسكندرية ، ورأسه عند القاهرة(١) . وأيّد البارونات المحليون كونت بريتانى فى هذا الاقتراح ، اعتماداً منهم على ما لديهم من سفن صغيرة تستطيع أن تساحل الشواطئ المصرية فى سهولة إلى الثغر الإسكندرى ، فضلاً من استطاعة تلك السفن الصغيرة أن تقلع من الإسكندرية بعد ذلك إلى القاهرة ، على حين تقلع كذلك سفن أخرى إلى القاهرة من دمياط .

ودلّ هذا الاقتراح — فيما دلّ — برغم إيراده فى المراجع المتداولة هنا دون تفسيرٍ أو تعليل حربى سليم ، على اختلاف عميق فى الرأى والاستراتيجية ، بين قادة حملة الملك لويس التاسع ، حول سلامة الخطة التى بدأت بالرسوّ عند دمياط ، للزحف منها جنوبا نحو القاهرة . ومن الواضح أن معظم أصحاب هذا الاقتراح كانوا من الذين شهدوا حملة الملك حنا برين ، وذاقوا مرارة الهزيمة مع جنودها ؛ وربما أيّدهم فى اقتراحهم هذا جماعات البنادقة الذين وصلوا حديثاً إلى دمياط ، لأن شفيعهم القديس مرقص مدفون أصلاً بالإسكندرية ، وسوف يعتمدون على هذه العلاقة المقدسة ليجعلوا

(١) راجع (Joinville : Op. Cit. p. 105) .

لتجارتهم ومصالحهم مكانة خاصة بالثغر الإسكندرى ، دون الجنوية أوغيرهم من الجاليات الإيطالية التجارية المرافقة للحملة الصليبية . على أن موضع الأهمية هنا هو أن فئة من القادة الصليبيين ، فى حملة الملك لويس التاسع ، اعتقدت أن طريق الزحف الصليبى من دمياط جنوباً نحو القاهرة محفوف بكثير من المخاطر المائية ، كما اعتقد الملك لويس التاسع من ناحيته أن هذا الطريق أضحى مأمونا مضموناً ، بعد انتهاء موسم الفيضان ؛ وسوف تدل الحوادث التالية على مبلغ ما فى هذا الاعتقاد أو ذاك من الخطأ أو الصوب .

وكان الاقتراح بالتحول إلى الاسكندرية فى نظر المؤيدين له من البارونات المحليين والأوربيين كفيلاً بانقلاب وسائل المقاومة المصرية الأيوبية رأساً على عقب ، ومؤدياً — ولا ريب — إلى إسراع السلطان الصالح أيوب إلى التسليم وطلب الصلح ، فى غير قيد أو شرط . لكن كونت روبرت أرتوا أخا الملك ، وهو على ما قيل سابقاً صاحب فكرة استبدال الإسكندرية بدمياط ، عن طريق المفاوضة والمهادنة ، رفض الموافقة على اقتراح بطرس كونت بريتانى وأصحابه ، للتحول عن دمياط إلى الإسكندرية ، ومحاولة الاستيلاء عليها ، والزحف منها إلى القاهرة ، بل أصرّ على أهمية الزحف المباشر من دمياط إلى القاهرة ، وانضم إليه الملك لويس التاسع ، ولا سيما بعد أن تبيّن للملك أن الاتجاه نحو الإسكندرية سوف يحتّم على حملته عملية إرسائية جديدة ، وسوف يتطلبّ محاولة — أو محاولات — للإستيلاء على الإسكندرية ، قبل التفكير فى مشروع نهائى للزحف نحو القاهرة[1] .

ولذا خرجت الحملة أخيراً من دمياط فى يوم السبت العشرين من نوفمبر سنة ١٢٤٩ م ، الموافق ١٢ شعبان سنة ٦٤٧ هـ ، ورافقتها عدة كبيرة من السفن ؛ وزحفت هذه وتلك كلها جنوباً فى البر والنهر ، على طريق حملة

---

(١) انظر (Oman : Op. Cit. I. p. 342.) .

حنا برين . وفى دمياط نفسها بقيت حامية قوية ، ومعها الملكة مرجريت البروفنسالية ، وكذلك البطريق جاى الخامس ، وهو بطريق مدينة بيت المقدس ، إذ أقعدته شيخوخته المتقدمة فى عداد السنين عن الزحف مع الحملة .

وربما أعجلت قراراتُ هذا الزحف وفاةَ السلطان الصالح أيوب ، إذ لفظ أنفاسه الأخيرة بالقصر الكاملى بالمنصورة ، يوم الاثنين ٢٢ نوفمبر سنة ١٢٤٩ م ، الموافق ليلة النصف من شعبان سنة ٦٤٧ هـ ، أى بعد ثلاثة أيام من زحف حملة الملك لويس التاسع من دمياط جنوباً نحو القاهرة . وكان عمر السلطان الصالح أيوب يوم وفاته أربعا وأربعين سنة ، وهو فى تقدير المؤرخ ابن تغردى بردى أعظم السلاطين الأيوبيين بعد صلاح الدين ، وهذا التقدير العالى خلاصة صادقة لما ردّدته جميع المراجع العربية المعاصرة والمتأخرة ، فى تقدير هذا السلطان العظيم(٢) .

وتوفى السلطان الصالح أيوب بعد أن عهد لولده المعظم تورانشاه بالسلطنة فى مصر ، مع بقاء الأمير حسام الدين بن أبى على الهذبانى على وظيفة نيابة السلطنة بالقاهرة ، والأمير فخر الدين يوسف بن شيخ الشيوخ على القيادة العامة بالمنصورة . ويبدو أن السلطان الصالح أيوب رتّب ذلك كله مع زوجته شجر الدر ، وهو على فراش الموت ، بدليل أنه عقب وفاة السلطان مباشرة استدعت شجر الدر إليها الأمير فخر الدين بن شيخ الشيوخ ، والطواشى جمال الدين محسن ، وكان من أقرب الناس إلى السلطان المتوفى ، ووظيفته النظر فى شئون القصر والحاشية ، وأعلمتهما دون سواهما بالوفاة ، وأوصتهما بكتمان الخبر عن جميع رجال الدولة والناس ، حتى يحضر تورانشاه أولاً من ولايته بحصن كيفا ، لاستلام مقاليد السلطنة ، فى غير جلبة أو اضطراب . وحرصاً على بقاء خبر الوفاة مكتوماً تمام

---

(١) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة — طبعة القاهرة ، جـ ٦ ، ص ٣٣٧ .

الكتان ، كلفت شجر الدر جماعة الأطباء الذين يمكن الاعتماد عليهم فى حفظ هذا السرّ ، بالقيام بأنفسهم بتغسيل جثة السلطان . ثم أرسلت شجر الدرّ الجثة السلطانية ، بعد تحنيطها ، فى تابوت على ظهر سفينة ليلاً إلى قلعة الروضة ، حيث بقيت الجثة محنطة مدة قبل دفنها بالقاهرة ، فى هدوء تام .

واستغلت شجر الدر ما استقام لها هكذا فجأة من سلطات واسعة ، فأعلنت أن السلطان مريض لا يزوره أحد سوى أطباؤه ، بالقصر الكاملى ، بالمنصورة . وأحاطت شجر الدّر الأمير حسام الدين بن أبى على ، نائب السلطنة بالقاهرة ، بهذا الإعلان بمرسوم؛ واستخدمت لهذا الغرض وغيره من شئون الحكم أوراق مراسيم بيضاء ، قيل إن السلطان كتب عليها علامته — أى إمضاءه — قبل وفاته ، كما قيل إن خادماً اسمه صواب السهيلى كان يتقن كتابة العلامة السلطانية إتقاناً جاز على كثير من الذين وصلتهم هذه المراسيم ، ومنهم الأمير أبو على نفسه[1] .

وبموجب هذه السلطات الواسعة استحضرت شجر الدر أمراء الجيش وزعماء المماليك إلى القصر السلطانى بالمنصورة ، وأعلنت فيهم كذلك خبر مرض السلطان ، ورغبته فى تحليف الأمراء له ولابنه تورانشاه بعده ، وللأمير فخر الدين يوسف بن شيخ بالقيادة العامة على الجيش المصرى الأيوبى كله ، مع اشتراك الأمير فخر الدين كذلك فى تدبير أمور الحكم ؛ فأجاب جميع الحاضرين بالسمع والطاعة ، وحلفوا على ذلك . ثم بعثت شجر الدرّ مرسوماً إلى القاهرة لشرح ما تمّ من تحليف أمراء الجيش وزعماء المماليك ، وقام الأمير حسام الدين بن أبى على الهذبانى ، فى يوم الاثنين ٢١ شعبان سنة ٦٤٧ هـ ، الموافق ٢٩ نوفمبر ١٢٤٩ م ، بتحليف أكابر الدولة وأجنادها على ما وقع التحليف عليه بالمنصورة ، وأمر الخطباء بالدعاء من المنابر للأمير تورانشاه بعد أبيه ، على أن يبدأ ذلك فى يوم الجمعة التالية .

---

(١) انظر الملحق رقم ١ ، ص ٣٦٢ ب .

ويبدو أن شجر الدر اختارت هذه المناسبة لتعيين الأمير أيبك التركمانى ، وهو أكبر مماليك السلطان الصالح مرتبة فى فرقة المماليك البحرية الصالحية ، وأعظمهم حظوة عند شجر الدرّ نفسها ، للمشاركة كذلك فى تدبير أمور الحكم ، كما عينت زعيماً مملوكياً ثانياً ، وهو فارس الدين أقطاى الجمدار ، للسفر فى طلب الأمير تورانشاه من حصن كيفا[١] . وترتب على هذه التعيينات الجديدة إسناد القيادة فى فرقة المماليك الصالحية إلى ثالث أمرائها فى الأقدمية ، وهو الأمير ركن الدين بيبرس البندقدارى ، على أن تكون إقامة هذه الفرقة داخل معسكر المنصورة ، حول القصر السلطانى ، كالمعتاد لهذه الفرقة المملوكية الكبيرة منذ نشأتها الأولى . أما الأمير فخر الدين بن شيخ الشيوخ ، وهو صاحب القيادة العامة على الجيش المصرى الأيوبى كله ، فاستقر الرأى على أن يظلّ معسكراً بالجيش الرئيسى عند جديلة ، خارج المنصورة ، على أن يدأب على إرسال فئات من الخيالة المصرية الأيوبية لإزعاج الصليبيين ، وتعويق طريق زحفهم جنوباً ، كلما سنحت الفرصة ، حتى ينجلى الموقف الداخلى على الأقل ، بوصول السلطان الجديد .

أما حملة الملك لويس التاسع ، فلم يكن لها مناص من التوقف أحياناً كثيرة عن السير جنوباً من دمياط ، بسبب أنواع العقبات المائية والطينية التى تخلفت عن مياه الفيضان فى هذه المنطقة المعروفة حقاً بإسم جزيرة دمياط[٢] ، وذلك فضلا عن العمليات التعويقية التى قامت بها الخيالة المصرية الأيوبية خير قيام . ويكفى للبرهان على هذا وذاك أن الحملة استغرقت فى زحفها من دمياط العصور الوسطى إلى فارسكور الحالية ثلاثة عشر يوماً ، وهى مسافة لا يمكن أن تزيد عن ثمانية وأربعين كيلومتراً ، أى أن الحملة لم تستطع أن تقطع فى اليوم الواحد سوى أربعة كيلومترات . أو بعبارة أخرى يتضح

---

(١) ابن العبرى : تاريخ مختصر الدول – طبعة بيروت ، ص ٤٥٣ .

(٢) انظر الخريطة رقم ٦ ، ص ١٠٥ .

أن طريق الحملة لم يكن مأموناً أو مضموناً ، كما اعتقد الملك لويس التاسع حين قرر اتباع هذا الطريق ، بل كان محفوفاً بما هو أسوأ من المخاطر ، كما أنذرت فئة كونت بريتانى من الصليبيين الأوربيين والمحليين[١] .

والواقع أن هذه المنطقة تخللتها فى تلك العصور قنوات وترع وجداول وغدائر ليس لمعظمها وجود فى العصر الحاضر ، ولا سبيل لمعرفتها على وجه التحقيق إلا عن طريق الحفائر العلمية والبحث الدقيق ، ومنها مثلاً على سبيل الترجيح قناة كانت تصل قديماً بين النيل وبحيرة المنزلة جنوبى دمياط القديمة ، أى بين المنية وغيط السيالة الحالية تقريباً ، حيث تضيق المسافة بين النيل والبحيرة فى الخرائط القديمة — والحديثة كذلك — إلى درجة تدعو إلى الالتفات . وهذه القناة التى يرجح أن تكون ترعة البيضا الحالية ، هى التى وصفها جوانفيل بأنها لصق دمياط ، وذكرها بعد مسير حملة الملك لويس التاسع مباشرة نحو الجنوب . ثم اجتازت الحملة هذه العقبة الأولى ، بعد أن سدت مطلع هذه الترعة من النيل بجسر من الطين ، ولا بد أنها توقفت من أجل ذلك بضعة أيام حتى يجف الجسر الطينى ، ويصبح صالحاً لعبور حملة كبيرة بخيلها ورجلها وسلاحها ومؤونتها . وبعد هذه العملية الأولى تقدمت الحملة وسفنها فى محاذاة النيل حتى وصلت إلى قرب فارسكور ، لكنها لم تدخل إلى فارسكور نفسها إلا يوم الخميس الرابع والعشرين من شهر شعبان سنة ٦٤٧ هـ ، الموافق ٢ ديسمبر سنة ١٢٤٩ م ، مع العلم بأنها لم تلق فى طريقها كله أية مقاومة عسكرية ، ما عدا صعوبات الزحف الحربى فى أرض شمال الدلتا ، وهى صعوبات لا بد منها حتى بعد انتهاء موسم فيضان النيل بمدة طويلة .

غير أن فرقة عدتها خمسمائة من الخيالة المصرية الأيوبية كانت تكمن بالمرصاد فى معسكر صغير ، على مسافة قصيرة جنوبى فارسكور ، فى انتظار وصول الصليبيين ، وهم فى زحفهم الوئيد إلى تلك المدينة . ولذا لم يكد الصليبيون

---

(١) انظر ما سبق هنا ، ص ١٢٥ ؛ وكذلك الخريطة رقم ٦ ، ص ١٠٥ ، لمتابعة سير حملة الملك لويس التاسع جنوباً نحو القاهرة .

يدخلون فارسكور — دون مقاومة — حتى أخذ قائد هذه الفرقة فى ترتيب رجاله لمناوشتهم وتعويقهم عن الزحف جنوباً قدر الإمكان ، على حين أطلق حمام الزاجل بأخبار هذا الزحف ؛ فوصلت هذه الأخبار إلى معسكر المنصورة فى بضع ساعات . وطيّر الأمير فخر الدين بن شيخ الشيوخ هذه الأخبار بدوره فى اليوم التالى (الجمعة) إلى القاهرة ، ومعها رسالة حربية من إنشاء الكاتب الشاعر بهاء الدين زهير ، وهى ممهورة بتوقيع مفروض أنه علامة السلطان الصالح أيوب ، مما يدل على أن خبر وفاته لم يزل مكتوماً حتى وقتذاك عن معظم الناس . لكن هذه الرسالة لم توردها المراجع إلا تلخيصاً فيه حضٌ للناس جميعاً على الجهاد ؛ ما عدا نصَّ آية قرآنية افتتحت بها هذه الرسالة ، وهى تشير إشارة واضحة إلى مدى ما خشيه القائد العام من خطر الجيوش الصليبية ، إذ يخاطب بهذه الآية خاصة الناس وعامتهم ، ويحثهم على بذل النفس والنفيس فى سبيل دفع الصليبيين عن البلاد ، وهى بعد البسملة " انفروا خفافاً وثقالاً ، وجاهدوا فى سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ؛ ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون "(١) . وقرئت هذه الرسالة على الناس فى صلاة الجمعة بالجامع الأزهر ، وغيره من الجوامع والمساجد بالقاهرة ، وكان لها من الأثر أن أوضحت للسامعين ضرورة المساعدة العاجلة بالأمداد والأموال والرجال ، للقوات الدفاعية الواقفة بالمنصورة وضاحيتها جديلة ، حتى تستطيع هذه القوات أن تظل على المقاومة والثبات فى مواضعها ضد الزحف الصليبى ، لأنه إذا " اندفع العسكر الذين بالمنصورة إلى ورائهم مرحلة واحدة ، مُلكت ديار مصر أجمعها فى أسرع الأوقات " ، على قول ابن واصل نفسه(٢) .

---

(١) انظر ما يلى ، ملحق رقم ١ ، ص ٣٦٤ ب ؛ وكذلك المقريزى : كتاب السلوك — نشر زيادة — ، ج ٢ ، ص ٣٤٦ .

(٢) انظر ما يلى ملحق رقم ١ ، ص ٣٦٤ ب .

ولم يكن المؤرخ ابن واصل — فى هذه العبارة — مبالغاً أو مذعوراً ، أو داعياً إلى الذعر ، بل الواقع هو أن الملك لويس التاسع كشف منذ اقترابه من فارسكور عن نية معقودة على الوصول إلى معسكر المنصورة فى سرعة ، وبأى ثمن ، أملاً منه فى الزحف فى سرعة مماثلة إلى القاهرة ، لإملاء شروطه بقلعة صلاح الدين ، على أحسن ما يشتهى الصليبيون . ومصداق ذلك أولاً بأول أن الملك لويس أفسح لفرقة الخمسمائة من الخيالة المصرية الأيوبية أن تقوم بهجومها المرسوم على الصليبيين ، وهم فى فارسكور ، إذ أخفى فرسانه وجنوده فى أطراف المدينة ، وبذا أغوى طلائع فرقة الخمسمائة بالدخول إليها للاستطلاع ، حتى إذا توغلت الفرقة نفسها بعد ذلك فى فارسكور ، أمر الملك لويس بالإطباق عليها من كل ناحية ؛ ولذا لم تجد هذه الفرقة سبيلا للنجاة سوى الفرار قبل فوات الأوان . وكانت هذه الوقعة فى يوم الأربعاء مستهل رمضان سنة ٦٤٧ هـ ، الموافق ٨ ديسمبر سنة ١٢٤٩ م ؛ واستشهد فيها الأمير العلائى أمير مجلس ، وجماعة من الأجناد . وفى رواية جوانفيل أن فرقة الخيالة المصرية الأيوبية هذه أبيدت عن آخرها ، بين قتيل وغريق ، وذلك بعد أن ركضت وراءها فئة من فرسان الداوية على طول شاطئ النيل إلى مسافة بعيدة ، برغم الأوامر الملكية المشددة بعدم الذهاب بعيداً عن مواقع الجيش الصليبى ، منعاً للخسائر فى الأرواح :

والراجح أن الملك لويس التاسع علم وقتذاك فقط بوفاة السلطان الصالح أيوب ، من طريق استجواب أحد الأسرى أو الجرحى الذين لم تذكرهم المراجع فى أنباء معركة الخمسمائة . ومن الدليل على ذلك أن الملك لويس قرر فى خطاب منه إلى القائمين بشئون الحكم فى فرنسا فى غيبته ، أنه تلقى خبر الوفاة وهو فى طريقه إلى المنصورة ، لا قبل رحيله من دمياط ، كما تواتر فى المراجع العربية . ثم إن خبر الوفاة فى ذاته ظل مكتوماً عن الناس فى كل مكان بمصر والشام ، حتى يوم وصول الحملة إلى فارسكور ، على

الأقل ، كما يتضح من تاريخ رسالة الأمير فخر الدين إلى أهل القاهرة ، ومن توقيعها بعلامة السلطان التى جرى التوقيع بها على الأوراق الرسمية منذ وفاته[١] . ويؤيد هذا الترجيح كذلك أن نشاطاً ملحوظاً اعترى حركة الحملة الصليبية بعد معركة الخمسمائة فى فارسكور ، أو بعبارة أخرى أن خبر الوفاة أحفز الحملة إلى سير سريع ، بالقياس إلى سيرها التؤدة الحاذر السابق .

ولهذا لم يلبث الملك لويس التاسع أن وصل إلى شارمساح ، وهى على مسافة عشرين كيلو متراً تقريباً جنوبى فارسكور ، ثم سار الملك لويس من شارمساح إلى البرمون ، وهى على مسافة عشرة كيلو مترات تقريباً جنوبى شارمساح ؛ وكان نزوله على البرمون يوم الثلاثاء ١٤ ديسمبر سنة ١٢٤٩ م ، الموافق ٧ رمضان سنة ٦٤٧ هـ .

وحدث ذلك كله دون أن تخبر المراجع العربية بشيء عن المقاومة المصرية الأيوبية التى اصطدمت بها حملة الملك لويس التاسع فى فارسكور ، مما يدل على أن معركة الخمسمائة ربما كانت فى نتائجها كما وصفها جوانفيل ، وأن الأمير فخر الدين قرر الانتظار حتى يزيل آثار هذه المعركة من الأذهان ، ليشتبك مع الصليبيين فيما بعد ، فى معركة كبيرة فاصلة : وكيفما كان الأمر ، فالواضح أنه باستيلاء الملك لويس التاسع على البرمون لم يبق بين الصليبيين والمعسكر المصرى الأيوبى فى المنصورة ، وفى ضاحيتها جديلة ، سوى مرحلة نهائية واحدة ، وترعة كذلك واحدة ، إلا إذا قرّر الملك لويس ومشيروه أن يحاولوا الوصول بحملتهم إلى مشارف معسكر المنصورة ، مباشرة عن طريق النيل . ولا عجب إذن أن اضطرب الناس فى أنحاء الدلتا والقاهرة ، وأنهم زلزلوا زلزالاً شديداً ، على قول المقريزى[٢] .

---

(١) انظر الصفحة السابقة .

(٢) المقريزى : المواعظ والاعتبار — بولاق — ج ١ ، ص ٢٢١ .

أما هذه المرحلة النهائية الواحدة ، ومسافتها عشرة كيلومترات أخرى تقريباً ، فاجتازتها حملة الملك لويس التاسع دون أن تلقى أية مقاومة ، ولم تلبث الحملة أن وصلت إلى نهاية هذه المرحلة قبالة معسكر جديلة ، أى قبالة الجانب الشرقى من مدينة المنصورة ومعسكرها ، وذلك يوم الثلاثاء ١٤ رمضان سنة ٦٤٧ هـ ، الموافق ٢١ ديسمبر سنة ١٢٤٩ م . وأما الترعة الواحدة فهى البحر الصغير ، ولم يكن من عبوره بدّ ، للوصول إلى المنصورة وجديلة ؛ واسم هذه الترعة فى المراجع العربية المعاصرة للحملة بحر أشموم طناح ، وفى جوانفيل قناة دراكسا ، نسبة إلى بلدة الدراكسة شمالى دكرنس الحالية .

وحددت المراجع كلها مكان المعسكر الذى دقّ الصليبيون أوتادهم أخيراً فى أرضه ، بأنه قبالة المعسكر المصرى الأيوبى ، عند طرف جزيرة دمياط ، أى شمالى المنصورة وجديلة تماماً ، على مسافة كيلومترين تقريبا من مطلع بحر أشموم طناح من النيل . وكان اسم جزيرة دمياط يطلق وقتذاك على جميع الأراضى الممتدة من بحر أشموم طناح شمالاً إلى البحر الأبيض المتوسط ، كما كان اسم قناة دراكسا — أو قناة تانيس كذلك — يطلق عند الصليبيين على الأقل ، على بحر أشموم طناح . وبإزاء المعسكر الصليبى شمالى بحر أشموم طناح ألقت أنواع السفن الصليبية مراسيها فى النيل ، وهى أنواع كثيرة من شوانٍ وطرائد وشلنديات وبطس ، وعلى مسافة منها فى النيل كذلك ، بإزاء المنصورة نفسها ، وقفت أنواع مماثلة من السفن المصرية الأيوبية بالمرصاد . ومعنى ذلك أن قوات الجانبين تراءتا بعضهما إلى بعض فى البر والنهر ، ولم يكن يفصل بينهما سوى الماء فى الحالين[1] .

---

(١) انظر الخريطة رقم ٦ ، ص ١٠٥ .

ومن الواضح أن هذا الموقف المتحدّى تطلب وقعة حاسمة ، وهذه لا تستطيع أن تحدث إلا بعد عبور الصليبيين من الجانب الشمالى لبحر أشموم طناح ، حيث معسكرهم ، إلى الجانب الجنوبى الذى فيه معسكر المنصورة ، أو العكس ، ليلتحم الفريقان بعد ذلك بقواتهما البرّية الرئيسية من الخيالة والمشاة ، فضلاً عن قواتهما النهرية فى عرض النيل . وأدرك الملك لويس التاسع أن هذا العبور لا يمكن أن يتمّ بإنشاء جسر عائم من السفن الصغيرة ، ليعبر عليها الصليبيون من جانبهم إلى الجانب الآخر من بحر أشموم ، بل يحتاج إلى سدّ بحر أشموم طناح بجسر ثابت من الطين والخشب ، تبنيه مشاة الحملة الصليبية وعمالها على غرار ما حدث أثناء الزحف الصليبى جنوبى دمياط مباشرة ، لكن على مقياس أكبر وأضخم ، نظراً لسعة بحر أشموم طناح ، وشدة انحدار جوانبه ، وعمق مياهه ، وقرب موضع الجسر الطينى الخشبى المطلوب من تيار مجرى النيل . ثم رأى الملك لويس التاسع أن هذه العملية البنائية تحتاج إلى معدات ابتدائية مختلفة ، لحماية العمال والمهندسين والمشاة . مما سوف ينهال عليهم من القذائف الحربية من المعسكر المصرى الأيوبى بالمنصورة . ولذا أمر الملك لويس بإنشاء سقيفتين يستطيع المشاة من الجند وعمال الجسر أن يعملوا تحت حمايتهما وهم آمنون ، مع إقامة برجين خشبيين متحركين لحماية السقيفتين ، وثمانية عشر منجنيقا على جانبى البرجين الخشبيين ، للرمى منهما على المعسكر المصرى الأيوبى .

واستغرقت هذه المعدات الابتدائية مدة طويلة ، تخللتها أيام من المناوشة والتراشق بالسهام والحجارة ، فضلا عن كرات النفوط التى انفردت بها فرقة النفاطين فى الجيش المصرى الأيوبى . ففى نفس اليوم الذى وصلت فيه الحملة الصليبية قبالة المنصورة وجدياة ، أى يوم الثلاثاء ١٤ رمضان سنة ٦٤٧ هـ ، الموافق ٢١ ديسمبر سنة ١٢٤٩ م ، عبرت فرقة استطلاعية صغيرة من الخيالة المصرية الأيوبية بحر أشموم طناح ، وذلك حسبما ورد فى المخطوطة

الروتلانية ، وهي إحدى المراجع الأوربية الرئيسية المعاصرة . وبغتت هذه الفرقة الاستطلاعية جنود الصليبيين فى معسكرهم قبل أن يزيلوا عن أنفسهم تراب السفر ، وعادت من حيث أتت ، بعد أن فقدت من رجالها عدداً طارده الصليبيون المذعورون من أطراف المعسكر الصليبي إلى شاطئ النيل ، حيث مات أولئك الرجال غرقاً فى الماء[1] . وربما كان ذلك الحادث هو السبب الذى أدى إلى سرعة مجيء فئة من الفرسان الصليبيين عددهم ستة إلى المعسكر المصرى الأيوبى ، حيث أخبروا بسوء حال الحملة الصليبية وضائقتها ، بعد رحلتها الطويلة من دمياط ، وطلبوا شيئاً من هدنة مؤقتة ؛ على حين كان غرضهم الحقيقى كشف أخبار وفاة السلطان الصالح أيوب ، ومعرفة بعض أحوال المعسكر المصرى الأيوبى بالمنصورة .

ثم إنه بالإضافة إلى المعدات البنائية اللازمة للشروع فى بناء الجسر المطلوب ، قام الصليبيون كذلك بحفر خندق وبناء سور على طول الجانب الشمالى البرّى من معسكرهم ، كأنما كانوا يستعدّون لحرب شتائية طويلة . غير أن الأمير فخر الدين بن شيخ الشيوخ لم يمهلهم طويلا ، إذ أنفذ من خيالته سرية كبيرة عبرت بحر أشموم طناح بعد أربعة أيام من عودة سريته الأولى ، أى يوم السبت ١٨ رمضان سنة ٦٤٧ هـ ، الموافق ٢٥ ديسمبر سنة ١٢٤٩ م ، وهو يوم عيد الميلاد ، والصليبيون لا شك مشغولون بالعيد وصلواته وولائمه التقليدية . وكان المؤرخ جوانفيل مدعواً ذلك اليوم مع فرسانه لتناول طعام العيد ، فى خيمة أحد القادة الصليبيين المجاورين له ، واسمه بطرس فالون . وبينما كان المدعوون جالسين حول مائدة الطعام طرقت آذانهم ضربات حوافر خيل راكضة ، مختلطة باستغاثات

---

(١) انظر (Rothlin Ms. in R.H. OCC. II. P. 598) ، وكذلك (Grousset : Op. cit. III. p. 453) ، حيث يورد هذا المؤلف عبارات من متن المخطوطة الروتلانية بالفرنسية القديمة ، موضحة بمرادفات فرنسية حديثة ، تسهيلا للقارئ الحديث .

جند من الصليبيين الذين وقعوا صرعى تحت سيوف فرقة هاجمة من الخيالة المصرية الأيوبية ، وهى فى طريقها إلى داخل المعسكر الصليبى . وأسرع جوانفيل وفرسانه إلى خيامهم ، ليلبسوا ملابس الحرب ، وعادوا إلى خيمة مضيفهم ، فوجدوا أنه خرج صحبة أخيه لافال ، لدفع المهاجمين من الخيالة المصرية الأيوبية إلى خارج المعسكر ، فركبوا فى أثرهما حتى عثروا عليهما فى حال سيئة من الإغماء ، بعد أن أنزلها الفرسان المصريون الأيوبيون عن خيلهما ، وأخرقوا بهما أشد إخراق ؛ وهكذا أنقذ جوانفيل هذين السيدين من الهلاك[١] .

ومنعاً لتكرار هذا الحادث أمر الملك لويس التاسع بالإسراع فى إتمام حفر الخندق وبناء السور اللذين بدأ العمال والجند فى العمل فيهما ، بالإضافة إلى بناء الجسر المطلوب . ولذا لم يلبث المعسكر الصليبى أن بدا ، بعد إتمام عمليات حفر الخندق وبناء السور ، كأنه جزيرة حصينة مسوّرة يحيط بها الماء من جميع الجهات . وتطورت الحرب بعد ذلك إلى مناوشات قام بمعظمها الجند النظاميون من الجيش المصرى الأيوبى ، فضلا عن أعداد من غير النظاميين الذين تسميهم المراجع العربية باسم الحرافشة والعامة . ودأبت هذه المناوشات على الهجوم الفجأة فى البر والنهر ، عن طريق الممرات والمخاضات السرّية التى عرفتها القيادة المصرية الأيوبية تمام المعرفة ، وجهلها الصليبيون تمام الجهل . وعادت جنودالمناوشة الأولى من هذه المناوشات بأحد الكونتات الفرنسيين أسيراً إلى معسكر المنصورة ، يوم الجمعة أول شوال سنة ٦٤٧ هـ ، أى يوم عيد الفطر الموافق ٧ يناير سنة ١٢٥٠ م . ووصفت المراجع العربية هذا الكونت الأسير بأنه " كبير من

---

(١) هذه التفصيلات منقولة نقلا حرفياً تقريباً من (Joinville : Op. cit p.109) ، وذلك لبيان دقة جوانفيل فى وصف حوادث حملة الملك لويس التاسع ، كبيرها وصغيرها ، ولا سيما ما كان منها خاصاً بأعماله الشخصية ، فى مختلف مراحل هذه الحملة .

أقارب الملك ريدا فرانس "[١] ، دون أن تدلّ على شخصه بأكثر من ذلك . ولعل هذا الكونت هو الذى أخبر القابضين عليه من الجنود المصرية الأيوبية عمداً بقرابته – أو أخوّته – إلى الملك لويس التاسع ، على قاعدة أن الصليبيين جميعاً إخوة ، وأن الملوك وأقرباءهم يكونون عادة موضع شيء من الرعاية ، ولا سيما فى حروب العصور الوسطى ، حيث جرى العرف فى الشرق والغرب ، بأن يدفع أبناء طبقات النبلاء فدية مالية ، بدلاً من القتل .

وبعد ذلك بسبعة أيام ، أى فى يوم الخميس ٧ شوال سنة ٦٤٧ هـ ، الموافق ١٢ يناير سنة ١٢٥٠ م ، استولت البحرية المصرية الأيوبية على سفينة من النوع المعروف باسم شينى ، وبها نحو مائتى رجل من الصليبيين ، على رأسهم كذلك كونت كبير . غير أن المراجع لم تذكر كذلك اسم هذا الكونت الكبير ، ولو كان هو أو زميله الذى سبقه إلى الأسر ممن يهتم له جوانفيل ، لجاء اسم كل منهما فى تاريخه ، فى مناسبة أو أخرى .

على أن الذى استرعى انتباه المعاصرين ، وامتلأت به المراجع العربية من أخبار هذه المناوشات ، هو مختلف أعمال البطولة الفردية التى قام بها الحرافيش والعامة ، على قول المراجع العربية المعاصرة ، إذ كانوا يلقون بأنفسهم فى الماء زرافات ووحداناً ، ويمرّون إلى الجانب الذى فيه الصليبيون ، ويتحيلون فى اختطافهم بكل حيلة ، فيقتلون ويأسرون ما استطاعوا إلى هذا أو ذاك سبيلا ، ويرجعون إلى قواعدهم سالمين غانمين ، فى معظم الأحيان ؛ ومن هذه الأعمال الفردية ما رواه ابن واصل ، نقلا عن شاهد عيان ،

---

(١) انظر المقريزى : كتاب السلوك – نشر زيادة – ج ١ ، ص ٣٤٨ ، حاشية ١ ، حيث رجح كاتب هذه السطور ، وهو يعمل فى نشر الجزء الأول من كتاب السلوك ، أن يكون كونت آنجو أخو الملك لويس هو الأسير المقصود فى تلك الحادثة ، وهو ترجيح خطأ ينتهز المؤلف تصحيحه هنا ، لأن هذا الكونت لم يقع فى الأسر إلا بعد مدة طويلة من تلك الحادثة .

وهو أن شخصاً قوّر بطيخة خضراء ، وأدخل فيها رأسه ، ثم سبح فى الماء حتى اقترب من الشاطئ الذى فيه المعسكر الصليبى ، ليوهم الواقفين من الصليبيين بأن بطيخة مليحة تسبح فى الماء ، فلم يكد أحدهم يصل إلى وسط الماء ليتناولها ، أملاً فى أكلها والاستمتاع بحلاوتها المائية ، حتى اختطفه ذلك الشخص وأسره ، وسبح به بعيداً عن مرمى السهام ، واقتاده أخيراً إلى معسكر المنصورة ، ليأخذ المكافأة المالية عنه كالمعتاد . وهذه الرواية لا شك طريفة ، وهى تدل دلالة واضحة على وجود روح معنوية جريئة عالية وقتذاك ، بين جميع أصناف الناس ، من أهل المنصورة وغيرهم من الملحقين بالقوات المصرية الأيوبية[١] .

ثم بعد ذلك بسبعة أيام أخرى ، أى يوم الخميس ١٤ شوال سنة ٦٤٧ هـ ، الموافق ٢٠ يناير سنة ١٢٥٠ م ، هجمت فرقة كبيرة من الجيش المصرى الأيوبى على طول الناحية الشمالية البرية من المعسكر الصليبى ، وهى ناحية المؤخرة التى حصّنها الملك لويس التاسع أتم تحصين بخندق وسور . وكان الملك لويس على معرفة سابقة بهذا الهجوم المصرى الأيوبى ، ومقياسه وميعاده ، إذ نقل إليه جواسيسه أن الأمير فخر الدين بن شيخ الشيوخ أقسم يميناً بأنه سوف يقتحم الصفوف الصليبية من حيث لا تحتسب ، وأنه سوف يولم وليمة الظفر فى خيمة الملك الفرنسى نفسه . ولذا وزّع الملك لويس ، قبيل وقوع هذا الهجوم ، قواته بين نواحى المعسكر توزيعاً دقيقاً ، وهى ثلاثة نواح ، وأسند القيادة فى كل منها إلى واحد من إخوته ، فجعل روبرت كونت أرتوا على ناحية بحر أشموم طناح ، حيث تكدست المعدات الهندسية الابتدائية لبناء الجسر ، وجعل شارل كونت آنجو على الناحية الوسطى ، حيث وقف الملك كذلك بالجيش الرئيسى ، كما جعل

---

(١) انظر ملحق رقم ١ ، ص ٣٦٥ ب ؛ وغيره من المراجع العربية ، حيث تتردد هذه القصة فى نغمة من الإعجاب .

ألفونسو كونت بواتييه ، ومعه سائر الجيش من الإنجليز والشمبانيين والبرجنديين والبريتانيين ، على ناحية فرع دمياط من النيل .

ووقع الهجوم المصرى الأيوبى على الناحية الوسطى من المعسكر الصليبى ، وهى الناحية التى تركزت عندها معظم القوات الصليبية ، فاستطاع قائدها كونت آنجو أن يردّ ذلك الهجوم ردّا عنيفاً ، مما أدى إلى كثير من الخسائر فى الجانبين ، مع العلم بأن كونت آنجو كاد يقع أسيراً فى أثناء ذلك الهجوم[1] . ثم حوّل الجنود المصريون الأيوبيون هجومهم إلى ناحية فرع دمياط من المعسكر الصليبى ، حيث لقيتهم قوات ألفونسو كونت بواتييه ، وصدمتهم صدمة ثانية أسفرت عن خسائر متبادلة أخرى بين الطرفين .

وطبيعى أن تختلف المراجع العربية والأجنبية هنا فى تقدير هذه الوقعة وخسائرها ، فيقول جوانفيل مثلاً – وكان مكانه أثناء القتال فى ناحية فرع دمياط مع كونت بواتييه – إن الهجوم الأول على الناحية البرية الوسطى من المعسكر الصليبى كلّف الجيش المصرى الأيوبى عدداً كبيراً من الغرقى ، فى الخندق المحيط بالمعسكر من ناحية الشمال ، وأن الهجوم الثانى عند ناحية فرع دمياط تمخض عن عدد كبير كذلك من القتلى المصريين الأيوبيين . وكل هذا وذاك معقول ، وله نصيب معين من الصحة فى تقدير جوانفيل . وشبيه به ، من حيث معقوليته وصحته نسبياً ، قول ابن واصل – من ناحيته المصرية الأيوبية – أن عدد قتلى الصليبيين بلغ فى هذه الوقعة أربعين فارساً ، وأن سبعة وستين من الأسرى الصليبيين ، بينهم ثلاثة من طائفة الفرسان الداوية ، وصلوا إلى القاهرة فى اليوم التالى لهذه الوقعة[2] ، كما جرت العادة بشأن جميع الأسرى السابقين .

---

(١) انظر ما سبق هنا ، ص ١٣٧ .

(٢) انظر (Joinville : Op. Cit. pp. 109—110) ، وكذلك الملحق رقم ١ ، ص ٣٦٦ أ ؛ فى آخر الكتاب ، لمعرفة ملاحظات ابن واصل فى هذا الصدد .

وفى تلك الأثناء تمت المعدات التمهيدية اللازمة للشروع فى بناء الجسر الصليبى المطلوب ،عبر بحر أشموم طناح ، بل بدأ العمل فى ذلك الجسر فعلاً منذ أوائل شهر يناير من السنة الميلادية ، أى سنة ١٢٥٠ م . وانصرفت عزمات الملك لويس التاسع إلى ذلك العمل الضخم ، واستولت حماسة شديدة على جميع القادة والفرسان الصليبيين ، حتى بدا كأن الحملة الصليبية كلها مشتركة فى إنجاز ذلك العمل الخام ، فى أسرع وقت . غير أن طبيعة بحر أشموم طناح تعاونت – فيما يظهر – مع القيادة المصرية الأيوبية على إفساد مراحل ذلك العمل ، مرة بعد مرة ؛ فكلما أنجز المهندسون والعمال الصليبيون سد جزء من مجرى بحر أشموم ، اشتد التيار فى الجزء الباقى من المجرى ، واستعصى على أية إضافة جديدة ، على حين عكف المهندسون والعمال المصريون على حفر خنادق لتوسيع مجرى الماء فى ناحيتهم ، بقدر ما ضاق نتيجة لبناء الجسر فى ناحية الصليبيين . وهكذا ذهبت جهود الملك لويس التاسع ومهندسوه وجنوده وعماله سدى ، وهدم المهندسون والعمال المصريون ، فى يوم أو يومين ، ما بذله الصليبيون من عمل متصل مدة ثلاثة أسابيع ، على تقدير جوانفيل نفسه .

ودل مشروع بناء الجسر كذلك على قلة بصيرة حربية لدى الملك لويس التاسع ، إذ أدى تركيز أعداد كبيرة من الصليبيين ، فى بقعة واحدة ، إلى تمكين القذائف المصرية الأيوبية من التصويب نحو هذه الأعداد المتركزة تصويباً ثابتاً ، يوما بعد يوم ، من موضع واحد ، دون حاجة الرماة المصريين الأيوبيين إلى تغييره أو تعديله . ثم إن المجانيق المصرية الأيوبيـــة ، وهى التى نصبها الأمير فخر الدين يوسف بن شيخ الشيوخ فى جديلة ، على الضفة الجنوبية لبحر أشموم طناح ، وعدتها ستة عشر ، كانت أمتن صنعاً وأدق رمياً من مثيلاتها من المجانيق الصليبية على الضفة الأخرى ، بدليل قول جوانفيل إنه لم يرَ ولم يسمع بأن قذائف

الصليبيين أحدثت شيئاً مذكوراً فى المعسكر المصرى الأيوبى بالمنصورة وجديلة ، على حين أحدثت القذائف المصرية الأيوبية فى معسكر الصليبيين ألوانا من الخسائر ، فى الأرواح البشرية والعتاد الحربى .

ويرجع بعض السرّ فى هذا التفوق المصرى الأيوبى إلى قذائف النار الإغريقية ، وهى كرات النفط التى شهد جوانفيل سقوط واحدة منها ذات ليلة على الصليبيين ، وهو قائم بدوره مع القائمين على الحراسة حول البرجين الخشبيين المتحركين . ووصف جوانفيل هذه القذيفة النارية الإغريقية بأنها أشبهت برميلاً مشتعلاً من حامض النبيذ ، فى ذيله عود من نار طول عود المزراق العظيم الاشتعال ؛ وأحدثت هذه القذيفة بالذات دوياً هائلاً مثل دوىّ الرعد ، وتراءت كأنها تنين طائر فى الفضاء ، وأضاءت جوانب المعسكر الصليبى حتى غدا الليل فيه كالنهار . وتكرّر الرمى بهذا الصنف من القذائف النارية المهلكة ثلاث مرات تلك الليلة ، فضلا عن أربع قذائف نارية من صنف آخر ؛ واعتقد رئيس الحرسية الصليبية وقتذاك ، واسمه إيكورى ، أن لا عاصم من هذه القذائف المصرية الأيوبية النارية سوى الصلاة ، وقال للحاضرين : " أيها السادة ! إذا نحن أقمنا فى مواضعنا ، فلا مفرّ لنا من الهلاك والموت فى النار ، وإذا نحن تحوّلنا عن مواضعنا هذه ، وهى التى تكفّلنا بحراستها ، فلا مناص لنا من العار . وعلى هذا ، فليس فى استطاعة أحد أن ينقذنا من هذا البلاء سوى الربّ ، وأنصحكم ، وأشير عليكم ، بأنه كلما صوّب العدوّ إلينا هذه النار ، أن نخرّ ساجدين مبتهلين إلى الربّ ، لينقذنا من هذا البلاء " ؛ وعمل الحرسية بهذه النصيحة ، وكان الملك لويس التاسع نفسه فى خيمته أشدّ جزعاً من أولئك الحرسية فى مواضع حراستهم ، وأعظم ابتهالاً منهم إلى الربّ من شرّ هذه القذائف الليلية ، فإذا سمع بإلقائها نهض من فراشه ، وجثا راكعاً على ركبتيه ، رافعاً يديه إلى السماء ، وقال وعيناه تبكيان : " أيها الربّ ، احفظ لى رعيتى "[1] .

---

(١) انظر (Joinville : Op. cit. PP. 112—113) .

على أن هذه القذائف النارية التى فتكت بالأهداف الصليبية فتكاً ذريعاً ، أحدثت فيا أحدث لا رعباً فى النفوس وخسارة فى الأرواح فحسب ، بل كثيراً ما أحرقت الأخشاب المستعملة فى بناء أجزاء الجسر الصليبي المطلوب ، وأضافت بذلك إلى عوامل استحالة المضى فى ذلك المشروع . وتشجع الرماة والنفاطون فى المعسكر المصرى الأيوبى بما أحرزته قذائفهم الليلية من نتائج ، وعزموا ذات يوم على القيام بالرمى فى وضح النهار ، لا رغبة فى تعطيل العمل فى بناء الجسر كالمعتاد ، بل لإحكام الرمى أملاً فى إشعال النار فى البرجين الخشبيين والسقيفتين الحاميتين للعمال والمهندسين فى وقت واحد . وجاء الرماة والنفاطون المصريون الأيوبيون بالمنجنيق الأكبر — واسمه الغول — قبالة هذه المعدات الصليبية المتنوعة ، ورموا بقذائفهم عليها ، وألحوا فى الرمى حتى اشتعلت فيها النيران اشتعالاً شديداً ، واحترقت كلها عن آخرها ، دون أن يجرؤ أحد من الصليبيين على الاقتراب من النار لإخماد اللهب ، أو إنقاذ ما يمكن إنقاذه من تلك المعدات الصليبية الكثيرة ، وهى تحترق واحدة بعد أخرى .

وشهد الملك لويس التاسع آثار هذه الكارثة الفادحة ، وبرفقته أخوه شارل كونت آنجو الذى كان مكلفاً بالحراسة النهارية ذلك اليوم العصيب على الصليبيين ، وقرر معه ضرورة بناء معدات جديدة ، لاستئناف العمل سريعاً فى تشييد الجسر الصليبي المطلوب . ولذا دعا الملك لويس التاسع بارونات الصليبيين وقادتهم ، وحصل منهم على كميات كبيرة من أخشاب المراكب التى جاءت بهم من دمياط ، واستطاع المهندسون والعمال الصليبيون أن يستخدموا هذه الأخشاب فى تجديد البرجين والسقيفتين . وبلغت قيمة ما حصل عليه الملك لويس لهذا الغرض من هذه الأخشاب خمسة آلاف قطعة ذهبية ، وفى ذلك دلالة على مدى ما احتاج الملك إلى تعويضه من خسائر الحريق السابق .

غير أنه لم يكد المهندسون والعمال الصليبيون ينتهون من إقامة المعدات الجديدة فى مواضعها ، ويبدأون فى استئناف العمل من جديد فى تشييد الجسر ، حتى أخذ الرماة والنفاطون المصريون الأيوبيون يصوّبون مجانيقهم الستة عشر على الأهداف الصليبية مرّة أخرى ، كما صوّبوا منجنيقهم الأكبر على المعدات الجديدة نفسها ، ولم يلبثوا أن أشعلوا النار فيها جميعاً ، كما فعلوا أول مرّة . وحدث ذلك الحريق الثانى فى يوم الخميس ٢١ شوال سنة ٦٤٧ هـ ، الموافق ٢٧ يناير سنة ١٢٥٠ م ، وسجّله ابن واصل فى عبارة قصيرة واضحة المعنى والمغزى ، شأنه فى ذلك شأن كثير من أخباره الدالة على أنه استمدها من بطاقات رسمية ، وهذا هو نص هذه العبارة ، " وفى يوم الخميس لثمان بقين من شوال أحرقت للفرنج مرمّة عظيمة فى البحر ، واستظهر عليهم المسلمون استظهاراً بيناً "[١] .

واستدعى الملك لويس التاسع إليه بارونات الجيش وقادته مرة ثانية ، وعقد مجلساً حربياً لبحث ما ينبغى اتخاذه من خطة جديدة ، بعد أن اتضحت استحالة تشييد جسر للعبور إلى معسكر المنصورة وجديلة ، ما دام الجيش المصرى الأيوبى قادراً على توسيع مجرى بحر أشموم طناح من الناحية الجنوبية ، بقدر تضييقه من ناحية الصليبيين ، وما دامت القذائف المصرية الأيوبية مستعدة لأن تُصلى المعدات الصليبية ناراً حامية فاتكة . وبينما المناقشة تجرى على هذا المستوى السلبى الحائر ، أخبر الكندصطبل الملكى ، واسمه إيمبير بوجيه ، أن " بدوياً " جاء إلى خيمته ، وعرض عليه أن يدل الصليبيين على مخاضة تستطيع خيالتهم العبور منها إلى معسكر المنصورة وجديلة ، مقابل مبلغ خمسمائة دينار ذهبية بيزنطية ، على أن يُدفع إليه هذا المبلغ فوراً . ووافق الملك لويس التاسع على دفع هذا المبلغ ، على شرط أن يدله الدليل أولاً

---

(١) انظر ملحق رقم ١ ، ص ٣٦٦ ا بآخر الكتاب .

على موضع المخاضة ، للتحقق من صلاحيتها للعبور الحربى : ورأى الملك لويس موضع المخاضة عند قرية سلمون ، وهى على مسافة ستة كيلو مترات تقريباً من مدينة المنصورة الحالية ، ولاحظ أن المخاضة نفسها قليلة انحدار الجانبين ، كما علم أنها قليلة العمق ، بالقياس إلى ما رأى الملك بنفسه من أجزاء هذا المجرى . لكنه رأى كذلك أن المخاضة لا تصلح إلا لعبور الخيالة وهى راكبة ظهور الخيل ، وأن المشاة لن تستطيع أن تعبرها على أية حال . ومع هذا قبل الملك لويس التاسع عبور مخاضة سلمون ، واقترح دفع المبلغ المطلوب بعد عبور الصليبيين إلى الجانب الآخر من بحر أشموم طناح . غير أن الدليل أصرّ على استلام المبلغ أولاً وقبل كل شيء ، وتم التعاقد الخائن على هذه القاعدة[1] :

وامتلأ المعسكر الصليبى لبضعة أيام منذ أوائل شهر فبراير بحركة استعدادية غير عادية ، دون أن تستطيع قيادة الجيش المصرى الأيوبى أن

---

(١) تختلف المراجع المعاصرة فيما بينها بصدد الشخص الذى دل الصليبيين على مخاضة سلمون ، فنى ابن واصل ، مفرج الكروب ، ص ٣٦٦ ا) أن بعض المسلمين دل على مخاضة سلمون ، وفى العينى (عقد الجمان ، ص ٢٠٨ ، فى .Rec. Hist. Or. II) أن الفرنج خاضوا من مخاضة فى بحر أشموم ، يقال لها مخاضة سلمون ، دلهم عليها قوم من سلمون ليسوا بمسلمين . وفى (Joinville : Op. Cit. p. 119) أن بدويا عرض أن يدل الفرنج على مخاضة ، فى مقابل خمسمائة قطعة ذهبية من نقودهم . ولا معنى لترجيح رواية على أخرى من هذه الروايات المختلفة ، من أجل مسألة فردية أسيفة ، وهى غير أكيدة النسبة إلى شخص معين ، وترجع على أية حال إلى العصور الوسطى . فلو كان هذا الدليل قبطياً مسيحياً ، على وجه التحقيق ، لما اكتفت المراجع العربية الإسلامية التى رجحت ذلك ، بأن تقول إنه كان من غير المسلمين فحسب ، ولما ترددت فى التفصيل والتشنيع والتقريع ، شأن المؤرخين جميعاً فى النواحى الماسة بالدين فى العصور الوسطى . ثم إنه لو كان هذا الدليل بدوياً مسلما ، لما قنعت المراجع الأجنبية التى نشرت هذا الخبر فى أوربا بذكر صفته البدوية فقط ، ولما ترددت فى القول بأنه كان مسلما ساعد الصليبيين على المسلمين . انظر كذلك (Oman : Op. Cit. I. 345.N.I) . والخلاصة أن هذا الدليل — كائناً من كان — لم يختلف عن أشباهه من ضعاف النفوس الذين تخلقهم المياه العكرة فى مختلف عصور التاريخ ، ثم إن التاريخ نفسه ليس من وظيفته إثارة أحقاد قديمة ، وهو لا ينبغى أن يكون كذلك ، لأنه وسيلة من وسائل الدعوة إلى الفضيلة ، والأمر بالمعروف ، والنهى عن المكاره العنيفة ، والمناداة بقول الحق الذى لاشك فيه ، والتزام واجبات المواطنة الطيبة .

تعرف شيئاً مما وراء هذه الحركة من أهداف واسعة بعيدة المدى ، بدليل انعدام أى نشاط مشابه بين القوات المصرية الأيوبية فى معسكر المنصورة ، أو معسكر جديلة ، ما عدا توزيع المحارس عند الطرف الشرقى من معسكر جديلة ، وهو الطرف القريب من مخاضات بحر أشموم طناح ، ومنها مخاضة سلمون ، ومسافة هذه من بلدة جديلة نفسها ستة كيلو مترات تقريباً [١] .

ثم جمع الملك لويس التاسع مجلسه الحربى ، مساء يوم الاثنين السابع من فبراير سنة ١٢٥٠ م ، لشرح خطته التى رتبها على مشروع عبور مخاضة سلمون ، بالخيالة الصليبية فقط . وخلاصة هذه الخطة أن يزحف الملك لويس وإخوته الثلاثة ، ومعظم كتائب الفرسان والخيالة الصليبية ، من الفرنسيين والإنجليز ، والفلاندريين والبريتانيين والشمبانيين ، فضلاً عن فرسان الطائفة الداوية ، نحو مخاضة سلمون ، على حين يظل هيو الرابع دوق برجنديا ، وبارونات قبرص والشام ، بفئات خيالتهم ، وفئات المشاة والرماة الصليبية عموماً ، فى مواضعهم من الخطوط الصليبية ، شمالى بحر أشموم طناح ، لحراسة المعسكر الصليبى ، وانتظار ما سوف يصدر إلى دوق برجنديا من تعليمات تالية .

واستقر الرأى النهائى على أن يعبر الملك لويس التاسع وإخوته الثلاثة ، والفرسان والخيالة الصليبية المتفق عليها ، وطائفة الفرسان الداوية ، مخاضة سلمون ، فجر الثلاثاء الثامن من فبراير سنة ١٢٥٠ م ، الموافق ٤ ذى القعدة سنة ٦٤٧ هـ ، فى ثلاث وحدات كبرى ، على رأس كل منها أحد إخوة الملك لويس التاسع ، على أن تسير طائفة الفرسان الداوية فى أول وحدة الطليعة ، كالمعتاد فى معظم الحروب الصليبية ، ووراءها فرقة روبرت كونت أرتوا ،

---

(١) انظر (Oman : Op. Cit. I ,p. 346) ، حيث يرد اسم سهنار (Sahnar) ، بدلاً من اسم بلدة جديلة .

ومعها فرقة الإنجليز والبريتانيين المرافقين للحملة ، ثم فرقة شارل كونت آنجو ، ومعها الشمبانيون ، ومن بينهم جوانفيل ، ثم فرقة ألفونسو كونت بواتييه ، ومعها دوق فلاندر ؛ ووراء أولئك جميعاً الملك لويس التاسع نفسه على رأس فرقة الخيالة الملكية ، لحفظ المؤخرة من أىّ هجوم خلفى مفاجئ .

وصدرت تعليمات مشدّدة ذلك اليوم ، بأن تقف كل فرقة من هذه الفرق الصليبية ، بعد عبور المخاضة فى ترتيبها المتفق عليه ، وأن ينتظر كل منها فى موضعه هناك حتى تصل إليها تعليمات جديدة من الملك لويس التاسع ، بعد عبوره المخاضة هو وفرقته من الخيالة الملكية . وأراد الملك لويس بتلك التعليمات المشدّدة أن يكون الزحف الصليبى العام نحو معسكر جديلة فى قوة كافية ، ليتسنى بذلك إحداق الصليبيين بالقوات والمعدّات المصرية الأيوبية فى فجأة ، وإخراج هذه القوات أولاً من جديلة ، ثم تعطيل المجانيق ذوات النار الإغريقية فى سرعة ، بإتلافها أو الاستيلاء عليها ، قبل أن ينهض القائد فخر الدين يوسف بن شيخ الشيوخ لمقاومة هذه الحركة المزدوجة .

وكان الهدف البديهى من هذه الحركة المزدوجة أن يستولى الملك لويس بالخيالة الصليبية على معسكر جديلة ، ليجعل من ذلك المعسكر قاعدة لعملياته الحربية المستقبلة . وأول تلك العمليات توجيه المهندسين والعمال الصليبيين لإتمام الجزء الباقى من الجسر المطلوب لعبور بحر أشموم طناح ، لتستطيع المشاة الصليبية أن تصل بواسطته إلى جديلة ، وليستطيع الملك لويس أن يدير خططه الحربية حسب أساليب الحروب فى العصور الوسطى ، فيزحف بالخيالة والمشاة الصليبية معاً نحو المنصورة ، وتلك هى العملية الثانية من عملياته ، ثم يزحف من المنصورة نحو القاهرة ؛ وتلك هى الثالثة والأخيرة من العمليات المتفق عليها .

وبحسب هذا الاتفاق بدأت عملية العبور صفاً صفاً ، على الترتيب الذى استقرّ الرأى عليه نهائياً ، فعبرت فرقة فرسان الداوية فى أول وحدة الطليعة الصليبية ،

وتبعتها فرقة روبرت كونت أرتوا ، وهكذا فرقة بعد فرقة . غير أن هذه العملية لم تخلُ من صعوبات ، نظراً لكثافة الطين فى قاع مجرى بحر أشموم طناح ، ولانحدار جانبي مخاضة سلمون إلى درجة لم يدركها الملك لويس حين تفقّد المخاضة بنفسه سابقاً ، دون أن ينزل إليها بفرسه . ولذا وجد عدد من الخيالة الصليبية صعوبة كبيرة فى إنزال خيلهم إلى حافة الماء ، وفى توجيهها وهم على ظهورها عَبْر المجرى ، مما أدى إلى انزلاق بعضهم عن ظهور الخيل ، وموتهم غرقاً فى الماء . وتمّ ذلك كله فى ظلام الساعات الأخيرة من الليل ، دون أن ترى الحرسية المصرية الأيوبية ، أو تسمع ، شيئاً من تلك الحركة . ثم لم تلبث الحرسية المصرية الأيوبية أن كشفت أعداد الصليبيين وهم يتخذون مواضعهم المتفق عليها ، عند الجانب الجنوبى من مخاضة سلمون ، فى متنفس الفجر .

غير أن هذه الحرسية ، وعدتها ثلاثمائة من الخيالة المصرية الأيوبية ، حسب تقدير جوانفيل ، لم تثبت لقتال ليس من مهمتها المكلفة بها ، أو من طاقتها ، بل أسرعت راكضة إلى جديلة ، لتعطى الأمير فخر الدين يوسف آخر أخبار الصليبيين ، ولينذر الأمير فخر الدين بدوره مدينة المنصورة ، حيث كان الأمير بيبرس البندقدارى معسكراً بفرقة المماليك البحرية الصالحية ، حول القصر السلطانى . وانطلق فى أثر هذه الحرسية المصرية الأيوبية الراكضة روبرت كونت أرتوا ، بفرقته من وحدة الطليعة الصليبية ، قبل أن تبدأ الوحدات الكبرى الأخرى فى العبور . وخالف الكونت بذلك تعليمات أخيه الملك لويس ، ولم يحترم الحقوق التى اختصت بها طائفة الفرسان الداوية فى معظم الحروب الصليبية ، إذ تطلبت هذه الحقوق أن يكون ترتيبه وراءها على أية حال . وساء فرسان الداوية ، ورئيسهم وليام سوناق ، أن يعاملوا بهذا الاحتقار ، ولم يروا معنى أو سبباً للنزول عن حقوقهم المقرّرة لهم منذ بداية الحروب الصليبية ، كما خشوا أن ينسب إليهم شىء

من النكوص عن التقدم للقتال . ولذا لحق فرسان الداوية ، وفرسان الفئات الإنجليزية والبريتانية معهم ، بفرقة كونت أرتوا ، بعد أن رفض الكونت أن يستمع إلى نصيحتهم ؛ فأسرع فرسان الداوية إلى مكانهم من أول الطليعة ، كما أسرع الإنجليز والبريتانيون إلى مواضعهم وراء فرقة كونت أرتوا ، واشتركوا جميعاً فى مطاردة الخيالة المصرية الأيوبية الراكضة إلى معسكر جديلة ، ولم يلبثوا أن اقتحموا أطراف هذا المعسكر ، صبيحة ذلك اليوم .

وسمع الأمير فخر الدين يوسف ضجيج هذا الاقتحام ، وهو فى الحمام يصبغ لحيته — على ما قيل — ، وأخبره جاويشيته بأن الصليبيين دهموا المعسكر المصرى الأيوبى ، بعد عبورهم بحر أشموم من ناحية سلمون . ونسى الأمير فخر الدين شيخوخته وسنّه ، وخرج مسرعاً إلى فرسه ، فركبه من غير اعتداد أو تحفظ ، وساق لينظر الخبر بنفسه ، وليأمر الجند المصرى الأيوبى بالركوب للقتال ، وليس معه سوى بعض مماليكه وأجناده الأخصاء . وقابله وهو على هـذه الحال جماعة من فرسان الداوية ، فعرفوه من رايته ، وكانت مشهورة برنوكها المتنوعـة ، وأحاطوا به ، وحملوا عليه ، ففرّ من كان معه من مماليكه وأجناده ، وتركوه وحده يدافع عن نفسه . ثم استطاع داوىّ أن يطعن الأمير فخر الدين برمح فى جنبه ، فسقط الأمير عن فرسه ، وضربه داوىّ آخر فى وجهه بالسيف ضربتين عرضاً وطولاً ، واعتورته السيوف بعد ذلك من كل ناحية حتى غدا جثة هامدة .

هكذا مات الأمير فخر الدين يوسف بن شيخ الشيوخ ، وأثبت بهذه الخاتمة كذب الاتهامات التى لصقت بشخصه منذ انسحابه بالقوات المصرية الأيوبية من جيزة دمياط . وكأنما أدرك المؤرخون ذلك وهم يسجلون ملابسات وفاة الأمير فخر الدين ، ويعدّون ما له وما عليه من حسناته وسيئاته . ولعل أبلغهم

تقديراً له ابن كثير المؤرخ ، إذ يقول فيه ما نصه : " وكان فاضلاً ديناً مهيباً ، وقوراً بالملك ، كانت الأمراء تعظمه جداً ، ولو دعاهم إلى مبايعته بعد [السلطان] الصالح [أيوب] لما اختلف عليه اثنان ، ولكنه كان لا يرى ذلك ، حماية بجانب بني أيوب ، قتلته الداوية من الفرنج شهيداً . . . "(١)

وبمقتل الأمير فخر الدين يوسف بن شيخ الشيوخ انهارت القوى المصرية الأيوبية فى معسكر جديلة ، فى طرفة عين ، وتزاحمت الكوارث كأنها على ميعاد واحد ، إذ كثر عدد القتلى والجرحى الذين بغتهم الصليبيون ذلك الصباح الباكر ، قبل مصرع القائد العام فخر الدين ، وبعده . ثم وصل روبرت كونت أرتوا إلى مكان المجانيق المصرية الأيوبية الستة عشر ، وهى التى سبق لها أن جعلت من المعدّات الصليبية هدفاً أحالها وقوداً متوهجاً ، وحريقاً عاماً . واستطاع الكونت أن يحدث بتلك المجانيق كلها عطباً كبيراً ، دون أن يستولى عليها ، لعدم وجود المشاة التى تستطيع النهوض بذلك العمل . وجفل العسكر المصرى الأيوبى والعامة والسوقة فى غير مهل ، من معسكر جديلة إلى مدينة المنصورة ، أو نحو الطريق مباشرة إلى القاهرة . ثم سقط تل جـــديلة(٢) ، فى يد روبرت كونت أرتوا ، ولم يبق للقوى المصرية الأيوبية التى لجأت إلى المنصورة إلا أن ترضى موقتاً بالانسحاب ، ولا سيما بعد أن تحرك الكونت وفرقته ، وملحقاتها من الإنجليز والبريتانيين والداوية

---

(١) انظر ابن كثير : البداية والنهاية فى التاريخ ، جـ ١٣ ، ص ١٧٨ ، وكذلك ملحق رقم ١ ، ص ٣٦٦ ا ، حيث سجل ابن واصل تقديره الطيب لمقام الأمير فخر الدين ، مع العلم بأن ابن واصل كان عظيم الصلة بالأمير حسام الدين بن أبى على الهذبانى ، نائب السلطنة بالقاهرة ، وهو المنافس الأكبر للأمير فخر الدين فى مختلف المواقف والمناسبات .

(٢) يعرف تل جديلة فى العصر الحاضر باسم العاقولة ، حيث توجد مقابر هذه البلدة الصغيرة ، وليس يوجد فى بلدة جديلة الحالية ما يدل على شىء من شواهد هذه الحادثة ، أو غيرها من الحوادث الهامة التالية .

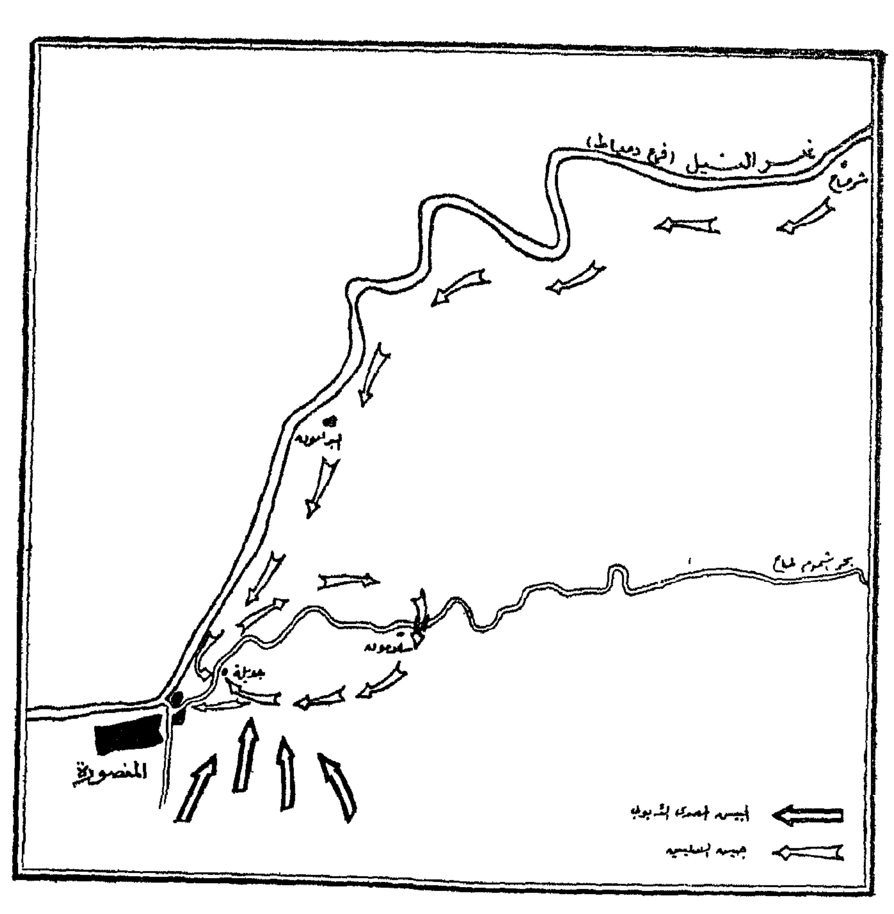
وغيرهم ، ظهر ذلك اليوم ، نحو مدينة المنصورة نفسها ؛ وكانت عدة فرقة روبرت كونت أرتوا وحدها وقتذاك — على تقدير المقريزى — ألفاً وأربعمائة من الفرسان[١] .

وطار حمام الزاجل بهذه الأخبار السيئة إلى القاهرة ، ووصلت البطاقة العسكرية بها إلى الأمير حسام الدين بن أبى على الهذبانى ، نائب السلطنة ، عصر ذلك اليوم ، أى يوم الثلاثاء ٨ فبراير سنة ١٢٥٠ م ، الموافق ٤ ذى القعدة سنة ٦٤٧ هـ . وكان نصّ هذه البطاقة : " هجم العدو المنصورة ، والحرب قائمة ، والقتال بين المسلمين والفرنج شديد " . وانتشر الفزع بين الناس ، وماجت القاهرة بأسوأ أنواع الإشاعات ، وخصوصاً بعد صدور الأمر العام بإبقاء الأبواب الشمالية مفتوحة ليلة الأربعاء ، لدخول الواصلين من الجافلين من موظفى الدولة وغيرهم من الناس إلى العاصمة المصرية ، ووصول فئات من هؤلاء وأولئك فعلاً على ظهور الخيل فى منتصف الليل ، ومنهم القاضى تاج الدين بن بنت الأعز متولى ديوان الصحبة ، وغيره من الموظفين . وباتت القاهرة على هذه الحال تلك الليلة المؤرقة ، دون أن يدرى أحد بما حلّ بالمنصورة من كارثة للكونت روبرت أرتوا وفرقته ، وغيرها من وحدة الطليعة الصليبية ، وهى التى بنى الملك لويس عليها آماله ، لتكون طليعة نموذجية لغيرها من وحدات جيشه ، وباكورة ممهدة لعملياته الحربية التالية .

وتفصيل ما حدث من أوله إلى آخره أن روبرت كونت أرتوا عزم منذ جفول القوات المصرية الأيوبية عن جديلة ، صباح ذلك اليوم ، أن يتعقب هذه القوات على الفور إلى مدينة المنصورة ومعسكرها ، أملاً فى الانتصار النهائى على هذه القوات سريعاً ، والانفراد وحده بمجد ذلك اليوم ، دون سائر الجيش الصليبى من وحدة الطليعة وغيرها من الوحدات الكبرى

---

(١) المقريزى : كتاب السلوك — نشر زيادة — جـ ١ ، ص ٣٥٠ .



الخريطة رقم ٧

وصول فرقة الطليعة الصليبية

بقيادة روبرت كونت أرتوا إلى المنصورة

الزاحفة وراءها ، على الرغم مما فى ذلك من مخالفة ثانية لتعليمات أخيه الملك لويس التاسع ، وافتئات متكرر على حقوق الفرسان الداوية بشأن موضعهم من الطليعة فى جيوش الصليبيين ، فضلاً عن عدم وجود قوات من المشاة الصليبية لتعزيز الخيالة فى الهجوم الذى عزم كونت روبرت على أن يقوم به . واعترض رئيس الفرسان الداوية ، وهو وليام سوناق ، كما اعترض قائد الفرقة الإنجليزية ، وهو وليام سالسبرى ، على هذه العجلة التى ربما تؤدى إلى غير ما أدت إليه المخالفة الأولى من نتيجة ، ونصحوا بالتريث والانتظار حتى يصل الملك لويس إلى معسكر جديلة ، ويصبح الصليبيون أكثر عدداً واطمئناناً إلى النصر ، تحت راية القيادة الملكية العامة ، وخصوصاً حين يتم بناء الجزء الباقى من الجسر المطلوب ، وتستطيع المشاة الصليبية أن تعبر عليه فى أمان ، لتنضم إلى الخيالة الصليبية بعد استكمال عبورها مخاضة سلمون .

لكن روبرت كونت أرتوا لم يشأ أن يستمع إلى نصيحة ناصح ضحوة ذلك اليوم ، بل ركب رأسه ، وسيطرت عليه صفات التسرع والأنانية وغرور المجد الشخصى ، فراح يتهم جميع المعترضين على خطة الزحف الفورى بالجبن والبلادة وضيق الأفق ، ووصف فرسان الداوية ورئيسهم سوناق بأنهم قوم لايريدون من الحروب سوى أن تستمر طويلاً ، بل إنهم لايريدون انتصار حملة من الحملات الصليبية على المسلمين ، لكيلا تنتهى تلك الحملات وحروبها ، وتضيع على طائفة الداوية ، وغيرها من الطوائف المشابهة ، وظائفها الديرية وطقوسها الدينية ، ومسوحها العسكرية الزائفة[1] .

والتفت كونت روبرت إلى فرسان الفرقة الإنجليزية ، وقائدهم سالسبورى ،

(١) أورد (Oman : Op. Cit. I. p. 347, N.1.) نص العبارات التى ألصقها روبرت كونت أرتوا بطائفة الفرسان الداوية ، فى غير خشية أو تردد ، وهى منقولة من (Mathew Paris : Chronica Majora. V. p. 149) ، حيث هى واردة باللغة اللاتينية =

فرمقهم بنظرة استخفاف وسخرية ، وكال لهم بما كال به للداوية ، وأخذ يعيّر سامعيه من الإنجليز بما اشتهر به أجـــدادهم الأولون من الشبه بالقرود المساخيط المناكيد ، وهم يجرّرون أذيال الخوف والتقهقر من أية معركة حربية قبل وقوعها(١) . ثم نادى كونت روبرت فرقته للاستعداد للزحف نحو المنصورة ، ظهر ذلك اليوم ، كما تقدم .

وللمرة الثانية اضطر الداوية والإنجليز والبريتانيون ، وغيرهم من فئات الطليعة الصليبية أن يسايروا روبرت كونت أرتوا فى حركاته الطائشة ، ضد القوى المصرية الأيوبية الجافلة نحو المنصورة ، بل أعلن سالسبورى قائد الفرقة الإنجليزية ، وهو يستشيط غضباً من بذىء عبارات روبرت كونت أرتوا ، بأنه سوف يتقدم صفوف الخيالة الصليبية كلها ذلك اليوم ، وسوف يصل بخيالته الإنجليزية إلى ما لا يجرؤ كونت روبرت أرتوا وخيالته أن يصلوا إليه .

وأخـــذت فئات الفرسان والخيالة الصليبية تقترب اقتراباً صاخباً راكضاً من أسوار المنصورة ، وبدا كأن ساعة الفصل اقتربت ، أوكادت . لكن هذه الفئات من الفرسان والخيالة الصليبية أعوزتها فئات تعزيزية من

= الدارجة فى العصور الوسطى ، ونصها : "O antiqua Temple proditii !Hoc est quod diu praecinimus augurio, quod terra tota Orientalis jamdiu fuisset adquisita nisi Templi et Hospitalis fraudibus nos seculares impediremur. Timent autem Templarii et eorum complices quod si terra juribus subdatur Christianis, ipsorum expirabit (qui amplis reditibus saginantur) dominatio. Hinc est quod fideles ad negotium crucis accinctos variis inficiunt potionibus, et Saracenis con foedérati proditionibus interficiunt".

(١) لم يذكر (Oman : Op' Cit. I. 347 N. 2) نص هذه العبارات التى رأى روبرت كونت أرتوا توجيهها إلى فئة الفرسان الإنجليز ، بل اكتفى بتلخيصها فى أسلوبه الخاص ، مع اقتباس جملة واحدة من النص الأصلى ، وهى الجملة المتعلقة بقصة الشبه بين الإنجليز الأقدمين والقردة .

المشاة الصليبيين ، لكى تستطيع أن تنصرف إلى واجباتها التقليدية فى حروب العصور الوسطى ، لا أن تقوم بواجبات المشاة ، بالإضافة إلى واجبات الفرسان والخيالة فى الميدان :

وإذ وصلت حملة الملك لويس التاسع ، ووصلت معها أعمال المقاومة الدفاعية المصرية الأيوبية بأنواعها ، إلى هذه المرحلة الحرجة المكتظة بالحوادث ، فلا بدّ للباحث من الوقوف هنيهة على الأقل ، لإلقاء نظرة سريعة على ما مضى من حوادث هذه الحملة حتى وقتذاك ، رغبة فى إحصاء مواطن القوة أو الضعف ، أو الغلط ، فى استراتيجية الحملة وخطواتها الحربيـــة المختلفة ، وما يوازيها ويقابلها من ظواهر مماثلة فى الجانب المصرى الأيوبى :

ولعل أهم ما فى تلك النظرة السريعة ، لفهم ما سوف يندرج بعد هذه المرحلة من مراحل تالية ، هى ناحية الغلط الكبير ، أو بعبارة أخرى سلسلة الأغلاط الكبرى ، التى وقعت فيها هذه الحملة ، سواء بسبب الملك لويس التاسع نفسه ، أو بسبب أخيه روبرت كونت أرتوا ، لأن هذه الأغلاط رسمت مجرى الحوادث التالية رسماً لا ريب فيه : وأول تلك الأغلاط سوء اختيار الملك لويس ميناء دمياط لبداية عمليات حملته على مصر ، وثانيها سوء تحديده وقت زحف الحملة جنوباً نحو القاهرة ، فضلاً عما وضح فى ثنايا هاتين الخطوتين من اختلاف عميق فى دوائر القيادة الصليبية . ولا حاجة هنا لتكرار ما سبق شرحه فى هذا الصدد ، ما عدا ما فيه من دلالة على أن الملك لويس التاسع لم يكن على شىء من عبقرية عسكرية ، بقدر ما كان عليه من تديّن وجبرية وقنوع تام بما كان ، وما سوف يكون[١] . أما الغلط الثالث ، فهو الموافقة على عبور الخيالة الصليبية وحدها مخاضة سلمون ، وتوقيف الحركات التالية على ما سوف تقوم به هذه الخيالة للوصول إلى معسكر جديلة ،

---

(١) انظر ماسبق ، ص ١١٨ ، حاشية ١ .

مع التسليم بأنه لم يكن لدى الملك لويس وقتذاك سوى هذه الوسيلة الخالية من تعزيز المشاة فى الميدان : وأما الغلط الرابع ، فالفضل فى ارتكابه إلى روبرت كونت أرتوا ورعونته ، وفيه برهان ضمنى على أن قيادة الملك لويس التاسع لم تكن موضع طاعة دائمة ، وسوف تتضح نتائج هذا الغلط الرابع فى بضع ساعات من دخول كونت روبرت والطلائع الصليبية كلها مدينة المنصورة ، ظهر يوم الثلاثاء ٨ فبراير ١٢٥٠ م ، الموافق ٤ ذى القعدة سنة ٦٤٧ هـ ، وهو اليوم الذى اشتهر فى التاريخ باسم يوم معركة المنصورة[١] .

غير أنه لا ينبغى أن تؤدى هذه النظرة السريعة إلى القول بأن المراحل التالية من تاريخ المقاومة الدفاعية المصرية الأيوبية ، ضد حملة الملك لويس التاسع على مصر ، استمدت نجاحها مما فى الأغلاط الصليبية الأربعة من مساعدة سلبية ؛ والواقع أنه بالإضافة إلى الحاصل الناتج من جمع هذه الأغلاط الكبرى ؛ ادّخرت روح البطولة التاريخية لإزالة هذه الكريهة الصليبية شخصاً لم تعرفه المراجع حتى ذاك اليوم إلا أحياناً متقطعة ، واسمه بيبرس البندقدارى ، وهو الذى آلت إليه قيادة فرقة المماليك البحرية الصالحية حديثاً ، بعد ذهاب سلفه فارس الدين أقطاى إلى حصن كيفا ببلاد الجزيرة ، لاستحضار السلطان تورانشاه إلى مصر . ورأى الأمير بيبرس البندقدارى بثاقب نظره الذى اشتهر به طول حياته ، أن الزحف الصليبى الذى وصلت أخباره إليه ، منذ فجر ذاك اليوم ، ليس إلا طليعة لزحف عام يتطلب الاحتياط لدرئه قبل وقوعه . ورتب الأمير بيبرس لذلك خطة حربية وافقت عليها الأميرة شجر الدر ، وهى وقتذاك مقيمة بالقصر السلطانى بالمنصورة . وبناء على هذه الخطة أكمن بيبرس فرقة المماليك البحرية الصالحية ، وغيرها من الكتائب المصرية الأيوبية التى أخذت تستعيد قوتها بعد جديلة ، فى كمائن متعددة داخل المنصورة ، وأمر بمنع التجوّل والتزام المنصوريين

---

(١) انظر (Oman : Op. Cit. I. p. 347 et seq.) ، حيث يشرح مؤرخ إنجليزى مشهور تأثير أنانية روبرت كونت أرتوا فى مصير الحملة الصليبية كلها .

مساكنهم لا يخرجون منها إلا بإذن ، كما أمر جميع العساكر المصرية الأيوبية أن تظل فى كمائنها حتى صـــدور الإشارة إليها بالحركة .

ثم دخل كونت روبرت أرتوا وفرقته مدينة المنصورة ظهر ذلك اليوم من الناحية الشرقية ، ومعه الداوية ورئيسهم سوناق ، والإنجليز وقائدهم سالسبرى ، والبريتانيون وقائدهم دوق بريتانى ، وغيرهم من فرق وحدة الطليعة الصليبية . ووجد كونت روبرت ورفقاؤه مدينة خالية من المقاومة ، وظن أن عسكر المنصورة وأهلها هربوا عنها ، بعد أن سمعوا بما حلّ بمعسكر جديلة على يديه ؛ وتأكدت آماله فى النصر الفريد . وانتشر الفرسان الصليبيون والخيالة بخيولهم الضخمة ، فى الشوارع والأزقة والدروب والحارات ، بحثاً عن الأنهاب والأسلاب والمذابح البشرية الممكنة ، وتمهيداً لذهاب كونت أرتوا بفرقته إلى القصر السلطانى ، فى أقصى الناحيـــة الغربية من المنصورة ، لطلب التسليم والاعتراف بالنصر الصليبى التام . غير أن كونت أرتوا لم يكد يقترب من القصر السلطانى حتى صدرت أوامر القائد بيبرس البندقدارى ببدء حركة تطويقية متفق عليها ، فخرجت فرقة المماليك البحرية الصالحية من كمائنها المحيطة بالقصر السلطانى ، وخرجت الخيالة المصرية الأيوبية التى انسحبت سابقاً من جديلة ، كما خرجت أصناف المدنيين من أهل المنصورة من بيوتهم ؛ وكل أولئك للدفاع ضد الخطر الصليبى الداهم . ثم تحركت كتيبة من الخيالة المصرية الأيوبية المعسكرة خارج المنصورة ، وأبادت فى طريقها نحو القصر السلطانى أعداداً من الخيالة الصليبية المنتشرة فى الشوارع ، والأزقة والحارات والدروب ، ولم تلبث هذه القوات المصرية الأيوبية المختلفة أن أطبقت من جميع الجهات على كونت روبرت وفرقته عند باب القصر السلطانى . وهرب روبرت ، كما هربت معه فئات الفرسان الداوية والإنجليزية والبريتانية وغيرها من فئات الطليعة الصليبية ، أملاً فى النجاة من هلاك محقق[1] .

---

(١) انظر خريطة رقم ٧ ، ص ١٥١ .

وهنا أسهم المدنيون من أهل المنصورة بسهم كبير فى إبادة الخيالة الصليبية المبعثرة فى مدينتهم على غير هدى ، إذ أخذ بعضهم فى عرقلة الطرق والشوارع بما وصلت إليه أيديهم من ألواح وعروق وكتل من الخشب ، كما أخذ بعض آخر منهم فى رمى الفرسان والخيالة الصليبية بالحجارة والطوب والطين والتراب ، وغير ذلك من مقذوفات المدنيين ، من شبابيك البيوت وسطوحها . وعمد بعض الجنود المصرية الأيوبية إلى مطاردة الهاربين من الصليبيين إلى أبعد مسافة خارج المنصورة ، ومعسكرها وأسوارها حتى شاطئ النيل ، حيث مات كثير من الصليبيين الهاربين غرقاً فى الماء ؛ ولعل اسم بلدة ميت الغرقا الحالية ، جنوبى مدينة طلخا ، يرجع إلى رغبة محلية فى تخليد هذا الجزء النيلى من معركة المنصورة .

أما كونت روبرت فلجأ إلى بيت قريب من القصر السلطانى ، واعتصم به ، يبتغى إيجاد وسيلة سريعة للفرار من غضب مدينة المنصورة وجنودها وأهلها . لكن المنصوريين لم يلبثوا أن اقتحموا عليه هذا البيت ، وأخرجوه منه قتيلاً مثخناً بجراح عديدة ، كما حدث للأمير فخر الدين يوسف بن شيخ الشيوخ ، صباح ذاك اليوم فى جديلة .

وبلغ عدد القتلى من الصليبيين فى هذه المعركة ، حسبما جاء فى المراجع الأجنبية ، ثلاثمائة تقريباً من فرقة روبرت كونت أرتوا وحدها ، ومثل ذلك العدد من الداوية ، ومثله مرة أخرى من الفرقة الإنجليزية ، بما فى ذلك قائدها وليام سالسبرى ، وهو الذى اشتهر فى المراجع الأجنبية بلقب طويل السيف ؛ أما وليام سوناق رئيس الداوية ، فلم ينله من هذه المعركة سوى أنه فقد إحدى عينيه ، ولا بد أنه استطاع أن ينجو بنفسه ، وأن يهرب بجلده ، كما فعل كونت بريتانى وكونت سواسون ، وغيرهما من البارونات الصليبيين القليلين الذين لم يدركهم الهلاك والموت ، فى ذلك اليوم العظيم[1] . لكن المراجع

---

(١) انظر ملحق رقم ٢ ، حيث ترجم المؤلف إلى اللغة العربية ما جاء فى جوانفيل بصدد معركة المنصورة ووقعة جديلة ، ومن هذه الترجمة نقل المؤلف الحقائق الواردة هنا ، دون دأب على الإشارة إلى مواضع هذه الحقائق بصفحات هذا الملحق .

العربية قدرت عدد أولئك القتلى ، فى بضع الساعات التى اضطرمت فيها هذه المعركة ، بألف وخمسمائة من الخيالة والفرسان الصليبيين ، وهو عدد لا ينطوى على شىء كبير من المبالغة .

غير أنه مهما قيل بصدد تقدير الخسائر الصليبية بالمراجع العربية والأجنبية ، فالواضح من هذه وتلك أن مقتلة كبيرة حلّت بالصليبيين وطليعتهم المشهورة فى المنصورة ، وأن المراجع العربية والأجنبية كلّها أغفلت أضعاف ما ذكرت من أخبار هذه المعركة[1] ، وأن السرّ فى ذلك الانتصار الكبير يرجع إلى اتقان الحركة التطويقية التى أوقعت كونت أرتوا وجنوده فى مصيدة أسلاكها من سيوف المماليك ، فضلاً عن إمعان أهل المنصورة فى الدفاع عن مدينتهم الجديدة ، بإزهاق الصليبيين المبعثرين بخيولهم الضخمة الحائرة بين الحارات الضيقة ، والدروب المسدودة وغير المسدودة ، أو كما أشار ابن واصل نفسه بقوله : " كان من سعادة المسلمين تفرق الفرنج فى الأزقة "[2] .

لكن المراجع العربية المعاصرة — والمتأخرة كذلك — لا تضيف إلى ما بها من أشباه هذه الإشارة البليغة أية أمثلة تاريخية ، أو أية عبارات وصفية ، لتصوير ما نهضت به الجيوش المصرية الأيوبية ، وأهل المنصورة أنفسهم ، فى تلك الأزقة والدروب الضيقة ، من أعمال المقاومة والدفاع والهجوم ، والإزهاق والتمثيل والتنكيل ، ضد الفرسان والخيالة الصليبيين الذين غدوا فى حال لا خلاص لهم منها إلا بالموت . وكان الفرسان والخيالة الصليبيون مستعدين — ولا شك — إذا رجحت كفتهم فى هذه المعركة ؛ أن يعاملوا أهـــل المنصورة بمثل ما عامل به أسلافهم من الصليبيين

---

(١) انظر ملحق رقم ٢ ، حيث يلحظ القارئ أن جوانفيل عبر على أخبار معركة المنصورة عبوراً خاطفاً ، كأنها لم تكن سوى مناوشة طارئة .

(٢) انظر ما يلى ، ملحق رقم ١ (ص ٣٦٦ أ) .

الأولين أهل مدينة بيت المقدس ، فى أحوال مشابهة : غير أن البحث التاريخى لا يستطيع أن يزيد شيئاً على هذا القياس المبنى على سوابق معروفة فى تاريخ الصليبيين أنفسهم بالشرق ، لأن الباحث فى التاريخ مربوط دائماً إلى عجلة مراجعه ، وهو لا يستطيع تحميل هذه المراجع ما ليس فيها ، أو ما لا طاقة لها به . ولا ينطبق هذا التقيّد على الكاتب القصصى طبعاً ، فهو طليق من صارم التاريخية وقيودها ، حرّ التصرف بالإطالة والإضافة والحذف والتحوير فيما لديه من حقائق قليلة أو كثيرة ، دون أن يتورط فى زمرة المؤرخين ، أو أن ينزل من سماء الخيال إلى أرض التاريخ .

هذه هى معركة المنصورة ، وهى انتصار مصرى أيوبى انتزعه الأمير بيبرس البندقدارى من أنياب الهزيمة ، وساعده أهل المنصورة فى هذه العملية الجريئة مساعدة عظيمة ، بفضل ما انتشر بينهم من روح معنوية عالية ، وبفضل ما وصلت إليه أيديهم من مواد أولية ، وما وجدوه فى بيوتهم من وسائل دفاعية معظمها من الشماريخ والعصى الغليظة ، والطوب والطين والنار والحجارة . غير أن الانتصار فى هذه المعركة لم يكن من محض الصدفة ، ولم يستند إلى شيء من الارتجال ، بل هو وليد خطة ماهرة مدبّرة فى رأس بيبرس ، وشجاعة دافقة وافرة فى قلوب أهل المنصورة . ثم إنه لا سبيل إلى الشك فى تاريخ هذه المعركة ، والمراجع العربية والأجنبية تكاد كلها تتفق على أنه كان فى يوم الثلاثاء الرابع من ذى القعدة سنة ٦٤٧ هـ ، الموافق ٨ فبراير سنة ١٢٥٠ م . وحدّد جوانفيل ذلك اليوم تحديداً نهائياً ، حين ذكر أنه كان يوم ثلاثاء الرفاع ، وهو عيد مسيحى كاثوليكى يقع كل سنة فى يوم الثلاثاء السابق على بداية الصيام الكاثوليكى الكبير ، فى اليوم التالى[1] .

---

(١) لا يوجد بين المراجع العربية والأجنبية خلاف جوهرى حول هذا اليوم ، ماعدا أن ابن واصل (انظر ملحق رقم ١) جعل هذا اليوم خامس شهر ذى القعدة ، وأن المقريزى (كتاب =

ومما يزيد فى تأكيد هذا اليوم وتاريخه — إذا كانت ثمة حاجة بعد ذلك إلى تأكيد — أن البشرى بنصرة المنصورة وصلت إلى القاهرة صباح يوم الأربعاء ، وبهذه البشرى انقلبت الحال من أراجيف الليلة السابقة ومخاوفها ، إلى أفراح ومسرّات وزينات .

وبينما جرت معركة المنصورة مجراها نحو ذلك النصر العظيم ، كانت فرق الوحدات الصليبية الأخرى تأخذ مواقفها جنوبى بحر أشموم طناح ، بعد عبورها مخاضة سلمون ، حسب الخطة الملكية المتفق عليها ، دون أن تدرى تلك الفرق بما حدث بالمنصورة . وهكذا وقفت فرقة شارل كونت آنجو فى الحقول المحيطة بقرية سلمون ، ومعها فرقة الشمبانيين ومنهم جوانفيل ؛ فى انتظار عبور فرقة ألفونسو كونت بواتييه ، ثم فرقة الخيالة الملكية ، وعلى رأسها الملك لويس التاسع . وبينما فرقة شارل آنجو فى موقفها هذا بغتتها كتيبة كبيرة من كتائب الخيالة المصرية الأيوبية الزاحفة من ناحية المنصورة ، وأصابت عددا من كبار فرسانها بجراح بالغة ، ومنهم جوانفيل الذى لجأ إلى بيت مهجور من بيوت بلدة سلمون ، لتضميد جراحه . ثم ارتدت هذه الكتيبة المصرية الأيوبية فى سرعة إلى حيث أتت ، بعد أن أدّت مهمتها ، وهى الإغارة الخاطفة على الأطراف الصليبية ، دون الاشتباك فى قتال ، مع استطلاع اتجاهات الزحف الصليبى المقبل ، ولاسيما اتجاهات الملك لويس التاسع نفسه ، بعد عبوره وفرقته الملكية مخاضة سلمون . ولذا لم تلبث هذه الكتيبة المصرية الأيوبية أن عادت إلى الإغارة للمرّة الثانية ، قبيل ظهر ذلك اليوم ، فوجدت أن الملك لويس انتهى فعلاً من عبور المخاضة بفرقته الملكية ، وأنه يرتب قواته كلها من الفرسان والخيالة الصليبية لزحف جنوبى عام نحو المنصورة مباشرة ، بعد أن علم بما ارتكبه أخوه

= السلوك — نشر زيادة — ، ج ١ ، ص ٣٤٩) جعله رابعه أو خامسه ، والصحيح ما هنا ، استنادا إلى ما جاء فى جداول (Wustenfeld) ، فضلاً عن القرائن الإضافية المذكورة هنا .

(لوحة رقم ٢ ، بين صفحتى ١٦٠ ، ١٦١).



معركة المنصورة

صورة توضح وصول فئات الطليعة الصليبية بقيادة روبرت كونت أرتوا أخى الملك لويس التاسع ، إلى القصر السلطانى بالمنصورة ، ويظهر روبرت كونت أرتوا فى الجانب الأيسر من الصورة ، مرتدياً ملابس مطرزة بزهرة الزنبقة الملكية ، كما يظهر وليام سوناق رئيس طائفة الفرسان الداوية فى وسط الصورة ، وعلى رأسه قلنسوة دينية سوداء . وبالجانب الأيمن من الصورة أجناد القوات المصرية الأيوبية ، وهم يدفعون بسيوفهم عن القصر السلطانى بالمنصورة ، وأهالى المنصورة وهم يقذفون الصليبيين بالأحجار . انظر : (Joinville: Oeuvres..., Edit. De Wailly, Paris, 1867) ، حيث وردت هذه الصورة النادرة بغير عنوان .



روبرت كونت أرتوا من مخالفة لتعلياته . وبناءً على ذلك تطورت هذه الإغارة المصرية الأيوبية الاستطلاعية الثانية إلى قتال حامى الوطيس ، واستخدم فيه الفريقان السيوف والدبابيس والحراب ، ولا سيما بعد أن انضمت أعداد جديدة من فرقة المماليك البحرية الصالحية إلى الكتيبة المصرية الأيوبية ، فى سرعة باهرة ؛ وهكذا صار واضحاً للملك لويس أن الطريق الجنوبى البرى نحو المنصورة لن يكون سهل المنال .

وكان من رأى المشيرين الملكيين أن يزحف الملك لويس التاسع ، أولاً وقبل كل شىء ، فى اتجاه شرقى مستقيم نحو معسكر جديلة ، بحيث تسير ميمنته على طول بحر أشموم طناح فى محاذاة ضفته الجنوبية ، ابتغاء الوصول فى سرعة إلى ذلك المعسكر ، بعد أن سكتت مجانيقه المصرية الأيوبية ، وانقطعت قذائفها منذ صبيحة ذلك اليوم . وأخذ الملك لويس أخيراً بهذا الرأى ، بعد أن اشتدت وطأة الكتائب المصرية الأيوبية الراكبة على الفرقة الملكية ، وتركزت جهوده نحو الوصول إلى هذه الغاية . وتلقت الفرقة الملكية فى أثناء ذلك هجمات متصلة متزايدة الأعداد والحماسة ، من ناحية هذه الكتائب المصرية الأيوبية الراكبة ، حتى إن الملك لويس نفسه كاد يذهب وميمنته غرقى فى بحر أشموم طناح ، واضطر بعض فرسان تلك الميمنة إلى الهرب إلى المعسكر الصليبى الشمالى سبحاً فى الماء ، بعد أن فقدوا خيولهم تحت وابل السهام والنبال .

ثم استطاع الملك لويس أخيراً أن يبلغ معسكر جديلة ، وبدأ من فوره فى إقامة قنطرة مؤقتة ، لاستكمال الجسر الذى عجزت عن إتمامه جميع المحاولات السابقة ، من ناحية الضفة الشمالية . واستخدم الملك لويس فى ذلك العمل جميع ما تركته القوات المصرية الأيوبية بمعسكر جديلة ، من أخشاب وقوارب ومجانيق ، وأدوات حربية أخرى . واستغرقت هذه العملية عصر ذلك اليوم ، فعمل فيها الملك لويس وأخواه كونت آنجو وكونت بواتييه من ناحيتهم ، كما عمل

فيها هيو الرابع دوق برجنديا وبارونات قبرص والشام من الناحية الأخرى ، على حين ظلت كتائب الخيالة المصرية الأيوبية تكرّ وتهجم ، وتصوّب النبال والسهام ، على الناحيتين الصليبيتين فى غير انقطاع . ثم كمل إعداد الجسر المطلوب بإقامة القنطرة المؤقتة ، وغدا الجسر بذلك صالحاً للعبور ، واستطاع دوق برجنديا أن يرسل عدداً من المشاة والرماة الصليبية إلى معسكر جديلة ، فكان ذلك داعياً للقوات المصرية الأيوبية أن تنسحب فى سرعة إلى الوراء ، دون أن تذهب بعيدا عن الميدان ؛ وكانت الشمس وقتذاك تميل إلى الغروب .

ثم دخل الليل ، وأرخى سدوله حول جوانب الميدان ، وساد الظلام وحال بين الفريقين المتحاربين ، قبل أن يتكامل عبور المشاة والرماة الصليبيين ، وغيرهم من قوات دوق برجنديا ، إلى الضفة الجنوبية من بحر أشموم طناح . ولذا بات دوق برجنديا بمعظم قواته فى المعسكر الصليبى الشمالى على حاله ، أى شمالى بحر أشموم طناح ، كما بات الملك لويس التاسع فى معسكر جديلة ، على حين بات قائد القوات المصرية الأيوبية ، وهو يعدّ الساعات انتظاراً لساعة معينة من تلك الليلة ، ليقوم بأول هجوم على الصليبيين الذين خالوا أنهم مقيمون طويلاً بمعسكر جديلة ، وأنهم سوف ينفذون منه إلى المنصورة والقاهرة . وعلم الملك لويس فى أثناء تلك الليلة ــ لا قبل ذلك ــ بمقتل أخيه روبرت كونت أرتوا فى معركة المنصورة ؛ ولعلّه أدرك مما علم كذلك من تفاصيل الخسائر الصليبية فى هذه المعركة أن روبرت كونت أرتوا أفسد على الحملة الصليبية بطيشه وتهوره وأنانيته معظم الأمل فى أى نجاح صليبى قريب أو بعيد .

هكذا انتهى ذلك اليوم الطويل الذى جعلت حوادثه مدينة المنصورة مجداً من أمجاد التاريخ المصرى ، وهى حوادث تعدّها بعض المراجع

الأوربية الحديثة نصراً صليبياً على وجه الإجمال ، لاختتامها باستكمال الجسر المطلوب وإقامة القنطرة المؤقتة ، وعبور عدد من المشاة والرماة الصليبيين من المعسكر الشمالى إلى معسكر جديلة ، فضلاً عن احتلال الملك لويس التاسع معسكر جديلة نفسه . على أن هذا النصر الإجمالى المزعوم كان نصراً فادح التكاليف والخسائر والنتائج ، على قول المصطلح التاريخى اليونانى القديم . وبرهان ذلك ما تبدّد فى أثناء حوادث ذلك اليوم من أعداد الفرسان والخيالة الصليبية ، سواء فى معركة المنصورة أو وقعة جديلة . وجدير بالإشارة هنا مرة أخرى ، أن ماحققه الملك لويس ذلك اليوم ، لم يزد عن استطاعة المهندسين والعمال الصليبيين استكمال الجسر المطلوب ، وعبور جزء من المشاة والرماة الصليبية إلى معسكر جديلة ، للانضمام إلى فئات الفرسان والخيالة التى هلكت طلائعها فى معركة المنصورة ، بسبب حماقات روبرت كونت أرتوا ، فضلاً عن مخاطرات الملك لويس نفسه بسائر تلك الفئات فى طريقه إلى جديلة ، دون أن تكون لديه فئات تعزيزية كافية من المشاة .

والواقع أن حوادث ذلك اليوم لم تكن بذاتها أو بنتائجها نصراً مادياً أو روحيا للصليبيين ، بالمعنى المفهوم من ذلك اللفظ ، بدليل ما أعقبها من هجمات مصرية أيوبية منبثة بروح معنوية لم يعتورها إحساس بهزيمة ، وذلك قبل أن تنتهى الليلة التالية لذلك اليوم العظيم . ثم إن هذا النصر المزعوم — وهو مزعوم لا غير — لم يجعل لتأثير معركة المنصورة فى الدوائر المصرية الأيوبية أى حساب مستقل خاص ، وهى المعركة التى أبدع ابن واصل فى وصفها ، فى عبارة بالغة الصدق والإيجاز ، بقوله إن هذه المعركة كانت " أول النصر ومفتاح الظفر " ، للجيوش المصرية الأيوبية عامة ، ولفرقة المماليك البحرية الصالحية خاصة ، وللقائد المملوكى الأمير بيبرس البندقدارى ، ولمدينة المنصورة وأهلها جميعاً[١] .

---

(١) انظر ملحق رقم ١ ، ص ٣٦٦ ب .

وهنا يحقّ لمدينة المنصورة وحدها أن تفخر بما أفاءت على التاريخ المصرى الأيوبى ، والتاريخ المصرى المملوكى بعده ، من أفضال ثلاثة سابغة متتابعة ، فى مدة لا تتجاوز ثلاثين سنة ، وهى المدة الواقعة بين نشأتها الأولى زمن السلطان الكامل ، وبين معركة المنصورة التى اشترك المنصوريون فيها بدورهم المجيد ، دفاعاً عن مدينتهم الجميلة .

فمن المنصورة خرجت الجيوش المصرية الأيوبية التى قطعت خط الرجعة على الحملة الصليبية المعروفة بالخامسة ، زمن السلطان الكامل ، وألجأت الملك الصليبى حنا برين والنائب البابوى بلاجيوس ، إلى الجلاء الناجز عن دمياط والشواطئ المصرية ، فى غير قيد أو شرط[1] . ومن المنصورة وقصرها السلطانى الكاملى ، ومن حاراتها وشوارعها ودروبها ، وأزقتها الضيقة المسدودة فى كثير من الأحيان ، تجمعت أنواع المقاومة العسكرية النظامية ، وأنواع المقاومة المدنية غير النظامية ، وتعاونت كلها من حيث تدرى ولا تدرى ، على إفناء الصليبيين المعتدين ، فى غير هوادة أو تمييز بين خيالة روبرت كونت أرتوا ، أو من خيالة الفرسان الداوية والإنجليز والبريتانيين والفلاندريين ، وغيرهم . ثم إن المنصورة ، بالإضافة إلى هذا وذاك ، صاحبة فضل ثالث فى إعطاء فرقة المماليك البحرية الصالحية فرصتها الذهبية الأولى ، للبرهان على قيمتها العسكرية فى ميادين الحروب ، وصلاحية زعمائها لتأسيس دولة سلاطين المماليك فى مصر والشام ، وفى أعماق قلوب الناس فى الشرق الأوسط كله ، لمدة قرنين ونصف قرن من الزمان .

---

(١) انظر ما سبق ص ٥٨ — ٥٩ .

الفصل السادس

هزيمة لويس التاسع وأسره (١)

تلقى تورانشاه أخبار معركة المنصورة ، وهو فى آخر مرحلة من مراحل سفره الطويل إلى البلاد المصرية ، لاستلام مهام السلطنة بها ؛ فجدّ فى السير ، ليكون على رأس الأفراح والزينات والمسئوليات المترتبة على ما نالته القوات المصرية الأيوبية فى تلك المعركة من نصرٍ مبين .

وكان الأمير حسام الدين بن أبى على الهذبانى ، نائب السلطنة بالقاهرة ، يخشى أن تذهب السلطنة إلى غير تورانشاه من أبناء البيت الأيوبى ، ولم يطمئن إلى سفر فارس الدين أقطاى بتعليمات شجر الدر ، لإحضاره من حصن كيفا ببلاد الجزيرة ، اعتقاداً منه أن تورانشاه ربما اشتمّ الغدر والمكيدة فى استدعائه على وجه السرعة . ولذا أرسل الأمير حسام الدين من عنده أحد مماليكه ، وبعث معه كتاباً يحث فيه تورانشاه على سرعة القدوم إلى مصر ، خوفاً من أن تخرج البلاد من يده . وكان ذلك الكتاب كافياً لإقناع تورانشاه بصدق ما وصل إليه من أخبار وفاة أبيه ، ووجوب سرعة السفر إلى مصر ، وذلك لثقته التامة بالأمير حسام الدين ، منذ أيام إقامته معه أتابكا فى حصن كيفا ، حين كان تورانشاه حديث عهد بولايته هناك[٢] .

---

(١) يجد المؤلف نفسه أمام خمسة عناوين يستطيع كل منها – إلى حد ما – أن يكون عنواناً لهذا الفصل السادس من هذا الكتاب ، إذ تبدأ صفحات هذا الفصل بأخبار وقعة جديلة الكبرى ، ثم يتلوها وقعة بحر المحلة ، ثم وقعة مسجد النصر النهرية ؛ ثم تأتى بعد ذلك أخبار وقعة شرمساح ، ثم أسر الملك لويس التاسع وسجنه بالمنصورة . ولما كانت العبرة بالخواتيم ، فيبدو أن العنوان المختار هنا لهذا الفصل هو أصلح العناوين ، لشموله على جميع العناصر المتقدمة .

(٢) المقريزى : كتاب السلوك – نشر زيادة – ج ١ ، ص ٢٨١ ، حاشية ٣ .

وكان تورانشاه منـــذ رحيله من حصن كيفا ، فى يوم السبت ١١ رمضان سنة ٦٤٧ هـ ، الموافق ١٨ ديسمبر سنة ١٢٤٩ م ، يخشى كذلك ألا يصل إلى مصر ألبتة ، بسبب موقف أمراء الموصل وسروج وحلب منه ، وإنذارهم إياه بقطع الطريق عليه ، إذا هو اقترب من أطرافهم الجغرافية ، اختصاراً للطريق . ولذا خرج تورانشاه من حصن كيفا سرّاً ، ومعه خمسون من خاصته ، فعبر بهم طريق البرية الصحراوية إلى بلدة عانة ، وهى من البلاد التابعة للخليفة العباسى على الفرات ، وكاد قبل وصوله إليها يهلك وأصحابه من العطش ، لقلة الماء فى ذلك الطريق القاحل الطويل . ثم خرج تورانشاه من عانة يريد دمشق ، على طريق السماوة فى البرية الصحراوية كذلك ، خوفاً من الوقوع فى أيدى بعض القبائل العربية الضاربة فى بادية الشام ، فوصل إلى دمشق فى يوم الثلاثاء التاسع والعشرين من رمضان ســنة ٦٤٧ هـ ، الموافق ٥ يناير سنة ١٢٥٠ م .

وأقام تورانشاه أيام عيد الفطر بقلعة دمشق ، وأصدر بها عدة قرارات إدارية ومالية ، كأنما هو سلطان متربّع فى دست السلطنة ، مما يدلّ على أن أخبار وفاة أبيه السلطان الصالح أيوب لم تكن مكتومة عن الناس ، بالدرجة التى تصرّ المراجع على تأكيدها ، بل كانت معروفة فى دمشق وغيرها من المدن الكبرى فى الدولة الأيوبية ، بين كبار موظفيها على الأقل . ومن هذه القرارات التى أصدرها تورانشاه بدمشق ، أنه خلع على الأمير جمال الدين موسى بن يغمور خلعة النيابة ، أى أنه أقرّه على وظيفة نيابة السلطنة بدمشق ، كما خلع على الأمراء القيمرية الأكراد عدداً من الخلع الثمينة ، وأعطاهم الأعطية الكثيرة ، وأخرج لذلك من خزائن أبيه بدمشق والكرك كمية كبيرة من الخلع والأموال والهدايا ، وفرّقها عليهم .

وكانت القاهرة على معرفة بأخبار وصول تورانشاه إلى دمشق ، إذ

وردت إليها البطائق بذلك غداة نزوله بالقلعة الدمشقية ، وضُربت لذلك البشائر السلطانية بالقاهرة والمنصورة . ثم سار تورانشاه إلى غزة ، حيث لقيه قاضى القضاة بدر الدين حسن بن يوسف السنجارى ، وهو من أكبر رجال الدولة الأيوبية زمن السلطان الصالح أيوب . ووصل تورانشاه بعد ذلك إلى مدينة الصالحية ، ونزل بقصر أبيه هناك . ومن يومئذ نودى بسلطنة تورانشاه ، وعمره وقتذاك خمس وعشرون سنة ؛ وأعلن موت السلطان الصالح أيوب ، وكان قبل ذلك ما يقدر أحد ينطق بموته ، على قول ابن واصل وغيره من المؤرخين .

واستقبل السلطان المعظم تورانشاه بمدينة الصالحية جماعة من أمراء الدولة الأيوبية الذين حضروا لاستقباله هناك ، وعلى رأسهم الأمير حسام الدين بن أبى على الهذبانى ، نائب السلطنة بالقاهرة ، ومعه المؤرخ ابن واصل . وأمعن السلطان تورانشاه فى التعبير عن شكره للأمير حسام الدين ، وتقديره لما قام به من احتياطات داخلية وخارجية لصيانة السلطنة حتى حضوره إلى البلاد المصرية ، فخلع عليه خلعة سنية ، ومنطقة ثمينة مذهبة ، وسيفا مُحلّى بالذهب ، وبعث إليه ثلاثة آلاف دينار ذهباً . ثم رحل تورانشاه من الصالحية إلى المنصورة ، عن طريق منزلة حاتم وبلدة تلبانة ، بمركز منيا القمح الحالية : ووصل تورانشاه أخيراً إلى المنصورة ، فى يوم الجمعة ٢١ ذى القعدة سنة ٦٤٧ هـ ، الموافق ٢٥ فبراير سنة ١٢٥٠ م ، أى بعد سبعة عشر يوماً من معركة المنصورة .

وفى هذه الأيام السبعة عشر حدثت حوادث دلت على أن معركة المنصورة لم تكن هزيمة صليبية كبيرة فحسب ، بل فاتحة لسلسلة انهزامات صليبية أخرى ، عاجلة فى البر والنهر . ففى مطلع الفجر من اليوم التالى لمعركة المنصورة ، أى يوم الأربعاء ٥ ذى القعدة سنة ٦٤٧ هـ ، الموافق ٩ فبراير سنة ١٢٥٠ م ، وهو بداية الصيام الكاثوليكى الكبير ، هجمت فرقة

من المشاة والخيالة المصرية الأيوبية على معسكر جديلة ، حيث بات الملك لويس التاسع وجوانفيل ، فى حراسة بقايا المجانيق والأدوات الثقيلة التى غنمها الصليبيون سابقاً من ذلك المعسكر ، بعد مقتل القائد فخر الدين يوسف بن شيخ الشيوخ . ولم يدر بخلد الملك لويس ورجاله أن القوات المصرية الأيوبية تعود إلى الهجوم والمناوشة بهذه السرعة . ولذا وقع بمعسكر جديلة من المفاجأة للصليبيين ، مثلما وقع به فى اليوم السابق من المفاجأة للقوات المصرية الأيوبية . غير أن القياس هنا مع الفارق الكبير بين الحادثين ، لأن الفرقة المصرية الأيوبية الهاجمة لم تزد وقتذاك عن كتيبة مشتركة من المشاة والخيالة ، ولم تقصد هذه الكتيبة إلى شيء سوى المناوشة الخفيفة الخاطفة ، ولذا عادت أدراجها بعد أن تحملت خسائر قليلة ، وبعد أن أصابت بسيوفها عدداً من جند الصليبيين .

على أن أهم ما حدث ذلك اليوم هو ما قام به قائد القوات المصرية الأيوبية الجديد ، وهو الأمير بيبرس البندقدارى ، من مظاهرة عسكرية بمدينة المنصورة نفسها ، إذ طاف بشوارعها وأزقتها وثكناتها ، فى موكب عسكرىّ يتصدّره جاويش من جاويشيته ، يحمل ملابس صليبية ملكية عسكرية ، على رأس عود نشاب طويل ، وحوله جماعة من الجاويشية المساعدين ينادون فى صوت إنشادىّ عالٍ ، بأن هذه الملابس تتعلق بالملك الفرنسى لويس التاسع ، وهى منزوعة عن جثمانه بعد موته قتيلاً فى معركة المنصورة ؛ والحقيقة إن هذه الملابس كانت لأخيه روبرت كونت أرتوا الذى مات قتيلا فى تلك المعركة . وكان مثل ذلك الخلط بين الملك لويس وأخيه سهل الوقوع ، لأن ملابس أعضاء البيت الملكى الفرنسى تطرّزت كلها بطراز زهرة الزنبقة ، ولا فرق فيها بين ما يتعلق منها بالملك نفسه وبين ما يتعلّق منها بإخوته ، إلا من حيث الطول أو العرض . وأمر الأمير بيبرس البندقدارى أولئك الجاويشية أن ينادوا أيضاً فى ذلك

الموكب الذى شهده الخاص والعام من أهل المنصورة ، والقوات المصرية الأيوبية بها ، أن الصليبيين أمسوا بلا ملك يقودهم ، وأن الاستعدادات جارية على قدم وساق لافتراص الفرصة الأولى لمهاجمتهم ، بكل قوة ممكنة ، يوم الجمعة ٧ ذى القعدة سنة ٦٤٧ هـ ، الموافق ١١ فبراير سنة ١٢٥٠ م ؛ وفى ذلك التحديد وعلنيته ، فى موكب عسكرى خرجت المنصورة كلها لمشاهدته ، دليل على مبلغ اعتداد الأمير بيبرس البندقدارى بقواته من الخيالة والمشاة المصرية الأيوبية ، بعد إفاقتها من كارثة جديلة ، بفضل ما تمّ لها من ظفر فى معركة المنصورة .

ووصلت أخبار ذلك الموكب ، ونداءاته وإنذاراته ، إلى إسماع الملك لويس التاسع ، وهو منهمك فى إحاطة المعسكر الصليبى الجديد بجديلة بسور من الأعواد الخشبية ، بعد أن ألقى فى بحر أشموم طناح ما استطاع أن يلقى من طين وحطام وأحجار وأخشاب ، لتقوية الجسر الذى غدا واصلاً بين جديلة والمعسكر الصليبى الشمالى . وكان من المعقول أن ينهض الملك لويس التاسع بالإضافة إلى هذه الأعمال التحصينية الدفاعية ، أوبدلاً منها ، بعمل هجومى كبير ، منذ استيلائه على جديلة ، وعبور عدد من المشاة الصليبية إليه من المعسكر الصليبى الشمالى . بعبارة أخرى كان ينبغى للملك لويس التاسع ، بعد استقراره فى جديلة ، أن يقود زحفاً سريعاً مشتركاً نحو المنصورة ، لكشف مدى ما حاق بالطليعة الصليبية على يد أخيه روبرت كونت أرتوا ، ولتحويل زمام الموقف الحربى إلى جانب الصليبيين . لكن الملك لويس لم يكن فى شئون الحرب من العباقرة ، أو من الذين يستطيعون استغلال فرصة على غير ميعاد ، كما فعل الأمير بيبرس البندقدارى يوم المنصورة . ثم إن الخيالة الصليبية لم تكن فى حال تستطيع معها أن تقوم بأية حركة هجومية ، بعد ما نالها من خسائر فى الخيالة والخيل ذلك اليوم ، كما أنه لم يكن من

المنتظر أن يسمح الأمير بيبرس ، لأية حركة هجومية صليبية أن تتقدم فى زحفها طويلاً نحو المنصورة .

وكيفما كان الأمر ، فالمعروف أن الملك لويس التاسع استجاب إلى نداءات الأمير بيبرس البندقدارى وإنذاراته العلنية ، بالإسراع فى عملياته التحصينية بمعسكر جديلة . ثم رتب الملك لويس جيشه من الخيالة والمشاة وراء السور الخشبى الجديد ، لمقاومة الهجوم المصرى الأيوبى المنتظر . وكانت المشاة الصليبية أكثر عدداً من الخيالة فى ذلك الجيش ، نظراً لكثرة ماخسر الصليبيون من فرسانهم وخيالتهم فى الحوادث السابقة . وجعل الملك لويس فى أقصى الميمنة المستندة إلى فرع دمياط أخاه شارل كونت آنجو ، على رأس فرقته ، ومعه فئات البارونات المحليين ، أى بارونات قبرص وفلسطين ؛ وفى القلب وقف الملك لويس بفرقة الخيالة الملكية ، ومعه فرقة الفرسان الداوية والبارونات الفرنسيين ؛ وفى الميسرة وقف ألفونسو كونت بواتييه ، ومعظم عساكره من المشاة ، ووراءهم جماعة المهمات وباعة الأطعمة وأتباع المعسكرات . وأسهب جوانفيل وغيره من المراجع الأجنبية إسهابا ملحوظا فى وصف ترتيب الجيش الصليبى يومذاك ، وفى تعيين وحداته وقياداتها الفرعية والرئيسية . غير أنه لا يوجد فى المراجع العربية شىء موازٍ لهذا الإسهاب ، سواء فى وصف الجيش الصليبى ، أو وصف القوات المصرية الأيوبية التى أعدّها الأمير بيبرس البندقدارى لذلك اليوم .

والواقع أن المرجع الأوفى لوصف تكوينات هذه القوات المصرية الأيوبية ، وخطتها التى رسمها الأمير بيبرس البندقدارى بنفسه فى الميدان ، هو كذلك جوانفيل . وخلاصـــة ما ورد بذلك المرجع بشأن هذه التكوينات أن الأمير بيبرس البندقدارى جعل قواته المصرية الأيوبية فى جبهة تشبه قوساً من الفرسان والخيالة ، بلغت عدتها أربعة آلاف ، بحيث

وصلت أطرافها إلى أقصى أطراف الميمنة والميسرة الصليبية ، وطوّقت المعسكر الصليبي كله تطويقاً تاماً من ناحيته . واصطفت وراء هذه الجبهة من الفرسان والخيالة المصرية الأيوبية جموع كبيرة من المشاة والرماة ، لحماية حركاتها الهجومية ، كما اصطفت وراء هؤلاء وأولئك جموع احتياطية مشتركة لحماية المؤخرة من أية حركة جانبية . ووقف الأمير بيبرس ، وسط فرسانه وخيالته ومشاته ورماته ، وأجال بصره فى تنظيمات الملك لويس ووحداته الصليبية ، فكلما رأى تركيزا صليبياً كثيفاً جعل قبالته تركيزاً مصرياً أيوبياً مشابهاً ، على حين أنفذ فئة كبيرة عدتها ثلاثة آلاف من العربان ، للزحف شرقاً إلى مخاضة مجهولة الاسم ، بعيدة عن الميدان ، لعبور بحر أشموم طناح من هناك ، ومهاجمة دوق برجنديا والمعسكر الصليبي الشمالى .

وظل الأمير بيبرس منذ صباح يوم الجمعة إلى وقت الظهر ، وهو يتنقل بين الصفوف استعداداً للهجوم العام ، حسبما عزم على القيام به كتلة واحدة . ووقف الملك لويس التاسع وقادته خلف السور الخشبى ، وقفة المنتظر المستعدّ للدفاع ؛ وفى ذلك ما يدلّ دلالة واضحة على أن القوات المصرية الأيوبية كانت على أهبة للتعقيب والتثنية على معركة المنصورة ، بمعركة مثلها أو أشد منها ، وذلك بهجوم خاطف نهائى حاسم ، وأن فى نيتها القضاء على الجيش الصليبي كله ، واسترجاع معسكر جديلة ، بأى ثمن .

ووضحت هذه النية تماماً حين صدرت الأوامر إلى القوات المصرية الأيوبية بالهجوم العام المتفق عليه ، إذ امتلأ الجوّ بأصوات الطبول والكوسات والنقارات والأبواق الحربية ، وزحفت الخيالة والمشاة المصرية الأيوبية من جميع الجهات نحو المواقع الصليبية ، فى وقت واحد تقريباً ، على حين أخـــذت نبال الرماة وقذائف النيران الإغريقية تعمل عملها الذريع ، بين فئات الصليبيين . وكانت تعليمات الملك لويس التاسع أن يثبت القادة الصليبيون فى مواضعهم من الميدان ، مهما تكلفوا فى سبيل ذلك

من خسائر ، وأن يحفظوا لصفوفهم تكويناتها الدفاعية ، حتى تنتهى وطأة الهجوم المصرى الأيوبى ، بانتهاء ما به من حماسة ومادة حربية . ولذا حمى القتال بين الفريقين المتحاربين إلى درجة ارتفعت بتلك الوقعة إلى مستوى الوقائع الحاسمة فى التاريخ :

ثم وصل الخبر إلى الملك لويس التاسع بأن الميمنة الصليبية قرب فرع دمياط ، بقيادة أخيه شارل كونت آنجو ، تكاد تنهار تمام الانهيار ، تحت أقدام الخيل والخيالة المصرية الأيوبية ، فضلاً عن وابل النار الإغريقية ، وأن حياة شارل كونت آنجو فى خطر شديد . فركض الملك لويس بفرسه شاهراً سيفه ، وشق الصفوف الصليبية المتراصة فى أماكنها ، لتخليص أخيه من براثن الموت ، قبل فوات الأوان . وأصابت النار الإغريقية ذيل الفرس الملكية وهى راكضة ، فازداد ركضها عنفاً ، واختل توازنها . ومع هذا ظل الملك لويس متشبثاً بمقعده من هذه الفرس ، برغم ركضها العنيف ، ولم يلبث أن وصل إلى حيث كان أخوه شارل واقفاً يدفع عن نفسه يميناً وشمالاً ، وجنوده تقاوم الهجوم المصرى الأيوبى مقاومة مستميتة ، وتتحمل الخسائر من الجرحى والقتلى فى سبيل البقاء فى مواضعها . وبفضل وصول الملك لويس إلى الميمنة الصليبية ، نجا شارل كونت آنجو من مصير حاق مثيله سابقاً بأخيه روبرت كونت أرتوا ، يوم معركة المنصورة ، وتحول الهجوم المصرى الأيوبى إلى أطراف القلب الصليبى ، حيث كانت أشد أنواع المقاومة الصليبية ثباتاً وعناداً وصلابة ، منذ بداية القتال :

واختلفت الحال عن ذلك فى ناحية الوسط من القلب الصليبى ، حيث وقف رئيس الداوية وليام سوناق ، وحوله الفئة القليلة التى بقيت له من فرسانه ، بعد ذهاب معظمها فى معركة المنصورة . وكانت بضعة من بقايا المجانيق المصرية الأيوبية التى استولى عليها الصليبيون متروكة فى هذه الناحية من القلب ، وفوقها ألواح من الخشب لإخفائها عن الأنظار ، غير أن

قذائف النار الإغريقية اشتعلت فى هذه الألواح الخشبية ، وأصابت شظية من شظاياها عين الرئيس وليام سوناق فأضاعتها ، مع العلم بضياع عينه الأخرى قبل ذلك فى معركة المنصورة . ثم لم يلبث الرئيس سوناق أن مات متأثراً بجراحه الكثيرة التى أصابته فى ذلك اليوم ، كما مات معظم البقية الباقية من فرسانه ، لكثرة ما انهال عليهم من رمى النبال وقذائف النار الإغريقية .

أما الصفوف الصليبية الأخرى من ناحية الوسط من القلب حتى الميسرة ، فكان أقربها إلى مواضع فرقة الفرسان الداوية ، فرقة فرنسية ألحقت النيران الإغريقية بها كذلك خسائر فادحة ، ثم فرقة الفلاندريين بقيادة كونت فلاندر ، ووراءها فرقة جوانفيل والشمبانيين . ولم تكن هاتان الفرقتان الشمبانيّة والفلاندرية أقل نصيباً من وطأة الهجوم المصرى الأيوبى ، ما عدا أن مواضعهما عند منعطف السور الخشبي جعلهما بنجوة نسبية من هجمات أمامية كثيفة . ولذا لم تنزل بفرقة كونت فلاندر خسائر غير عادية ، وحمد جوانفيل الصدفة الحميدة التى جعلته وفرقته الشمبانية وراء هذه الفرقة الفلاندرية ، لأنه لم يكن قادراً على أى دفاع أو مقاومة ، بسبب ما لحقه من جراح سابقة صبيحة يوم مخاضة سلمون .

وأما الميسرة الصليبية ، وعلى رأسها ألفونسو كونت بواتييه ، فتألف معظمها من المشاة ، كما تقدمت الإشارة إليه . وكان نصيب هذه الفرقة هزيمة تامة ، فضلاً عن وقوع كونت بواتييه نفسه أسيراً ، عند أول الهجوم المصرى الأيوبى ذلك اليوم . وخشى جماعات المهمات التموينية ، والباعة وأتباع المعسكرات ، وهم الذين كانوا ملحقين بهذه الميسرة ، مما سوف يحلّ بهم من الأسر والهوان وضياع العيش ، فى أعقاب هذه الهزيمة السريعة ، فاندفعوا نحو المهاجمين من القوات المصرية الأيوبية اندفاعاً جنونياً ، وما زالوا فى اندفاعهم حتى وصلوا إلى كونت بواتييه ، وأرجعوه معهم إلى فرقته . وكان مما خفف قليلاً من تلك الهزيمة التامة على الميسرة الصليبية ، أن استطاعت فرقة

من رماة المعسكر الصليبى الشمالى أن ترمى على القوات المصرية الأيوبية المقابلة لها عبر بحر أشموم طناح ، بعد أن أحاطت هذه القوات المصرية الأيوبية الميسرة الصليبية إحاطة تامة ، وكادت تبيدها عن آخرها[١] .

وهكذا انتهى ذلك اليوم الذى ذهبت فيه زهرة الجيوش الصليبية ، واعتبره جوانفيل لذلك يوماً عصيباً على الصليبيين ، ورجعت القوات المصرية الأيوبية إلى قواعدها سالمة ، على قول التعبير الحربى الحديث ، بعد أن أدت مهمتها الهجومية ، على أحسن ما أراد قائدها الأمير بيبرس البندقدارى . وذلك اليوم ينبغى له أن يسمى يوم وقعة جديلة الكبرى ، تمييزاً له من يوم وقعة جديلة السابقة ، وهو يوم الكارثة التى مات فى أولها الأمير فخر الدين يوسف بن شيخ الشيوخ قتيلاً ، بيد فرسان الداوية ، وجفلت فى أثنائها القوات المصرية الأيوبية فى أعداد كبيرة إلى المنصورة . أما يوم جديلة الكبرى فحوادثه على نقيض ذلك كله ، ويقع تاريخه ، كما تقدمت الإشارة إليه ، يوم الجمعة ٧ ذى القعدة سنة ٦٤٧ هـ ، الموافق ١١ فبراير سنة ١٢٥٠ م ، وهو بداية الصيام الكاثوليكى الكبير . وحوادث هذه الوقعة الحربية الكبرى ، كما يرى القارئ ، لا تقل فى مبناها أو مغزاها عن حوادث معركة المنصورة ، من حيث أنها أول حلقة — بعد المنصورة نفسها — فى سلسلة من الهزائم التى غدت مقدّرةً مكتوبةً على الصليبيين .

غير أنه مما يدعو إلى الالتفات والحيرة أن المراجع العربية كلها ، المعاصرة منها والمتأخرة ، أغفلت أخبار هــذه الوقعة الكبرى تمام الإغفال ، مع العلم بورودها مفصّلة أدق تفصيل ، فى كل من جوانفيل والمخطوطة الروتلانية . ثم إنه مما يدعو إلى ما هو أكثر من الالتفات والحيرة ، أن بعض المراجع الفرنسية الحديثة تصف هذه الوقعة بأنها كانت نصراً

---

(١) تستحق هذه الوقعة أن تكون موضوعاً لفصل مستقل من هذا الكتاب ، لولا قلة المادة التاريخية التى تلزم لكتابة فصل بذاته ، مع العلم بأن هذه الوقعة هى المحور الذى دارت حوله جميع الحوادث التالية .

شخصياً للملك لويس التاسع ، برغم ما أوردته مصادرها الأصلية مسجلة هنا فيما سبق ، وبرغم وصف الملك لويس لتلك الوقعة ، فى خطبة ذات نغمة حزينة عزائية لقادته ، بأنها كانت عملية دفاعية ، ضدّ هجوم بدأته واختتمته القوات المصرية الأيوبية ، حسبما شاءت وأرادت ، كأنما هى لا تخشى من الصليبيين خاشية[1] .

ثم وقف القتال فجأةً بين الفريقين المتحاربين ، لأسباب لا تذكرها المراجع العربية أو الأجنبية صراحةً أو تلميحاً ، لكن ينطق بها منطق الحوادث الجارية فى كل من المعسكر المصرى الأيوبى ، والمعسكر الصليبى . وأول هذه الأسباب — فيما يبدو — من ناحيـــة الصليبيين أن وقعتى جديلة ، الأولى والثانية على حد سواء تقريباً ، وهما اللتان وصفتهما بعض المراجع الفرنسية الحديثة بأنهما كانتا نصراً شخصياً للملك لويس التاسع ، أحدثتا بالصفوف الصليبية من الخسائر المادية ، وفقدان الروح المعنوية ، أكثر مما اتفقت هذه المراجع الفرنسية الحديثة على التسليم به . ثم برهنت كثرة الجثث التى أخذت تطفو على وجه الماء فى بحر أشموم طناح ، على صدق هذا القول ، إذ تغلبت عفونات هذه الجثث على ثقل الملابس الحربية المزرّدة ، وعلى البرودة الشتوية الموسمية فى شهر فبراير ، ودفعتها إلى سطح الماء فى أعداد متزايدة ، بعد خمسة أيام من وقعة جديلة الكبرى ، أو تسعة أيام من وقعة جديلة السابقة عليها . ومنع الجسر الصليبى الواصل بين ضفتى بحر أشموم طناح مرور هذه الجثث من تحته ألبتة ، لشدة اقتراب دعائمه وقوائمه بعضها من بعض : فتراكمت هذه الجثث إلى مسافة غير

(١) انظر ملخص خطبة الملك لويس فى ملحق رقم ٢ ، ثم انظر بعد ذلك (Grousset : Op. Cit. III. pp. 465, 478)، حيث توصف وقعة جديلة الكبرى هذه ، فى عنوان عريض وخط واسع بأنها الانتصار الشخصى الثانى للملك لويس ، على اعتبار أن وقعة احتلال جديلة قبل ذلك كانت انتصاره الشخصى الأول ، ودليلا على بطولته .

قصيرة ، وامتلأ بها مجرى الماء الراكد . وأمر الملك لويس باستخدام مائة من العمال الصليبيين لإخراج هذه الجثث من الماء ، وإزالة ما عليها من ملابس ، للتعرف على الجثث الصليبية من غيرها ، فما كان منها من موتى الصليبيين انتشلوه ودفنوه فى حفائر جامعة عميقة ، بعد وضعها فى أكفان وتوابيت بسيطة ، فيما يبدو ، وما كان منها من موتى المسلمين حملوه إلى الناحية الأخرى من الجسر ، وألقوا به فى الماء ، ليذهب مع ما عساه أن يكون وقتذاك من تيار ضعيف إلى بحيرة المنزلة[1] . واستغرق العمال فى ذلك العمل ثمانية أيام متتالية ، وتحولت ضفتا مجرى بحر أشموم طناح إلى معرض جنائزى ، للتعرف على الجثث الصليبية قبل دفنها ، وإلقاء غير الصليبية منها فى الماء ، وكان من بين الجثث الصليبية جاويشية روبرت كونت آرتوا الذين ماتوا معه فى معركة المنصورة .

وكان الصليبيون وقتذاك يصومون صيامهم الكبير ، منذ اليوم التالى لمعركة المنصورة ، واعتمادهم فى كثير من طعامهم على الأسماك دون غيرها من أنواع اللحوم الممنوعة فى الصيام الكاثوليكى . ولذا أكل الصليبيون من أسماك بحر أشموم طناح ، وهى ممتلئة من سموم الجثث الطافية وغير الطافيـــة ، ولا بد أنهم شربوا من ذلك البحر الذى غدت مياهه

---

(١) وجد أحد الإنجليز المقيمين بمدينة المنصورة ، أواخر القرن الماضى ، كميات كبيرة من عظام وجماجم بشرية ، مبعثرة فى مساحة واسعة من أرض بلدة جديلة ، بينها وبين المنصورة ، كأنما كانت هذه المساحة الواسعة جبانة فسيحة قديمة ، كشفت عنها عوامل التعرية والتغييرات الأرضية والجوية . غير أن هذه الكميات الكبيرة من العظام والجماجم البشرية لم تتناسب مع بقايا الموتى فى بلدة من حجم جديلة ، فى أى عصر من العصور . ولذا رجح هذا الباحث أن تكون هذه العظام والجماجم البشرية ، من بقايا الجثث الصليبية التى دفنها عمال الملك لويس التاسع فى حفائر عميقة وأكفان وتوابيت بسيطة ، لحفظها من التلف السريع ، وذلك بعد أن دلته معلومات طبية تشريحية على أن هذه العظام والجثث ليست لمصريين أيوبيين ، بل لأجانب أوربيين . انظر :

(Davis : The Invasion Of Egypt by Louis IX of France. p. 83)

آسنة ملوثة ، فضلاً عن استنشاق هواء مشبع بالعفونات الوبيئة . ولذا انتشر بين الصليبيين مرض وبائى ، وصف جوانفيل علاماته ومضاعفاته ، فقال إن المصاب بذلك الوباء غشيًا وغاب عن الحياة يوماً أو أكثر ، وهو يعالج سكرات الموت بين الرجاء واليأس ، وإن الناجى منه بدا فى أعقاب إصابته به كأنه حزمة من عظام يكسوها جلد داكن طافح بالبثور ، وإن الذين ماتوا فعلاً بسبب ذلك الوباء لم يكونوا قليلين . ومن البديهى أن المعسكر الصليبى فتكت به وقتذاك أمراض وبائية مختلفة ، لا مرض وبائى واحد ، وأنه لم يكن يوجد بالمعسكر الصليبى من الأصحاء إلا خائفٌ على نفسه من المرض أو الموت ، أو باكٍ على ميتٍ قريب فى خيمة مجاورة ، على قول المخطوطة الروتلانية .

أما أسباب توقف القوات المصرية الأيوبية عن أية حركة من ناحيتها ، بعد أن أدت مهمتها على أحسن ما يكون من التوفيق ، يوم وقعة جديلة الكبرى ، فيبدو منها أولاً وقبل كل شىء ، أن الهجوم على الخطوط الصليبية ذلك اليوم ، برغم قلة الخسائر المصرية الأيوبية ، بالقياس إلى خسائر الصليبيين ، استلزم إعادة تنظيم الصفوف المصرية الأيوبية ، قبل القيام بأى هجوم عام آخر . ثم كانت هناك حالة القلق التى نجمت عن وصول تورانشاه إلى المنصورة ، ولا سيما بعد أن وضح للأميرة شجر الدر ، وللأمير أيبك التركمانى ، وغيره من أمراء الأتراك من فرقة المماليك البحرية الصالحية ، وهم الذين تحملوا مسئوليات الحكم والحرب مدة غير قصيرة ، أنّ السلطان المعظم تورانشاه لا ينوى أن يعترف لهم بجميل ما صنعوا له قبل وصوله إلى مصر ، أو أن يجزيهم على خدماتهم العظيمة لدولته وهو بعيد عنها ، بل إنه يضمر لهم سوءاً . ومما برهن لهم على ذلك أن السلطان تورانشاه أفرد بإكرامه وإنعامه رجال الدولة من الأمراء الأكراد القيمرية ، وهو بدمشق ، وأنه كرّر ذلك التحيز إلى الأكراد غداة وصوله إلى

مدينة الصالحية ، بالمبالغة فى إكرام الأمير حسام الدين بن أبى على الهدبانى ، نائب السلطنة بالقاهرة ، وهو كردى صميم ، كما أنه رشح للوزارة كاتبه النشو هبة الله ابن حشيش ، بعد أن أسلم كاتبه هذا على يده ؛ وكل ذلك دون مشورة أحد من الأمراء المسئولين عن شئون الحكم والإدارة فى مصر ، منذ وفاة السلطان الصالح أيوب .

ولعل هذه الجفوة الابتدائية الصامتة ، بين السلطان تورانشاه وأرباب الدولة وقادة القوات المصرية الأيوبية فى المنصورة ، ومعظمهم من فرقة المماليك البحرية الصالحية ، هى التى أدت بالسلطان تورانشاه إلى التحوّل عن متابعة الهجوم البرى على مواقع الصليبيين فى جديلة ، إلى خطة نهرية محورها تجويعهم فى ذلك المعسكر ، بقطع مواصلاتهم فى النيل مع دمياط ، دون حاجة إلى الاستعانة فى تنفيذ ذلك بالقوات المصرية الأيوبية البرية ، من المماليك البحرية الصالحية وغيرهم ، بدليل انعدام أية وقعة برية بين الفريقين المتحاربين ، بعد وقعة جديلة الكبرى .

وتنفيذاً لهذه الخطة النهرية الجديدة أمر السلطان تورانشاه ، بعد بضعة أيام من استقراره بالقصر السلطانى بالمنصورة ، بسحب عدد من المراكب المصرية الأيوبية الراسية جنوباً عند إحدى الموانى النيلية القريبة ، ولعلها منية سمنود الحالية ، وتفكيك هذه المراكب لتحمل قطعاً على ظهور الجمال إلى بحر المحلة ، ثم تركيبها وشحنها بالمقاتلة هناك ، لإقلاعها شمالاً إلى مصب هذا البحر فى النيل قرب شربين الحالية ، حيث تكمن هذه المراكب بالمرصاد للسفن الصليبية التموينية التى يعتمد الصليبيون على وصولها إليهم تباعاً من دمياط . وتنجزت هذه العملية البرمائية فى سرعة هادئة ، ودلت على عزيمة تعاونية قوية بين المكلفين بتنفيذها فى البر والنهر ، فضلاً عن إيمان راسخ بالنصر النهائى ، برغم ما أخذ يسرى فى الدوائر المصرية الأيوبية من أنباء الكراهية والبغضاء ، بين السلطان تورانشاه وأصحاب الزعامة السياسية

والحربية فى دولته . وسارت قافلة صغيرة من هذه المراكب المصرية الأيوبية فى بحر المحلة سيراً حاذراً ، حتى وصلت إلى فوهته قرب شربين الحالية ، وتسللت كذلك من هناك على حذرٍ إلى مجرى النيل . لكن السفن الصليبية المكلفة بحراسة المجرى بين المنصورة ودمياط ، لم تلبث أن كشفت هذه المراكب المصرية الأيوبية القليلة العدد ، وهى من النوع المعروف باسم الحراريق ، فهاجمتها واستولت على سبعٍ منها ، بعد أن أفلت بحارتها منها خشية الوقوع فى أيدى الصليبيين ؛ وكان ذلك فى يوم الاثنين مستهل ذى الحجة سنة ٦٤٧ هـ ، الموافق ٧ مارس سنة ١٢٥٠ م ، أى بعد أحد عشر يوماً من وصول السلطان تورانشاه إلى المنصورة .

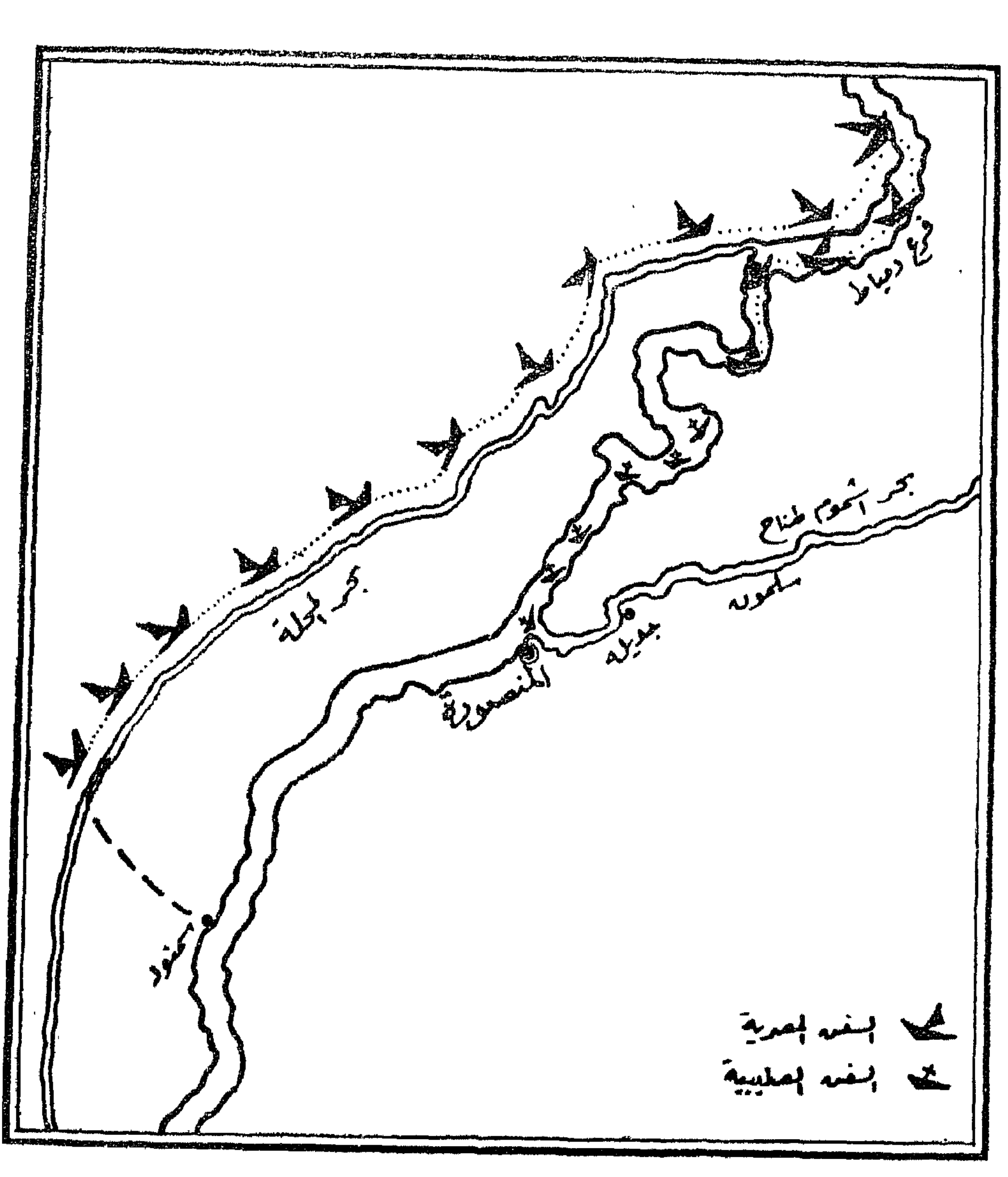
ثم تكاملت المراكب المصرية الأيوبية فى بحر المحلة ، وازدادت أعدادها ازدياداً ملحوظاً ، بعد يومين أو ثلاثة من ذلك التاريخ ، وظهرت بينها مراكب حربية وفيرة من النوع المعروف باسم الشوانى ، وواحدتها شينية ؛ وكمن عدد من هذه الشوانى الحربية عند فوهة بحر المحلة ، فى انتظار قافلة ضخمة من سفن المؤونة الصليبية التى بارحت دمياط وقتذاك ، كما خرج عددٌ آخر من هذه الشوانى إلى مجرى النيل ، وسار فيه جنوباً حتى وقف على مسافة جنوبى شربين ، لقطع الطريق على القافلة الصليبية ، إذا هى نجحت فى الإفلات من الشوانى المصرية الأيوبية الكامنة لها بالمرصاد . فلما جاوزت القافلة الصليبية شربين ، تحرّكت نحوها هذه الشوانى المصرية الأيوبية من كمينها ، ولحقت بها واشتبكت معها فى معركة نهرية كبيرة ، ولا سيما بعد أن تعزّزت بالشوانى التى انحدرت إليها عائدة من ناحية جنوبى شربين . وهكذا هجمت الشوانى المصرية الأيوبية على السفن الصليبية من ناحيتين فى وقت واحد ، وأخذتها أخذاً وبيلاً ، وكانت عدة هذه السفن الصليبية اثنتين وخمسين سفينة . واستولت الشوانى على حمولات تلك السفن الصليبية التموينية من العلف والميرة ، وهى كميات

كثيرة ، كما أخذوا رجالها أسرى ، وعدتهم نحو ألفى رجل ، وأرسلوهم على ظهور الجمال إلى المنصورة[1] ؛ وتلك هى المعركة النهرية التى ينبغى أن تسمى باسم «معركة بحر المحلة » ، وأن يضاف اسمها هذا إلى قائمة الأمجاد المصرية الأيوبية فى التاريخ .

ثم تلا هذه الهزيمة الصليبية النهرية العظيمة هزيمة نهرية أخرى أعظم منها على الصليبيين ، فكانت هى القاضية على كل آمال الملك لويس التاسع ، فى الحاضر والمستقبل . وتفصيل هذه الهزيمة النهرية الأخرى أن قافلة ثانية من قوافل الميرة الصليبية الواردة من دمياط ، وعدتها اثنتان وثلاثون سفينة محملة بالحبوب والأعلاف والمؤن ، ومن ضمنها سبع شوانٍ صليبية حربية حارسة ، حاولت اختراق خط الشوانى الحربية المصرية الأيوبية التى غدت مسيطرة على مجرى النيل تمام السيطرة . واصطدمت هذه السفن الصليبية بالشوانى المصرية الأيوبية عند موضع غير معروف على وجه التحديد حتى العصر الحاضر ، واسمه مسجد النصر فى المراجع العربية ، وهو على مسافة سبعة كيلو مترات شمالى المنصورة ، حسب تقدير جوانفيل . وهناك نشبت معركة نهرية هائلة ، وانتهت هذه المعركة بوقوع السفن الصليبية كلها فى أيدى رجال الشوانى الحربية المصرية الأيوبية ، ما عدا سفينة صليبية صغيرة واحدة تابعة لكونت فلاندر ، إذ أفلتت هذه السفينة الصغيرة فى جنح الظلام ، ووصلت إلى أطراف المعسكر الصليبى الشمالى على النيل ، وأخبرت باستيلاء الشوانى المصرية الأيوبية على القافلة الصليبية كلها ، فضلاً عن حمولتها التموينية المتنوعة . وكان ذلك فى يوم الثلاثاء ٩ ذى الحجة سنة ٦٤٧ هـ ، أى يوم وقفة عرفات ، الموافق ١٥ مارس سنة ١٢٥٠ م .

---

(١) انظر ملحق رقم ١ ، حيث أورد ابن واصل أخبار هذه المعركة النهرية ، قبل أخبار وقوع الحراريق المصرية الأيوبية فى أيدى الصليبيين ، يوم الاثنين مستهل ذى الحجة سنة ٦٤٧ هـ ، وهو غير معقول ، نظراً لضآلة القوات النهرية المصرية الأيوبية فى بحر المحلة قبل ذلك التاريخ .



الخريطة رقم ٨

معركة مسجد النصر النهرية

وتعدّ معركة مسجد النصر النهرية خط تقسيم المصائر فى تاريخ حملة لويس التاسع على مصر، وهى جديرة بهذا الوصف جدارة لا تشوبها شائبة أو نقص، وكفى أنها أكدت نهائياً سيطرة المراكب الحربية المصرية الأيوبية على الطريق النهرى بين دمياط والمنصورة ، وجعلت الجيوش الصليبية تحت رحمة هذه السيطرة التامة . غير أنه من المؤسف أن موضع هذه المعركة غير معروف جغرافياً على وجه الدقة حتى العصر الحاضر، وربما كانت تسميته بهذا الاسم من باب التخليد المعاصر لتلك المعركة النهرية العظمى ، ثم حلّ محله اسم آخر لعله بلدة البدالة الحالية ، ولا سبيل إلى ترجيح هذا الرأى أو غيره من الآراء ، إلا عن طريق بحوث أثرية طبوغرافية مستقبلة .

ولم يعلم الصليبيون بحدوث هاتين المعركتين النهريتين ، إلا بعد وصول سفينة كونت فلاندر إليهم ، على قول جوانفيل نفسه ، وأدركوا أخيراً يأس أحوالهم فى معسكرهم جنوبى بحر أشموم طناح ، مع العلم بأنهم لم يجرءوا على الخروج من معسكرهم هذا جنوباً أوشمالاً ، منذ وقعة جديلة الكبرى ، وهو معسكر فتكت به الأمراض الوبيئة ، وبات أهله مهددين بالمجاعة المهلكة ، وسوف تنتابهم للذلك أمراض الحمى والدوسنطاريا ، مما هو أشد فتكاً .

وفى سبيل اتقاء هذه النوائب المتلاحقة جنح الملك لويس التاسع إلى سياسة إنقاذ ما يمكن إنقاذه ، بما يمكن أن يستقيم له من وسائل الإنقاذ . ورأى الملك لويس أولاً أن يجلو الجيش الصليبى عن معسكر جديلة ، بالانتقال عن طريق الجسر المعروف إلى شمالى بحر أشموم طناح ، حيث أقام دوق برجنديا بجزء كبير من القوات الصليبية ، منذ بداية القتال . ووافق جميع البارونات الصليبيين على ذلك المشروع ، وبدأوا فى تنفيذه حسب الإرشاد الملكى ، بإقامة برج خشبى واطئ عند مدخل الجسر ، وشحنه بفرقة من الرماة بالنشاب ، لحماية الفرق الصليبية وهى تنسحب من

معسكر جديلة ، ولإخفاء عبورها عن أنظار القوات المصرية الأيوبية ورمايتها .
وترتبت عملية العبور بحيث جعل الملك لويس التاسع فرقته الملكية فى المؤخرة ، وراء جميع الفرق الصليبية الأخرى ، على أن يكون القائد الفرنسى والترشاتيون فى نهاية هذه المؤخرة ، لحماية الجيش الصليبى المنسحب من أية حركة مفاجئة معادية . ولذا لم يلبث معسكر جديلة أن امتلأ بحركة غير عادية ، بعد ما خيم عليه من سكون اليأس والوباء والمجاعة ، مدة ثمانية أسابيع طويلة ، أى منذ وقعة جديلة الكبرى ومعركة مسجد النصر النهرية . وأحست القيادة المصرية الأيوبية بهذه الحركة غير المنتظرة ، دون أن تهتدى إلى معانيها أو أهدافها ، لكنها اتخذت العدة لجميع احتمالاتها ، على أية حال .

وأخيراً ، ذات يوم لعله[1] يوم الثلاثاء ١٦ ذى الحجة سنة ٦٤٧ هـ ، الموافق ٢٢ مارس ١٢٥٠ م ، بدأت الفرق الصليبية من الخيالة والمشاة فى العبور ، فهجمت عليها من فورها كتيبة من الخيالة المصرية الأيوبية ، وحملت على البرج الخشبى عند رأس الجسر . وتلقت فرقة المؤخرة الملكية الصليبية هذا الهجوم المصرى الأيوبى ، وتصدّت له ، وشغلته بالمناوشة والكر والفرّ ، حتى انتهى عبور سائر الفرق الصليبية إلى شمالى بحر أشموم طناح ؛ ثم عبرت المؤخرة الملكية بدورها ، حسب الترتيب المرسوم . ولذا لم يبق من الفرق الصليبية عند رأس الجسر سوى فرقة والترشاتيون ، وهى نهاية المؤخرة الملكية ، فاصطلت هذه الفرقة بوابل الرماية التى صوّبتها إليها كتيبة مشتركة من الخيالة والمشاة المصرية الأيوبية من النبال والسهام ، والطين والحجارة ، وكادت عساكرها تقع فى الأسر ، لولا عودة شارل كونت آنجو لنجدتها ، واستطاعته معاونتها فى العبور .

---

(١) لم يحدد المرجع الوحيد لهذه الأخبار ، وهو (Joinville : Op. Cit. p. 168) تاريخ هذه العملية الحربية ، وليس لدى المؤلف سبب خاص لاقتراح هذا التاريخ هنا سوى المدة التى لا بد أن يستغرقها إنجاز هذه العملية ، بعد معركة مسجد النصر النهرية ، أى بعد سبعة أيام تقريباً من هذه المعركة .

غير أن انسحاب الملك لويس التاسع بجيشه كله إلى المعسكر الصليبي الشمالى ، لم يخفف شيئاً من أحوال المجاعة والمرض بين العساكر الصليبية ، بل أخذت الأقوات تنفد من المخازن ، لانعدام الوارد منها إلى الصليبيين ، من أية ناحية : وارتفعت الأسعار ارتفاعاً جنونياً فى عيد الفصح ، وهو فى تلك السنة يوم الأحد ٢١ ذى الحجة سنة ٦٤٧ هـ ، الموافق ٢٧ مارس سنة ١٢٥٠ م ؛ فبلغ ثمن الرأس من البقر أربعين قطعة ذهبية ، ومن الضأن أو الخنزير خمس عشرة ؛ وبلغ ثمن البيضة الواحدة اثنى عشر بنسا ، والزجاجة من النبيذ خمس قطع ذهبية . وأما المرض ، فظل على حاله الوبيئة ، كما يستدل من عبارات جوانفيل ، وكان من الذين أشرفوا على الموت بسبب ذلك المرض[1] .

ولذا لجأ الملك لويس التاسع إلى الوسيلة الثانية التى تراءت له من وسائل الإنقاذ وقتذاك ، وهى طلب المفاوضة والمهادنة مع السلطان المعظم تورانشاه ، على قاعدة عروض السلطان الكامل سابقاً ، وذلك بناء على نصيحة البارونات المحليين ، ولا سيا بارونات فلسطين ، برغم ما فى فكرة المفاوضة والمهادنة ، لدى الملك لويس نفسه ، من نزول عن كبرياء دينى قديم . وفى أواخر شهر مارس من تلك السنة ، جاء إلى مدينة المنصورة وفد صليبى على رأسه كونت فيليب مونتفرت ، وهو زعيم البارونات الصليبيين المحليين ، ومن أقرب المقربين إلى الملك لويس التاسع ، ومعه الفارس جود فرى سارجين ، وهو من أخص رجال الحاشية الملكية . وقابل هذا الوفد الصليبى نواباً مفوضين رسميين من عند السلطان المعظم تورانشاه ، ومنهم قاضى القضاة بدر الدين حسن بن يوسف السنجارى ، وهو كما هو معروف من كبار أهل المشورة والرأى فى الدولة ، والأمير زين الدين أمير جاندر ، وهو من ألزم رجال السلطان تورانشاه .

---

(١) انظر ما يلى هنا .

وعرض الوفد الصليبي استعداد الملك لويس التاسع للانسحاب بحملته شمالاً إلى دمياط ، تمهيداً للجلاء التام عن السواحل المصرية ، على شرط نزول السلطان تورانشاه لمماكة عكا الصليبية عن مدينة بيت المقدس وبعض المدن الساحلية فى فلسطين ، كأنما كان فى استطاعة الملك لويس أن يشرط شروطاً ما وقتذاك . غير أن الجانب المصرى الأيوبى كان عليماً بالحال فى المعسكر الصليبي ، ولا سيما حال التموين ، بفضل ما استولت عليه البحرية المصرية الأيوبية من السفن الصليبية التموينية فى معركة مسجد النصر العظمى ، وما قبلها ، وما أعقب الاستيلاء على تلك السفن من سيطرة تامة على الطريق النهرى بين دمياط والمنصورة . ولذا لم يجد المفاوضون المصريون الأيوبيون مسوّغاً أو داعياً لقبول هذه الشروط العجيبة التى اقترحها المفوضون الصليبيون ، وفشلت المفاوضات وانتهت ، وهى لم تكد تبدأ .

لكن جوانفيل يقول هنا إن تفاصيل العرض الصليبي لقيت قبولاً لدى المفاوضين المصريين الأيوبيين ، وإن المفاوضات انتقلت بعد ذلك إلى الحديث فى موضوع الرهائن المعتادة التبادل بين الفريقين ، لضمان تنفيذ الشروط المتفق عليها ، فى دقة وسرعة . ويضيف جوانفيل أن الجانب الصليبي اقترح أحد إخوة الملك لويس التاسع ، أى شارل كونت آنجو ، أو ألفونسو كونت بواتييه ، ليكون رهينة عند السلطان تورانشاه ، على حين أصرّ مندوبو الجانب المصرى الأيوبى على أن يكون الملك لويس نفسه هو الرهينة ، وأنهم لا يرضون عنه بديلاً ، مقابل أن يكون أحد أولئك المندوبين هو الرهينة المصرية الأيوبية الموازية . وغضب الفارس جود فرى سارجين من هذا الاستخفاف بذات الملك لويس ، وكان باستطاعته أن يردّ على ذلك الاقتراح مثلاً باقتراح أن يكون السلطان تورانشاه كذلك رهينة عند الصليبيين . لكن جودفرى سارجين كان فارساً ملكياً من صميم العصور الوسطى ، ولم يكن فى مركز يسمح له بالردّ

على هذا الاستخفاف بمثله ؛ ولذا أجاب على اقتراح الجانب المصرى الأيوبى إجابة حانق مكظوم ، وهى أنه يفضل أن يقع هو وجميع الصليبيين قتلى أو أسرى فى أيدى القوات المصرية الأيوبية ، عن أن ينسب إليهم أنهم وافقوا على أن يتركوا ملكهم رهينة فى مصر ؛ ولهذا فشلت المفاوضات .

ونتيجة لفشل هذه المفاوضات ، بالإضافة إلى انعدام الأمل فى زوال المجاعة والمرض من المعسكر الصليبى ، لم يبق لدى الملك لويس التاسع سوى وسيلة واحدة أخيرة من وسائل الإنقاذ ، لتخليص حملته من الفناء الذى غدت مناجيله تصول وتجول بين الجنود الصليبية ، والصناع والسوقة ، بعد أن برّحت بهم جميعاً مضاعفات الأمراض الوبائية المتزايدة . وكان بعض هذه المضاعفات أشد وقعاً وإيلاماً من الموت نفسه ، ولا سيما أورام الفم التى عالجها الجراحيّون والمزيّنون الصليبيون بالبتر بالسكين ، حتى يستطيع المصابون بتلك الأورام إدخال الطعام إلى حلوقهم .

أما هذه الوسيلة الأخيرة التى اختمرت فى رأس الملك لويس التاسع ، فهى الانسحاب بالجيش الصليبى كله فى البر والنهر إلى دمياط ، عاجلاً وسريعاً ، وبأية طريقة . غير أن بعض البارونات اقترحوا على الملك لويس أن يسبق هذا الانسحاب العام بالرحيل بنفسه خلسة إلى دمياط ، فى ظلام الليل ، فى فئة من حاشيته ، عن طريق البر أو النهر ، ليكون بعيداً عن أخطار الانسحاب العاجل السريع . لكن الملك لويس أبى أن يستمع إلى ذلك الاقتراح ، بل أعلن أن موضعه سوف يكون فى آخر المؤخرة وراء المنسحبين ، كما حدث أثناء الجلاء عن معسكر جديلة إلى المعسكر الصليبى الشمالى .

ولم يكن هذا الانسحاب سهل التنفيذ ، نظر لفقدان الروح المعنوية فى الجيش الصليبى ، وضآلة الطاقة الجسمانية بين صفوفه ، فضلا عن طول المسافة من المنصورة إلى دمياط العصور الوسطى ، وهى فى تفصيلها على وجه التقريب اثنان وعشرون كيلومتراً من شمالى المنصورة إلى شرمساح ،

وثمانية وعشرون كيلومتراً من شرمساح إلى فارسكور ، وعشرون كيلومتراً من فارسكور إلى دمياط االعصور الوسطى . وهذه المسافات التقريبية تبلغ فى مجموعها الكلى سبعين كيلومتراً ، وهى كثيرة المعاثر والعراقيل المائية ، كما عرفها الصليبيون تمام المعرفة سابقاً ، حين سازوا من دمياط نحو المنصورة ، بعد موسم الفيضان ، واستغرقوا فى سيرهم وقتذاك سبعة عشر يوماً ، وسوف تقابلهم فى طريق انسحابهم بعض هذه المعاثر والعراقيل ، لا كلّها ، نظراً لجفاف الأرض وقلة المياه فى الترع والقنوات ، ولذا سوف يستغرقون فى انسحابهم هذا مدة أقلّ كثيراً مما استغرقوا فى تجربتهم السابقة ، أى سبعة أيام مثلاً ، أو حسبما تشاء المقادير الخافية فى عالم الغيب والمستقبل غير البعيد[١] .

وكانت خطة الملك لويس التاسع أن يسير الصليبيون القادرون على السير ضمن القافلة المنسحبةفى البر ، وأن تحمل السفن الصليبية جميع المرضى والجرحى فى النيل ، وذلك بعد قيام فئة من المهندسين بهدم الجسر المعهود ، وتفكيك قواربه وحباله وأخشابه ، حتى لا تعبر عليه القوات المصرية الأيوبية إلى شمالى بحر أشموم طناح ، وتهجم على مؤخرة الصليبيين المنسحبين فى البرّ ، وهم فى المرحلة الأولى من مراحل هذا الانسحاب الطويل .

ثم تقرر أن يكون البدء فى تنفيذ هذه الخطة مساء يوم الثلاثاء ، بعد عيد

(١) انظر ما سبق هنا ، ص ١٢٨ ، حيث توجد فقرة طويلة بصدد تلك المسافات ، وهى فقرة تشغل أربعة أسطر بآخر تلك الصفحة المذكورة ، وتحتوى على بضعة أخطاء لفظية وحسابية ينبغى استدراكها وتصحيحها هناك بالآتى : " ويكفى للبرهان على هذا وذاك أن الحملة استغرقت فى زحفها من دمياط العصور الوسطى إلى شمالى المنصورة الحالية سبعة عشر يوماً ، وهى مسافة لا يمكن أن تزيد عن سبعين كيلو مترا ، أى أن الحملة لم تستطع أن تقطع فى اليوم الواحد سوى أربعة كيلو مترات على المتوسط . . . " . انظر كذلك ص ١٣٢ ، ١٣٣ ، لتصحيح بعض الأرقام فى هاتين الصفحتين ، على الوارد بالمتن هنا .

الفصح الكاثوليكى ، أى مستهل المحرم سنة ٦٤٨ هـ ، الموافق ٥ أبريل سنة ١٢٥٠ م . ولمدة أسبوع سابق على ذلك التاريخ ، على أقل تقدير ، أخذت حركة واجمة عابسة تملأ جوانب المعسكر الصليبى شمالى بحر أشموم طناح ، حتى إذا اقتربت استعدادات الرحيل من الانتهاء ، عمد الملك لويس التاسع إلى إشعال النار فى أخشاب المعسكر وأسواره ، أول يوم من أبريل ، أى قبل الموعد المضروب للحركة الانسحابية الفعلية بثلاثة أيام . وربما أراد الملك لويس بإشعال تلك النار ، وإحراق الأخشاب والأسوار الخشبية ، أن يعلن للفرق الصليبية استحالة البقاء بعد ذلك فى المعسكر الصليبى الشمالى ، وأن ينذرهم بقرب موعد الحركة الانسحابية ؛ وحدث كل ذلك على حين وقفت كتائب القوات المصرية الأيوبية ترقب بداية الحركة الصليبية للانسحاب العام .

ثم صدر الإذن بالرحيل الصليبى فى البر والنهر مساء ذلك اليوم الموعود ، ولم يلبث ظلام الليل أن حجب بين القوات المصرية الأيوبية والصليبيين المنسحبين . واعتقد الملك لويس أنه سوف يكسب بجنوده بذلك الظلام مسيرة ليلة ، وهى آمنة من أى هجوم خلفى ، وكان من أمله أن يكسب مسيرة ليلة أخرى ، قبل أن تستطيع القوات المصرية الأيوبية إصلاح الجسر الذى أمر الملك لويس مهندسيه وعماله بهدمه ، وتفكيك قواربه وحباله وأخشابه . غير أن الجسر لم يكن مهدوما أو مفككك القوراب والحبال والأخشاب ، أو فى حاجة إلى أى إصلاح ، لأن فئة المهندسين الصليبيين التى كلفها الملك لويس بإتلافه نسيت أن تحدث به شيئاً ، فى غمرة الاستعداد للرحيل العام . ولذا لم تكد القوات المصرية تفطن إلى رحيل الصليبيين عن معسكرهم شمالى بحر أشموم طناح ، حتى أسرعت فئات منها إلى عبور الجسر وراءهم ، فى أعداد كبيرة ، للحاق بهم ، رغم ظلام الليل .

ومن هنا يستطيع الباحث أن يتابع مجرى الحوادث التالية فى كل من البرّ والنهر على حدة ، لأن جوانفيل قام مشكوراً بتخصيص فقرات معينة

لوصف ما جرى لشخصه ، وللسفن الصليبية التى حملته وغيره من المرضى والجرحى فى النيل ، على حين خصص فقرات أخرى لتدوين ما حدث للملك لويس التاسع ووحدات الجيش الصليبى ، وخيالته ومشاته ، وعماله وسوقته ، أثناء الانسحاب العام فى البرّ ؛ وهذه الفقرات الخاصة بالانسحاب البرّى مستمدة مما أدلى به الملك لويس بنفسه فيما بعد ، لصديقه جوانفيل .

وكان الملك لويس التاسع وقتذاك مريضاً بالدوسنطاريا الوبائية المنتشرة بالمعسكر الصليبى ، وهو لا يكاد يستطيع الحراك أو الركوب ذلك اليوم . لكنه رفض أن يكون طريح الفراش على ظهر سفينة من السفن الصليبية المنسحبة فى النيل ، مع سائر المرضى والجرحى والعاجزين عن الحركة من الصليبيين ، وأصرّ على البقاء فى موضعه من المؤخرة ، كعادته فى جميع العمليات الصليبية السابقة .

وبدأت السفن الصليبية عملية الانسحاب النهرى باستقبال المرضى والجرحى على دفعات ، منذ ظهر يوم الثلاثاء الذى تقدّمت الإشارة إليه . وكانت فئة جوانفيل من أوائل الفئات الصليبية المبكرة فى النزول إلى السفينة المعينة لها ، ابتغاء الرحيل فى غفلة إلى دمياط ، قبل أن تأخذ السفن الصليبية الأخرى حمولتها من المرضى والجرحى ، وقبل أن تكون سفن الحراسة الحربية اللازمة على استعداد للرحيل . غير أن البحارة الصليبيين منعوا سفينة جوانفيل من تحقيق غرضها ، بعد أن شرحوا لجوانفيل ما سوف يتعرض له شخصه من الوقوع فى أسر المراكب الحربية المصرية الأيوبية ، وهى المنتشرة فى كل مكان ، أو الهلاك غرقاً فى النيل ، إذا حاولت سفينته هذه أن تصل بمفردها إلى دمياط . أما عملية استقبال المرضى والجرحى فاستمرت حتى منتصف الليل فى ضوء المشاعل الساحلية ، ووقفت السفن الصليبية التى أخذت حمولتها الكافية من هؤلاء وأولئك فى عرض النيل استعداداً

للرحيل ، وبواسطة الضوء الذى انتشر من هذه المشاعل الساحلية شهد جوانفيل من نافذة سفينته طلائع القوى المصرية الأيوبية البرية التى أدركت ذيول الصليبيين المنسحبين ، وهى تنقض انقضاضاً خاطفاً على بعض فئات الذيول التى لم تزل تنتظر دورها للنزول إلى السفن الواقفة قرب الساحل . وخشى بحارة السفن الصليبية الواقفة فى عرض النيل مما سوف ينتابهم من البر أو النهر حين تتصل هذه الطلائع البرية بقافلة المراكب الحربية المصرية الأيوبية ، الرابضة عند موضع مسجد النصر ، حيث انتصرت المراكب المصرية الأيوبية انتصارها العظيم ، على مسافة سبعة كيلو مترات شمالى المنصورة . لكن البحارة الصليبيين كانوا يأملون أن يساعدهم سواد الليل ، وغياب القمر فى مستهل الشهر الهجرى ، على التسلل فى سرعة مع تيار الماء فى اتجاه دمياط ، قبل أن يحدث ذلك الاتصال الخطير بين القوات المصرية الأيوبية البرية والنهرية .

ثم دنا آخر الليل ، وهبت رياح عكسية قللت كثيراً من سرعة السفن الصليبية الحربية وغير الحربية ، ولم تلبث هذه السفن أن وجدت نفسها قبالة المراكب المصرية الأيوبية المصطفة عند موضع مسجد النصر ، على أهبة للقتال ، وفى محاذاتها فئة من الخيالة والرماة المصرية الأيوبية المزودة بالنار الإغريقية والنبال . وعندئذٍ هربت مجموعة السفن الصليبية الحربية المكلفة بحراسة أخواتها من السفن المحملة بالمرضى والجرحى الصليبيين ، واتخذت سبيلها فى النيل نحو الشمال طلباً ، للنجاة قبل فوات الأوان ، على حين نشبت معركة نهرية بين السفن الضيبية المحملة بالمرضى والجرحى ، وبين القوات المصرية الأيوبية فى البر والنهر . ونزلت القذائف المصرية الأيوبية على هذه السفن الصليبية فى أثناء تلك المعركة ، من رماة فى البر ورماة فى النهر ، ولا بد أن تراءى للناظر إلى تلك المعركة الهائلة كأن هذه القذائف نجوم ليل هاوية من جميع النواحى والجهات . واختلط الحابل

بالنابل ، وكثر عدد القتلى من المرضى والجرحى الصليبيين بهذه السفن ، بعد الاستيلاء عليها فى سهولة وسرعة ، لانعدام وسائل المقاومة نتيجة لذهاب سفن الحراسة الصليبية عنها ، ولعجز المرضى والجرحى الصليبيين عن أى دفاع عن أنفسهم . وبلغت المغانم التموينية التى استولت عليها السفن المصرية الأيوبية من وفرة الكمية وقتذاك ، مثلما بلغ القتلى الصليبيين من كثرة العدد ، كما زادت أعداد الأسرى الصليبيين عن أى حساب ، بالقياس إلى أعداد هم فى أية معركة من المعارك النهرية الماضية .

وتوجّس جوانفيل خيفةً ، وهو طريح فراش المرض ، أن يكون نصيبه ونصيب أتباعه القتل أثناء هذه المعركة الدامية ، فألقى بصندوق نقوده ومجوهراته فى النيل ، وكاد أن يلقى حتفه فعلاً على يد أحد البحارة المهاجمين للسفن الصليبية ، لولا صياح خادم جوانفيل ، وإشارته إلى ملابس مخدومه النبيلة الغالية ، وقوله بأن جوانفيل قريب من أقرباء الملك لويس التاسع ، أى أنه ممن سوف يدفعون فدية كبيرة ؛ وهكذا نجا جوانفيل وأتباعه معه من القتل ، بفضل هذا القول الذى لم يستند إلى حقيقة . واستدعى أمير السفن المصرية الأيوبية جوانفيل إلى سفينة القيادة النهرية العامة ، يوم الجمعة ٤ المحرم سنة ٦٤٨ هـ ، الموافق ٨ أبريل سنة ١٢٥٠ م ، وسأله عن حقيقة قرابته للملك لويس التاسع ، أو غيره من الملوك الأوربيين . وأجاب جوانفيل على هذا السؤال إجابة لبقة ، إذ قال بأنه قريب من ناحية الأم للإمبراطور فردريك الثانى ، وهو الإمبراطور صاحب السمعة الواسعة الطيبة ، فى دوائر الشرق الأوسط فى العصور الوسطى . وبذا جعل جوانفيل نفسه موضع عناية خاصة ، واستضافه أمير السفن المصرية الأيوبية حتى يوم ٦ المحرم سنة ٤٦٨ هـ ، الموافق ١٠ أبريل سنة ١٢٥٠ م ، وأركبه معه فرساً للنزهة بعض الأحيان ، على شاطئ النيل . ثم ذهب جوانفيل مع الذاهبين من الأسرى الصليبيين إلى معسكر المنصورة ، حيث علم

أن الملك لويس التاسع ، ومعظم البارونات الأوربيين والمحليين ، وقعوا كذلك فى الأسر ، وأن الانسحاب الصليبى العام فى البر ، كان أتعس حظاً وأشدّ كارثة مما حلّ بالسفن الصليبية ومرضاها وجرحاها ، فى نهر النيل .

وكانت بداية الانسحاب الصليبى البرى العام ، كبداية الانسحاب النهرى ، مساء يوم الثلاثاء الذى تقدّمت الإشارة إليه ، واتخذت الفرق البرية الصليبية كذلك من الليل ستاراً ، كما حدث فى الانسحاب النهرى فى النيل ، بعد أن جعل الملك لويس التاسع موضعه فى ذيل المؤخرة ، ومعه من خاصة حاشيته الفارس جودفرى سارجين . وازداد المرض على الملك لويس التاسع فى ذلك المساء ، حتى أمسى لا يطيق ركوب فرسه الحربية ، لشدة ما به من اضطراب معوىّ حادّ عنيف . ولذا اكتفى الملك لويس بفرس عادية هادئة هينة السير ، للركوب والنزول أثناء تلك الليلة على قدر طاقته . غير أن ظلام الليل لم يغن عن الصليبيين فى البرّ شيئاً ، لأن ما كسبوه من سبق على القوات المصرية الأيوبية البرية ، بفضل ذلك الظلام ، لم يلبثوا أن فقدوه بسبب بعض المعاثر والعراقيل المائية — ولا مناص منها فى الطريق من المنصورة نحو دمياط أو العكس — فضلاً عن قلة الخيل والخيالة نسبياً لديهم . ولذا تطورت عملية الانسحاب الصليبى البرى العام إلى سير متعثّر ليّن بطىء ، تعتوره وتعوّقه هجمات مصرية أيوبية جريئة عنيفة سريعة ، شمالاً ويميناً وفى المؤخرة ، بقيادة الأمير بيبرس البندقدارى ، دون أن يستطيع الصليبيون عن أنفسهم دفعاً ، أو أن ينهضوا بشيء سوى الاستمرار فى بطء السير وضآلة المقاومة ، ضد الهجمات المصرية الأيوبية المتكرّرة .

وأظهر الملك لويس التاسع من موضعه فى ذيل المؤخرة الصليبية صفات الفروسية المعهودة فى العصور الوسطى ، من ثبات ومثابرة واستهانة بالمرض ،

ولم يتحول عن موضعه هذا إلى موضع أقل تعرضاً للهجمات الخلفية المصرية الأيوبية المتكررة . ومن هذا الموضع المطل على السير الصليبي الضعيف الوئيد من ناحية ، والزحف المصرى الأيوبى القوى المتحفز للقتال من ناحية أخرى ، استطاع الملك لويس أن يشهد ما لم يستطع أن يشهده غيره من القادة الصليبيين ، وهم يسيرون مطرقين على رأس صفوفهم المتداعية . وهكذا رأى الملك لويس تدهور السير الصليبي واسترخاءه من مرحلة إلى أخرى ، على حين رأى ازدياد الهجمات المصرية الأيوبية شدةً وتكراراً ، ساعة بعد ساعة .

ثم انجلى صبح الأربعاء ٢ المحرم سنة ٦٤٨ هـ ، الموافق ٦ أبريل ١٢٥٠ م ، وكشف عن منظر رائع مؤذن بهزيمة لا مناص من حلولها بالصليبيين ، إذ تراءت القوات المصرية الأيوبية الزاحفة ، وهى تسير فى شكل قوس ضخم ، يحتوى على أعداد متوثبة من الفرسان والخيالة والمشاة ، وهذه الأعداد تنتظر إشارة من قائدها الأمير بيبرس البندقدارى ، للإطباق من طرفى هذا القوس الضخم على الفئات الصليبية المنسحبة . وعند منتصف هذا القوس وقعت مناوشات ومحاولات متكررة ، على مؤخرة الصليبيين المنسحبين ، تبتغى الوصول إلى شخص الملك لويس التاسع ، لأخذه أسيراً ، بأية وسيلة ممكنة ، لتقرير مصير حملته الصليبية بتلك الطريقة القصيرة الناجزة ، وحمل الصليبيين على الاستمرار فى القتال بدون ملك يقودهم فى الميدان ، كما اشتهى لهم الأمير بيبرس البندقدارى ، قبيل يوم وقعة جديلة الكبرى . ووقف الفارس جودفرى سارجين ، لدفع هذه المحاولات الجريئة ، أحياناً بسيفه وأحياناً بحربته ، وكان كأنما يدفع ذباباً هائلاً عن شراب حلو المذاق ، على قول جوانفيل نفسه .

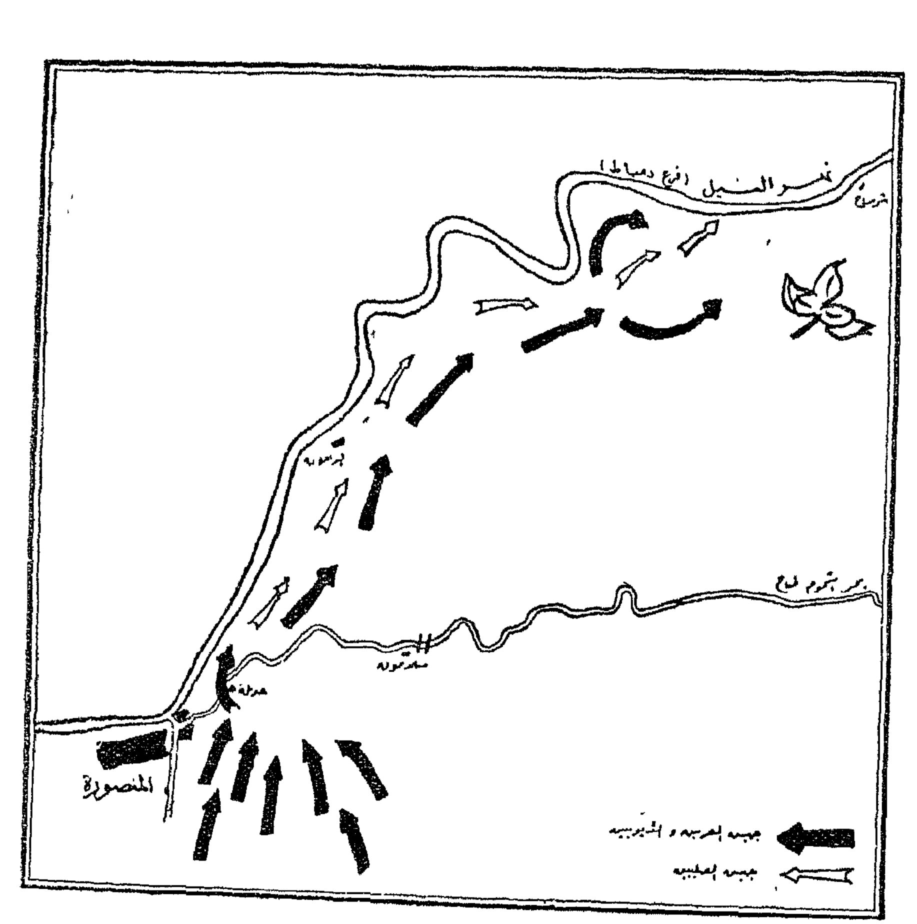
ولم يكن الصليبيون وقتذاك على مسافة كبيرة من بداية انسحابهم فى الليلة السابقة ، لأنهم لم يستطيعوا عقلاً أن يقطعوا فى ليلة واحدة ما يزيد عن عشرة كيلو مترات على أطول تقدير ، أى أنهم كانوا فى مطلع الصبح من يوم الأربعاء هذا ، على مسافة عشرة كيلو مترات أخرى تقريباً جنوبى شرمساح[١] :

ثم لم تكن ساعة أو ساعتان ، من ذلك الصباح المحتوم على الصليبيين المنسحبين ، حتى أخذ شكل القوس المصرى الأيوبى الضخم يضيق رويداً رويداً ، ويتحوّل من شبه قوس إلى شبه حلقة ناقصة ، وذلك دون أن يبدو من فئات الصليبيين المنسحبين شىء من حركة دفاعية أو هجومية من ناحيتهم ، بسبب ماران عليهم من تعب السير طول الليلة السابقة ، فضلاً عما أصبحوا فيه من أثر الشعور العميق باليأس من النجاة . ثم لم تلبث القوات المصرية الأيوبية أن أطبقت حوالى ظهر ذلك اليوم على الصليبيين المنسحبين ، لإبادتهم عن آخرهم ، قبل أن يصلوا إلى شرمساح للاحتماء بها . وخشى الفارس جودفرى سارجين مما عسى أن يحلّ بشخص الملك لويس التاسع ، أثناء القتال اليائس الذى ربما ينشب ذلك اليوم ؛ وكان الملك لويس لا يستطيع حراكاً من شدة المرض ، فبادر جودفرى إلى الفرار به ، وأوصله إلى مكان أمين معروف له من قبل ، فيما يبدو . بقرية ميت الخولى عبد الله الحالية ، على الشاطئ الشرقى للنيل . وهناك اعتصم الملك لويس بموضع اسمه تل قونة ، حيث أوى إلى بيت ريفى من بيوت هذه القرية الصغيرة[٢] ، ولحقه بها أخواه وكثير من كبار باروناته وحاشيته ، ومنهم كونت شاتيون الذى وقف بخيالته فى طرف

---

(١) انظر الخريطة رقم ٩ ، وعنوانها الانسحاب الصليبى العام ، ص ١٩٥ .

(٢) انظر الملحق رقم ٢ .



الخريطة رقم ٩

الانسحاب الصليبي العام

شارع القرية ، لحراستها من أية إغارة مفاجئة ، على حين تكفلت امرأة فرنسية نبيلة بتمريض الملك لويس والعناية به ، وهو وقتذاك فاقد الحركة ، مغمىً عليه ؛ والأمل ضئيل فى بقائه حياً حتى مساء ذلك اليوم .

ودخل على الملك لويس التاسع ، وهو على تلك الحال المريضة الكئيبة ، فى تلك القرية المصرية النيلية الصغيرة ، كونت فيليب مونتفرت ، وهو الذى ترأس وفد مفاوضات الهدنة التى أدى فشلها إلى تقرير هذا الانسحاب التعيس العام . وأخبر كونت فيليب جماعة البارونات الأوربيين الحاضرين ، على مسمع من الملك لويس ، بعد إفاقته قليلاً من إغمائه ، بأن البارونات المحليين يطلبون محاولة المفاوضة مرة أخرى ، لعقد هدنة على شروط يقبلها السلطان تورانشاه ، وأنه قام لذلك الغرض نيابةً عن البارونات المحليين بالاتصال برئيس المفاوضين المصريين الأيوبيين سابقاً — ولعله قاضى القضاة بدر الدين حسن بن يوسف السنجارى — ، وأحسّ منه استعداداً طيباً لاستئناف المفاوضات ، على هذه القاعدة الجديدة . ورحب الملك لويس بهذه الأخبار ، وأعلن راضياً بأن يكون هو لا غيره رهينة لدى السلطان تورانشاه ، حسب اقتراح الجانب المصرى الأيوبى قبلاً . وفوّض الملك لويس كونت فيليب مونتفرت لقبول الشروط التى سوف يعرضها عليه المفاوض المصرى الأيوبى ، كيفما تكون . ولذا أسرع كونت فيليب إلى المفاوض المصرى الأيوبى ، وتعاقد معه مبدئياً على هدنة محورها جلاء الصليبيين عن دمياط ، دون أى قيد أو شرط من الجانبين .

غير أنه حدث ، قبل بضع ساعات من حصول كونت فيليب مونتفرت على هذا الاتفاق المبدئى بصدد الهدنة ، أن انتشر فجأة بين الصفوف الصليبية المنسحبة نداء جاويش فرنسى اسمه مارسيل ، بأن الملك لويس التاسع أصدر أوامره بالتسليم العام للقوات المصرية الأيوبية ، وأنه يدعو وحدات الجيش الصليبى جميعاً ، من الفرسان والخيالة والمشاة ، إلى تسليم

أنفسهم وإلقاء سلاحهم ، فى غير تردّد أو مقاومة أو إبطاء . ويبدو أن هذا الجاويش الفرنسى قام بذلك النداء بناء على وحيٍ من البارونات الصليبيين المحليين ، وهم الذين أضناهم اليأس ، ولم يروا فى استمرار المقاومة أية جدوى ؛ أو أنه نادى به بعد اقتناعه وأمثاله من الجاويشية الفرنسيين بأن التسليم الصليبى آت لا ريب فيه ، وأنه ربما ينقذ الموقف قليلاً أن تعتقد القوات المصرية الأيوبية أن الملك لويس التاسع هو الداعى بنفسه إلى ذلك التسليم . ويقال غير ذلك بشأن هذا الجاويش الفرنسى الذى قفز إلى منابر التاريخ ، من حيث لا يحتسب ، بندائه الذى دلّ فيما دلّ على عقم الحروب الصليبية ، فى نظر بعض دوائر الصليبيين المعاصرين . ذلك أنه بالإضافة إلى احتمال تأثير البارونات الصليبيين المحليين ، فى إقناع هذا الجاويش الفرنسى بفائدة القيام بما قام به من نداء للتسليم العام ، يحتمل كذلك أن بعض الفرنسيين الذين عاشوا بمصر ، وحسنت إقامتهم بها منذ اشتراهم السلطان الكامل من حملة الأطفال الصليبيين ، أقنع هذا الجاويش الفرنسى بوسيلة من وسائل الإقناع : بأن المبادرة إلى التسليم الصليبى عاجلاً خيرٌ من الاضطرار إليه آجلاً .

وكيفما كان الدافع الحقيق وراء هذا النداء الفجائى ، أطاعت الوحدات الصليبية كلها هذا النداء إلى التسليم ، إطاعة عامة تامة ، فى سرعة وفى غير تردّد أو إبطاء ، بعد أن انتشرت الأخبار بين صفوف الصليبيين أن مليكهم أصدره ، وبعد أن غدوا يشعرون كأنهم محبوسون داخل قفص هائل ، أعواده مصنوعة من حديد السيوف والرماح والدبابيس ، والأسنة والحراب المصرية الأيوبية ، وبعد أن غدوا يتمنّون الخلاص بالوصول إلى دمياط ، وطريق الوصول مسدودٌ ، حقيقةً ومجازاً . ولذا سلّم الصليبيون جميعاً أنفسهم وسلاحهم ، فى غير مقاومة أو إبطاء ، بناء على نداء فجائى لم يعلم به أحد من البارونات الفرنسيين على الأقل ، مع العلم

أن الملك لويس التاسع نفسه لم يعلم شيئاً عن ذلك النداء أو يسمع به ، وهو بعيد فى مأواه بقرية ميت الخولى عبد الله .

هكذا وقع الجيش الصليبي كله غنيمة باردة — صفواً عفواً — فى أيدى القوات المصرية الأيوبية ، وأحاطت به كتائبها القريبة إحاطة سهلة سريعة ، وتحول الميدان جنوبى شرمساح إلى ساحة مائجة بجموع الأسرى الصليبيين ، لفرزهم وإحصائهم وتوزيعهم على الخيام المؤقتة التى ضربت فى عراء الريف المصرى ، ذلك اليوم المشهود . وبدأت هذه العمليات بفرز البارونات والفرسان ، والقادرين على افتداء أنفسهم بالمال ، لاقتيادهم أسرى ممتازين إلى المنصورة . وجاء دور كونت فيليب مونتفرت أمام الموكلين بالإشراف على هذه العمليات ، ومنهم صاحب المفاوضات والتعاقد المبدئى على الهدنة ، فتأسّف للكونت بانقلاب الحال إلى هذه الصورة المفاجئة .

ثم بدأ البحث عن الملك لويس التاسع ، فلما اهتدى الباحثون إلى مكان اختفائه فى البيت الريفى بتل قونة ، فى قرية ميت الخولى عبد الله ، أرسلوا جماعة من الخيالة المصرية الأيوبية لمسكه . ورأى كونت شاتيون هذه الخيالة المصرية الأيوبية وهى راكضة نحو شارع القرية الوحيد ، فأسرع إلى فرسه وسيفه ، ووقف فى طرف الشارع مستعداً للدفاع عن الملك لويس ، بكل خيالته عن طيب خاطر ، فضلاً عن الجود بنفسه فى سبيل واجبه . وأدركت الخيالة المصرية الأيوبية أن فئة من الخيالة الصليبية معسكرة بالقرية تحت قيادة كونت شاتيون ، فأخذت فى الرمى عليها بالنبال ، على حين ذهب عدد من هذه الخيالة المصرية الأيوبية لسد الطرف الآخر من الشارع . وأدار كونت شاتيون عنان فرسه ، ووراءه بعض خيالته الصليبية ، لمواجهة هذا الهجوم الثانى ، فانهالت عليه النبال المصرية الأيوبية من الطرفين ، وما زال على تلك الحال حتى مات قتيلاً ، وهو على ظهر فرسه ، بعد أن فنى أفراد خيالته عن آخرهم .

ووصلت كتيبة من القوات المصرية الأيوبية إلى حيث كان الملك لويس التاسع مختفياً ، فوجدوه جالساً فى حوش البيت الريفى الذى تقدّمت الإشارة إليه ، وحوله أخواه وجماعة كبيرة من باروناته وحاشيته . ثم وصل الطواشى جمال الدين محسن الصالحى ، والأمير سيف الدين القيمرى الكردى ، فى جماعة من فرسان القوات المصرية الأيوبية ، إلى حيث جلس الملك لويس وإخوته وباروناته وحاشيته . فطلب الملك لويس منهما الأمان ، لنفسه ولمن معه ، فأجاباه وأمناه ، باسم السلطان المعظم تورانشاه . ثم صدرت التعليمات المصرية الأيوبية بنقل الملك لويس وأصحابه أسرى إلى المنصورة ، فى سفينة من السفن الراسية فى النيل ، ومعه أخواه شارل كونت آنجو وألفونسو كونت بواتييه . وما زالت هذه السفينة تسير الهوينا ، حتى وصلت إلى ساحل المنصورة ، وسط ضوضاء الطبول والكوسات التى امتلأت بها سفن مصرية أيوبية أخرى ، وهى تسير فى النيل محاذية لهذه السفينة الملكية ، وذلك فضلاً عن تهليلات العساكر المصرية الأيوبية والعربان ، وهم يسيرون مشاةً وركباناً على جانبى النيل إلى المنصورة .

وكذا قضت عدالة السماوات ألا يدخل الملك القديس لويس مدينة المنصورة إلا مهزوماً مأسوراً مريضاً ، مكللاً بأشواك الخيبة ، جزاءً وفاقاً على ما اقترف بحملته الصليبية من اعتداء أثيم . وتراءى للمعاصرين والمتأخرين ، من أهل الشرق الإسلامى ، أن الملك لويس استأهل هذا المصير ، فهو فى نظرهم سبب موت سلطان عظيمٍ كمداً ، وسبب مقتل قائدٍ عامٍ وهو أعزل من السلاح ، وسبب تحويل جامع دمياط الكبير إلى كنيسة كتدرائية ، للمرة الثانية فى جيل واحد أو بعض جيل . ولو أن الملك لويس رضى بمفاوضة السلطان الصالح أيوب ، أو غيره من رجال الدولة المصرية الأيوبية ، عند ما عُرضت عليه المفاوضات لأول مرة ،

أو لو أنه اختار طريق الهدنة الكاملية الفردريكية ، أو مايشبه ذلك الطريق السلمى ، لما وقع لشخصه ما وقع من مذلّة الأسر ، على الأقل .

وللمؤرخ ابن تغرى بردى هنا وصف لنقل الملك لويس التاسع أسيراً إلى المنصورة ، وهو وصف دالٌ على مبلغ ما امتلأ به الخاص والعام من فرح ببلية الملك لويس التاسع ، وبلية حملته الصليبية على مصر ، ونصـــه : " وأنزل الفرنسيس فى حراقة ، وأحدقت به مراكب المسلمين تضرب فيها الكوسات والطبول ، وفى البرّ الشرقى العسكر سائر منصور مؤيد ، والبر الغربى فيه العربان والعامة ، فى لهوٍ وتهانٍ وسرورٍ بهذا الفتح العظيم ، والأسرى تقاد فى الحبال ، فكان يوما من الأيام العظيمة المشهودة[١] " .

وامتلأت الأيام التالية بعمليات التصفية التى نجمت عن هذا الانهيار الصليبى فى النهر والبر ، فأمر السلطان المعظم تورانشاه باعتقال الملك لويس التاسع ، وأخويه شارل كونت آنجو وألفونسو كونت بواتييه ، فى مسكن فسيح لائق بالمنصورة ، بعد تقييد كل منهم فى رجله بقيد من حديد[٢] . ووقع اختيار السلطان تورانشاه على دار من الدور الحكومية التى أقيمت أيام بناء المنصورة العسكرية الأولى ، زمن السلطان الكامل ، لإقامة الملك لويس التاسع وأخويه على هذه الحال ، إلى أجل غير مسمّى أو معلوم . ولذا فلا بدّ أن هذه الدار كانت فسيحة البناء ، بحيث وسعت إقامة

(١) انظر ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة - طبعة القاهرة - ، ج ٦ ، ص ٣٧٠ ، وغيره من المراجع العربية المعاصرة والمتأخرة حيث تتردد هذه النغمة الرنانة الظافرة فى كثير من المنظوم والمنثور فى ذلك العصر ، وأشهر ذلك كله ما أورده المقريزى : المواعظ والاعتبار - بولاق - ، ج ١ ، ص ٢٢٢ - ٢٢٣ ، من قصائد شعرية . انظر كذلك أحمد أحمد بدوى : من النقد والأدب ، ص ٣٥ ، وما بعدها .

(٢) انظر ملحق رقم ١ ، ص ٣٦٩ ب .

الملك لويس التاسع وأخويه الاثنين ، فيما يبدو ، فضلاً عن خادم واحد لكل منهم على أقل تقدير . ثم أنه لا بد كذلك أن هذه الدار كانت بسيطة البناء ، خالية من زخرف المعمار المدنى الأيوبي المعاصر ومتانته ، شأنها فى ذلك شأن جميع الأبنية العسكرية . وكانت هذه الدار مخصصة لصاحب (رئيس) ديوان الإنشاء ومساعديه ، وهو وقتذاك فخر الدين إبراهيم بن لقمان ، فعرّفت باسمه ، وربما عرفت بغير ذلك من اسماء أصحاب هذا الديوان قبله . على أن نقطة الأهمية هنا هى أن الملك لويس التاسع ، وأخويه شارل كونت آنجو وألفونسو كونت بواتييه ، لقوا بدار ابن لقمان من حسن الإقامة ما شهدت به المراجع ، وأن هذه الدار لا بد أشبهت فى بساطةبنائها القصر السلطانى الكاملى نفسه ، وربما كانت على مسافة قريبة من ذلك القصر ، ولا يبعد أن يكون موضع الدار الباقية المعروفة بهذا الاسم ، فى العصر الحاضر ، جزءاً من الموضع الأصلى لدار ابن لقمان الأولى[١] .

أما مجموعة الأسرى من الفرسان الصليبيين ، وعدتهم عشرة آلاف فارس ، ما عدا كبار البارونات الصليبيين ، حسب تقدير جوانفيل نفسه ، فأمر السلطان تورانشاه بجمعهم كذلك بالمنصورة ، فى خيمة كبيرة من النوع المسمّى فى ذلك العصر باسم الدهليز ، وشبيهه فى العصر الحاضر ما يعرف باسم الصيوان الذى يُقام للموالد السنوية والاحتفالات الكبرى ، من أعمدة خشبية تشدّها بعضها إلى بعض حبال متينة ، وتكسوها أقمشة سميكة مزخرفة بزخارف ذات أشكال كوفية زاهية الألوان . وهذه الخيمة الكبيرة هى التى جاء إليها جوانفيل ، وقيد اسمه عند الموقعين (الكتبة) الجالسين عند مدخلها ، قبل أن يأخذ مكانه بين زملائه وأصدقائه من الفرسان الصليبيين .

---

(١) انظر ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة — طبعة القاهرة — ، ج ٦ ، ص ٣٦٦ ، حاشية ٣ ، حيث توجد عدة اقتراحات لتحديد مكان دار ابن لقمان الأصلية .

واشتمل حوش قريب من تلك الخيمة الكبيرة ، وهو حوش مسوّر بسور من طوب نيّىء وطين ، على مجموعة أخرى من الأسرى من الفرسان الصليبيين ، وهم — فيما يبدو — خليط قليل العدد من بقايا هيئتى الفرسان الداوية والاسبتارية المشهورين بحماستهم الدينية المنادية بضرورة استمرار الحرب ضد المسلمين ، بدليل أن الموكلين بشئونهم من العساكر المصرية الأيوبية عمدوا إلى معاملتهم بطريقة مختلفة عما عوملت به فئات الأسرى العلمانيين من الفرسان الصليبيين ، إذ كانوا يخيرون أفراد هذه المجموعة بين الإسلام أو القتل ، وينفذون حكم القتل فى الواحد منهم بعد الآخر ، إذا هو اختار عدم الدخول فى الإسلام ؛ وهكذا كانت مستويات تلك العصور الوسطى ، فى الشرق والغرب ، فى كثير من الأحيان .

أما كبار البارونات الصليبيين ، وهم فئة قليلة على أية حال ، فصدرت الأوامر بنقلهم إلى خيمة صغيرة مجاورة للخيمة الكبيرة ، لتبليغهم رغبة السلطان تورانشاه فى معرفة ما هم مستعدون لتقديمه من فدية ، مقابل افتكاكهم من الأسر . وطلب مندوبو السلطان تورانشاه من أولئك البارونات تعيين أحدهم لينوب عنهم فى الإجابة على التبليغ السلطانى ، فاختاروا بطرس كونت بريتانى ، لأقدميته ومرتبته فى السلم الإقطاعى ، ومقامه الخاص عند الملك لويس ، بعد أخويه المأسورين معه .

وأحاط مندوبو السلطان تورانشاه كونت بريتانى علماً باستعداد السلطان لإطلاق سراح كبار البارونات المحليين وحدهم ، مقابل نزولهم له عن إماراتهم ومدنهم وقلاعهم فى فلسطين . وأجاب كونت بريتانى بأن هذه الإمارات والمدن والقلاع منحٌ إقطاعية من صاحبها الإمبراطور فردريك الثانى ، صديق السلاطين الأيوبيين ، وهو لا يزال على قيد الحياة ، ومن المستحيل النزول عن أية واحدة منها إلى أية سلطة أخرى إلا بإذنه ، وهو مالا يريد السلطان تورانشاه أن يطلبه من الإمبراطور فردريك

نفسه ، احتراماً للصداقة الفردريكية الكاملية القديمة . ولذا انتقل المندوبون عن السلطان تورنشاه إلى إحاطة كونت بريتانى برغبة سلطانية ثانية ، وهى تسليم القلاع والمدن التابعة لهيئتى الفرسان الداوية والاسبتارية بفلسطين . لكن الكونت أجاب باستحالة ذلك كذلك ، لأن طائفتى الفرسان الداوية والاسبتارية هيئتان دينيتان مستقلتان بشئونهما تمام الاستقلال ، وليس لأحد عليهما من سلطان سوى عهودهما الديرية الدينية ، بالمحافظة على ممتلكاتهما من الضياع أو التلف ، حتى الموت .

وهكذا أسفر التبليغ السلطانى الأول والثانى عن لاشىء ، وخرج مندوبو تورانشاه من الخيمة البارونية الصغيرة ، بعد أن هددوا كبار البارونات الصليبيين تهديداً فيه إشارة غامضة إلى القتل بالسيوف وشيكاً . ولم يكد المندوبون عن السلطان تورانشاه يخرجون من هذه الخيمة الصغيرة حتى دخل على كبار البارونات الصليبيين عدد من العساكر المصرية الأيوبية ، وكل منهم سيفه فى غمده ، معلّق فى وسطه ، ويتقدّمهم شيخ عجوز جلله المشيب . وتكلم الشيخ العجوز ، فقال لكبار البارونات فى سخرية إنهم جند صليبيون مسيحيون ، وإن المسيح عليه السلام مات بزعمهم على الصليب ، ومن أجلهم ، وإنهم جاءوا للحرب فى سبيل الدين ، وإنهم سوف يموتون فى ذلك السبيل بسيوف جند السلطان ، فلا ينبغى لهم أن يخافوا أو يحزنوا لهذه الخاتمة الطيبة[1] . وظنّ كبار البارونات الصليبيين أن الساعة اقتربت ، ولا ريب ؛ لكن الشيخ العجوز لم يلبث أن انصرف عن الخيمة الصغيرة ،

---

(١) انظر اللوحة التوضيحية رقم ٣ ، بين صفحتى ٢٠٨ ، ٢٠٩ ، حيث يبدو الشيخ العجوز الأشيب عارى الرأس ، قصير القامة ، طويل اللحية والشارب ، متكئاً على عكازين ، وهو يشير بيده إلى مندوبى الصليبيين . ووراء الشيخ العجوز الأشيب جماعة الجند من القوات المصرية الأيوبية ، وهم بملابسهم الحربية ، وبأيديهم سيوفهم الثقيلة عارية مستندة إلى أكتافهم ، لا فى أغمادها ، كما بالمتن المستمدّ هنا من جوانفيل (Op. Cit. p. 183) ، على حين وقف مندوبو الصليبيين من الأسرى بغير شىء من السلاح أو الملابس الحربية ، كما هو منتظر .

ووراءه عساكره ، وسيوفهم فى أغمادها ، دون أن يحدث لكبار البارونات الصليبيين شيئاً . وبعد هنيهة عاد مندوبو السلطان تورانشاه بتبليغ ثالث جديد كل الجدة ، ومن ناحية غير منتظرة ، وهو أن الملك لويس التاسع قرّر ، بعد مفاوضات طويلة مع مندوبى السلطان تورانشاه ، أن يفتدى جميع الأسرى من كبار البارونات الصليبيين ، المحليين منهم والأوربيين سواء ، بمبلغ عظيم من ماله الخاص ، وأنه يرغب فى حضور أربعة منهم إليه ، لسماع هذا الخبر . وذهب أولئك الأربعة صحبة المندوبين عن السلطان تورانشاه إلى دار ابن لقمان ، حيث علموا من الملك لويس أنه استقر رأيه أخيراً على هذا القرار ، بعد مفاوضات شبيهة بمفاوضات مندوبى السلطان مع كبار البارونات أنفسهم سابقاً .

أما بداية مفاوضات السلطان تورانشاه مع الملك لويس التاسع ، فكانت بعد أن عين السلطان أحد رجاله القدماء ، وهو الطواشى صبيح المعظمى ، ليقوم على حاجات الملك لويس التاسع وأخويه فى معتقلهم ، وليكون كذلك وسيطاً موثوقاً به ، مؤتمناً على أسرار ما سوف يجرى عاجلاً من مساومات بين الملك والسلطان ، فى سبيل تسوية عامة . واشتهر الطواشى صبيح المعظمى ، منذ قيامه فى خدمة تورانشاه أيام ولايته بحصن كيفا ، بأنه ديبلوماسى ناجح ، وربما كان هو الذى أشار على السلطان تورانشاه بإرسال خلعات الشرف الثمينـــة إلى الملك لويس التاسع وأخويه وكبار باروناته ، للدلالة على اعتزام السلطان حسن معاملتهم وإكرامهم جميعاً . غير أن الملك لويس رفض دون أخويه وجميع كبار البارونات أن يلبس الخلعة السلطانية المرسلة إليه ، خشية أن يحسب ذلك عليه بأنه اعتراف منه بتبعية للسلطان تورانشاه ، وقال ما معناه ، نقلاً عن المؤرخ ابن تغرى بردى : " إن بلادى بقدر بلاد صاحب مصر ، كيف ألبس خلعته ؟ " . ثم أعدّ السلطان تورانشاه وليمة عظيمة لليوم التالى من بداية المفاوضات ، ودعا

إليها الملك لويس وأخويه وباروناته ، فامتنع الملك لويس من حضورها ، وقال ما معناه ، نقلاً عن المؤرخ ابن تغرى بردى كذلك : " أنا ما آكل طعامه ، وما يحضرنى إلا ليهزأ بى [أمام] عسكره . ولا سبيل إلى هذا "(١) . وهكذا دلّ الملك لويس التاسع على كبرياء ليس من المسيحية أو القداسة فى شىء ، ولا سيما بعد أن غدا مسئولا عن أرواح أعداد كبيرة من الأسرى ، مما تتطلب منه قسطاً كبيراً من اللباقة والكياسة والرضى بالأمر الواقع ، وكان له قدوة حسنة ناجحة فى سلوك فخر الفروسية الأوربية قبله ، وهو رتشارد قلب الأسد ملك إنجلترا ، وفى مرونة أعظم أباطرة العصور الوسطى مكانة فى التاريخ ، وهو فردريك الثانى هو هنشتاوفن إمبراطور الدولة الغربية .

ومع هذا أرسل السلطان تورانشاه مندوبيه ، إلى الملك لويس التاسع ، مرة أخرى ، ليعرف منه مدى قبوله لمبدأ النزول عن إمارات الصليبيين المحليين ومدنهم وقلاعهم بفلسطين ، أو تسليم مدن طائفتى الفرسان الداوية والاسبتارية ، كما حدث فى مفاوضاته السابقة مع كبار البارونات الصليبيين . ورفض الملك لويس هذين الاقتراحين رفضاً قاطعاً ، دون أن يحيطه أحد بما أجاب به بطرس كونت بريتانى فى هذا الصدد ، لعدم اتصاله بالبارونات الصليبيين إلا عن طريق الطواشى صبيح المعظمى ، ولتحديد إقامته بدار ابن لقمان لا يبرحها وهو مقيّد فى رجله بقيد من حديد ، فلما هدده مندوبو السلطان تورانشاه باحتمال تعذيبه بوضع رجليه فى المعصرة ، وربما وصفوا له ما المعصرة وآلام التعذيب بها ، أجابهم بأنه بطبيعة الحال سجين فى أيديهم ، وفى مقدورهم أن يوقعوا به من ألوان التعذيب ما يشاءون .

---

(١) انظر ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة — طبعة القاهرة — ، ج ٦ ، ص ٣٦٦ ، حيث توجد أخبار إنعام السلطان تورانشاه بهذه الخلعة على الملك لويس ، وما تلاها من دعوة للطعام .

وأدرك السلطان تورانشاه أن التهديد لن يجدى شيئاً فى هذا الملك العنيد ، فأرسل إليه مندوبيه باقتراح مختلف ، ومحوره أن يتعهد الملك لويس التاسع بدفع مبلغ معيّن من المال ، فى سبيل إطلاق سراحه ، مع الإفراج عن أخويه وباروناته جميعاً ، باعتبارهم جزءاً منه ، بالإضافة إلى الجلاء الناجز براً ونهراً عن دمياط والسواحل المصرية . ورضى الملك لويس بهذه القاعدة وشروطها ، ثم وافق من فوره فى جلسة تالية على المبلغ الكبير الذى حدده السلطان تورانشاه من باب التعجيز ، لأداء للفدية المطلوبة ، وهو مليون بيزنطية ذهبية ، أى مائتين وخمسين ألفاً (ربع مليون) من النقود الذهبية الإمبراطورية المتوّجة ؛ وهذه النقود الإمبراطورية الذهبية المتوّجة هى ما اتفق الطرفان على أن يتمّ الدفع بها ، وذلك فضلاً عن الجلاء السريع التامّ عن دمياط والسواحل المصرية .

ولم يشأ الملك لويس التاسع أن يجادل فى هذا المبلغ ، لئلا يظهر أمام السلطان تورانشاه بمظهر العاجز القليل المال ، بل اكتفى بطلب تعديل الاتفاق شكلاً فقط ، لا موضوعاً ، بحيث يكون مبلغ الفدية كله مخصصاً لإطلاق سراح الأسرى من كبار البارونات ، فضلاً عن الأخوين الملكيين شارل كونت آنجو وألفونسو كونت بواتييه ، وأن يكون الجلاء عن دمياط والسواحل المصرية هو الفدية الملكية ، لأن الملوك لا ينبغى أن يوزنوا بمال ، أو يشتروا بذهب أو فضة . وأعجب السلطان تورانشاه بهذه المقالة ، وما فيها من دبلوماسية وكياسة حريصة على الكرامة الملكية ، وقرر ألا يكون متخلفاً فى هذين المضمارين ، فقال فى وصف الملك لويس التاسع ما نصه ، نقلاً عن جوانفيل : " هذا والله فرنجى عظيم ، لم يساوم أية مساومة فى مبلغ الفدية على ضخامته "[1] . ثم أمر السلطان تورانشاه مندوبيه بالعودة إلى دار ابن لقمان ، لتبليغ الملك لويس بأن السلطان

---

(١) انظر (Joinville : Op. Cit. p. 187) .

نزل عن خمسين ألفاً من النقود الذهبية الإمبراطورية ، أى أن الفدية المطلوبة نزلت إلى مائتى ألف فقط من تلك النقود .

وجرت هذه المباريات المالية والسلطان تورانشاه فى فارسكور ، والملك لويس التاسع لا يزال معتقلاً بدار ابن لقمان بالمنصورة ، ومعه أخواه وكبار الأسرى من البارونات الصليبيين فى مواضعهم المخصصة لهم . ذلك أن السلطان تورانشاه انتقل إلى فارسكور بعد الانتصار المصرى الأيوبى فى البر والنهر ، وابتنى بها مساكن وأبراجاً عسكرية سلطانية من الخشب ، بالإضافة إلى خيام ودهاليز من القماش . وأقام السلطان تورانشاه بهذه المساكن العسكرية بفارسكور ، ليكون على مقربة من دمياط والحوادث المستقبلة ؛ وربما بنيت هذه المساكن السلطانية فى موضع مسجد المسيرى المطل على النيل فى مدينة فارسكور الحالية . وفى يوم ما ، والسلطان تورانشاه فى انتظار الخطوة التالية بشأن الفدية والهدنة والتسليم الصليبى العام ، وصل إليه من عند الملك لويس التاسع رسالة فيها طلب بالإذن لعدد من كبار الأسرى الصليبيين ، بينهم جوانفيل ، للذهاب فى أربع سفن مصرية أيوبية إلى دمياط ، لإذاعة شروط الهدنة وتفاصيلها ، والتسليم وتاريخه ، ولإحاطة الملكة مرجريت البروفنسالية برغبات زوجها الملك لويس التاسع بشأن جمع مال الفدية . وهنا قرّر الملك لويس مرة أخرى أن ينزل عما تبقى من كبريائه الدينى العسكرى القديم ، إذ وافق أخيراً فى رسالته هذه على الذهاب بنفسه إلى فارسكور ، ليكون رهينة عند السلطان تورانشاه ، حتى يتمّ تسليم دمّياط ، فى يوم السبت ٣٠ أبريل سنة ١٢٥٠ م ، الموافق ٢٦ المحرم سنة ٦٤٨ هـ[١] .

وعلى الرغم من عدم ورود أية إشارة صريحة إلى هذا القرار الملكى ، فيما كتب جوانفيل فى ذلك الصدد ، فالمعروف من سياق كتابته أن الملك

---

(١) انظر (Joinville : Op. Cit. p. 187) .

لويس التاسع ترك دار ابن لقمان صحبة كبار الأسرى من البارونات الصليبيين الذاهبين إلى دمياط ، وأنه أبحر معهم فى إحدى السفن المصرية الأيوبية الأربع إلى فارسكور . ثم إن هذه السفن وقفت ساعة أو بعض ساعة عند فارسكور ، لأجل نزول الملك لويس إلى البر .

وهناك سنحت الفرصة للمؤرخ جوانفيل أن يشهد عن كثب مساكن السلطان تورانشاه وملحقاتها ، ومكان الضيافة الذى أعده السلطان خصيصاً لإقامة الملك لويس التاسع رهينة عنده . ورأى جوانفيل أول ما رأى من هذا المساكن السلطانية وملحقاتها برجاً عالياً ، مكوّناً من أعمدة من خشب الصنوبر ، وهذا البرج بمثابة الباب الخارجى للمسكن السلطانى الخاص ، وبجواره خيمة يذهب إليها أمراء المماليك أرباب السيوف لخلع سيوفهم وأسلحتهم ، قبل الدخول إلى الحضرة السلطانية . وظهر وراء هذه الخيمة برجٌ ثان مثل الأول ، وهو الباب الداخلى الذى يؤدى مباشرة إلى خيمة عالية هى الدهليز السلطانى الكبير ، حيث استقبل السلطان تورانشاه أمراء المماليك وكبار موظفى الدولة ورجال الحكم . ومن وراء هذا الدهليز الكبير ظهر برجٌ ثالث ، مثل الأول والثانى ، وهو يؤدى إلى المسكن السلطانى الخاص . وهذا المسكن السلطانى الخاص مطل على حوش واسع ، يليه برجٌ رابع ، وهو أعلى الأبراج جميعاً ، وأبعدها مسافة عن شاطىء النيل ، ومنه أشرف السلطان تورانشاه على هذه المساكن السلطانية وما حولها من أرض الريف . وامتد من هذا الحوش الواسع طريق خاص إلى شاطئ النيل ، حيث أقيمت خيمة صغيرة لاستحمام السلطان تورانشاه . وكانت هذه المساكن السلطانية الخشبية كلها مصنوعة من الخشب المعرّش على الطريقة المعروفة فى مصر باسم البغدادلى ، وفوق الخشب قماش أزرق يحجب





صورة لمندوب الأسرى الصليبيين ، وهم يستمعون إلى أحد مندوبي السلطان توران شاه ، وهو يشرح لهم شروط [illegible]
لإطلاق سراحهم من الأسر ، وهذا المندوب السلطاني شيخ عجوز أشيب ، يمشي على عكازين ، ووراءه مجموعة من جند الفرق المصرية الأيوبية
والصورة منقولة من (Lacroix : La Chevelarie et les Croisades. p. 189) وهي مأخوذة أصلاً من مخطوطة (Credo de Joinville).

داخل هذه المساكن عن الأنظار ، كما كانت الأبراج الأربعة مكسوّة كذلك بقماش أزرق ملوّن[1] .

وأرست السفن المصرية الأيوبية الأربع ، قبالة هذه المساكن السلطانية ، ونزل الملك لويس التاسع من إحداها إلى خيمة الضيافة ، المقابلة للمسكن السلطانى الخاص ، وكان ذلك يوم الخميس ٢٨ أبريل سنة ١٢٥٠ م ، الموافق ٢٤ المحرم سنة ٦٤٨ هـ . وعلى هذا تكون مدة إقامة الملك لويس التاسع ، بدار ابن لقمان بالمنصورة ، اثنين وعشرين يوما ، وهى المدة التى استغرقتها المفاوضات السابقة بين مندوبى السلطان تورانشاه ومندوبى الملك لويس . أما ميعاد تسليم أدمياط ، فاتفق الطرفان على أن يكون ذلك بعد يومين اثنين من هذا التاريخ ، كما اتفقا على أن تتم عملية التسليم مع إطلاق سراح الملك لويس ، فى وقت واحد .

وبديهى أن هذه المفاوضات لم تدخل فى حسابها مصير عامة الأسرى الصليبيين ، من العسكر والصناع والسوقة ، وعدتهم فى تقدير جوانفيل عشرة آلاف ، وفى المخطوطة الروتلانية اثنا عشر ألفاً ، وفى ابن تغرى بردى نيف وعشرون ألفاً ، وفى المقريزى مائة ألف . وهذه أرقام أصغرها كبير ، بالنظر إلى حروب العصور الوسطى ، وأقربها إلى الصحيح على أية حال تقدير جوانفيل ، لكونه شاهد عيان فى الميدان ، مع التجاوز له عن بعض المبالغة المتعمدة فى تقديره ، من باب التهويل فى مدى الخسائر الصليبية ، فى كثير من المناسبات . ولم يكن عجباً أن يضيق السلطان الأهوج تورانشاه بهذه الأعداد الكبيرة من عامة الأسرى الصليبيين ، وأن يؤدى به هوجه إلى التخلص فوراً من العاجزين عن الحركة والضعفاء منهم ، بالقتل والرمى فى النيل . غير أن هذه الوسيلة لم تؤد إلى النتيجة المطلوبة ، ولذا عمد تورانشاه إلى خطة للتخلص من كافة

---

(١) انظر (Joinville : Op. Cit. p. 189) .

أولئك الأسرى من العساكر الصليبية ، فى جماعات ما بين ثلاثمائة وأربعمائة ؛ ليلة بعد ليلة ، على يد رجل من أغلظ المخلوقات الأراذل الذين جاءت بهم المقادير فى حاشية تورانشاه ، من حصن كيفا ، واسمه سيف الدين يوسف الطورى[1] . على أن السلطان تورانشاه لم يكن وحيد العصور الوسطى فى ارتكابه لهذه الفعلة ، إذ سبقه إلى مثلها أو أشنع منها رتشارد قلب الأسد ، ملك إنجلترا ، حين أمر بذبح جميع الأسرى المسلمين الذين وقعوا فى يده من حامية عكا ، أيام السلطان صلاح الدين الأيوبى ، وعدتهم ألفان وسبعمائة ، كما أمر بذبح زوجاتهم وأطفالهم على مقربة من جثثهم ، لا لسبب سوى أنه ضاق بهذه الأعداد الكبيرة قبيل زحفه نحو مدينة بيت المقدس[2] . ومع هذا فلامناص لمؤرخ يحترم صناعة التاريخ التى ينتسب إليها ، من التنديد الشديد بفعلة خالية من صفات الرحمة أو الشجاعة ، وهى فعلة يتحمل مسئوليتها تورانشاه ونصحاء السوء الذين جاءوا معه من حصن كيفا ، وكانوا هم السبب فى سقوطه العاجل السريع ، فيما بعد .

أما كبار الأسرى الصليبيين الذين ذهبوا إلى دمياط ، فى السفن المصرية الأيوبية ، لترتيب شئون التسليم ، فوجدوا الملكة مرجريت البروفنسالية غارقة فى بحر من مشاكل متزاحمة ، وليس يوجد حولها من رجال الدولة سوى شيخ عجوز من رجال الدين ، ناهز الثمانين من العمر ، وهو جاى الخامس بطرق بيت المقدس . وكانت الملكة مرجريت حاملاً غير بعيدة الموعد للولادة ، حين بدأ الملك لويس التاسع زحفه من دمياط نحو المنصورة . ثم ولدت الملكة طفلاً ذكراً ، بعد ثلاثة أيام من وصول الخبر إليها بوقوع زوجها أسيراً فى قرية ميت الخولى عبد الله ، ووقوع الهزيمة المزدوجة على الصليبيين فى البر والنهر ؛ ولذا سمّت الملكة مرجريت مولودها

---

(١) انظر المقريزى : كتاب السلوك - نشر زيادة - ج ١ ، ص ٣٥٦ ؛ وابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة - طبعة القاهرة - ج ٦ ، ص ٣٦٦ .

(٢) انظر (Runciman : Op. Cit. II. p. 353) .

باسم جان تريستان ، أى حنا وليد الأحزان . وعلمت الملكة مرجريت وقتذاك أن زعماء الجاليات الإيطالية من البيازنة والجنوية ، يستعدّون للرحيل سريعاً عن دمياط ، وهم أصحاب التجارة والمال وشئون التموين بها ، منذ وصول حملة الملك لويس التاسع إلى الشواطئ المصرية . واتخذ البيازنة والجنوية هذا القرار ، لأنهم خشوا ما سوف يحيق بهم من غرامات الهزيمة الصليبية ، وقلة المواد الغذائية بين الصليبيين بدمياط ، وانتشار الجوع والأمراض بين عامة السكان . واستدعت الملكة مرجريت زعماء هـــذه الجاليات ، وأخبرتهم بما وصل إلى علمها من شروط الهدنة والتسليم ، وشرحت لهم أن رحيلهم عن دمياط ، فى تلك الأيام الحرجة ، سوف يحرم الملك لويس التاسع من عناصر الاستقرار المالى التى لا بدّ له من الاطمئنان إليها ، ليقوم بما وعد بتقديمه سريعاً للجانب المصرى الأيوبى من أموال الفدية ، مقابل إطلاق سراحه وسراح أخويه وباروناته من الأسر . ولذا استقرّ الرأى أخيراً بين البيازنة والجنوية ، على البقاء بدمياط ، بعد أن وافقت الملكة مرجريت على أن تشترى منهم بأثمان عالية جميع المواد الغذائية التى لديهم ، وأن تشرف هى على توزيع هذه المواد الغذائية ، بما تراه لذلك من أثمان مخفضة ، منعاً للاضطراب فى الأيام المقبلة ؛ ودفعت الملكة مرجريت من أجل ذلك الاتفاق مبلغ ثلاثمائة وستين ألف قطعة ذهبية ، إمبراطورية متوّجة ، وهو مبلغ أربى كثيراً عن مال الفدية المطلوبة :



الفصل السابع

جلاء الصليبيين عن دمياط

جاء فى التاريخ المعاصر الذى ألّفه سبط ابن الجوزى ، وعنوانه " مرآة الزمان وتاريخ الأعيان " ، أن السلطان تورانشاه بعث بأخبار هزيمة الملك لويس التاسع ، ووقوعه أسيراً بقرية منية الخولى عبد الله ، فى رسالة رسمية طويلة ، إلى الأمير جمال الدين بن يغمور ، نائب السلطنة بدمشق ، ونصها بعد البسملة : " الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن ، وما النصر إلا من [عند] الله ، ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ، ينصر من يشاء وهو العزيز الحكيم . وأما بنعمة ربك فحدّث ، وإن تعدّوا نعمة الله لا تحصوها . نبشّر المجلس السامى الجمالى ، بل نبشّر الإسلام كافة ، بما منّ الله به على المسلمين من الظفر بعدوّ الدين ، فإنه قد كان استفحل أمره ، واستحكم شرّه ، وأيس العباد من الأهل والأولاد ، فنودوا لا تيأسوا من روح الله ، إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون . ولما كان يوم الأربعاء مستهلّ السنة المباركة ، تمّم الله على الإسلام بركتها ، فتحنا الخزائن ، وبذلنا الأموال ، وفرّقنا السلاح ، وجمعنا العربان والمطوّعة . واجتمع خلق كثير لا يحصيهم إلا الله تعالى ؛ وجاءوا من كلّ فج عميق ، ومن كلّ مكان بعيد سحيق . ولما رأى العدو ذلك أرسل يطلب الصلح ، على ما وقع الاتفاق عليه بينهم وبين الملك الكامل ، فأبينا . ولما كان فى الليل تركوا خيامهم وأثقالهم وأموالهم ، وقصدوا دمياط هاربين . فسرنا فى آثارهم طالبين ، وما زال السيف يعمل فى أدبارهم عامة الليل ، وقد حلّ بهم الخزى والويل .

فلما أصبحنا نهار الأربعاء قتلنا منهم ثلاثين ألفا ، غير من ألقى نفسه فى اللج ؛ وأما الأسرى فحدث عن البحر ولا حرج . والتجأ الفرنسيس إلى المنية ، وطلب الأمان فأمناه ، وأخذناه وأكرمناه . وتسلمنا [٥] بعون الله وقوته ، وجلاله وعظمته "(١) .

وبعث السلطان تورانشاه مع هذه الرسالة ، إلى الأمير جمال الدين بن يغمور ، بعض الملابس العسكرية الخاصة بالملك لويس التاسع ، لعرضها بدمشق على الناس ، من باب البشرى بذلك الانتصار العظيم . وكانت هذه الملابس الملكية تشتمل على معطف أحمر يسمى الغفارة ، فى مصطلح ذلك العصر ، وسترة قرمزية اللون تسمى أشكرلاط ، نسبة إلى لونها القرمزى ، وهى مبطنة بفرو سنجاب ، وفى رقبتها حلية ذهبية اسمها بكلة ، وهى كلمة أجنبية معناها مشبك . ولبس الأمير جمال الدين بن يغمور هذه الملابس ، ورآه المؤرخ أبو شامة وهو يحتفل بعرضها هكذا على الحاضرين من الناس ، فى احتفال كبير بدار النيابة بدمشق ، وذلك يوم الأربعاء ١٦ محرم سنة ٦٤٨ هـ ، الموافق ٢٠ أبريل سنة ١٢٥٠ م ، أو يوم الخميس التالى لذلك التاريخ(٢) .

ولا بد أن احتفالات مشابهة — على الأقل — قامت قبل ذاك بالمنصورة والقاهرة وفارسكور ، لكنها كانت كلها — فيما يبدو — احتفالات مشوبة بكثير من القلق ، بسبب سلوك السلطان تورانشاه نحو جميع الشخصيات التى حفظت له عرش أبيه من الضياع ، وجلبت النصر للجيوش المصرية الأيوبية على الصليبيين . ذلك أن تورانشاه أوضح

---

(١) سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان — طبعة حيدر أباد ، ج ٨ ، ص ٨٧٨ — ٨٧٩ . انظر كذلك المقريزى (كتاب السلوك — نشر زيادة — ج ١ ، ص ٣٥٦ — ٣٥٧) ، وغيره من المراجع المتداولة فى هذه الحواشى ، حيث توجد هذه الرسالة بنصها كما هنا ، تقريباً .

(٢) أبو شامة : الذيل على الروضتين ، ص ١٨٤ .

بأعماله ، منذ وصوله إلى دمشق من حصن كيفا ، أنه لا يأتمن أحداً من أهل الدولة بالمنصورة أو القاهرة ، وأنه سوف يقلب لهم جميعاً ظهر المجن ، ليحاسبهم حساباً عسيراً على ما لديهم من أموال هى فى نظره أمواله بعد أبيه . ولذا أقام تورانشاه بدمشق سبعة وعشرين يوما ، أنفق فيها ما كان بالخزائن الدمشقية والكركية من الأموال والخلع السلطانية على الأمراء القيمرية الأكراد ، ليستميلهم إلى جانبه ضد أمراء مصر ، ومعظم هؤلاء من المماليك الأتراك ، منذ أنشأ السلطان الصالح أيوب فرقة المماليك البحرية الصالحية . وعند ما وصلت الأخبار إلى مصر بوصول تورانشاه إلى مدينة بيت المقدس ، غادرت شجر الدر مدينة المنصورة إلى القاهرة ، اجتناباً لمقابلته ، بعد أن علمت بعض نواياه[1] . ثم وصل السلطان تورانشاه أخيراً إلى مدينة المنصورة ، فتلقاه رجال الدولة وقادة الجيش بما يليق به من حفاوة واحترام ، وسلّموه مقاليد الحكم والقيادة الحربية ، وتمنوا نيل الانتصار الحربى النهائى على يده .

غير أن السلطان تورانشاه لم يلبث أن حقق جميع مخاوف زعماء الدولة ، لشدّة هوجه ورعونته وخفة عقله ، إذ بادر إلى الاستيلاء على أملاك الأمير فخر الدين يوسف بن شيخ الشيوخ وموجوده ومماليكه ، بنصف القيمة ، دون أن يعطى الورثة شيئاً ، سوى ما رمى به الأمير فخر الدين من طموح غادر وقلة مروءة . وأعقب تورانشاه ذلك بأن بعث إلى الأميرة شجر الدر يهددها ، ويطلب ما عندها من الأموال والجواهر ، كما تنكر لفارس الدين أقطاى الذى ذهب بتعليماتها لإحضاره من حصن كيفا ، بأن أغفل الوفاء له بالوعد بتأميره وتعيينه على نيابة الإسكندرية . ثم ذهب السلطان تورانشاه إلى فارسكور ، وأقام بها مساكنه السلطانية

---

(١) سبط ابن الجوزى : نفس المرجع ، ج ٨ ، ص ٧٨٢ .

التى تقدم وصفها ، واستدعى إليه الأمير حسام الدين بن أبى على الهذبانى من القاهرة ، وأعفاه من نيابة السلطنة ، وهو صاحب الأفضال الكبيرة عليه . وولى تورانشاه بدل الأمير حسام الدين الأمير أقوش التجيبى ، فذهب الأمير أقوش إلى القاهرة لاستلام مهام وظيفته ، على حين ظلّ الأمير حسام الدين بفارسكور ، مهملاً مُطَرّح الجانب .

وحسب السلطان تورانشاه أن الصمت الذى قوبلت به هذه الإساءات العديدة صادرٌ عن خوف من بطشه ، فأخذ يمعن فى هذه الإساءات يميناً وشمالاً ، بأن عزل رجال الدولة القدماء عن وظائفهم واحدا بعد آخر ، من أتراك وأكراد سواء ، وأحلّ محلهم فيها رجالاً من بطانته المختلطة التى جاءت معه من حصن كيفا ، أمثال يوسف الطورى ، وقاضى حصن كيفا الذى لم تهتم المراجع لذكر اسمه ، وأمثال الطواشى صبيح المعظمى الذى وكل إليـــه تورانشاه أموره كلها ، على قول ابن واصل ؛ ثم زاد السلطان تورانشاه الطين بلة ، حين بدأ مفاوضاته واختتمها مع الملك لويس التاسع ، على يد الطواشى صبيح المعظمى ، ولم يستشر فى ذلك أحدا من الذين اشتركوا سابقاً فى هذه المفاوضات ، بعد أن أصبحوا فى نظره بعيدين رسمياً عن شئون الحكم . وهكذا فضّل السلطان تورانشاه أن يعتمد على قوم وصفهم ابن واصل بأنهم لا خلاق لهم ، دون قوم هم على أية حال أرباب خبرة ودراية بشئون الحكم فى مصر ، فضلاً عن أنهم أصحاب أحقية واضحة فى المشاركة فى جنى ثمرات النصر على الصليبيين ، لأنهم هم الذين جاءوا للدولة المصرية الأيوبية بمعظم ذلك النصر العظيم .

وبينما تتطور الحال من سيء إلى أسوأ ، بين السلطان تورانشاه والقدماء من رجال دولته فى فارسكور ، جاء إلى هذه المدينة جماعة كبار الأسرى الصليبيين ، وهم الذين ذهبوا سابقاً إلى دمياط ، بإذنٍ من تورانشاه ، فى أربع سفن

حربية مصرية أيوبية ، للقيام نيابة عن الملك لويس التاسع ، بتبليغ شروط الهدنة ، ومواعيد التسليم الصليبي ، والجلاء عن الأراضى المصرية ، وغير ذلك من التفاصيل التى تمّ الاتفاق عليها بين الطرفين . وتألفت هذه الجماعة من بطرس كونت بريتانى ، ووليام كونت فلاندر ، وجاى كونت إبلين ، والمؤرخ جوانفيل ، وغيرهم من البارونات الصليبيين الأوربيين والمحليين ، لضمان تبليغ شروط الهدنة ، ومواعيد التسليم والجلاء ، إلى مختلف الطوائف الصليبية المقيمة بدمياط ، من حاميات عسكرية ، وجاليات تجارية إيطالية . فلما عاد أولئك البارونات إلى فارسكور ، يوم الخميس ٢٨ أبريل سنة ١٢٥٠ م ، الموافق ٢٤ المحرم سنة ٦٤٨ هـ ، أرست بهم السفن الحربية المصرية الأيوبية ، على مقربة من خيمة الضيافة التى أقام بها الملك لويس التاسع ، قبالة المساكن السلطانية ، تمهيداً لاشتراكها جميعاً فى القافلة النهرية الكبيرة ، وهى القافلة التى سوف يتصدّرها السلطان تورانشاه إلى دمياط ، للاحتفال بالجلاء الصليبي التام عن الشواطئ المصرية ، بعد إطلاق سراح الملك لويس التاسع وأخويه وباروناته من الأسر ، وذلك يوم السبت ٣٠ أبريل سنة ١٢٥٠ م ، الموافق ٢٦ محرم سنة ٦٤٨ هـ .

غير أن السلطان تورانشاه كان على موعدٍ مع المأساة التى حفر هاويتها بنفسه لنفسه ، منذ اطّرَح الزعماء القدماء من رجال دولته ، إذ تآمر عليه كلّ أولئك الزعماء ، وانضم إليهم أمراء فرقة المماليك البحرية الصالحية — وهم حرسه الخاص فى الليل والنهار — ، وقرروا جميعاً فيما بينهم أن يتخلصوا منه بالقتل ، قبل أن يتخلص هو منهم بما هو أسوأ من القتل ، مما سوف يرتّبه نصحاؤه لهم من أنواع الاتهام ووسائل التنكيل والإذلال ، أو الاغتيال . ولذا امتلأ الجوّ فى فارسكور بوجوم عميق ، وخيّم على أرجاء المدينة سكون مناقض لما كان منتظراً من مظاهر الابتهاج والزينة ، لقرب تسليم دمياط والجلاء الصليبي عن الأراضى المصرية . وبقى البارونات الصليبيون فى السفن

الأربع حائرين ، لا يدرون ما عسى أن تأتى به المقادير ، كما بقى الملك لويس التاسع فى خيمة الضيافة السلطانية ، فى انتظار أوامر السلطان تورانشاه . وهكذا جاء وانتهى يوم ٣٠ أبريل واليوم التالى له ، وكل فئة من فئات العسكريين والمدنيين بمدينة فارسكور ، فى شغل بما حولها من ريبة وغموض ، وحيرة وجمود .

وفى عصر يوم ٢ مايو سنة ١٢٥٠ م ، وهو يوم الاثنين ٢٨ محرم سنة ٦٤٨ هـ ، جلس السلطان تورانشاه إلى مائدة الطعام (السماط) بالدهليز السلطانى ، على العادة ، وجلس معه بعض أمراء فرقة المماليك البحرية الصالحية ، وهم الذين جرى البروتوكول بجلوسهم حول المائدة السلطانية ، وأولئك فضلاً عن ثلاثة من الأئمة الذين استدعاهم السلطان تورانشاه ، لمناظرته فى مختلف المسائل الفقهية والأدبية التى شغف بالتحدث فيها ، كلما سنحت له فرصة الخلو من الأعمال الحكومية . وانتهى الطعام ، وانتقل السلطان تورانشاه من الدهليز السلطانى إلى مسكنه الخاص المطل على الحوش الكبير ، وأخذ سائر الحاضرين فى ترتيب أنفسهم للاستماع إلى المناظرة السلطانية .

ثم انطلق من هذا المسكن السلطانى الخاص صريخٌ عالٍ ، مصدره السلطان المعظم تورانشاه نفسه ، إذ بغته أحد أمراء النوبة (النوبتجية) المكلفين بحراسته ذلك اليوم ، وهو الأمير ركن الدين بيبرس البندقدارى ، وضربه بالسيف ضربة كادت تطير يده عن ذراعه . وأدرك السلطان تورانشاه أن هذه الضربة بداية لمؤامرة دموية مدبّرة ، فأسرع إلى البرج الخشبى المجاور للدهليز السلطانى ، حيث ضمّد الجرائحيون جرح يده ، وهو يتوعّد الجانى وشركاءه بالقتل . وهناك دخل عليه ركن الدين بيبرس البندقدارى ، وفارس الدين أقطاى ، وغيرهما من أمراء المماليك البحرية الصالحية ، وهم شاهرون سيوفهم ، وقلوبهم مشتعلة بشرٍ خافٍ عن الأنظار .

وأحسّ السلطان تورانشاه بما هو فيه من الموت القريب قتلاً بالسيوف ، فهرب إلى أعلى البرج الخشبي ، وأخذ في الاستغاثة ، ولا مغيث ؛ ثم أشعل أمراء المماليك النار في هذا البرج ، كما أخذوا في الرمي على تورانشاه بالنشاب من كل ناحية . وظنّ تورانشاه أن باستطاعته النجاة إلى إحدى السفن الأربع ، أو غيرها من السفن الراسية بالنيل ، فقفز من البرج إلى الأرض ، لكنه وجد الأمير فارس الدين إقطاى واقفاً له بالمرصاد . وتعلّق السلطان تورانشاه بملابس الأمير فارس الدين إقطاى ، واستجار به ، فلم يجرْه ، بل دفعه بعيداً عنه . وعند ذلك حاول السلطان تورانشاه أن يصل إلى الخيمة الصغيرة المخصصة لاستحمامه ، على شاطئ النيل ، فحال أمراء المماليك بينه وبين هذه الخيمة ، بأن حطموا تعاريش الطريق المؤدى إليها ، ورموا السلطان تورانشاه بالنشاب وهو يركض نحوها ركض الهارب من الموت . وأصابه فارس الدين أقطاى بنشابة استقرّت في جنبه ، فعطّلت من سرعته ، لكنه ظل في ركضه ممسكاً بالنشابة في يده الجريحة . وأخيراً استطاع تورانشاه أن يرمى نفسه في النيل ، فسبح فارس الدين أقطاى وراءه ، ولم يجد صعوبة في اللحاق به ، وطعنه بسيفه طعنة أخيرة مميتة ، على مقربة من السفن الأربع التي كانت تنتظر العودة في صحبته إلى دمياط ، لبداية الأفراح والمسرّات والاحتفالات ، وللمساهمة في عملية التسليم والجلاء الصليبي عن دمياط والأراضي المصرية . وهكذا مات السلطان المعظم تورانشاه جريحاً حريقاً غريقاً ، على قول المقريزى ، بعد أن حكم مصر حكماً طائشاً غشوماً ، حوالى شهرين من الزمان .

وعبر أمراء المماليك البحرية الصالحية ، وعلى رأسهم فارس الدين أقطاى ، إلى الخيمة التي انتظر فيها الملك لويس التاسع أوامر السلطان تورانشاه ، وهم يلوّحون في الهواء بسيوفهم الملطخة بالدماء ، من باب الإعلان عن مقتل السلطان التعيس . وظنّ الملك لويس التاسع أن ساعته

اقتربت ، وأن شروط الهدنة والتسليم ذهبت مع السلطان القتيل . غير أن فارس الدين أقطاى طمأنه على حياته ، بل يقال إنه أخبره مازحاً بأن أمراء المماليك يفكرون فى إقامته سلطاناً عليهم ، إذا قام هو من ناحيته باعتناق الإسلام . ولم يكن الملك لويس التاسع فى حالٍ أو موقفٍ يسمح له بمبادلة هذا المزاح بمزاح مثله ، فلم يجب بكلمة .

وفى نفس الوقت صعد إلى السفن المصرية الأيوبية الأربع فئة من المماليك البحرية الصالحية ، وهم مدجّجون بالسيوف والفؤوس الحربية ، وأنزلوا جميع البارونات الصليبيين القابعين بهذه السفن إلى أجوافها ، وأغلقوا عليهم أبوابها ونوافذها ، وتركوهم سجناء بها على هذه الحال ، بعد أن وضعوا الحراسة النهرية الشديدة عليها . وافترش أولئك البارونات أرضية هذه السفن ، وقضوا ليلة مسهدة فى انتظار الذبح الباكر ، فى غير إبطاء أو استثناء . وبات جوانفيل ليلته هذه مؤرقاً ممدّداً ، غارقاً فى خوف شديد ، وقدماه فى وجه بطرس كونت بريتانى ، ووجهه عند قدمى هذا الكونت . ثم عاد أمراء المماليك البحرية الصالحية إلى هذه السفن مبكرين ، صباح اليوم التالى ، أى يوم ٣ مايو ، لا ليذبحوا أحداً ، بل ليخرجوا البارونات جميعاً من سجونهم المائية ، وليطلبوا منهم أن يرسلوا عنهم نواباً لتجديد شروط الهدنة والتسليم والجلاء ، على نسق ما قام به الملك لويس التاسع فى خيمة الضيافة ، بحضرة مفاوضين جديدين ، وعلى رأسهم الأمير حسام الدين محمد بن أبى على الهذبانى ، وهو الذى أدار دفة تلك المفاوضات الجديدة ، نيابة عن أمراء المماليك البحرية الصالحية .

ولم يكن من غرض الأمير أيبك التركمانى ، وهو الذى صار مؤقتاً على رأس الدولة فى فارسكور ، أن يغيّر من الشروط السابقة شيئاً . ولذا انتهى الاتفاق نهائياً بين الأمير أيبك التركمانى والملك لويس التاسع على الشروط التى شرحها الملك لويس نفسه فيما بعد ، فى خطاب مشهور له إلى رعيته

فى فرنسا ، وخلاصتها (أولا) أن يقوم الملك لويس التاسع بتسليم دمياط فدية عن نفسه ، كالاتفاق السابق مع السلطان تورانشاه . (ثانياً) أن يدفع الملك لويس التاسع مال الفدية المقررة عن أخويه وكبار الأسرى من البارونات ، ومبلغه مائتا ألف قطعة ذهبية إمبراطورية ، مسكوكة بصورة التاج الإمبراطورى ، على أن يتم دفع النصف الأول من هذا المبلغ معجلاً ، قبل الرحيل عن الشواطئ المصرية ، ويكون دفع النصف الثانى منه بعد وصول الملك لويس التاسع إلى عكا . (ثالثاً) أن يطلق أمراء المماليك البحرية الصالحية سراح الملك لويس التاسع وأخويه ، وكذلك كبار الأسرى من البارونات الصليبيين مباشرةً وفى آن واحد ، بعد تنفيذ الشرطين السابقين . (رابعاً) أن يقوم الملك لويس التاسع بإطلاق سراح جميع الأسرى الذين عنده من العساكر المصرية الأيوبية ، فضلاً عن الأسرى السابقين الذين وقعوا منهم فى أيدى الصليبيين ، بعد انقضاء أجل الهدنة الكاملية الفردريكية . (خامساً) أن يعمل الملك لويس التاسع على إقرار السلام فى المدن التى لم يزل الصليبيون يحتلونها فى فلسطين . (سادساً) أن يطلق أمراء المماليك البحرية الصالحية جميع الأسرى الصليبيين الذين عندهم من حملة الملك لويس التاسع على مصر ، فضلاً عن جميع الصليبيين الذين عندهم منذ انقضاء أجل الهدنة الكاملية الفردريكية . (سابعاً) أن يقوم أمراء المماليك البحرية الصالحية بالمحافظة على الآلات الحربية والمؤونة والأثقال الصليبية التى سوف يتركها الصليبيون مؤقتاً فى دمياط ، وذلك حتى تحين الفرصة لنقل هذه المواد الحربية وغير الحربية إلى المدن التى لم تزل بأيدى الصليبيين فى فلسطين . (ثامناً) أن يشمل أمراء المماليك البحرية الصالحية بأمانهم جميع المرضى والعجزة ، وجميع المتخلفين بدمياط من الصليبيين المدنيين و أرباب التجارة ، لبيع أملاكهم ومتاجرهم وموجوداتهم بدمياط ، وأن يكون مسموحاً لكل فردٍ من هؤلاء وأولئك بالرحيل براً أو بحراً عن دمياط ، حسب مصلحته الفردية .

وأقسم الطرفان على هذه الشروط ، فحلف أمراء المماليك البحرية الصالحية ، بناء على طلب الملك لويس التاسع ، بأنهم يعاهدون الله على تنفيذها ، وأنهم إذا نقضوا عهدهم فيها صاروا آثمين حانثين ، تجب عليهم فريضة الحج إلى بيت الله الحرام طلباً للمغفرة ، وصارت نساؤهم طالقات ، وصار مثلهم مثل آكل لحم الخنزير من مرتكبي الكبائر . وطلب أمراء المماليك البحرية الصالحية أن يحلف الملك لويس التاسع مقابل هذا اليمين العظيم يميناً مكتوباً مشابهاً ، بأنه إذا أخلف وعده معهم صار بريئاً عن الديانة المسيحية والمعمودية ، منكراً للمسيح والصليب والعذراء ، والحواريين والقديسين والقديسات . غير أن الملك لويس التاسع رفض القسم بهذه الصيغة الخطيرة ، رغم رجاء بعض المفاوضين الصليبيين وإلحاحهم عليه بتأدية هذا اليمين على خطورته ، فى غير تردّد ، من باب التدليل على حسن النية وصدق الرغبة فى التنفيذ .

وجاء وقتذاك إلى فارسكور جاى الخامس بطرق بيت المقدس ، وهو مزوّد بورقة أمان قديم صادرٍ من عند السلطان تورانشاه ، وغرض هذا البطرق معاونة الملك لويس التاسع فى مفاوضاته الجديدة ، مع أمراء المماليك البحرية الصالحية . لكن أمراء المماليك اعتبروا البطرق أسيراً ضمن الأسرى ، لبطلان أمانه وانتهاء مدته بمقتل السلطان تورانشاه ، وأحضروه إلى خيمة الملك لويس التاسع ، لعله يستطيع إقناعه بقبول اليمين المطلوب ، حسب الصيغة المقترحة . ومع هذا استمرّ الملك لويس التاسع فى رفضه ؛ واعتقد أحد أمراء المماليك أن البطرق هو الذى نصح الملك لويس بذلك الاستمرار فى العناد ، واستأذن زملاءه الأمراء من المماليك فى قطع رقبة البطرق ، بضربة سـيف واحدة ، على مرأى من الملك لويس ، وبذا تنهار أعصاب الملك ، ويسرع إلى تأدية اليمين . لكن أمراء المماليك استفظعوا هذه الوسيلة الوحشية ، واكتفوا بربط البطرق إلى عمود خيمة الملك لويس ،

بعد أن أوثقوا يديه إلى ظهره ، وهو كما تقدّم شيخ ناهز الثمانين من العمر . وظلّ البطرق على هذه الحال الأليمة لمدّة ساعات ، ثم لم يلبث أن صاح من شدة الألم ، وأهاب بالملك لويس أن يؤدى أى يمين يطلبه منه أمراء المماليك ، وأنه لا وزر عليه من أية صيغة كائنة ما تكون ألفاظها ، ما دامت نيته منعقدة على الوفاء بالشروط المتفق عليها . وبذا اقتنع الملك لويس ، وأدّى اليمين التى أصرّ عليها أمراء المماليك ، وتخلص البطرق مما لحقه من الإهانة بسببه ، وانحلت العقدة الباقية لبداية الهدنة والتسليم والجلاء .

ثم جرى الاتفاق أن يتمّ تسليم دمياط وإطلاق سراح الملك لويس التاسع وأخويه ، وكبار البارونات الصليبيين ، يوم الجمعة ٢ صفر سنة ٦٤٨ هـ ، الموافق ٦ مايو سنة ١٢٥٠ م . وفى عصر اليوم السابق لهذا التاريخ ، وهو يوم الخميس المعروف باسم عيد الصعود فى الكنيسة الكاثوليكية ، سارت السفن المصرية الأيوبية الأربع إلى دمياط ، ومعها الملك لويس التاسع . وأرست هذه السفن عند جسر السلسلة ، قبالة البرج المعروف بذلك الاسم فى العصر الحاضر ، بالشمال الغربى من دمياط الحالية ؛ وعلى مقربة من هذا الموضع أقيمت خيمة صغيرة لمبيت الملك لويس التاسع . ثم أصبح صباح الجمعة ، فدخل كونت جودفرى سارجين مدينة دمياط ، وسلّمها للمندوبين لذلك الغرض من الجانب المصرى الأيوبى . وسرعان ما ارتفعت ورفرفت أعلام السلطنة المصرية الأيوبية على الأسوار والأبراج الدمياطية ، وحلّت محلّ أعلام الصليبيين التى اغتصبت تلك الأسوار والأبراج منذ أوائل شهر يونية سنة ١٢٤٩ م ، أى مدة أحد عشر شهراً . وقبيل تسليم دمياط بساعات أبحرت الملكة مرجريت البروفنسالية إلى عكا ، ومعها وليدها حنا الأحزان ، وبعض البارونات الصليبيين .

وافتتح الدمياطيون صباح ذلك اليوم المشهود باحتفالات لا مثيل لها فى تاريخ دمياط ، ولا حاجة للمراجع أن تقول هنا للباحث أو لا تقول بأن تلك

الاحتفالات بدأت بعودة جامع دمياط الكبير إلى سيرته الأولى ، بعد أن ظل كتدرائية كاثوليكية ، طول إقامة حملة الملك لويس التاسع فى الأراضى المصرية ، أى مدة سنة تقريباً (١). والواقع أن افتتاح هذه الاحتفالات بعودة جامع دمياط الكبير إلى أصله كان أمراً بديهياً ، وربما أغفل المؤرخون ذكره لبداهته ؛ وربما ولنفس السبب لم تشرح المراجع ما امتلأت به دمياط ، منذ صبيحة ذلك اليوم العظيم ، من مواكب الطوائف الدينية ، وأناشيدهم وتكبيراتهم وتهليلاتهم (٢) .

واستولت على الدمياطيين وغيرهم من أهل البلاد القريبة ، ممن شهدوا ذلك اليوم التاريخى ، موجة حماسية جنحت بهم إلى نقض بعض شروط الهدنة ، دون خشية من ردع أو عقاب ، من ناحية السلطات المصرية الأيوبية ، ودون شك من ناحية الدمياطيين أنفسهم بأنهم يقومون بأعمال انتقامية ، وهى مشروعة طبعاً فى نظرهم ، ضد بقايا الاعتداء الصليبى على مدينتهم . ومن ذلك أن جماعة من الدمياطيين عمدوا إلى الآلات والأثقال الحربية الصليبية ، وهى التى تعهدت السلطات المصرية الأيوبية بحفظها إلى حين ، فحطموها وجعلوا منها كوماً هائلاً أشعلوا فيه النار . وذهب جماعة آخرون إلى مخازن المؤونة الصليبية ، فأكلوا وشربوا منها ما شاءوا ، ما عدا أكداس لحوم الخنزير المملحة ، وكانت كميات ضخمة ، فعافوها وجعلوا منها حريقاً كبيراً عالى النيران ، بفضل ما فى تلك اللحوم من شحم غزير وملح وفير . وذهب جماعة آخرون إلى مكان المرضى الصليبيين ، وهم الذين جرى الاتفاق على بقائهم حتى شفائهم بدمياط ، ويقال إن فئة من

---

(١) المقصود بذلك جامع أبو المعاطى القديم ، وهو على مقربة من مقابر دمياط الحالية . ويبدو هذا الجامع الآن فى حال محزنة من الخراب ، ولا يستخدمه أحد للصلاة ، وأعمدته وعقوده متداعية ، وليس به ما يلفت النظر سوى الإهمال وفعل الرطوبة ، وبجانبه قبة فاتح الأسمر ، وهى تشبه فى حالها حال هذا الجامع الأثرى الكبير .

(٢) انظر ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة — طبعة القاهرة — ، ج ٦ ، ص ٤٦٨ .

هذه الجماعة هجمت على مكان أولئك المرضى ، وأبادتهم عن آخرهم ؛ ويقال كذلك إن هذه الفئة أشعلت فى أولئك المرضى النار . وكلٌّ من هذين القولين مشكوكٌ فى تمام صحته ، مردودٌ بقرائن منطقية لا سبيل إلى إغفالها ، وأولها أن السلطات المصرية الأيوبية هى التى أعطت كلمة الأمان عن أولئك الجرحى والمرضى من الأسرى الصليبيين ، وليس نقض كلمة الأمان من المألوف فى تاريخ الشرق الإسلامى ، وثانيها أن العلاقات بين الطرفين سارت على وتيرة حميدة منذ مقتل السلطان تورانشاه ، وثالثها أن كثيراً من الأسرى الصليبيين ، وهم الذين قيل إنهم أبيدوا أو أحرقوا فى ذلك اليوم ، كانوا أحياءً يُرزقون فى مختلف البلاد المصرية ، لعدة سنين تالية ، وجاءت بعثات صليبية إلى القاهرة خصيصاً لجمعهم ، والعودة بهم إلى أوطانهم[1] .

وكيفما كانت حقيقة الموقف ، فالواضح أن الزمام أفلت من أيدى رجال الدولة المصرية الأيوبية فى ذلك اليوم ، وتعقدت الحال حين حاول حزب المتطرفين ، وعلى رأسهم الأمير حسام الدين محمد بن أبى على الهذبانى ، أن يفتح باب المناقشة من جديد ، أملاً فى تغيير مصير الملك لويس التاسع وأخويه ، وكبار الأسرى من البارونات الصليبيين ، ولا سيما بعد أن تمّ استرجاع دمياط . وقال متكلم من ذلك الحزب المتطرّف ، بأن طول إقامة الصليبيين بالأراضى المصرية ، من دمياط إلى جديلة ، أطلعهم على كثير من عورات شرق الدلتا ، وأنه ينبغى أن تؤمن الدولة المصرية الأيوبية على حياتها المستقبلة ، بحيلولة أبدية بين الصليبيين وأوطانهم ، وذلك بقتلهم جميعاً فى دمياط ، بما فى ذلك الملك لويس التاسع وأخويه وباروناته الصليبيين . وانبرى أمير مملوكى من حزب المعتدلين ، واسمه سابريشى ، وهو من أصل إسبانى ، حسبما ذكر جوانفيل ، فقال إن قتل الملك لويس التاسع ، بعد قتل السلطان تورانشاه ، سوف يجعل أهل مصر ورجال الدولة

---

(١) انظر ما يلى .

فيها كأنهم قوم سفاكون غادرون ، فى نظر القريب والبعيد : وردّ المتكلم بلسان حزب المتطرفين ، فقال إن قتل السلطان تورانشاه كان خروجاً على الآية القرآنية الكريمة التى تقول : " أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم " ، لكن قتل الملك لويس التاسع وأخويه ، وباروناته وأتباعه ، فيه استجابة لقوله تعالى : " واقتلوهم حيث وجدتموهم ، ولا تتخذوا منهم ولياً ولا نصيراً "[١] .

وظلت المناقشة محتدمة طول ذلك اليوم ، وتدخل فيها رجال الدين الذين جاءوا بهذه الاستشهادات القرآنية ، على حين انشغل رجال الدولة بشئون الأمن والنظام ، بعد حوادث ذلك اليوم ، حتى إنهم نسوا أن يقدّموا أىّ طعامٍ للملك أو لأخويه ، أو للبارونات ، أو لأنفسهم ، أثناء ذلك النهار . وتبدّدت آمال الملك لويس فى النجاة ، وأخذ كبار الأسرى من البارونات الصليبيين يعدّون أنفسهم لأسوأ مصير ، ولا سيما بعد أن أمر أحد أمراء المماليك البحرية الصالحية بحلّ مرابط السفن ، أى السفن الراسية بكباو الأسرى الصليبيين قبالة دمياط ، ورجوع هذه السفن أدراجها إلى فارسكور ، إيذانا بانتصار حزب المتطرفين من أمراء المماليك . وأخذت هذه السفن تسير فى مجراها نحو فارسكور ، واغرورقت عيون بعض كبار الأسرى من البارونات الصليبيين بالدموع ، لا حسرةً على أنفسهم فحسب ، بل حزناً على قرب فقدان الملك لويس التاسع ، وهو الذى كاد أن يجعل مصر جزأً من الممتلكات الصليبية .

ثم تغيّر الموقف أخيراً ، والشمس وقتذاك تميل إلى الغروب ، إذ تغلب أمراء المماليك من حزب المعتدلين ، وهم القائلون بوجوب المحافظة على العهود والمواثيق التى تمت بين الطرفين ، وعاد كبار الأسرى من

(١) هذه الأخبار مستمدة من (Joinville : Op. Cit. pp. 203-205) ، وهذه الآيات القرآنية واردة بهذا المرجع بمعناها العام ، لا بنصها المثبت هنا .

البارونات الصليبيين على ظهور السفن إلى قبالة دمياط مرّة أخرى ، وطلبوا أن تأذن السلطات المملوكية بإطلاق سراحهم ، ليذهبوا إلى الملك لويس ، لمعرفة تعليماته النهائية بشأن الجلاء : غير أن أمراء المماليك لم يأذنوا بإطلاق سراحهم إلا بعد أن قدموا لهم طعام العشاء ، لأنهم لم يريدوا أن يقال عنهم إنهم يتركون ضيوفهم جياعاً بلا طعام ، ولو كانوا من الأسرى الصليبيين : على أنهم لم يستطيعوا أن يطعموهم لحماً حنيذاً وخبزاً سميذاً ، كما اشتهى البارونات أن يُطعَموا ، لتعويض ما انتابهم من الجوع طول ذلك اليوم ، بل اقتصر الطعام على وجبة جافة مكوّنة من أقراص جبنة قديمة ، وبشماط (بقسماط) جامد ، وبيض مسلوق ملوّن بمختلف الألوان الزاهية ، كما ينبغى أن يكون البيض المسلوق فى عيد شمّ النسيم ، وهو فى تلك السنة يوم الاثنين ٢ مايو سنة ١٢٥٠ م ، الموافق ٢٧ محرم سنة ٦٤٨ هـ . غير أن المؤرخ جوانفيل اعتقد أن تقديم البيض المسلوق ملوّناً بتلك الألوان الزاهية ، كان من باب التكريم والاحتفال بالبارونات الصليبيين . ثم انتهى الطعام ، وعند ذلك سمح الأمراء المماليك للبارونات الصليبيين ، بالنزول إلى البرّ ، والذهاب إلى خيمة الملك لويس ، كما سمحوا للملك لويس بالخروج من خيمته ، لاستقبال البارونات ، والذهاب بعد ذلك إلى حيث كانت سفينة جنوية صليبية فى انتظاره ، على الشاطئ الأيمن للنيل ، قرب موضع عزبة البرج الحالية .

وأخيراً مشى الملك لويس التاسع إلى مرسى هذه السفينة الجنوية ، صبيحة يوم الجمعة ٢ صفر سنة ٦٤٨ هـ ، الموافق ٦ مايو سنة ١٢٥٠ م ، وفى معيته حرس عدته عشرون ألفا من العسكر المصرى الأيوبى ، وسيوفهم فى أغمادها ، حسبما ذكر جوانفيل . فلما اقترب الملك لويس من شاطىء النيل ، أدى الجند الصليبيون الذين حملتهم هذه السفينة الجنوية ، وعدتهم ثمانون جنديا من الرماة ، تحية رسمية عابسة للحرس المصرى الأيوبى الزاخر ؛ وانتهى

ذلك اليوم بصعود الملك لويس التاسع ، والبارونات الصليبيين ، كلٌّ إلى سفينته . ثم صعد إلى سفينة الملك لويس ، من خاصته وحاشيته ، أخوه شارل كونت آنجو ، ورئيس الحرس الملكى جود فرى سارجين ، وحاجب الحجاب فيليب نامور ، ومقدم العسكر حنا كليان ، وراعى الكنيسة الملكية نيقولا ميتوران ، وكذلك جوانفيل . غير أن ألفونسو كونت بواتييه ، وهو أصغر إخوة الملك لويس التاسع ، تخلف عن ركوب السفينة الملكية ، إذ أصرّت السلطات المصرية الأيوبية على احتجازه رهينة عندهم ، ريثما ينتهى دفع المبلغ المتفق على تأديته معجّلاً ، من الفدية المقررة .

ومنذ صبيحة اليوم التالى ؛ وهو يوم السبت ٣ صفر سنة ٦٤٨ هـ ، الموافق ٧ مايو سنة ١٢٥٠ م ، أخذ الملك لويس التاسع والبارونات فى العبور بسفنهم ، من منطقة عزبة البرج الحالية ، إلى منطقة جيزة دمياط (رأس البر الحالية) ، على الضفة الغربية للنيل ، وهى المنطقة التى أرست قبالتها سفنهم وعساكرهم ، غداة وصولهم الأول إلى الشواطئ المصرية ، ومنها بدأوا زحفهم الصليبى نحو دمياط ، فى يونيه من السنة الماضية . وهكذا عاد الصليبيون أدراجهم إلى نقطة بدايتهم الأولى ، دون أن يحققوا لأنفسهم شيئاً سوى الهزيمة والتسليم ، والنجاة بأرواحهم ، أى أنهم رجعوا إلى قواعد اعتدائهم بخفى حنين ، لا أقل ولا أكثر[1] .

ومنذ صباح ذلك اليوم كذلك ، بدأت عملية دفع المبلغ المتفق على تأديته معجّلاً من الفدية المقرّرة ، ومقداره مائة ألف قطعة ذهبية إمبراطورية متوّجة . وأخذ الموكلون بخزانة الملك لويس التاسع فى حساب هذا المبلغ وزناً وعدّاً ، حسبما جرت به العمليات المالية فى تلك العصور ، فجعلوا

---

(١) انظر لوحة رقم ٤ ، بين صفحتى ٢٤٠ و ٢٤١ ، حيث يبدو الملك لويس التاسع عابساً مقطب الجبين ، وبجانبه أحد أخويه ، وهو أشد عبوساً وإحساساً بالخيبة ، وحولهما عدد من الجند المصرى الأيوبى .

كلّ وزنة خمسة آلاف قطعة ذهبية . واستغرقت هذه العملية يوم السبت كله . ثم يوم الأحد كله كذلك حتى المساء . وأخيراً تبيّن للحاسبين من الوزّانين والعدّادين ، أن المال الموجود فعلاً فى الخزانة الملكية ، ينقصه عن المبلغ المطلوب خمس عشرة ألف قطعة ذهبية ، وليس ثمة أملٌ فى سدّ ذلك العجز النقدى الكبير ، فى سرعة .

ولجأ الملك لويس إلى مناورة ديبلوماسية ماهرة ، لعله يستطيع من ورائها تأجيل هذا المال الناقص ، إلى ما بعد وصوله هو إلى عكا ، وذلك باستغلال ما وقع بدمياط من نقضٍ لبعضِ شروط الهدنة . وتفصيل ذلك أن النار كانت لم تزل مشتعلة ، منذ يوم الجمعة السابق ، بأكداس المخلفات الصليبية ، من أسلحة وآلات حربية محطمة ، ومؤن ولحوم مجففة مملّحة ، وهى التى تعهدت السلطات المصرية الأيوبية بصيانتها ، إلى حين تسليمها بحالها للصليبيين . فبعث الملك لويس إلى الأمير فارس الدين أقطاى ، وهو أكثر أمراء المماليك عطفاً على الصليبيين ، برسالة شفوية ، مع واعظ فرنسسكانى معروفٍ فى الدوائر المملوكية ، واسمه راوُول ، للاحتجاج على ما حدث من إتلافٍ عامدٍ لهذه المخلفات ، ولتوجيه النظر إلى ما ينطوى عليه هذا الإتلاف من نقضٍ صارخٍ لشروط الهدنة . غير أن الأمير فارس الدين أقطاى أرسل للملك لويس التاسع ، ينصحه بألا يحتج أو يظهر أىّ متعَض ، مما حدث أو يحدث للصليبيين أو لمخلّفاتهم ، ما دام هو والصليبيون مقيمين فى الأسر ، بالأراضى المصرية ، لأنهم لا يزالون كلّهم غنيمة حربية صامتة ، لا حقّ لهم ولا حرية عند السلطات المصرية الأيوبية ، ما عدا ما تجود به هذه السلطات من تلقاء نفسها ، طواعيةً واحتساباً ، لا نتيجةً لاحتجاجٍ أو توجيه نظرٍ ، من ناحية الملك لويس التاسع . ولذا أشار الأمير فارس الدين أقطاى على الملك لويس التاسع ، بتأجيل احتجاجاته إلى ما بعد وصوله إلى عكا ، مع التنبيه عليه بتدبير المبلغ الناقص من الفدية المقرّرة ، فى سرعة ، لأن تأخير ذلك سوف

يؤخر إطلاق سراح ألفونسو كونت بواتييه ، دون جميع الأسرى من كبار البارونات الصليبيين ، وهم الذين أصبحوا شبه أحرارٍ طلقاء ، منذ عبورهم مع الملك لويس التاسع إلى منطقة جيزة دمياط ، وتحديد إقامتهم بها إلى وقت إبحارهم نهائياً عن الشواطيء المصرية .

والمراجع لا تخبر بهذا التنبيه الأخير صراحةً أو تلميحاً ، لكنها تدلّ عليه من طريق الاستنتاج ، إذ جاء وقتذاك الى الملك لويس التاسع وفد من كبار البارونات الصليبيين ، وعلى رأسهم كونت فلاندر ، وكونت سواسون ، وغيرهما من كبار الأسرى ، وهم الذين خشوا طول الإقامة المحدّدة بمنطقة جيزة دمياط . وطلب هؤلاء البارونات من الملك لويس ، أن يأذن لهم بالرحيل عن مصر إلى أقاليمهم الفرنسية ، فأشار عليهم الملك لويس بالانتظار قليلاً ، حتى يتمّ تدبير المبلغ المطلوب فى يومٍ أو بعض يوم ، وعندئذ تطلق السلطات المصرية الأيوبية سراح ألفونسو كونت بواتييه ، ويبحر الجميع فى أمان واطمئنان ، إلى حيث يشاءون . لكن أولئك البارونات آثروا الرحيل فوراً ، وأبحروا من يومهم فى بضعٍ من السفن إلى فرنسا ، ومعهم أحد معمّرى الحروب الصليبية وحملاتها السابقة ، وهو بطرس كونت بريتانى ، صاحب فكرة الاستيلاء على الإسكندرية ، والزحف منها نحو القاهرة ، بدل الزحف الفاشل من دمياط إلى القاهرة ، عن طريق المنصورة . وكان بطرس كونت بريتانى مريضاً ، فثقل عليه المرض فى عرض البحر ، ومات قبل أن تصل هذه السفن ، والبارونات الصليبيون الذين أبحروا عليها ، إلى الشواطئ الفرنسية .

ثم أشار المؤرّخ جوانفيل على الملك لويس التاسع أن يسدّ هذا العجز المالى ، بقرضٍ من طائفة الفرسان الداوية ، وهم أرباب القروض المالية والودائع والأعمال المصرفية (البنوك) ، فى تلك العصور الوسطى . وذهب جوانفيل بتفويضٍ من الملك لويس التاسع إلى مقدّم الداوية ، ليطلب القرض

اللازم ؛ وكان هذا المقدّم — واسمه ستيفن أوتويكور — متولياً شئون الطائفة الداوية ، منذ موت رئيسها وليام سوناق متأثراً بجراحه ، فى معركة المنصورة ووقعة جديلة الكبرى ، وكلّ اهتمامه متركزٌ فى الأمور المالية . ورفض هذا المقدم أوتيكور أن يوافق على منح القرض المطلوب ، بحجة أنه ليس من حقّه أن يتصرّف فيا لديه من ودائع مالية ، بالقرض أو غيره من أنواع التصرّف ، إلا بترخيص من أصحابها ومودعيها . ونتيجةً لهذا الرفض الجافّ ، تبادل هذا المقدّم أوتويكور والمؤرخ جوانفيل ألفاظا حادة غاضبة ، لكن فى غير جدوى .

ثم استأذن جوانفيل من الملك لويس التاسع ، ليذهب بنفسه إلى السفينة البحرية التى حفظ الداوية فيها خزائنهم وودائعهم ، وليأخذ منها المال المطلوب ، كائنة ما تكون النتائج . وراح جوانفيل إلى تلك السفينة الراسية وقتذاك قبالة دمياط القديمة ، وطلب مفاتيح الخزائن من أمين الداوية ، فلم يجد منه مجيباً . وعند ذلك أمسك جوانفيل ببلطة حربية وقع نظره عليها فى أرضية السفينة ، وهدّد بأن يجعل منها مفتاحاً ملكياً عظيماً لكل خزينة مغلقة ، وبذا رضى أمين الداوية بتسليم مفاتيح الخزائن كلها ، إشارة منه إلى رضوخه مكرهاً لتهديد جوانفيل . لكن جوانفيل اكتفى بفتح خزينةٍ واحدةٍ من تلك الخزائن ، بعد أن علم بأنها تحتوى وحدها على أموال كبار البارونات الصليبيين . وقام رجل من رجال الحاشية الملكية بأخذ المال المطلوب منها ، باسم الملك لويس التاسع نفسه ؛ وبذا استطاع الملك لويس أن يؤدى ، للسلطات المصرية الأيوبية ، جميع المبلغ المعجّل من الفدية المقرّرة .

ثم جاء جماعة من البارونات الصليبيين المكلّفين بضبط عملية دفع الفدية ، وأخبروا الملك لويس التاسع بأن السلطات المصرية الأيوبية لا تنوى إطلاق سراح ألفونسو كونت بواتييه ، إلا بعد استلام مبلغ

الفدية المقرّرة كلّه ، فعلاً فى أيديهم ، وأشاروا على الملك لويس بألا يسلم هو شيئاً من هذا المبلغ ، إلا بعد إطلاق سراح كونت ألفونسو . غير أن الملك لويس رأى أن يحترم ما التزم به ، وهو تسليم جميع المبلغ المعجّل من الفدية المقرّرة ، أولاً وقبل كل شىء ، وأن يترك للسلطات المصرية الأيوبية أن تحترم ما هى ملتزمة به من الشروط المقابلة . وعند ذلك — لا قبله — أخبر حاجب الحجاب فى الحاشية الملكية — وهو فيليب كونت نامور — بأن العدّادين والوزّانين الماكيين ارتكبوا — فيما بينهم — غلطة حسابية متعمّدة ، فى مبلغ خمس آلاف قطعة ذهبية ، من مجموع المبلغ المعجّل من الفدية المقرّرة ، وأن السلطات المصرية الأيوبية سوف تتسلم أكياس الفدية ناقصة ، وأنها لن تكتشف هذا النقص إلا بعد الرحيل الصليبى عن الشواطئ المصرية . غير أن الملك لويس أصرّ على تأدية هذا المبلغ الناقص ، خشية أن تكشف السلطات المصرية الأيوبية هذه الغلطة قبل بداية الرحيل الصليبى ، وتجعل منها سبباً لإطالة بقاء كونت ألفونسو فى الأسر .

وفى أثناء تلك الساعات الختامية من إقامة الملك لويس التاسع بمنطقة جيزة دمياط ، جاء لزيارته هناك شخص أبيض البشرة ، وعلى وجهه سيما الغنى والثروة . وتكلّم هذا الشخص الزائر بلسان فرنسىّ خالص ، وقدّم للملك لويس صينية عليها آنية من فضّة ، فيها لبنٌ مخمّر (لبن زبادى) ، ومعها باقات من أزهار متنوعة مختلفة الألوان ، هديةً من عند أولاد الملك الناصر داود صاحب الكرك سابقاً ، وهم الذين جاءوا إلى معسكر المنصورة بعد وفاة أبيهم بالكرك ، واستقرّوا بمصر منذ أيام السلطان الصالح نجم الدين أيوب[١] . وسأل الملك لويس هذا الشخص الزائر عن مصدر معرفته باللسان الفرنسى ، فأجابه بأنه فرنسىٌّ مسيحىّ الأصل ، وأنه أقام بمصر

---

(١) انظر ملحق رقم ١ (ص ٣٥٨ ب) .

منذ سنين ، وأنه اختار الإسلام دينا . فامتعض منه الملك لويس امتعاضاً واضحاً ، وأمسك عن الكلام معه بتاتاً ، وأعرض عنه تمام الإعراض . وشهد جوانفيل هذه المقابلة الملكية الجافية ، فانتحى بهذا الزائر الفرنسى الأصل جانباً ، وسأله عن قصته ، فأخبر بأنه وُلد فى بلدة بروفان بفرنسا ، وأنه جاء إلى مصر فى حملة الملك حنا برين ، وبقى منذئذ بالبلاد المصرية ، واعتنق الدين الإسلامى ، وتزوّج امرأة مسلمة ، وأصبح من أرباب المقام والنفوذ والثروة ، وغدا من علية المجتمع المصرى الأيوبى[1] . وبالطبع اقترح جوانفيل على هذا الزائر أن يرجع إلى الديانة المسيحية ، لكن الزائر لم يوافق على هذا الاقتراح ، وفضل الاستمرار على الإسلام ، وترك الحضرة الملكية حانقاً أسفاً ، ومضى إلى حال سبيله .

وكانت السفن الصليبية الراسية فى البحر ، على أهبة الرحيل عن الشواطئ المصرية ، ووقف بحارتها على ظهورها فى صبرٍ صامتٍ ، وهم ينتظرون الإذن برفع المراسى ونشر القلاع . وأشار بعض البارونات الصليبيين على الملك لويس التاسع ، بالانتقال وقتذاك إلى السفينة المعدّة له فى البحر ، بعد أن صار من المؤكد أن النقود الناقصة ، من المبلغ المطلوب للفدية المعجّلة ، فى طريقه إلى السلطات المصرية الأيوبية . لكن الملك لويس ظل فى موضعه على الضفة الغربية للنيل ، على مسافة قصيرة من لسان رأس البر الحالية ، وكرّر أنه لن يرحل عن موضعه إلا بعد أداء هذه النقود الناقصة ، عدّاً ووزناً . غير أنه لم يكد ينتهى هذا وذاك حتى التفت الملك إلى البارونات ، وأعلن فيهم أنه أوفى بكل وعوده ، بشأن مال الفدية المعجّلة ، وطلب منهم أن يسيروا معه فى شىء من البطء ، مطمئنين آمنين فى نهر النيل ، وأن ينتقلوا فى غير عجلةٍ ، إلى السفن الواقفة فى عرض البحر الأبيض

---

(١) انظر (Joinville : Op. Cit. p. 217) .

المتوسط ، وذلك لإعطاء الفرصة لأخيه ألفونسو كونت بواتييه أن يلحق بهم ، بعد إطلاق سراحه .

ثم لم يلبث أحد البارونات الصليبيين ، وهو فيليب كونت مونتفرت ، أن أبصر كونت ألفونسو قادماً فى النهر ، فى سفينة صغيرة تجرى جرياناً سهلاً مع التيار ، على نحو ما يُرى من السفن الشراعية التى تجرى فى النيل متجهةً إلى مدخل البحر الأبيض المتوسط ، بمصيف رأس البرّ الحالية ، فى العصر الحاضر . فنادى كونت فيليب فى الملك لويس والبارونات نداء الفرحان ، وأشار إلى قرب وصول ألفونسو كونت بواتييه ، أو بعبارة أخرى إلى قرب ساعة الرحيل العام عن الشواطئ المصرية ، وعن ذكرياتها الحالكة فى نفوس الصليبيين . وكافأت الكونتيسة بواتييه بحاراً صليبياً جاء إليها بخبر وصول زوجها إلى السفن الصليبية ، بأن نفحته بعشرِ قطعٍ ذهبية ، من النقود الإمبراطورية المتوّجة .

وأخيراً تحول الملك لويس التاسع وأخواه وسائر البارونات الصليبيين ، إلى سفنهم البحرية الواقفة فى انتظارهم فى مدخل البحر الأبيض المتوسط ، ما عدا عددٌ من الفرسان الصليبيين الذين بقوا بدمياط ، بإذن من الأمراء المماليك ، لمراقبة عملية استلام الأسرى الصليبيين ، وهم الذين سوف تطلق السلطات المصرية المملوكة سراحهم ، ولترحيل أولئك الأسرى عن البلاد المصرية ، وإقناع الراغبين منهم فى اعتناق الإسلام والإقامة فى مصر ، بما سوف ينالون من مكافآت متنوعة ، إذا هم ظلّوا على مسيحيتهم ، وعادوا إلى أوطانهم (١) .

وأخيراً انتقل الملك لويس وأخواه ، وسائر البارونات الصليبيين ، كلٌ إلى سفينته المعدّة له ، فى غير إبطاء ، ودون انتظار لإعداد الفرش والملابس

---

(١) انظر (Michaud : Hist. des Croisades. IV. p. 625) .

اللازمة للملك لويس ، بعد طول إقامته أسيراً فى معتقله بدار ابن لقمان . ورضى الملك لويس موقتاً بما وجده بالسفينة الملكية ، وقنع لنومه بما كان معه من فراش الأسر ، كما قنع بما عليه من خلعة سلطانية مملوكية ، وهى التى خلعها عليه السلطان تورانشاه ، غداة وصوله أسيراً إلى المنصورة ، أو غداة اتفاقه معه على شروط الهدنة والفدية ، والجلاء التام عن الشواطئ المصرية . واشتملت هذه الخلعة السلطانية فيما اشتملت ، نقلاً عن جوانفيل ، على قباء من أطلس حرير أسود ، بفرو سمور وسنجاب ، وأزرار كثيرة كلها من الذهب[1] ، على طراز أرفع الخلع السلطانية ، المخصصة لكبار الأمراء فى الدولة المصرية الأيوبية ، فى ذلك العصر . أما جوانفيل فكان لابساً وقتذاك سترة قصيرة ، وهى مصنوعة من لحافه الذى التحفه مدة أسره ، ويبدو أنه قنع كذلك بتلك السترة موقتاً ، سواء لساعات النهار أو الليل .

وأصبح صباح يوم الأحد الرابع من صفر سنة ٦٤٨ هـ ، الموافق ٨ مايو سنة ١٢٥٠ م ، فإذا السفن الصليبية ناشرة قلاعها ، آخذة طريقها فى البحر

---

(١) انظر (Joinville : Op. Cit. p. 221) ، حيث يوجد هذا الوصف الدقيق لتلك الخلعة السلطانية الثمينة ، كما رآها جوانفيل ، حينما كان الملك لويس مرتدياً لها ، وهو ينتقل وقتذاك إلى السفينة الملكية . ويلاحظ أن الإشارة تقدمت فيما سبق هنا (ص ٢٠٤) إلى إرسال السلطان تورانشاه خلعاً سلطانية ثمينة ، إلى كل من الملك لويس التاسع وأخويه وباروناته ، غداة وصولهم إلى معتقلاتهم بالمنصورة ، وأن الملك لويس رفض حينذاك ، دون أخويه وباروناته ، أن يلبس الخلعة السلطانية المرسلة إليه ، خشية أن يحسب ذلك عليه بأنه اعتراف منه بتبعية للسلطان تورانشاه . ولذا فمن المحتمل ، بعد أن قرر جوانفيل أنه رأى الملك لويس التاسع لابساً خلعة سلطانية ، يوم الرحيل الملكى عن الشواطئ المصرية ، أن الملك لويس رجع عن رفضه الأول المذكور ، ولبس الخلعة السلطانية التى أرسلها إليه السلطان تورانشاه ، بعد أن اطمأن إلى حسن موقف السلطان منه ، وبعد أن استراح إلى طيب معاملة القائمين على راحته وحراسته ، فى معتقله بدار ابن لقمان ، كما أنه من المحتمل كذلك أن السلطان تورانشاه خلع هذه الخلعة السلطانية على الملك لويس ، بعد أن أتم اتفاقه معه على شروط الهدنة والفدية ، والجلاء التام عن الأراضى المصرية .

سراعاً تباعاً إلى عكا . وامتلأت دمياط ذلك اليوم – أى للمرة الثانية فى أسبوع واحد – بأنواع الاحتفال البهيج . ثم بدأت دمياط تخلو من العساكر المصرية المملوكية ، بعد أن أخذوا يرحلون عنها يوماً بعد يوم ، فى أفواج متتابعة إلى القاهرة ، وعلى رأسهم أربعة رجال ، لكل منهم نصيبٌ معلومٌ فى هزيمة الملك لويس التاسع ، وإخراجه من مصر كسير الجناح ، وهم حسام الدين محمد بن أبى على الهذبانى ، وأيبك التركمانى ، وبيبرس البندقدارى ، وأقطاى الجمدار . وتستحق شجر الدر أن تتصدّر هؤلاء الأربعة الرجال ، عن جدارة ، وأن يكون لها مكان الصدارة بين الأفواج العسكرية الداخلة وقتذاك أرسالاً إلى القاهرة ، وهى التى وصفها ابن العبرى ، بأنها كانت " لا نظير لها فى النساء حسناً ، وفى الرجال حزماً " ، من باب التنويه بما قامت به بدور كبير فى تدبير الانتصار النهائى على الملك لويس التاسع وحملته الصليبية(١) . لكن شجر الدّر كانت بالقاهرة فعلاً قبل تلك الأيام ، أى منذ انتقلت إليها من المنصورة ، قبيل وصول السلطان تورانشاه إلى الأراضى المصرية .

وازّينت القاهرة ومصر بأنواع الزينة ، ودوّت البشائر بطبولها ، وانطلقت من آلاتها الموسيقية أنغام الظفر ، لعدّة أيام متوالية ، فى كل مكان . ثم وصلت العساكر الظافرة إلى القاهرة ؛ فى يوم الجمعة التاسع من صفر سنة ٦٤٨ هـ ، الموافق ١٢ مايو سنة ١٢٥٠ م ، فخرج القاهريون من كل حىّ من أحيائها ، واصطفوا بالشوارع ، لرؤية العساكر المصرية المملوكية ، والأسرى الصليبيين فى ركابهم . وانتشرت الأفراح والألعاب فى ميادين القاهرة ، وتبارى الشعراء فى إلقاء القصائد المناسبة لجلال تلك الأيام . ورأت الأميرة شجر الدرّ ، وهى التى ما لبثت أن أصبحت السلطانة فى مصر ، أن تضيف

---

(١) ابن العبرى : تاريخ مختصر الدول ، ص ٤٥٣ .

إلى جلال تلك الأفراح ، فقرّرت توزيع الخلع السنية على الأمراء وأرباب الدولة من المماليك وغيرهم ، وأنفقت فى سائر العسكر جملة كبيرة من الأموال والعطايا . ثم أقامت السلطانة شجر الدرّ حفلاً كبيراً ، فى يوم الثلاثاء الثالث عشر من صفر ٦٤٨ هـ ، الموافق ١٧ مايو ١٢٥٠ م ، لتوزيع تلك الخلع والأموال والعطايا على مستحقّيها . ومن البديهى أن تلك الأفراح لم تقتصر على القاهرة ، بل تعدّتها إلى غيرها من البلاد المصرية الأخرى ، مثل دمياط والمنصورة وفارسكور .

هكذا كانت أفراح القاهرة وغيرها من البلاد المصرية ، حين كانت حملة الملك لويس التاسع تجرّر أذيال الهزيمة ، على ظهور السفن الصليبية إلى عكا ، بعد إقامة تلك الحملة على دمياط وجيزتها وجزيرتها ، مدة سنة تقريباً . وهكذا سجّل التاريخ فى سجلاّته المستمرّة الصامتة ، وبرهنت الحوادث التاريخية فى مسالكها اللانهائية ، أن هزيمة حملة الملك لويس التاسع فى الأراضى المصرية ، دليلٌ على قرب اختتام أيام الصليبيين بالشرق الإسلامى كلّه ، فضلاً عن انتهاء أحلام مملكةٍ صليبيةٍ فى بيت المقدس .

ومع هذا ظنّ الملك لويس التاسع أن باستطاعته أن يوقف عـرَبة التاريخ ، ريثما يصلح من أغلاط حملته على مصر ، ويعود بعد ذلك إلى البلاد المصرية أو غيرها من البلاد الإسلامية ، لمراودة أعماله الصليبية من جديد . ولم يشأ الملك لويس التاسع أن يجد مرشداً مأموناً ، أو ناصحاً مسموعاً ، إلا من تقواه العسكرية المحاربة ، ومن إيمانه الدينى الراسخ ، وكلاهما أوحى إليه بأن مملكة بيت المقدس الصليبية حقيقة ثابتة ، وسوف يتمّ ظهورها مرّة أخرى ، على يديه .

ومن أجل هذا ينتقل مسرح الحوادث الصليبية — جغرافياً وتاريخياً — من مصر إلى فلسطين ، أو بعبارة أخرى من دمياط ومشارفها إلى عكا ومايجاورها من البلاد الفلسطينية ، وهى التى لم تزل وقتذاك بأيدى الصليبيين

المحليين ، حيث ظلّ الملك لويس التاسع ، وجزء من بقايا حملته الصليبية السابقة ، أربع سنوات طويلة .

وهذه السنوات الأربع ، هى فى جملتها وتفصيلها ذيلٌ لجلاء الملك لويس وحملته عن دمياط ، وتكملةٌ لهزيمته فى مصر ، وتذكرةٌ بعدم اقتناعه الشخصى بهذه الهزيمة . وهذه السنوات الأربع هى كذلك فاصلٌ زمنىّ كان من الممكن أن يخرج الملك لويس منه بحملة صليبية فرنسية أخرى على مصر ، أو غيرها من البلاد الإسلامية ، لو أن المقادير جرت فى أعنته لافى أعنتها ، واستندت إلى رغباته ، واعتمدت على تقواه العسكرية المحاربة . ومع أن هذا الفاصل الزمنى ، ليس فى مبناه أو معناه جزءاً من حوادث حملة الملك لويس التاسع على مصر ، فهو نتيجة من نتائجها ، وسنواته الأربع كانت سنوات تطبيقٍ لشروط هدنة دمياط ، والجلاء عن الأراضى المصرية ؛ ولذا فليس هذا الفاصل الزمنىّ خارجاً عن محيط حملة الملك لويس على مصر ، وهزيمته فى المنصورة .

وتلقى الملك لويس التاسع غداة وصوله إلى عكا ، فى أواسط مايو سنة ١٢٥٠ م ، رسالة من عند أمه الملكة بلانش القشتالية ، وهى التى قامت بالوصاية على عرش فرنسا مدة غيبته . وألحّت الملكة الوالدة فى هذه الرسالة على ابنها الملك لويس ، بضرورة عودته سريعاً إلى بلاده ، بعد أن ترامت الأخبار إليها أن هنرى الثالث ملك إنجلترا ، يوشك أن يقوم بحركة عدائية نحو الأراضى الفرنسية ، لتسوية حساب له إقطاعى قديم مع العرش الفرنسى ، وهذا فضلاً عن بضع مشاكل فرنسية داخلية ، وكلها تستدعى إشراف الملك لويس بنفسه على شئون مملكته .

غير أن روح التقوى العسكرية المحاربة ، وهى الروح الجياشة دائماً فى قلب الملك لويس ، لم تسمح له بأن يكون مجيباً أو مطيعاً أو سميعاً لهذا الإلحاح من جانب أمّه ، بل استقرّ لديه أن المصلحة الصليبية لا تزال

بحاجة إلى وجوده بفلسطين ، لأن أيام المنصورة وجديلة الكبرى ، وبحر المحلة ومسجد النصر ، وشرمساح ومنية الخولى عبد الله ، أبادت فيما بينها جيشاً للصليبيين المحليين عن آخره تقريباً ، بالإضافة إلى جيشٍ صليبيٍّ فرنسى بأسره ، ولذا رأى الملك لويس أنه لا أقلّ من الإقامة بفلسطين مدةً ما ، لإصلاح ما أفسدت حوادث تلك الأيام المشهورة من سمعة الجيوش الصليبية المحلية والفرنسية ، فى الشرق والغرب . يضاف إلى ذلك واجب الملك لويس نحو الصليبيين الذين وقعوا أسرى فى أيدى القوات المصرية الأيوبية أثناء تلك الحوادث ، وهو واجب البقاء على مقربة منهم ، لضمان تنفيذ شروط الهدنة المملوكية الصليبية حتى نهايتها ، أى حتى إتمام إطلاق سراح جميع الباقين منهم فى الأسر فى مصر ، وهم عددٌ غير قليل . كان للملك لويس مآرب سياسة أخرى تمنى تحقيقها ببقائه فى فلسطين ، وسوف تتضح أطياف هذه المآرب السياسية ، كما سوف تتضح قلة التجانس فى دبلوماسية الملك لويس ، فى ثنايا حوادث هذه السنوات الأربع التالية .

ولكل هذه الاعتبارات استدعى الملك لويس التاسع إليه مجلس مشورته ، ومنهم أخواه شارل كونت آنجو ، وألفونسو كونت بواتييه ، والمندوب البابوى أودو أسقف طوسكولوم ، وفيليب كونت فلاندر ، وحنا كونت يافا ، وجى موفوازان ، والمؤرخ جوانفيل ، وغيرهم من البارونات الفرنسيين والمحليين . واجتمع هذا المجلس الملكى يوم الأحد ١٩ يونيه سنة ١٢٥٠ م ، الموافق ١٧ ربيع الأول سنة ٦٤٨ هـ[1] بمدينة عكا ،

---

(١) هذا التاريخ استنتاجى خالص ، وليس بالمراجع ذكر له ، لكن المعروف أن اجتماعات هذا المجلس بدأت وظلت مفتوحة مستمرة ثلاثة آحاد متتالية ، وأنها انتهت بيوم الأحد ٣ يوليه سنة ١٢٥٠ م ، الموافق أول ربيع الثانى سنة ٦٤٨ هـ . وعلى هذا يكون تاريخ يوم الأحد الذى بدأت به هذه الجلسات الثلاث ، هو التاريخ المثبت هنا بالمتن .

حيث أفضى الملك لويس إلى الحاضرين بما جاء برسالة الملكة الوالدة بلانش القشتالية ، ثم سألهم عما يشيرون به من عودة عاجلة إلى فرنسا ، أو بقاء موقوت فى عكا . وانتقل الملك لويس بعد ذلك السؤال انتقالا ملحوظاً ، لشرح أحوال البارونات المحليين ، ونبّه تنبيهاً خاصاً إلى ما صاروا إليه بعد أن ذهبت عنهم جيوشهم فى مصر ، ما بين قتيل أو جريح أو مريض أو أسير . وأضاف الملك لويس بأن هؤلاء البارونات المحليين يخشون سوء العاقبة ، إذا هو قرّر العودة بجيشه سريعاً إلى فرنسا ، لأن رحيله سوف يؤدى إلى رحيل سائر القوى الصليبية الفرنسية بعده ، وبذا تصبح عكا وغيرها من المدن الصليبية خالية من أية قوة حربية تساعد على حمايتها .

وأمهل الملك لويس التاسع أعضاء المجلس سبعة أيام ، لتقليب الرأى فيما بينهم حول ما ينبغى عمله ، على أن يعودوا إليه يوم الأحد التالى بما يرون فيه المصلحة المرغوبة . ثم لم يلبث أعضاء ذلك المجلس الملكى أن انقسموا حينذاك فريقين ، فرأى الفريق الأول ، ومعظمه من البارونات الفرنسيين ، وعلى رأسهم المندوب البابوى أودو أسقف طوسكولوم ، وجوب عودة الملك لويس سريعاً إلى فرنسا ، فى غير تردّد ، على حين رأى الفريق الثانى ، وهو فريق البارونات المحليين ، وزعيمهم حنا كونت يافا ، ضرورة إقامته فى عكا مدة سنة على الأقل . ثم طلب المندوب البابوى أودو من صديقه جوانفيل أن يساعده على إقناع الملك لويس ، بضرورة العودة الملكية العاجلة إلى فرنسا ، اعتماداً منه على أن جوانفيل أضحى جليساً يومياً من جلساء المائدة الملكية ، فى الغداء والعشاء ، وفى استطاعته أن يستولى على سمع الملك لويس أثناء الطعام . غير أن جوانفيل لم يلبث أن صار لذلك السبب مؤيداً للأفكار الملكية الخاصة ، كيفما تكون ، بل لم يلبث أن صار زعيماً من زعماء القائلين بوجوب بقاء الملك فى عكا إلى حين ، وانضمت معه فئة من الحاشية الملكية :

وانعقد المجلس الملكى التالى يوم الأحد ٢٦ يونيه سنة ١٢٥٠ م
الموافق ٢٤ ربيع الأول سنة ٦٤٨ هـ ، أى حسب الميعاد المتفق عليه
بحضور جميع البارونات الفرنسيين والمحليين . والتفت الملك لويس التا
إلى أخويه شارل كونت آنجو وألفونسو كونت بواتييه ، وإلى فيلب
كونت فلاندر ، وإلى كبار البارونات الفرنسيين ، وسأل عما استقرّ رأ
عليه . ونهض البارون المختار للإجابة نيابة عن الحاضرين ، وهو -
موفوازان ، فقال إن الرأى الذى استقرّ عليه البارونات الفرنسيون ، هو
يعود الملك لويس سريعاً إلى فرنسا ، ولا سيما أنه لم يبق من جيشه الملَ
الخاص سوى مائة من الفرسان ، وهم كل عسكره فى عكا ، ولن يستط
الملك لويس أن يجعل منهم قوة محاربة ، أو يسدّ بهم ثغرة ، أو ينفع :
أحداً . أما إذا عاد الملك إلى مملكته ، وأصلح من شئونها بعد طو
غيبته ، فسوف يجمع من البارونات الفرنسيين ، والفرسان والعساَ
والأموال ، ما يكفى لحملة صليبية كبيرة يهبط بها إلى الشرق مرّة أخرى
ليجرب حظه من جديد . غير أن الملك لويس التاسع لم يقتنع بهذا الرأى
وجال بنظره فى الحاضرين ، ليتعرّف حقيقة شعور المجلس الملكى .
التفت الملك لويس إلى أخويه ، وإلى فيليب كونت فلاندر ، لعلّه واج
لديهم رأياً ثانياً ، لكنهم أمّنوا جميعاً على ما قاله جى موفوازان .

وأراد المندوب البابوى أودو أن ينتهز هذه الفرصة ، لإحراج أصحاد
الرأى القائل بضرورة بقاء الملك لويس التاسع فى عكا إلى حين ، فسأ
حنا كونت يافا ، وهو زعيم البارونات المحليين القائلين بهذا الرأى ، أ
يعقّب على رأى الأغلبية البارونية الفرنسية . لكن حنا كونت يافا امتن
من الكلام ، مخافة أن يتهم بإيثار مصلحته المحلية الخاصة ، على المصلح
الصليبية العامة . لكن الملك لويس ألحّ على كونت حنا أن يجهر بما عند
من رأى ، فاقترح الكونت أن يبقى الملك لويس بفلسطين بقاء مشروط

(لوحة رقم ٤ بين صفحتى ٢٤٠ ، ٢٤١) .



صورة محفورة على الخشب ، وهى مأخوذة من (Lacrois : Vie Militaire et Religieuse Paris, 1874) نقلا عن (Grand Voyage de Hiérusalem, Paris, 1522) . ويبدو أن المقصود بهذه الصورة وصف حال اليأس الذى استولى على الصليبيين ، بعد أن أيقنوا بقرب جلائهم عن الأراضى المصرية . غير أن هذه الصورة تجمع بين حوادث متفاوتة تفاوتاً زمنياً واضحاً من حملة الملك لويس التاسع على مصر ، ففى وسط الصورة يظهر الملك لويس عابساً مقيداً فى يديه – لا فى رجليه حسبما ذكر ابن واصل ، وبجانبه أحد أخويه ، وحولها جند مصريون أيوبيون ، وكأنهم وصلوا بالملك لويس وأخيه إلى باب دار ابن لقمان بالمنصورة . وفى هذه الصورة تظهر كذلك سيدة واقفة وراء لملك لويس ، وهى حزينة الوجه ، وبين ذراعيها طفل ، وكأنها الملكة مرجريت البروفنسالية ووليدها حنا الأحزان ، وهى تستقبل زوجها الملك لويس يوم وصوله إلى دمياط ، بعد إطلاق سراحه من الأسر . ومن المحتمل كذلك أن تكون هذه الصورة مرسومة للدلالة على الملك لويس وأخيه شارل كونت آنجو ، وهما واقفان عند الموضع المعروف باسم اللسان فى رأس البر الحالية ، فى انتظار وصول أخيهما ألفونسو كونت بواتييه ، بعد أن أطلق أمراء المماليك إطلاق سراحه ، عقب تأدية المبلغ المعجل من الفدية المقررة ، وربما تكون السيدة الواقفة وراء الملك لويس هى الكونتيسة بواتييه ، زوجة ألفونسو .



بسنة واحدة ، أى حتى تستطيع القوات الصليبية المحلية أن تسترجع شيئاً من قوتها السالفة . وعزّز جوانفيل ذلك الاقتراح النَّصَفَة ، وانقلبت الجلسة إلى مناقشة حادّة ، بين فريق الأغلبية الواضحة من البارونات الفرنسيين من ناحية ، وفريق البارونات المحليين ، ومعهم حنا كونت يافا وجوانفيل ، من ناحية أخرى .

وفى أثناء تلك المناقشة قال جوانفيل ، بإيعاز من الملك لويس فيما يبدو ، بأن الخزانة الملكية لا تزال عامرة بالأموال ، وأن باستطاعة الملك أن يجنّد بهذه الأموال جيشاً صليبياً كبيراً ، من دوقية بلاد المورة بشبه جزيرة اليونان الحالية ، أو غيرها من الدوقيات الصليبية القائمة على أنقاض الدولة البيزنطية ، وبذا يستطيع الملك لويس أن يبقى بفلسطين إلى أجل غير مسمّى ، ويستطيع ببقائه أن يهيمن على عملية إطلاق سراح الأسرى الصليبيين فى مصر ، وبدون ذلك لن يكون ثمة أملٌ فى إطلاق سراح أولئك الأسرى . وعند ذلك طلب المندوب البابوى أودو من مقدم العساكر الفرنسية ، وهو وليام بومون ، أن يبدى رأيه فى هذه المناقشة الطويلة ، فأمّن وليام بومون على قول جوانفيل . واشتدّ الأخذ والردّ بعد ذلك بين الفريقين ، ولم تنته الجلسة إلا عند ما قال الملك لويس إنه استمع إلى ما فيه الكفاية ، وإنه سوف يعلن عن قراره النهائى بعد سبعة أيام أخرى ، أى يوم الأحد التالى .

وامتلأت تلك الأيام السبعة بكثير من الاتصالات الفردية الغاضبة ، وعقد جوانفيل النية بينه وبين نفسه أن يبقى بفلسطين ، سواء بقى الملك لويس التاسع أو عاد إلى فرنسا ، وأعلن أنه سوف يلتحق بخدمة بوهمند الخامس أمير أنطاكية الصليبية ، أملاً فى تكوين حملة لتخليص الأسرى الصليبيين من أسرهم .

ثم جاء يوم الأحد المحدد لإعلان الملك لويس التاسع ما استقرّ عليه رأيه النهائى ، وهو يوم ٣ يوليه سنة ١٢٥٠م ـ الموافق أول ربيع الثانى سنة ٦٤٨ هـ .

واكتمل عدد الأعضاء من البارونات الصليبيين الفرنسيين والحلبين ، فضلاً عن الأخوين الملكيين شارل كونت آنجو وألفونسو كونت بواتييه . وافتتحت الجلسة حين نهض الملك لويس التاسع ، ورسم بيده علامة الصليب على صدره وجبهته ، وابتهل إلى روح القدس أن يرشده إلى قول الصواب ، ثم قال ما نصه ، نقلاً عن جوانفيل : " أيها السادة ! إنى أشكر كثيرا جميع الذين ينصحوننى بالعودة إلى فرنسا ، وأقدم الشكر كذلك إلى هؤلاء الذين ينصحوننى بالبقاء هنا . أما رأيى فهو أنى لا أجد خطراً على مملكتى من الضياع ، إذا أنا بقيت هنا ، لأنه يوجد حول السيدة الملكة والدتى رجال قادرون على حماية البلاد والدفاع عنها . ثم إنى أخذت بعين الاعتبار كذلك قول بارونات هذه البلاد ، وهو أنه إذا نحن رحلنا سريعاً إلى فرنسا ، فإن دولة بيت المقدس سوف تضيع ، لأن أحداً لا يجرؤ على البقاء هنا بعدى . ولذا رأيت أنى لا أستطيع أن أترك دولة بيت المقدس تفنى ، مهما كلفنى البقاء بقربها من تضحية أو ثمن ، فإنى جئت إلى هنا أصلاً لاستعادتها ولحمايتها . وهذا هو رأيى ، وهو أن أبقى هنا أولاً وآخراً . وأقول لكم أيها السادة الفرسان الحاضرون هنا ، وأقول لجميع الفرسان الآخرين الذين يرون البقاء معى ، أن تعالوا إلىّ ، وقولوا قولاً صريحاً ، وسوف أقدم لكم من الأموال ما يجعلكم تأسفون إذا أنتم قررتم عدم البقاء معى "(١) .

وانتهت مناقشات هذا المجلس الملكى الحاسم ، بتقرير شارل كونت آنجو وألفونسو كونت بواتييه ، ومعظم البارونات الفرنسيين ، أن يعودوا إلى فرنسا فوراً ، على حين أخذ الملك لويس فى الإغداق على الذين اختاروا البقاء معه فى فلسطين ، بأن أدخلهم فى خدمته ، وجعل لهم الرواتب العالية اللائقة من خزانته ، ومنهم جوانفيل ، وأولئك فضلاً عن رجال الحاشية

---

(١) انظر (Joinville : Op. Cit. p. 239) .

الملكية ، أمثال جودفرى سارجين ، وبطرس الحاجب ، وجيل الأسود ، وهو كنداصطبل فرنسا الجديد .

وأبحر شارل كونت آنجو وألفونسو كونت بواتييه ، ومعهما البارونات الفرنسيون ، فى منتصف شهر يوليو سنة ١٢٥٠ م ، بعد أن تركوا فى عكا جميع ما تبقى لهم من أموال كثيرة ، فضلاً عن فرسان وخيالة وعساكر صليبية ، دخلوا كلهم فى خدمة الملك لويس التاسع ، وعدّتهم فى مجموعهم ألف وأربعمائة ، من مختلف الأقاليم الفرنسية . وبقيت الملكة مرجريت البروفنسالية ، وابنها جنا الأحزان ، مع الملك لويس فى فلسطين ، حيث ولدت له ولداً ثالثاً اسمه بطرس ؛ ولم تشأ الملكة أن ترحل مع الراحلين عن الشرق . ثم بعث الملك لويس ، فى أوائل أغسطس سنة ١٢٥٠ م ، إلى جميع رعيته من البارونات والفرسان ورجال الدين الفرنسيين ، وهم الذين لم يشتركوا فى حملته ، خطابه المشهور الذى تقدّمت الإشارة إليه ، وشرح لهم فيه أخباره ، منذ يوم وصوله الأول إلى دمياط إلى يوم خروجه النهائى منها بفلول عسكره . وأفاض الملك لويس فى هذا الخطاب ، فى ذكر أسباب بقائه بفلسطين ، وطلب نجدة فرنسية كبيرة ، ليستطيع بها القيام بحملة صليبية أخرى فى العام القادم ، دون أن يعين لتلك الحملة المرجوّة هدفاً معيناً ، أو ميداناً محدداً ، ما عدا ما ورد فى هذا الخطاب الملكى من إشارة عامة إلى وجوب إعادة العمل على عودة دولة بيت المقدس الصليبية ، دينياً وسياسياً[١] .

ومنذ صار من المعروف أن الملك لويس التاسع باقٍ بالشرق ، لتحقيق هذه الأمنية ، بصورة أو بأخرى ، غدت مدينة عكا مركزاً لحركات دبلوماسية غير متناسقة ، على قول بعض أصدقاء الملك لويس ، لاقتصار معظمها ، على شئون الصليبيين المحليين ، وهم الذين أمست مصالحهم خليطاً من الأغراض

(١) انظر ما سبق هنا ، ص ٢١٩ — ٢٢٠ .

الصليبية الدينية والأطماع السياسية السافرة ، كما أمست دماؤهم خليطاً من الصليبيين الجدد والمستوطنين[١] .

على أن هذه الدبلوماسية المحلية المختلطة ، وما تخلّلها من قلة التجانس ، أشبعت — فيما يبدو — روح التقوى العسكرية المحاربة فى نفس الملك لويس التاسع ، إذ جعلته ملكاً فيصلاً ، بيده الأمر والنهى فيما تبقى من دولة بيت المقدس الصليبية ، ومملكتها الرمزية الباقية بمدينة عكا ، ولا سيما بعد أن سلّمه الوصىّ على تلك المملكة الرمزية مقاليدها تسليماً نهائياً . وجاء إلى عكا وقتذاك مبعوثون من عند الإمبراطور فردريك الثانى هوهنشتاوفن ، ومعهم رسائل ودّية إلى السلطان تورانشاه ، للوساطة فى إطلاق سراح الملك لويس وأخويه وباروناته من الأسر . ولم يكن المبعوثون الإمبراطوريون على معرفة بمقتل السلطان تورانشاه ، وما أعقب مقتله من حوادث ، ولم يحلموا أنهم سوف يرون الملك لويس التاسع حرًّا طليقاً فى عكا ، لاعتقادهم بأنه لم يزل أسيراً فى معتقله بمدينة المنصورة . ولذا عاد المبعوثون أدراجهم ، ويحتمل أنهم مرّوا فى طريق عودتهم على الملك الناصر يوسف الأيوبى صاحب حلب ، ليتعرّفوا منه على تفاصيل الموقف السياسى ، منذ مقتل السلطان تورانشاه .

ومما يرجح هذا الاحتمال أن الملك الناصر يوسف هذا ، وهو حفيد من أحفاد السلطان العظيم صلاح الدين ، أضحى وقتذاك عميد البيت الأيوبى كلّه ، وقبلة الأنظار القريبة والبعيدة بين الملوك الأيوبيين ، ومستودع الآمال فى نهضة الدولة الأيوبية المتحدة ، الشاملة لمصر والشام معاً ، كما كان الحال سابقاً أيام السلاطين صلاح الدين والعادل محمد ، والكامل محمد والصالح نجم الدين أيوب . ولهذه الأسباب القويّة وجد أمراء فرقة

---

(١) انظر (Grousset : Op. Cit. III. p. 496) .

المماليك البحرية الصالحية ، وهم الذين أصبح بأيديهم الحلّ والعقد فى القاهرة ، شيئاً من الصعوبة فى إعلان سلطنة شجر الدر ، ووضحت لهم هذه الصعوبة حين هبّت دمشق ونيابتها ، وحاميتها المكوّنة من الأكراد القيمرية ، ورفضت أن تعترف بالسلطانة شجر الدر ، وامتنعت عن الحلف لها . ثم قام الأمير الكردى جمال الدين بن يغمور ، نائب السلطنة بدمشق ، واستدعى الملك الناصر يوسف من حلب ، لمساعدة دمشق فى موقفها من السلطنة الجديدة . ودخل الملك الناصر يوسف مدينة دمشق بغير قتال ، يوم السبت ٧ ربيع الثانى سنة ٦٤٨ هـ ، الموافق ٩ يوليه سنة ١٢٥٠ م ، أى بعد ستة أيام من إعلان الملك لويس التاسع قراره بشأن إقامته فى عكا إلى حين . ثم لم يلبث الملك الناصر يوسف أن بعث برسالة ودّية إلى الملك لويس فى عكا ، وعرض عليه عروضاً سخية ، مقابل صداقة أيوبية صليبية ناشطة ، ومن هذه العروض أن ينزل الملك الناصر يوسف للملك لويس عن مدينة بيت المقدس نفسها ، إذا هو حالفه حلفاً هجومياً ضد دولة المماليك البحرية الصالحية ، وسلطانتهم شجر الدرّ .

ومن ناحية أخرى ، نهض أمراء فرقة المماليك البحرية الصالحية ، لإحباط حركات الملك الناصر يوسف ، بزواج السلطانة شجر الدر من الأمير أيبك التركمانى ، وإقامته مكانها سلطاناً ، بعد أن نزلت عن منصب السلطنة ، ثم بإعلان طفل من سلالة الفرع الأيوبى اليمنى ، واسمه موسى ، ليكون شريكاً للسلطان أيبك فى السلطنة . غير أن الملك الناصر يوسف لم يُلقِ بالاً لهذه الحركة ، بل أرسل فئة من قواته إلى غزة ، فدخلتها وضمّتها إلى ممتلكاته كذلك بغير قتال ، أواخر جمادى الثانية سنة ٦٤٨ هـ ، أى أواسط أغسطس سنة ١٢٥٠ م . وبذا أصبحت مدن الشام كلها ، من غزة إلى حلب ، فى يد الملك الناصر يوسف وأقاربه من الملوك الأيوبيين ، كما أصبحت طلائع قواته على مقربة من الأطراف المصرية .

ومن باب الردّ على ذلك التحدّى أعلن السلطان أيبك التركمانى أن مصر من ممتلكات الخلافة العباسية ، وأنه ينوب عن الخليفة المستعصم العباسى فى حكومتها وإدارتها . وبناء على هذا الإعلان ، وتطبيقاً لالتزاماته ، أرسل السلطان أيبك الأمير فارس الدين أقطاى الجمدار ، ومعه حملة مملوكية غير صغيرة ، لإخراج عسكر الملك الناصر يوسف من غزة ؛ فناوشهم أقطاى مناوشاتٍ حربيةٍ ناجحة ، وما زال بهم حتى أخرجهم منها عنوة ، يوم الخميس ٨ رجب سنة ٦٤٨ هـ ، الموافق ٦ أكتوبر سنة ١٢٥٠ م .

وبينما هذه المناوشات الحربية الناجحة تجرى بين الطرفين الأيوبى والمملوكى ، تمخّضت المفاوضات التى بدأها الملك الناصر يوسف مع الملك لويس عن مناورة دبلوماسية صليبية حاذرة . وافتتح هذه المناورة مبعوثو الملك لويس التاسع إلى دمشق ، وعلى رأسهم راهب دومنيكانى عارف باللغة العربية ، واسمه أيف البريتونى . وقام هذا المبعوث بتبليغ رسالة ملكية طويلة ، وخلاصتها أن الملك لويس لا يستطيع الدخول مع الملك الناصر يوسف فى حلف ضدّ السلطنة المملوكية وأمرائها بالقاهرة ، أو أن يقبل وعداً بنزول الملك الناصر يوسف عن مدينة بيت المقدس للصليبيين ، إلاّ إذا تأكد أولاً بأن السلطان المملوكى أيبك ، وأمراء الدولة المملوكية ، عازمون على عدم احترام هدنة دمياط ، ممتنعون عن إطلاق سراح الأسرى الصليبيين المبعثرين بأنحاء البلاد المصرية . واختتمت هذه الرسالة بقول الملك لويس التاسع ، بأنه على وشك إنفاذ مبعوثين صليبيين من عكا إلى القاهرة ، لشرح رغباته فى ذلك الصدد للسلطان أيبك ، وأمراء الدولة المملوكية ، فاذا ثبت لدى هؤلاء المبعوثين أن الدولة المملوكية لا تستجيب لهذه الرغبات ، فإنه لن يتردّد فى الدخول مع الملك الناصر يوسف فى الحلف الصليبى الأيوبى المطلوب .

والواقع أن الملك لويس التاسع أرسل إلى القاهرة وفداً صليبياً كبيراً على رأسه حنا فالانسين كونت حيفا ، وهو بحكم جغرافية كونتيته من العارفين بشدة العداء بين السلطنة المملوكية والملوك الأيوبيين . وابتدأ حنا فالانسين جلسة الاجتماع الأول بالمندوبين عن السلطنة المملوكية ، بقلعة الجبل بالقاهرة ، بخطبة فيها نغمة مصطنعة من الاحتجاج الشديد على ما حدث من إتلاف للآلات الحربية والمؤن الصليبية ، قبيل الجلاء الصليبي عن دمياط . ثم تحوّل حنا فالانسين من نغمة الاحتجاج الشديد إلى نغمة الإنذار بالمخاصمة الشديدة ، ثم انقلب من هذا وذاك إلى لهجة ليّنة ، حين أردف نغمة الإنذار بقوله إن ما فات مات على أية حال ، بشرط أن يطلق السلطان أيبك سراح الفرسان الصليبيين وهم الذين لا يزالون فى قبضة السلطنة المملوكية بالقاهرة نفسها ، ولم يتفرّقوا وقتئذ فى عامة البلاد المصرية . ثم اختتم حنا فالانسين خطبته هذه ، بقوله إنه إذا لم يتمّ إطلاق سراح هؤلاء الفرسان الصليبيين ، على وجه السرعة ، فسوف يقوم الملك لويس بمحالفة الغريم اللدود للسلطنة المملوكية ، وهو الملك الناصر يوسف ، كائنة ما تكون النتائج .

ولذا استجاب السلطان أيبك إلى إطلاق سراح عدد كبير من الفرسان الصليبيين ، كما وافق حنا كونت فالانسين بدوره ، نيابة عن الملك لويس التاسع ، على عقد محالفة مع السلطنة المملوكية ضدّ الملك الناصر يوسف ، مع التأكيد للمندوبين عن السلطنة المملوكية ، بعدم الدخول فى أية مفاوضات صليبية أيوبية مستقبلة . وعاد حنا كونت فالانسين إلى عكا بأعداد كبيرة من الأسرى ، بلغت فى مجموعها الكلى ثمانمائة ، منها مقدّم الاسبتارية وليام شاتونيف ، وخمسة وعشرون من فرسان هذه الطائفة ، وخمسة وعشرون من طائفة فرسان الداوية ، وعشرة من طائفة الفرسان التيوتونية ، ومائة من الفرسان الملكيين الفرنسيين ، وأربعون من الفرسان

الشامبانيين ، وذلك فضلاً عن ستمائة من عامة الأسرى[1] ، بالإضافة إلى رفات كونت والتر برين ، وهو الذى مات فى الأسر ودفن بالقاهرة سابقاً ، سنة ١٢٤٤ م ، أى قبل مجىء حملة الملك لويس التاسع وهزيمته فى المنصورة ، بست سنين .

غير أن الملك لويس التاسع لم يقنع بإطلاق سراح هذه الأعداد الكبيرة من الفرسان وغير الفرسان الصليبيين ، على الرغم من أن معظم هؤلاء وأولئك لم يلبثوا أن دخلوا فى خدمته الملكية ، وأسهموا فى تنمية قوته الحربية ، كما أنه لم يظهر شيئاً من الجميل لإعادة رفات بارون صليبى كبير : بعد عدة سنوات من موته بالقاهرة . الواقع أن الملك لويس أراد أن يفترص وقتذاك فرصة سيكولوجية واضحة ، للإمعان فى استغلال ما بين السلطنة المملوكية والملوك الأيوبيين من ضغينة وعداء ، ولم يشأ أن يَدَع هذه الفرصة تمرّ أو تفلت من يده . ولذا استدعى الملك لويس المبعوثين من عند السلطان أيبك ، وهم الذين جاءوا إلى عكا من القاهرة مع حنا كونت فالانسين ، فى ١٩ رجب سنة ٦٤٨ هـ ، الموافق ١٧ أكتوبر سنة ١٢٥٠ م ، وخاطبهم بلغة جافية على غير عادته التى اشتهر بها ، وطلب عودة المزيد من الأسرى الصليبيين ، بالإضافة إلى النزول عن المبلغ المؤجل من الفدية المقرّرة ، وهو مائة ألف قطعة ذهبية إمبراطورية متوّجة ، أى نصف المبلغ الأصلى ، مقابل ما أتلف الدمياطيون من الأثقال والمؤونة الصليبية سابقاً ، وذلك قبل الموافقة على أية محالفة صليبية مملوكية ضدّ الملك الناصر يوسف الأيوبى . وأعاد الملك لويس مبعوثى السلطان أيبك إلى القاهرة بهذه المطالب الكثيرة ، ومعهم حنا كونت فالانسين مرّة أخرى ، وظلّ هذا الكونت بالقاهرة مدة طويلة ، نظراً

---

(١) هنا دليل من الأدلة على عدم صحة الأخبار التى تقدمت الإشارة إليها (ص ٢٠٢ ، ٢٠٩ ، ٢٢٤) ، بشأن إبادة الأسرى الصليبيين ، على اختلاف مراتبهم .

لما طرأ على الموقف السياسى بين الدولة المملوكية والملك الناصر يوسف، من تدهور .

ذلك أن الملك الناصر يوسف عقد النية أخيراً على غزو مصر ، ومحاربة السلطنة المملوكية فى عقر دارها الجديدة ، وأراد بذلك أن يقضى على هذه السلطنة الناشئة ، قبل أن يستوى عودها . ولذا خرج الملك الناصر يوسف من دمشق ، بجيش كبير من المماليك الأكراد ، فى منتصف رمضان سنة ٦٤٨ هـ ، الموافق ١١ ديسمبر سنة ١٢٥٠ م ، ومعه جميع الملوك الأيوبيين بالشام ، على رأس عساكرهم من المماليك الأكراد والأتراك . واقتحم الملك الناصر يوسف وحلفاؤه أطراف الأراضى المصرية ، وزحف شرقاً حتى وصل إلى قرية كراع ، قرب بلدة العباسة ، على مسافة اثنين وعشرين كيلومترا من مدينة الزقازيق الحالية ، ضحوة يوم الخميس ١٠ ذى القعدة سنة ٦٤٨ هـ ، الموافق ٢ فبراير ١٢٥١ م . وهناك التقى جيش الملك الناصر يوسف وحلفائه ، وهو جيش مكوّن من المماليك الأكراد والأتراك ، بالجيش المملوكى بقيادة السلطان أيبك ، وهو جيش مكوّن من المماليك الأتراك فقط . ثم حدث فى أثناء القتال ، فى ذلك اليوم المشهور ، أن انضمت بعض الفئات المملوكية التركية ، من جيش الملك الناصر يوسف وحلفائه ، إلى زميلاتها من الفئات المملوكية التركية المصرية ؛ ولذا انتهى القتال بهزيمة الملك الناصر يوسف ، ورجوعه القهقرى فى سرعة إلى الشام .

ومع أن وقعة العباسة تعدّ بحق من الوقائع الفاصلة فى تاريخ الشرق الأوسط ، لأنها مهّدت للسلطنة المملوكية أن تستقرّ — فيما بعد — فى مصر والشام ، لمدة قرنين ونصف قرن من الزمان ، فإن هذه النتيجة التاريخية لم تتضح إلا بعد أن امتزجت بعوامل أخرى داخلية وخارجية مساعدة . أما الذى اتضح سنة ١٢٥١ م ، برغم انتصار السلطان أيبك والسلطنة المملوكية فى وقعة العباسة ، فهو أن الملك الناصر يوسف ، وحلفاءه من الملوك

الأيوبيين ، ظلّوا قوة ينبغي أن تحاط بجميع أنواع الرقابة واليقظة ، منعاً لزحف أيوبي مرةً ثانية ، نحو الأراضي المصرية .

ولذا أرسل السلطان أيبك مبعوثيه إلى الملك لويس التاسع من جديد ، مزوّدين بعروض مملوكية متضمنة لجميع المطالب التي أصرّ الملك لويس على قبول السلطان أيبك لها ، ثمناً لعقد محالفة مملوكية صليبية ، ضد الملك الناصر يوسف الأيوبي . واستقبل الملك لويس التاسع هؤلاء المبعوثين المملوكيين ، أوائل مايو سنة ١٢٥٢ م ، وهو وقتذاك على مدينة قيسارية ، حيث كان يعمل في ترميم قلاعها وتحصينها ، منذ أوائل الصيام المسيحى الكبير ، أى منذ أوائل مارس من تلك السنة ، من باب الزلفى وطلب المغفرة والندم على ما مضى . وبناء على شروط المحالفة المملوكية الصليبية التى انعقدت بين الفريقين ، تمّ الاتفاق على القيام بحملة مملوكية صليبية مشتركة ، ضدّ الملك الناصر يوسف الأيوبي ، فى أقرب فرصة ، مع التعهد بتسليم مدينة بيت المقدس للملك لويس التاسع ، بعد الانتصار وانتهاء القتال .

وتحمّس الملك لويس التاسع لهذه المحالفة حماسة واضحة ، لأنه فضّل أن يحالف سلطنة مملوكية ناشئة ، وهى تحبو فى مشاكلها حَبْوَ المبتدئ المشغول بكيانه ، عن أن يكون فى جانب دولة أيوبية تستمدّ تقاليدها السياسية من أيام صلاح الدين العظيم ، وسياسته الفحلة . ثم إن السلطنة المملوكية لم تزل على أية حال قابضة على أعداد كبيرة من الأسرى الصليبيين ، سواء بالقاهرة أو بعامة البلاد المصرية . ولذا غضب الملك لويس التاسع غضبة شديدة ، على رئيس طائفة الفرسان الداوية ، وهو ستيفن أوتيكور ، حين علم بأنه يكاد يفسد عليه هذه المحالفة الصليبية المملوكية ، باتفاقاته الخاصة مع الملك الناصر يوسف الأيوبي ، بشأن بعض الأراضى والضياع ، على قاعدة المناصفة الإقطاعية المعتادة فى تلك العصور . وأمر الملك لويس التاسع رئيس الداوية بإلغاء ما تم الاتفاق عليه ، مع الملك الناصر يوسف ، والاعتذار عما قام

به بدون علمه ومشورته ، مع عقاب مندوب الداوية الذى قام بعقد تلك الاتفاقات فى دمشق ، وذلك بنفيه من البلاد الصليبية بالشرق .

ثم تقرّرت الخطة الحربية للقيام بالحملة المملوكية الصليبية المشتركة ، وهى أن يزحف الملك لويس التاسع من ناحية قيسارية إلى يافا ، لاحتلالها ، على حين يزحف السلطان أيبك من الأراضى المصرية إلى غزة ، بحيث يتمّ اتصال الزحفين المملوكى والصليبى عند موضع متفق عليه ، بين يافا وغزة ؛ فى ربيع الأول سنة ٦٥٠ هـ ، أى منتصف مايو سنة ١٢٥٢ م . ثم لم تلبث أخبار هذه الحملة المملوكية الصليبية المشتركة أن تسربت إلى الملك الناصر يوسف ، فأسرع إلى غزة بجيش عدته أربعة آلاف مقاتل ، واستولى عليها ؛ وبذا تغيرت أوضاع الحملة المملوكية الصليبية ، المشتركة ، وتحتّم على الطرفين تأجيل عملياتهما الحربية . ومع هذا زحف الملك لويس التاسع إلى يافا ، بجيشه الصليبى الصغير الذى لم يزد وقتذاك عن ألف وأربعمائة مقاتل ، أملاً منه فى أن يتحرّك السلطان إيبك ، عاجلاً أو آجلاً بجيش مملوكى كبير نحو غزة ، وأن تتكرّر الهزيمة التى لحقت بالملك الناصر يوسف سابقاً على أيدى الجيوش المملوكية التركية ، عند العباسة . ولذا قبع الملك لويس فى يافا مدة سنة تقريباً ، فى انتظار هذه النتيجة ، وعمل فى أثناء إقامته هناك على تقوية حصون يافا ، واشترك بنفسه فى ذلك العمل .

غير أن السلطان أيبك لم يقم بأية حركة حربية ، أو غير حربية ، لتنفيذ نصيبه من الحملة المملوكية الصليبية المشتركة ، وذلك لانشغاله بمشاكل داخلية كثيرة ، وقبوله الصلح مع الملك الناصر يوسف ، على شروط اقترحها الخليفة المستعصم العباسى ، لكى يصبح الشرق الأوسط جبهة متحدة أمام الخطر المغولى الداهم . على أن السلطان أيبك حرص على الوفاء بالوعود الأخرى من اتفاقيته مع الملك لويس التاسع ، فأعاد إليه — وهو فى يافا — أعداداً من الأسرى الصليبيين ، على دفعات متتالية ، بلغت

فى مجموعها الكلى ، حسبما جاء فى المخطوطة الروتلانية وغيرها من المراجع الصليبية ، أكثر من ثلاثة آلاف ، ما بين رجال ونساء وأطفال ، فضلاً عن رفات وجماجم كثيرة مجهولة[1] ؛ وكل ذلك مقابل ثلاثمائة من الأسرى المصريين والشاميين . واحترم السلطان أيبك وعده كذلك بشأن النزول عن النصف المؤجل من الفدية المقررة ، وهو مبلغ غير صغير ، وأرسل إلى الملك لويس التاسع فيلاً وزرافة وتحفاً أخرى مصنوعة من البللور ، وعطوراً . فى زجاجات بللاورية ، من باب الهدية ، بل يقال إنه سمح لمبعوثين صليبيين أن يحضروا مرة ثانية إلى البلاد المصرية ، للبحث عمن عساه يكون باقياً بأرجائها من بقايا الأسرى الصليبيين .

والخلاصة أن الحلف بين السلطان أيبك والملك لويس التاسع انتهى إلى لا شيء ، ما عدا إطلاق سراح أعداد كبيرة من الأسرى الصليبيين ، وهو ما لم تتردد السلطنة المملوكية فى الوفاء به ، بالإضافة إلى النزول عن النصف المؤجل من الفدية المقررة ، وهو ما وعد الملك لويس سابقاً بتأديته ، نظير أولئك الأسرى ، ثم نكث بوعده حين غدا حراً طليقاً ، بعيداً عن شئون السلطنة المملوكية .

ومع هذا كله لم يفكر الملك لويس التاسع فى العودة إلى فرنسا ، بل ظل فى فلسطين سنتين أخريين ، وهو يعلل النفس بآمال صليبية عريضة . وشجعته البيئة السياسية المحيطة به ، على احتضان تلك الآمال الصليبية العريضة ، مع العمل على إعداد العدة الممكنة لديه لتحقيقها ، بترميم قلاع عكا وحيفا وقيسارية ويافا ، وتحصينها وشحنها بالرجال والمؤن والأسلحة ، وهى التى حصل عليها من مختلف المصادر المحلية ؛ المحدودة . وبذلك استطاع الملك لويس — على الأقل — أن يمد فى عمر السيطرة الصليبية على بعض تلك البلاد أربعين سنة أخرى .

---

(١) هذا دليل آخر ؛ للبرهان على عدم صحة أخبار قتل الأسرى الصليبيين جميعاً ، فى شرمساح ودمياط . انظر ما سبق ص ٢٤٨ .

على أن جهود الملك لويس التاسع لم تقتصر على تلك الأعمال التحصينية والاستعدادية ، بل تعدتها إلى النهوض لحماية بعض المدن الصليبية ، مثل صيدا ، من تحركات الملك الناصر يوسف ضدها ، أواخر سنة ١٢٥٣ م ، فضلاً عن القيام بتسوية مشاكل الوراثة فى إمارة أنطاكية ، ومملكة قبرص ؛ وكلّ ذلك ليجعل من البقايا الصليبية بفلسطين قوةً حربية ، بحيث تستطيع أن تؤازر ما سوف يأتى إليه من أوربا ، من حملة صليبية مأمولة .

وفى سبيل ذلك كذلك ، عمد الملك لويس التاسع إلى عقد محالفة ودّية مع هيئة الباطنية الفدائيين ، وهى هيئة شديدة العداء نحو الدول السنيّة فى الشرق الأوسط . وخلاصة ذلك أنه بينما بقى الملك لويس التاسع مقيماً فى عكا ، جاء إليه مبعوثون من عند رئيس تلك الطائفة وقتذاك ، واسمه أبو الفتوح بن محمد ، وهو المعروف وغيره من رؤساء تلك الطائفة باسم شيخ الجبل ، نسبة إلى القلاع الجبلية التابعة له ، على طول الطريق بين مدينتى حماة وطرابلس الشام ، ولا سيما قلعة مصياف ، وهى العاصمة . ودوّخت تلك الطائفة زعماء المسيحيين والمسلمين سواء ، ومات كونت مونتفرات على أيدى فدائى من فدائييّها ، ولم ينج السلطان صلاح الدين من خناجرها المسمومة إلا بأعجوبة من صنع المقادير . وجاء المبعوثون الفدائيون إلى حضرة الملك لويس التاسع بعكا ، صبيحة يوم من ديسمبر سنة ١٢٥٠م ، فاستقبلهم الملك لويس استقبالاً فوق العادة ، إذ سمح لهم أن يجلسوا فى حضرته ، مدججين بسلاحهم وأدوات غدرهم . فجلس كبيرهم بملابسه الحربية المزرّدة ، وجلس وراءه مبعوث آخر فى يده ثلاثة خناجر ، مقابضها متداخلة بعضها فى بعض ، لتقديمها للملك لويس إذا فشلت مفاوضاتهم معه ، ثم مبعوثٌ ثالثٌ ملفوفٌ حول ذراعه كفنٌ من قماش أبيض خشن ، لتقديمه كذلك للملك عقب تقديم الخناجر .

وتغاضى الملك لويس التاسع عن هذا وذاك ، من مظاهر العنف والتحدى والتهديد ، لعزمه على كسب صداقة هذه الطائفة . ولذا بدأ الملك لويس بأن سأل كبير المبعوثين عن سبب قدومه ، فناوله هذا المبعوث الكبير رسالة مكتوبة من عند شيخ الجبل ، وأعقبها بسؤال شفوىّ فيه إيهام واعتداد بقوة الطائفة الباطنية ، إذ استفهم هذا المبعوث الكبير إذا كان الملك لويس يعرف شيخ الجبل ، فأجاب الملك لويس بأنه يسمع به طول حياته ، دون أن يراه ، ولذا فهو لا يعرفه شخصياً . وعند ذلك اقترح هذا المبعوث الكبير على الملك لويس أن يبرهن على رغبته فى مصادقة شيخ الجبل : بأن يؤدّى له مالاً سنوياً ، ليضمن به حيدة الشيخ والطائفة الباطنية ، فى مستقبل الحوادث بين الصليبيين والمماليك ، كما فعل الإمبراطور فردريك الثانى وملك المجر ، وسلاطين مصر أنفسهم ، على قول هذا المبعوث الكبير ، مع العلم بأنه لا يوجد بالمراجع أىّ دليل على صحة هذا القول . غير أن الملك لويس التاسع لم يؤخذ بهذا التهديد ، ورفض التعهد لشيخ الجبل وطائفته بمال أو غيره .

لذا انقلب المبعوث الكبير إلى طلب إعفاء الطائفة الباطنية ، مما تدفعه من المال لهيئتى الفرسان الداوية والاسبتارية ، فى سبيل تأمين مواصلاتها بين قلاعها الجبلية المشهورة . ووافق الملك لويس على ذلك الطلب ، لأنه لن يكلفه شيئاً ، بل سوف تخسر هاتان الهيئتان بسببه بعض الأموال التى تتكدس لديهما عاماً بعد عام . واستدعى الملك لويس مقدمى هاتين الهيئتين إلى حضرته . عصر ذلك اليوم ، وتمّ الاتفاق على الإعفاء المطلوب ، على أن يصادق شيخ الجبل على ذلك الاتفاق مصادقة رسمية ، ويدخل مع الملك لويس فى معاهدة دفاعية هجومية عامة .

وذهب المبعوثون الفدائيون بتلك الشروط إلى شيخ الجبل ، وعادوا من عنده إلى عكا بهدية فاخرة للملك لويس ، وهى تحتوى على فيل

وزرافة وكرة ، وكلها من البللور الصافى الدقيق الصنع ، بالإضافة إلى طاولة وشطرنج ، من الخشب المطعّم بالعاج والأبنوس والذهب ؛ وكل ذلك فى صناديق مضمخة بالعنبر النادر ، كأنما كان المقصود أن تكون تلك الهدية أكثر فخامة وأغلى ثمناً من سابق هدية السلطان أيبك إلى الملك لويس التاسع . فلما فتح المبعوثون الفدائيون صناديق هديتهم ، فى حضرة الملك لويس ، فاحت منها رائحة زكية ملأت أرجاء الحضرة الملكية . وأجاب الملك لويس التاسع على تلك الهدايا بمجموعة من الأحجار الثمينة ، وكمية من القماش القرمزى ، وعدة أقداح من الذهب ، فضلاً عن سرج من الفضة ؛ وأرسل معها سفيراً عارفاً باللغة العربية تمام المعرفة ، وهو أيف البريتونى . وأعجب السفير إيف بمكتبة الطائفة الباطنية ومحتوياتها ، فى بلدة مصياف العاصمة ، ولا سيما كتاب فيه موعظة للسيد المسيح إلى القديس بطرس . وزار هذا السفير شيخ الجبل ، وقدم إليه هدية الملك لويس ، وشهد خرجة شيخ الجبل وموكبه اليومى ، وذكر أنه يركب وأمامه أحد الجاويشية حاملاً بلطة حربية ثقيلة ، فى عودها الخشبى عدد من الخناجر ، مرشوق فى جوانب العود ، والجاويشية تنادى فى الناس : " افسحوا للذى بيده أرواح الملوك "(١) .

وبينما الملك لويس التاسع مقيم فى مدينة قيسارية ، وصلت إليه فى أبريل سنة ١٢٥٢ م ، بعثته الشهيرة التى أوفدها قبلاً من قبرص إلى بلاد المغول ، أى قبل ذهاب حملته إلى مصر ؛ وكان أعضاؤها ثلاثة من الإخوان الدومنيكان ، وهم أندرو لونجيموه ، ووليام لونجيموه ، وحنا الكركسونى . وأحضرت البعثة معها رسالة شامخة متلطفة ، من عند الأميرة أوغول قايميش ، وهى الوصية على العرش المغولى الأعظم ، بعد وفاة زوجها كيوك خان . لكن هذه

---

(١) انظر (Joinville : Op. Cit. p. 247-255) .

الرسالة لم تذكر شيئاً عن وعود التحالف والمعونة الحربية ، وهى الوعود التى جاء بها مبعوثون مغوليون سابقاً إلى قبرص[1] .

ودلّ ذلك كله على أن البعثة الصليبية إلى بلاد المغول ، وهى التى استغرقت فى رحلتها أكثر من سنتين ، عادت دون أن تحقق شيئاً مذكوراً . ورضى الملك لويس التاسع بهذه النتيجة السالبة المحيّرة ، وربما أقنع نفسه أن أميرةً وصيةً ، مؤقتةً على العرش المغولى الأعظم ، لم يكن باستطاعتها شيء سوى أن تعمد إلى عبارات تقليدية متعالية ، مما درج خانات المغول على توجيهه ، للمجاورين وغير المجاورين لهم من ملوك الشرق والغرب . ولذا لم يقطع الملك لويس الأمل فى مفاوضات مغولية مستقبلة ، لعلها تكون أحسن نتيجةً وأقلّ استعلاءً ، من ناحية المغول .

ثم وصل إلى مسامع الملك لويس التاسع ، فى أوائل سنة ١٢٥٣ م ، أن خاناً مغولياً اعتنق المسيحية ، وهو سارتاك بن باطو . فلم يكد هذا الخبر يصل إلى الملك لويس ، حتى خيل إليه أن جميع آماله الصليبية قريبة التحقيق . ولذا أنفذ الملك لويس إلى بلاط هذا الخان الجديد ، على نهر فولجا ، بعثة مكوّنة من أخوين دومنيكانيّين اثنين ، وهما وليام الروبريكى وبارتلوميو الكريمونى ، وكلّفهما بطلب المعونة المغولية الحربية ، على وجه السرعة ، نجدةً من الخان المغولى الكريم لإخوانه المسيحيين بفلسطين ، وابتغاءَ القيام بحملة صليبية مغولية عاجلة ، ضد السلطنة المملوكية . غير أن سارتاك خان لم يكن مسيحياً ، بل وثنياً متسامحاً نحو الديانات الإسلامية والمسيحية والبوذية ، شأن كثير من المغول فى تلك المرحلة من تاريخهم . ثم إن سارتاك ، وهو خان إقليمى صغير ، لم يملك من السلطان ما يستطيع به أن يعقد أية محالفة خارجية ، دون إذنٍ من الخان المغولى الأعظم ، وهو وقتذاك منكو خان . ولذا أرسل سارتاك مبعوثى الملك

---

(١) انظر ما سبق ، ص ٩٧ ، وغيرها .

(لوحة رقم ٥ ، بين صفحتى ٢٥٦ ، ٢٥٧) .



صورة تمثال من الخشب للملك لويس التاسع ، وهى مأخوذة من (Joinville : The History of St- Louis. Trans. Evans) نقلا عن التمثال الأصلى الذى يرجع إلى سنة ١٢٦٠ م تقريبا ، وهو موجود فوق المنضدة الخلفية لمذبح كنيسة سانت شابل ، فى باريس .



لويس إلى بلاط منكو خان ، حيث وجدوا استعدادات قائمة على قدم وساق ، لبداية هجوم مغولى عام ، ضد غرب آسيا والشرق الأوسط الإسلامى كله . لكن حلفاً مغولياً صليبياً لم يتم ، لأن منكو خان لم يشأ أن يعترف بالملك لويس التاسع ، أو بغيره من الملوك القريبين والبعيدين ، على أنهم أسوياء محالفون للخان المغولى الأعظم ، لأنهم فى نظره تابعون ، تجب عليهم الطاعة والخضوع ، ولا تنبغى لهم المطالبة بمحالفة أو معاهدة . ولذا عادت البعثة الصليبية إلى عكا ، لتبليغ الملك لويس التاسع هذه النتيجة البئيسة ، فوجدت أن الملك لويس رحل نهائياً عن فلسطين ، إلى فرنسا .

هكذا انتهت جميع الآمال والمآرب التى احتضنها الملك لويس التاسع ، مدة إقامته بفلسطين ، وكان أولها أمله فى حملة صليبية كبيرة تأتى إليه من أوربا . غير أن ذلك الأمل لم يلبث أن تبدد ، لأن فكرة هذه الحملة وُلدت ميتة ، منذ أواسط ١٢٥٠ م . ومن الدليل على ذلك أن هنرى الثالث ملك إنجلترا نذر وقتذاك أن يذهب إلى فلسطين ، على رأس فرقة إنجليزية ، للاشتراك فى هذه الحملة الصليبية الجديدة ، تلبية لدعوة البابا إنوسنت الرابع ، ثم اضطر الملك هنرى أن يطلب من هذا البابا نفسه أن يعفيه وباروناته من هذا النذر ، إلى أجل غير مسمى . يضاف إلى ذلك أن أخوى الملك لويس ، وهما شارل كونت آنجو وألفونسو كونت بواتييه ، وغيرهما من كبار البارونات الفرنسيين ، رفضوا الاشتراك فى إرسال أية مساعدة صليبية إلى أخيهم من فرنسا . ثم إن الحركة الفرنسية المعروفة باسم الباستوروه ، أى حركة الرعاة ، قامت فى فرنسا للمطالبة بعودة الملك لويس إلى بلاده ، والاحتجاج على البابوية ورجال الدين ، وسائر الدعاة لحملة صليبية ، من طراز الحملات الصليبية السابقة ، اعتقاداً منهم أنهم هم الوحيدون الذين يصلحون للقيام بحملة صليبية جديدة . وجهر البارونات الفرنسيون بانتقادات مريرة ضد البابا إنوسنت الرابع ، لأنه هو الذى دعا

إلى هذه الحملة ، ولا سيما بعد أن علموا بأنه رسم بأن تزحف فئات هذه الحملة أولاً على إيطاليا ، لمحاربة عدوّ البابوية وقتذاك ، وهو الإمبراطور كونراد بن فردريك الثانى هوهنشتاوفن ، لا إلى عكا أو غيرها من المدن الصليبية المحتضرة . ثم إن الملكة الوالدة بلانش القشتالية هدّدت بمصادرة أملاك المستجيبين لدعوة البابا إنوسنت الرابع ، من الفرسان الفرنسيين ، ولم تفكر ألبتة فى إرسال أية نجدة حربية لابنها بفلسطين ، خشية إطالة مدة بقائه فى عكا ، بل ساعدت الملكة بلانش حركة الباستورو ه المنادية بعودة الملك لويس إلى فرنسا ، ولم تقطع مساعداتها عن هذه الحركة ، إلا بعد أن تطوّرت أعمال الباستورو ه أنفسهم إلى هستيريا صليبية عنيفة .

ثم ماتت الملكة الوالدة بلانش القشتالية ، فى نوفمبر سنة ١٢٥٢ م ، ومع هذا بقى الملك لويس التاسع فى عكا مدّة غير قصيرة ، لتسوية ما تبقى من مشاكل صليبية محلية فى فلسطين ، كأنما هو موكّل بتسويتها بنفسه ، ومنها إقامة الأميرة الوالدة كونستانس وصيةً على مملكة قبرص ، فى يناير سنة ١٢٥٣ م ، لتحلّ هذه الوصية محلّ ابنها هيو الثانى فى الحكم ، ومنها زواج بوهمند السادس أمير أنطاكية من ابنة هيثوم ملك أرمينية الصغرى ، فى أوائل سنة ١٢٥٤ م ، توكيداً لإنشاء حلف صليبى قوىّ دائم ، ضد مملكة حلب الأيوبية .

وأخيراً استطاع الملك لويس التاسع أن يبرح عكا ، فى أبريل سنة ١٢٥٤م ، وأن يصل إلى فرنسا فى يوليه من تلك السنة ، حيث وجد مشاكل فرنسية داخلية وخارجية كثيرة ، وهى كفيلة باستهلاك نشاطه لعدة سنين . غير أنه لم يقنط من احتمال قيام حملة صليبية فى المستقبل القريب ، أو البعيد ، ولم ينزل قيد أنملة عن فكرة قيادتها وتوجيهها بنفسه يوماً من الأيام . الواقع أن الملك لويس التاسع لم ينس مملكة بيت المقدس الصليبية ، سواء فى مبناها الجغرافى ، أو فى معناها السياسى الدينى ، رغم مشاغله السياسية الفرنسية الكثيرة ، وتدهور أحواله الصحية ، سنة بعد أخرى . ومن

الدليل على ذلك كله أن الملك لويس حرص على إرسال مبلغ كبير من المال سنوياً ، إلى مندوبه جودفرى سارجين ، للصرف على الكتيبة الفرنسية التى لبثت فى عكا بعد رحيل الملك لويس ، لتظلّ هذه الكتيبة عربوناً حياً للحملة الصليبية المنتظرة .

ولكبار المحدثين من المؤرخين الأوربيين ، أقوال وآراء فيما أفادته حملة الملك لويس التاسع على مصر . وهى تختلف فيما بينها بعض الاختلاف ، لكنها كلها صادرٌ بالطبع عن زوايا أوربية مختلفة الأشكال ، كاختلاف الزوايا الهندسية فى أشكالها ، فهى حادة ضيّقة أحياناً ، أو قائمة معتدلة بالقياس إلى سابقتها ، أو منفرجة رحيبة الأفق ، وهذه الزاوية الثالثة هى أقرب الزوايا اعتدالاً فى كتابة التاريخ ، لاتساعها النسبى ، واستطاعتها أن تكون مصدراً لوجهات نظرٍ ، متباينة متوافقة فى آن واحد . واختلاف أشكال هذه الزوايا ، فضلاً عن اختلاف الأقوال والآراء الصادرة عنها ، دليلٌ على سلامة ما ورد فى الصفحة الأولى من صفحات هذا البحث ، من إشارة إلى الزاوية الجديدة التى اتخذها المؤلف مصدراً لبحثه ، دون تغيير أو تبديل فى الحقائق التاريخية ، أو ترتيبها الزمنى ، أو تفضيل بعضها على بعض ، إلا من حيث تاريخيتها ، مع إعطاء كلّ حقيقة منها نصيبها من الاهتمام .

وليت لمؤرخٍ واحدٍ أن يلمّ تمام الإلمام بجميع اللغات الأوربية الحديثة ، فيحصى من مؤلفاتها المعتمدة فى الأوساط العلمية ، جميع الأقوال والآراء حول حملة الملك لويس التاسع ، ليستخلص منها فى سهولة ووضوح ، أن كتابة التاريخ من زوايا مختلفة الأشكال عملٌ علمىّ سليم ، وأن الموضوعية المطلقة ، المجرّدة عن الطبائع البشرية ، ضربٌ من المحال فى البحث التاريخى ، لأن لكلّ مؤرخ زاويته الجغرافية والثقافية والحضارية ،

وهو لا يستطيع التحلل من أية واحدة منها ، مهما طرأ عليه من طارئ عابر(١) .

على أن الطاقة الشخصية لمؤلف هذا البحث ، لا تستطيع أن تتعدّى مجموعة محدودة من المؤرخين ، فى اللغتين الفرنسية والإنجليزية فحسب ، وأول هذه المجموعة هنا ، على سبيل المثال لا الحصر أو الترتيب ، هو المؤرخ الفرنسى جروسيه ، وهو الذى يفتتح كتابته الطويلة الضافية ، فى حملة الملك لويس التاسع على مصر ، بقوله فى كثير من التفاخر : " إن حملة الملك القديس لويس اصطبغت بصبغة فرنسية خالصة ، وهى الصبغة التى تميّز هذه الحملة من سائر الحملات الصليبية السابقة . ومع أن معظم الحملات الصليبية السابقة اشتملت على أغلبية عددية من الفرنسيين ، فإن ذلك لم يغيّر من كونها — من ناحية الاسم — حملات صليبية عامة ، مشتركة بين الممالك الأوربية ، وأسهم فيها العالم المسيحى كله . أما حملة الملك لويس التاسع ، فتبدو لنا على عكس ذلك ، لأنها برغم ما أسبلته عليها قداسة زعيمها وقائدها من مسحة دينية عميقة . هى أول حملة استعمارية قامت بها مملكة فرنسا فى الشرق "(٢) .

غير أن هذه النّعرة الفرنسية ، وهى نُعرةٌ كليلهٌ عن إدراك عيوب حملة الملك لويس التاسع وقيادتها ، لا تستطيع أن تجد صدىً فى غير الفرنسيين من المؤرخين ، ومثال ذلك المؤرخ الإنجليزى أومان ، وهو الباحث الحربى الناقد . إذ يصف الكارثة الصليبية فى المنصورة ، بأنها درس من الدروس

---

(١) انظر فيشر : تاريخ أوربا العصور الوسطى ، ترجمة زيادة والعرينى والعدوى ، صفحة ه .

(٢) انظر (Grousset: Op. Cit. III, p. 428) . ويلاحظ أن جروسيه المؤرخ يريد هنا أن يباهى بنزعة استعمارية فرنسية ، فى حملة الملك لويس التاسع ، وأن يشيد بما لفرنسا نتيجة لذلك من سبق فى مضمار الاستعمار ، دون غيرها من الممالك الأوربية فى العصور الوسطى ، مع العلم بأن جوانفيل نفسه ، وهو المؤرخ الفرنسى الذى اشترك بشخصه وماله فى هذه الحملة ، لم يذكر شيئاً من تلك النزعة الاستعمارية .

الحربية الدالة على " أن غلطة تتولّد فى ثنايا استراتيجية خاطئة تستطيع أن تؤدى منطقياً إلى خطط حربية خاطئة . . . ولذا كانت كارثة الصليبيين فى المنصورة خاتمة حربية سيئة ، لزحف سيء التدبير . للاستيلاء على مصر "(١)..

أما رانسيمان وهو المؤرخ الإنجليزى الثانى هنا ، ومؤلّف أحدث الكتب فى تاريخ الحروب الصليبية ، فيختتم ماكتبه فى حملة الملك لويس التاسع على مصر ، بقوله : " إنه كان من اليسير على الملك لويس التاسع أن يعلن أن كارثة حملته آية من آيات العناية الإلهية ، ابتلاه الله بها ، ليعلّمه درساً فى فضيلة الخضوع والرضى بقضاء الله . لكن الملك لويس لا بدّ أنه فكّر وتأمّل فى الثمن الذى دفعه ، من أجل هذا الدرس ، وهو تضحيته بعدّة آلاف من أرواح الأبرياء "(٢) . ولا يكتفى رانسيمان بهذه النغمة اللوّامة الناقدة ، بل يقول فى نغمة أشدّ لوماً ونقداً : " إن حملة الملك القديس لويس على مصر ورّطت الصليبيين بفلسطين فى كارثة عسكرية مروّعة . وبالرغم من أن بقاء الملك لويس فى عكا ، لمدة أربع سنوات ، ساعد كثيراً على تعويض ما خسرته القضية الصليبية من سمعة ، فإن الخسارة فى الأرواح لم تكن شيئاً يمكن تعويضه . وكان الملك لويس التاسع أنبل عظماء الصليبيين خُلُقاً ، غير أن الدولة الصليبية بفلسطين ربما كانت أسعد حالاً ، لو أنه بقى فى فرنسا لم يغادرها ، لأن هزيمته كانت أعمق أثراً من أية هزيمة صليبية سابقة . وذلك لأن الملك لويس عاش طول حياته رجلاً فاضلاً يخاف الله ، ومع هذا ابتلاه الله بهزيمة حربية كبيرة . وفيما مضى من الحروب الصليبية كانت هزائم الصليبيين تُفسّر على أنها جزاء إلهىّ على ما ارتكبوه من جرائم وآثام ، لكن مثل هذا التفسير الساذج لا يمكن الأخذ به فى تعليل هزيمة القديس لويس . فهل لنا أن نستنتج من ذلك

(١) انظر (Oman : Op. Cit. I. pp. 320,340) .

(٢) انظر (Runciman : Op. Cit. III. p. 274) .

أن هزيمة الملك لويس التاسع فى مصر ، كانت نتيجة لغضب الله على الحركة الصليبية كلها ؟ "[١] .

وهذا السؤال قديم متداول بين أجيال الباحثين فى تاريخ الحروب الصليبية ، وينتهى نسبه زمنياً إلى أواخر القرن الثالث عشر الميلادى ، حين تصدّى جماعة من الكتاب الأوربيين المسيحيين لتعليل أسباب الهزائم الصليبية ، ولاسيا هزيمة الملك لويس التاسع فى مصر ، فى مقالات مشهورة رفعوها إلى الكرسى البابوى . وهذه المقالات تشغل جزءاً كبيراً من كتاب معروف فى نقد الحروب الصليبية ، وهى فى ذاتها دليل على شكوك من فئة المفكرين المسيحيين منذ العصور الوسطى ، فى جدوى تلك الحروب ، عند الله رب العالمين[٢] .

---

(١) انظر (Runciman : Op. Cit. III. p. 289) .

(٢) انظر (Throop : Criticism of the Crusades, pp. 56-58,155) .

مَلَاحِقُ



ملحق رقم ١

أخبار حملة الملك لويس التاسع على مصر ، منذ قدومها إلى الشواطئ المصرية إلى جلائها نهائياً عن دمياط ، وهى منقولة من مخطوطة ابن واصل : مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب (تاريخ الواصلين ، ج ٢ ، ص ١٣٥٦ – ١٣٧٤) . انظر صور شمسية بدار الكتب المصرية ، رقم ٥٣١٩ ، تاريخ ، وهذه الصور الشمسية مأخوذة من نسخة خطية من هذا الكتاب ، بالمكتبة الأهلية بباريس[1].

(١٣٥٦) ذكر وصول الفرنج إلى الديار المصرية وتملكهم ثغر دمياط

قال (٣٥٦ ب) ولما كانت ثانى ساعة من نهار يوم الخميس ، لتسع بقين من هذه السنة ، وهى سنة سبع وأربعين وستمائة ، وصلت مراكب الفرنج ، وفيها جموعهم العظيمة ، وقد انضمت إليهم إفرنج الساحل جميعها ، فأرسوا فى البحر بإزاء المسلمين .

---

(١) هذا الملحق والذى بعده مادة تاريخية معاصرة ، وكل منهما مأخوذ من مؤرخ خاص ، وهو فى كل من الحالين شاهد عيان للحوادث . وهذه المادة التاريخية بطبيعتها خامة أولية أصلية ، وبها من تبعات هذه الصفات ومستلزماتها ما يتطلب اختبارها أولاً بالجرح والتعديل ، فضلاً عن ضرورة مقارنتها وموازنتها بغيرها من المادة التاريخية بالمراجع المشابهة ، قبل استخدامها على أنها حقائق تاريخية مقبولة . ولذا سوف يجد القارئ بهذين الملحقين عبارات وتواريخ وإشارات لم يأخذ المؤلف بها فى فصول هذا الكتاب ، لعدم وجود ما يؤيدها من المراجع الأخرى ، أو لرجحان المادة التاريخية فى تلك المراجع الأخرى على الوارد بهذين الملحقين هنا ، أو لعدم علاقتها المباشرة بموضوع الكتاب .

وفى هذا اليوم ، وهو يوم السبت ، شرعوا فى النزول إلى البحر الذى فيه المسلمون ، وضربت خيمة الملك أريدافرنس ، وكانت حمراء . وناوشهم[1] بعض المسلمين بعض المناوشة . فاستشهد فى ذلك اليوم الأمير نجم الدين بن شيخ الإسـلام ، رحمه الله ، وقد قدّمنا ذكره ، وأنه كان هو وأخوه شهاب الدين يؤنسان الملك الصالح [نجم الدين أيوب] ، وهو بالكرك ، بأمر الملك الناصر داود لهما بذلك ؛ وكان [الأمير نجم الدين بن شيخ الإسلام] رجلاً صالحاً . واستشهد أيضاً من أمراء مصر أمير يقال له الوزيرى .

ولما أمسى المسلمون ، رحل بهم الأمير فخر الدين يوسف بن شيخ الشيوخ . وقطع بهم الجسر إلى الجانب الشرقى الذى فيه دمياط ، وخلا البرّ الغربى للفرنج .

ولما عدّى[2] فخر الدين يوسف بن شيخ الشيوخ والعسكر إلى البرّ الشرقى . (٣٥٦ ب) رحل العسكر طالباً أشمون طناح . وحصل عند العسكر ضجيج ، بسبب مرض السلطان الملك الصالح نجم الدين[3] أيوب ، ولم يكن لهم من يردّهم ولا يردعهم ، فرحل فخر الدين يوسف بن الشيخ من جهة أشمون طناح .

وخلا البر الشرقى من عساكر المسلمين ، فخاف أهل دمياط على أنفسهم أن يُستحصَروا . وكان فيهم جماعة من الكنانية شجعان ، فألقى الله

---

(١) فى الأصل " وناوشوهم " ، والتصحيح يقتضيه السياق . وسوف يقتصر تحقيق هذا الملحق بصفة نهائية صغرى من تعديل بحذف أو إضافة ، أو ترقيم أو ضبط ، أو تصحيح بعض الأسماء وتصويبها ، كما فى هذه الصفحة . أما شرح المصطلحات التاريخية ، والأعلام الجغرافية ، فيمكن الرجوع من أجلها إلى فهارس كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك للمقريزى ، وغيرها من الفهارس المطبوعة المشابهة ، ومنها ما سوف يظهر قريبا فى آخر الجزء الثالث من طبعة كتاب مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب ، لابن واصل ، بتحقيق الدكتور جمال الدين محمد الشيال ، وهو الذى سمح لى بنقل صفحات هذا الملحق ، من الصور الشمسية التى عنده ، قبل ظهورها فى الطبعة المشار إليها .

(٢) فى الأصل " عدا " .

(٣) فى الأصل " نجم الدين بن ايوب " ، وهو خطأ ، والصحيح ما بالمتن .

سبحانه وتعالى الرعب فى قلوبهم ، فخرجوا هم وأهل دمياط على وجوههم طول الليل . ولم يبق بدمياط أحد ، بل تركوها صفراً من الرجال والنساء والصبيان ، ورحلوا مع العسكر هاربين إلى أشموم طناح .

وكان هذا فعلاً قبيحاً منهم ، ومن فخر الدين والعساكر ، فإن فخر الدين يوسف لو منع العسكر من الهرب ، وأقام ، لامتنعت دمياط ، فإن دمياط فى الكرّة الأولى لما نازلها الفرنج أيام الملك الكامل ، كانت أقلّ ذخائر وعدداً[1] ، ولم يقدر الفرنج عليها إلا بعد سنة . فلما نوزلت سنة خمس عشرة وستمائة ، وأخذت سنة ست عشرة وستمائة ، لم يتمكن العدوّ منها إلا بعد أن فنى أهلها بالوباء والجوع .

والكنانية وأهل دمياط لو غلّقوا أبوابها ، وتحصّنوا بها ، بعد رجوع العسكر إلى أشموم طناح ، لما قدر الفرنج عليهم ، وكانت العساكر ردّت إليهم ، ومنعت [الفرنج] عنهم ، والأقوات والآلات والعدد كانت عندهم فى غاية الكثرة ، فكانوا قدروا على حفظها سنتين ، أو أكثر من ذلك ؛ ولكن إذا أراد الله أمراً فلا مردّ له .

ولكن أهل دمياط كانوا معذورين ، لأنهم لما رأوا هرب العساكر ، وعلموا مرض السلطان ، خافوا أن يستمرّ عليهم الحصار مدة طويلة ؛ فيهلكوا جوعاً ، كما هلك أهل دمياط فى المرة الأولى .

قال ولما أصبح الصباح يوم الأحد ، لسبع بقين من صفر ، جاء الفرنج إلى دمياط ، فوجدوها صفراً من الناس ، وأبوابها مفتحة ، فملكوها صفواً وعفواً ، واحتووا على ما كان فيها من العدد والأسلحة ، والذخائر والأقوات والمناجيق[2] ؛ وكانت هذه مصيبة عظيمة لم يجر مثلها .

---

(١) فى الأصل « وعادد » .
(٢) كذا فى الأصل .

قال صاحب التاريخ ، ووردت يوم الأحد إلى الأمير حسام الدين محمد بن أبي على الهذبانى ، وأنا عنده ، بطاقة[١] بذلك ، فاشتد الجزع[٢] والخوف ، ووقع [الرعب[٣] بين] الناس (٣٥٧ ا) بالديار المصرية بالكلية ، والسلطان مريض ، وقد ضعفت قواه عن الحركة ، وليس قد بقى له قدرة على ضبط جسده ، وقد اشتد طمعهم فيه .

ولما وصلت العساكر وأهل دمياط إلى السلطان حنق على الكنانيين حنقاً شديداً ، وأمر بشنقهم ، فشنقوا جميعاً . وتألم [السلطان] مما فعله فخر الدين والعسكر ؛ لكن الوقت كان لا يحتمل إلا الصبر والإغضاء[٤] عما فعلوه .

ذكر رحيل السلطان الملك الصالح [وعساكره] إلى المنصورة ونزولهم بها

ولما جرى ما ذكرناه ، رحل السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب إلى المنصورة ؛ فنزل بها ، وهى المنزلة التى كان أبوه [السلطان] الملك الكامل نزلها . [فى] نوبة دمياط الأولى ، وهى شرق النيـــل فى قبالة جوجر[٥] ، وبينها وبين الجزيرة — التى هى برّ دمياط — بحر أشموم طناح .

---

(١) فى الأصل " لطاقة " ، والصحيح ما بالمتن .

(٢) فى الأصل " الجوع " ، والمثبت بالمتن يقتضيه السياق .

(٣) أضيف ما بين الحاصرتين لاستكمال المعنى الأقرب للمقصود .

(٤) فى الأصل " الاعفاء " .

(٥) فى الأصل " وجوحر " ، والصحيح ما بالمتن . انظر ياقوت (معجم البلدان ، ج ٢ ، ص ١٤٢) ، حيث ورد أن جوجر " بليدة من جهة دمياط فى كورة السمنودية " . ويلاحظ أن ورود اسم هذه القرية التى لاتزال توجد حتى العصر الحاضر ، جنوبى طلخا الحالية ، هو أول إشارة معروفة ، للدلالة على موضع المنصورة الأولى ، وليس فى المراجع والخرائط المتداولة هنا ما يضيف إلى هذا التعريف ، المذكور هنا . انظر كذلك على مبارك : الخطط التوفيقية ج ١٠ ، ص ٧٠ .

وكنا ذكرنا أن الملك الصالح نجم الدين أيوب كان أمر ببناء الأبنية فيها ، وجعل بينها وبين البحر سوراً . و [كان] لأبيه الملك الكامل فيها قصرٌ[١] عالٍ على بحر النيل ، فنزله الملك الصالح ، وضرب دهليزه إلى جانبه . وكان استقرار السلطان [الملك الصالح] بالمنصورة يوم الثلاثاء ، لخمس بقين من صفر .

وشرعت العساكرُ فى تجديد الأبنية ، وقامت بها الأسواق ، وأُصلح السور الذى على البحر ، وسُتِّر بالستائر . وجاءت الشوانى والحراريق وفيها العدد الكاملة والمقاتلة ، فأرسوا قُدّام السور .

وجاء إلى المنصورة من الرجالة والحرافشة ، والغزاة المطوعة ، من سائر النواحى ، خلقٌ كثيرٌ ، لا يقع عليهم الإحصاء .

وورد[ت] من العربان أمم كثيرة ، وشرعوا فى الإغارة على الفرنج ومناوشتهم . وحصّن الفرنج أسوار دمياط ، وشحنوها بالمقاتلة .

وفى يوم الاثنين سلخ ، ربيع الأول ، ورد إلى القاهرة من أسارى الفرنج الذين تخطفتهم العربان وغيرهم ، ستة وأربعون أسيراً ، منهم فارسان .

وفى يوم السبت ، لخمس مضين من ربيع الآخر ، وصل أيضاً منهم تسعةٌ وثلاثون أسيراً ، أسرتهم العرب والخوارزمية ، [قرب غزة][٢] .

ثم دخل منهم إلى القاهرة أيضاً اثنان وعشرون أسيراً ، أخذوا من غزة . وكان دخولهم لسبع مضين (٣٥٧ ب) من ربيع الآخر .

وفى يوم الأربعاء ، لأربع عشرة ليلة بقيت من ربيع الآخر ، وصل أيضاً منهم خمسة وثلاثون أسيراً ، منهم ثلاثة من الخيالة .

---

(١) فى الأصل " قصرا عالى " ، والتصحيح والإضافة للتوضيح .

(٢) أضيف ما بين الحاصرتين استنادا إلى المعروف بشأن الخوارزمية ، وهو أنهم كانوا ممنوعين من دخول الأراضى المصرية ، وذلك بأمر السلطان الصالح أيوب ، أى أنه لم يوجد أحد منهم فيما وراء غزة من البلاد . ولذا كان وقوع أولئك الأسرى الصليبيين فى أيديهم فى هذه المنطقة ، دون غيرها من المناطق المصرية . انظر كذلك الفقرة التالية ، حيث يرد اسم مدينة غزة على أنه مصدر لفئة أخرى من الأسرى .

وورد يوم الجمعة ، لخمس بقين من ربيع الآخر ، بأن عسكر السلطان الملك الصالح بدمشق خرجوا إلى صيدا ، وتسلموها من الفرنج .

ثم كان بعد كل قليل يصل من الفرنج أسارى ، جمع بعد جمع .

ووصل منهم ، لاثنتى عشرة ليلة بقيت من جمادى الأولى ، خمسون أسيراً[1].

وكل هذا يجرى والسلطان الملك الصالح يتزايد مرضه ، وقواه تضعف وتتلاشى ، والأطباء ملازمون له ليلاً ونهاراً ، وقد وقع يأسهم من عافيته ، وهو مع ذلك وعزيمته فى غاية القوة . وتعاضد عليه مرضان عظيمان ، [وهما] الخراجة فى مخاصيه والسل .

ذكر تسليم الكرك إلى السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب

قال صاحب التاريخ ، ولما ضاقت الأمور على الملك الناصر داود بن الملك المعظم [عيسى] بالكرك ، مع قلة سعده ، استناب بالكرك ولده الملك المعظم شرف الدين عيسى ، وأخذ ما يعز عليه من الجواهر ، ومضى فى البرية إلى حلب ، وقد زالت السعادة عنه ، مستجيراً بالسلطان الملك الناصر [يوسف] صاحب حلب ، [وهو] بن الملك العزيز ، وملتجئاً إليه ، كما فعل عمه الملك الصالح عماد الدين إسماعيل . فأنزله الملك الناصر [يوسف عنده بحلب] ، وأكرمه غاية الإكرام . ثم إن[2] [الملك الناصر داود] سير ما معه من الجواهر إلى بغداد ، لتكون وديعة عند الخليفة المستعصم بالله . فلما وصل الجوهر[3] إلى بغداد ، قبضه [الخليفة] . وسير إلى الملك الناصر [داود] خطه بقبضه[4] ، وأراد الملك الناصر

---

(١) فى الأصل " خمسين " .

(٢) فى الأصل " انه " وحذف الضمير وإضافة العائد بين حاصرتين للإيضاح .

(٣ ، ٤) فى الأصل " فما وصل الجوهر إلى بغداد وقبض وسير إلى الملك الناصر خط بقبضه . . . " ، والتعديل يقتضيه السياق .

بذلك أن يكون آمنا عليه ، بكونه مودعاً فى دار الخلافة ، فلم تقع عينه بعد ذلك عليه . و [هكذا] كان [هذا الجوهر] رزقاً للتتر ، ساقه الله إليهم ، لما أخذوا بغداد ، وقتلوا الخليفة . [و] ذكر الملك الناصر [داود] أن قيمة الجوهر الذى بعثه إلى بغداد يزيد على خمسمائة ألف دينار ، إذا بيع بالهوان ، فإنه يزيد على ذلك .

وكان ولده الملك المعظم [شرف الدين عيسى] الذى تركه نائباً عنه بالكرك ، أمه أم ولد تركية ، كان يميل إليها الملك الناصر داود ميلاً كثيراً . وكان الملك الناصر يحبه أكثر من محبته لإخوته الباقين . وكان له ولدان من ابنة عمه الملك الأمجد بن الملك العادل ، هما أكبر من ابنه الملك المعظم [عيسى] ، وهما الملك الناصر شادى ، والملك الأمجد حسن . والملك الظاهر أكبر أولاده ، وُلد له بقلعة دمشق ، قبل أن تؤخذ دمشق منه . وكان ابنه أيضاً الملك الأمجد نبيهاً فاضلاً ، مشاركاً(١) فى علوم شتى . وكان له أولاد من أمهات شتى ؛ فلما قدّم الملك الناصر [داود] ولده الملك المعظم [عيسى] ، تألّم الباقون من ذلك ، وخصوصاً ولداه لابنة عمه ، لكبر سنهما ، وتميّزهما فى أنفسهما عن الباقين .

وكان الملك الصالح نجمُ الدين أيوب ، لما كان بالكرك ، كانت أمهما بنت الملك الأمجد تخدمه ، وتقوم بمصالحه كلها ، لأنها ابنة عمه ، ولوصية زوجها الملك الناصر داود لها بذلك . فكان ولداها الملك الظاهر والملك الأمجد يأنسان بالملك الصالح ، ويلازمانه فى أكثر الأوقات . واتفق مع ذلك مضيعة(٢) الوقت ، وتطاول مدة الحصر ، فاتفقا مع أمهما على أخيهما الملك المعظم [عيسى] ، ففعلا ذلك ، واستوليا على الكرك ، لذهاب الملك منهما . ثم عزما على تسليمها إلى السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب ، وأن يأخذا منه عوضاً عنها . فسار الملك الأمجد إلى المعسكر بالمنصورة ،

---

(١) فى الأصل " مشارك " .

(٢) فى الأصل " ضيقة " .

فوصل إليه يوم السبت ، لتسع مضين من جمادى الآخرة من هذه السنة ، أعنى سنة سبع وأربعين وستمائة . وقرّر [الأمجد] مع السلطان الصالح تسليم الكرك إليه ، وتوثق منه لنفسه ولإخوته ، وطلب[١] منه خبزاً بالديار المصرية ، ليقوم بهم[٢] . فأكرمه الملك الصالح ، وقد أقبل عليه إقبالا كثيراً ؛ وسيّر إلى الكرك الطواشى بدر الدين الصوابى متسلّماً لها ، ونائباً عنه بها .

وبعد ذلك وصل إلى المعسكر[٣] أولاد الملك الناصر جميعهم ، وأخواه الملك القاهر عبد الملك ، والملك المغيث عبد العزيز (٣٥٨ ب)، [ومعهما] أولاد الملك المعظم ، ونساؤهم[٤] وجواريهم ، وغلمانهم وأتباعهم ؛ وأقطعوا إقطاعات جليلة ، ورتبت [لهم] الرواتب الكثيرة . وأنزل[٥] أولاد الملك الناصر ، الأكابر منهم ،و [أنزل] إخوته فى الجانب الغربى ، قبالة المنصورة .

وفرح الملك الصالح نجم الدين أيوب بأخذ الكرك فرحاً كثيراً ، مع ما هو فيه من المرض . وزينت القاهرة ومصر ، وضربت بالقلعتين البشائر . وكان تسلم الملك الصالح نجم الدين أيوب الكرك يوم الاثنين ، لاثنتى عشرة ليلة بقيت من جمادى الآخرة .

وفى يوم الخميس ، لثلاث عشرة ليلة مضت من رجب ، وصل إلى القاهرة من أسارى الفرنج سبع وأربعون[٦] أسيراً أيضاً منهم ، حتى امتلأت القاهرة بالأسارى .

---

(١) فى الأصل " وطلبا " ، ولعل الصحيح ما بالمتن .

(٢) كذا فى الأصل .

(٣) فى الأصل " العسكر " ، وسوف يدأب الناشر على إيراد الصيغة المثبتة بالمتن هنا ، فيما يلى ، بغير تعليق .

(٤) فى الأصل " ونسابهم " .

(٥) فى الأصل " وانزلوا " .

(٦) فى الأصل " واربعين " .

ذكر وفاة الملك الصالح نجم الدين أيوب
ابن الملك الكامل رحمه الله تعالى

قال وتزايد المرض بالسلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب ، واشتدّ . وكان كما ذكرنا مرضان : من مخاصيه والسلّ . وما كان يشعر بالسلّ ، وإنما كان يظن أن عجزه وضعفه عن الحركة إنما هو بسبب الجرح الذى فى بيضه . و[فى] آخر المرض قلّت الموادّ ، وفنيت ، فجفّ الجرح ؛ فكتب [السلطان الصالح] إلى الأمير حسام الدين محمد بن أبى على [الهذبانى] يبشّره بذلك ، ويعلمه بعافيته ، وأن الجرح قد برأ ، وما بقى إلا الركوب واللعب بالصوالجة[1] .

وكان عند[2] [السلطان الصالح] بالمعسكر من الأطباء الرشيد المعروف بأبى حليقة[3] ، [وهو] طبيب والده الملك الكامل . وكتب [السلطان الصالح] إلى حسام الدين محمد بن أبى على [الهذبانى] يطلب منه إنفاذ الحكيم موفق الدين بن أبى الفضل الحموى ، فسيره إليه . ثم بعث [السلطان الصالح] يطلب منه إنفاذ الحكيم فتح الدين ابن أبى الحوافر ، فسيره إليه . فوصل [ابن أبى الحوافر] إليه قبل موته بأيام ، وقد ضعفت قواه ، وامتنع عن تناول الغذاء ؛ فلم يحضر [ابن أبى الحوافر] عنده .

ولما مات[4] الملك الصالح نجم الدين أيوب أحضر الحكيم [فتح الدين] ليتولى غسله ، وقُصِد بذلك (١٣٥٩) كتمان موته ، فإن غيره لو دخل ارتيب به ، وتفطّن بموته . وانتقل الملك الصالح إلى رحمة الله تعالى ورضوانه ، وهو فى مقابلة الفرنج ، مرابطاً مجاهداً ، فى سبيل الله تعالى . وكانت وفاته ليلة الأحد ،

---

(١) فى الأصل " الصولجة " .

(٢) فى الأصل " عنده " ، وحذف الضمير وإضافة العائد بين حاصرتين للتوضيح .

(٣) فى الأصل " خليفة " .

(٤) فى الأصل " ومات الملك الصالح نجم الدين بن ايوب ولما مات احضر الحكيم ... " ، والتعديل بالتقديم والتأخير ، والإضافة بين حاصرتين ، يقتضيه السياق . انظر ما يلى ، ص ٢٨١ .

لأربع عشرة ليلة مضت من شعبان ، من هذه السنة ، أعنى سنة سبع وأربعين وستمائة . فكانت مدة ملكه للديار المصرية تسع سنين وثمانية أشهر وعشرين يوما ، وكان عمره نحو أربعين سنة ، لأن مولده سنة ثمان[1] وستمائة .

ذكر سيرته رحمه الله تعالى

كان الملك الصالح رحمه الله تعالى ملكاً مهيباً ، عزيز النفس عن أموال الرعية ، حَشِماً عفيفاً ، طاهر اللسان والذيل ، لا يؤثر الهزل ولا العبث ، شديد الوقار ، كثير الصمت . واشترى من المماليك الترك ما لم يشتره غيره من الملوك ، ولا أحدٌ من أهل بيته ، حتى صاروا معظم عسكره ، منهم سيف الدين قلاون الألفى ، وركن الدين بيبرس [البندقدارى] الصالحى ، وعز الدين [أيبك] التركمانى ، وغيرهم ، ومن هؤلاء وأشباههم .

وكنا ذكرنا الأمير ركن الدين بيبرس الذى أعدمه ، كان من مماليك الملك الكامل ، وأن الملك الصالح لما رأى من غدر الأكراد وغدرهم به ، يوم أُخذت دمشق ، وثبات مماليكه معه ، لمّا فرّ الناس عنه بقصر معين الدين بالغور . مال إلى مماليكه ورجّحهم . وصار [السلطان الصالح] لما ملك مصر يقطع [أخباز] الأمراء الذين [كانوا] عند[ه من أيام] أبيه وأخيه ، ويعتقلهم ، وكلما قطع خبز أمير جعل مملوكا[2] من مماليكه بموضعه ، حتى صار أكثر الأمراء [من] مماليكه .

واشترى [السلطان الصالح] بمصر جماعة كثيرة من الترك ، وجعلهم بطانته والمحيطين بدهليزه ، وسماهم البحرية . وصاروا عسكراً كثيراً فى نهاية الشهامة والشجاعة ، انتفع المسلمون بهم غاية الانتفاع ، لما طرقت الفرنج البلاد ، وخصوصاً يوم الكبسة ، على ما سنذكره إن شاء الله تعالى .

---

(١) فى الأصل « ثمانية » .

(٢) فى الأصل « مملوك » .

فهم كانوا أنصار الإسلام يومئذ ، وعدته وعمدته ، وبهم انتصر المسلمون على التتر بعد ذلك .

قال القاضى جمال الدين بن واصل ، (٣٥٩ ب) صاحب هذا التاريخ ، وحكى لى حسام الدين محمد بن أبى على الهذبانى ، رحمه الله تعالى ، أن هؤلاء المماليك ، مع فرط جبروتهم وسطوتهم . بلغ من عظيم هيبة الملك الصالح نجم الدين أيوب [عندهم] ، أنه كان إذا خرج [الملك الصالح] ، وشاهدوا صورته ، يرعدون منه ، ولا يبقى أحد منهم يجسر يتحدث مع أحد ، وأنه كان مع هذه الشهامة العظيمة والهيبة البالغة ، لا يكاد يرفع طرفه إلى محدثه حياءً منه وخفراً[1] ، وأنه لم يُسمع منه قطّ فى شتمه لغلمانه لفظٌ[2] فيه هجر ، ولا ينطق حال غضبه بكلمة قبيحة قطّ ، وأكثر ما كان يقول إذا شتم [أحداً] : " يا متخلف " ، لا يزيد على هذا .

وكان [السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب] مع هذه الطهارة فى اللسان ، طاهر الذيل ، لم يعرف إلا الحلال ، من جارية مملوكة له ، أو زوجة له ، مع أنه كان قليل العناية بأمر الباه . [و] لم يكن عنده فى آخر وقت غير زوجتين : إحداهما هى المعروفة ببنت العالم ، تزوّجها بعده الجوكندار أحد مماليكه ، والأخرى شجر الدر[3] والدة [ابنه] خليل ، وهى التى دُعِىَ لها بالسلطنة بعد ابنه الملك المعظم [تورانشاه مدّة] ، وتزوجها الملك المعزّ عزّ الدين أيبك التركمانى ، وكان من أمرها وأمره ما سنذكره إن شاء الله تعالى .

---

(١) فى الأصل " وحمرا " ، من غير نقط ألبتة

(٢) فى الأصل " لفظا " .

(٣) فى الأصل " شجرة الدر" ، وفى مواضع أخرى بالمتن بدون ياء التأنيث ، كما هنا . والناشر يفضل هذه الصيغة الثانية ، ويلتزمها فى سائر المتن ، بدون تعايق ، لأنها هى الصيغة الغالبة فى مختلف المراجع والنقوش المعاصرة .

وحكى أن الملك الصالح نجم الدين كان إذا جلس مع ندمائه ، ويلعبون عنده ، لا يحصل عنده من الخفة والطرب ما يحصل عند غيره ، بل إنه يكون صامتاً لا يتزعزع ولا يتحرك ، وعليه السكينة والوقار ، وجلساؤه لما يرون من وقاره يلزمون هذه الحالة ، ويكون كأن الطير على رؤوسهم .

و [الملك الصالح نجم الدين] إذا تكلّم مع بعض خواصه تكلّم كلمات نزرة(١) فى غاية الوقار ، وتكون تلك الكلمات متعلّقة بمهمّ عظيم ، من استشارة فى أمر ، أو تقدّمٍ بأمر من الأمور المهمة ، لا يعدو حديثه فى غالب أحواله هذا النحو ؛ ولا يتكلم أحد قط بين يديه إلا جوابا : وعند ما لا يكون فى مجلس الأنس ، يكون منفرداً بنفسه ، لا يدنو منه أحد ، والقصص ترد إليه مع الخُدّام .

وكان [الملك الصالح نجم الدين] حسن العقيدة (١٣٦٠) ، حميد الطوية ، ومع ذلك فإنه(٢) ما كان له ميل إلى مطالعة الكتب والعلوم .

وكان يحب أهل الفضل والدين ، ويجرى عليهم الجامكيات والجرايات ، ويحسن إليهم ، ولكنه كان قليل المخالطة لهم ولغيرهم ، لمحبته للعزلة(٣) والانفراد ، ولا يجتمع كثيراً بندمائه إلا على الوجه الذى ذكرتُ من الانقباض والسكينة .

وكانت همته عالية جداً ، ينمو(٤) على الاستيلاء على المعاقل والحصون ، والانفراد بها لنفسه .

وكان ميالاً(٥) إلى العمارة واتخاذ الأبنية العظيمة ، ويباشرها بنفسه ؛ وعُمل له من ذلك ما لم يُعمل [لأحد] من ملوك زمانه . [و] بنى القصور

---

(١) فى الأصل " نذره " .
(٢) فى الأصل " انه " .
(٣) فى الأصل " بالعزلة " .
(٤) كذا فى الأصل .
(٥) فى الأصل " مايلا " .

التى فى وسط قلعة الجزيرة ، غرم عليها جملا عظيمة من المال . وهذه الجزيرة كانت متنزهاً للملوك ، وكان للملك الكامل فيها قصر يتنزه [فيه] على الأحايين ، ومقعد يعرف بالبانياسى . فبنى الملك الصالح فيها من الدور العظام والقصور ما لم يبن مثله من جميع الملوك ، ولا أكاسر العجم فى قديم الزمان ، يحار الناظر إذا دخلها ، ورأى ما فيها من الذهب العظيم ، والزخرفة الكثيرة ، والرخام الفاخر . وجعل [الملك الصالح] فى المقعد المعروف بالبانياسى طاقات عظام بالشبابيك الحديد على البحر ، وشاذروانين للماء ، وبينهما بحرة كبيرة ، كلها معمولة بالرخام الفائق . ويلى المقعد من جهة الشرق بستان فيه صنوف المحمضات . ويخرّج من هذا المقعد إلى قاعات مزخرفة فى غاية الحسن ، تنفذ من كل واحدة إلى أخرى ، كثيرة العدد . وفى آخرها مجلس عظيم برسم مدّ السماط ، فيه من الذهب والترخيم البديع ، والنحت[1] المذهب ، ما لا يمكن التعبير عنه ، ولا عن وصف حسنه ، بل خبره أبدا يصغر الخبر عنه[2] .

وكانت هذه الجزيرة لا يحيط بها الماء إلا أيام الزيادة ، [و] فى معظم الأيام[3] يكون [الماء] أبدا غربها . فلم يزل السلطان الملك الصالح يتحيّل بتغريق السفن فى البحر من جهة الغرب (٣٦٠ ب) إلى أن انصرف شطر من الماء عظيم إلى جهة الشرق . وصار الماء يحيط بها من الجانبين دائما ؛ وصار بينها[4] وبين مصر بحرٌ زاخرٌ ، فنصب عليه جسراً يُجاز عليه من مصر إليها .

وبنى [الملك الصالح] أيضاً على البحر من جهة اللوق قصوراً أيضاً[5] فى غاية الحسن ، وجعل إلى جانبها ميداناً يضرب فيه بالصوالجة ، وكان الملك الصالح مُغرًى بها .

---

(١) فى الأصل « المحب » ، بغير نقط .

(٢) كذا فى الأصل .

(٣) فى الأصل « البحر » .

(٤) فى الأصل « بينهما » .

(٥) كذا فى الأصل ، وهى مكررة فى الجملة .

وبنى قصراً عظيماً بين مصر والقاهرة ، على تلٍّ عالٍ فى غاية الحسن والإشراق ، وسماه الكبش ، وقصوراً حسنة فى بستان الخشاب .

وكذلك بنى بالعلاقة[١] والسانح ، وأمر باختطاط بلدة بالسانح ، فرتب قصوره [بها] ، وسماها الصالحية . وبالجملة فكانت همته فى العمارة وبناء[٢] الآدر والقصور لا يشبهها همة .

وكان للملك الصالح نجم الدين أيوب ثلاثة[٣] بنون ، لما ورد[٤] إلى دمشق من الشرق ، أكبرهم الملك المغيث فتح الدين عمر ، وأوسطهم الملك المعظم غياث الدين تورانشاه ، وأصغرهم الملك القاهر . وكان يحب الملك المغيث ويؤثره جداً ، لأنه كان يناسبه فى كثرة العقل والسكون ، والشهامة والنجابة ، فاستصحبه معه لما قدم إلى دمشق ، واستصحب معه أيضاً ابنه الأصغر الملقب بالقاهر . وترك ابنه الأوسط الملك المعظم [تورانشاه] بآمد ، وكان مرتَّباً معه فيها الأمير حسام الدين محمد أبى على [الهذبانى] .

وكان الملك المعظم [تورانشاه] يميل إلى العلوم ، ويجتمع بالفقهاء ويباحثهم ، ويعرف شيئاً من الخلاف والفقه والأصول والأدب ، إلا أنه كان عنده هوج واضطراب ، وكان أبوه الملك الصالح نجم الدين أيوب يكرهه لذلك . وكان جدّه الملك الكامل يحبّه ، فكان يلقى عليه — وهو صغير — المسائل العويصة فى العلوم ، ويأمره أن يعرضها على من يحضر مجلسه من العلماء ، ويمتحنهم بها .

ثم جرى للملك المغيث [عمر] من موته معتقلاً بقلعة دمشق ما جرى ، فى حبس الملك الصالح عماد الدين إسماعيل . ومات الملك القاهر ، وهو ابن

---

(١) فى الأصل " العلاقة " .
(٢) فى الأصل " وبنى " .
(٣) فى الأصل " ثلاث " .
(٤) فى الأصل " ولما " .

الملك الصالح نجم الدين أيوب ، وهو الأصغر ، بقلعة دمشق أيضاً ، قبل أن يأخذها الملك الصالح إسماعيل أيضاً ، وقد ذكرناه .

ولما قدم الملك الصالح نجم الدين أيوب من الشرق ،كان قد استدعى حسام الدين محمد بن أبي على [الهذبانى] من آمد ؛ وبقى [الملك المعظم تورانشاه] بآمد . فجاءت عساكر الروم مع الحلبيين ، وحاصروا آمد ، كما ذكرنا ، وأبقوا حصن كيفا للملك المعظم [تورانشاه] بن الملك الصالح نجم الدين ، مع قلعة الهيثم ؛ فأقام [تورانشاه] بها إلى أن مات أبوه الملك الصالح نجم الدين أيوب .

وكان وُلد للملك الصالح نجم الدين أيوب ، وهو معتقل بالكرك ، ولده خليل من أم ولده المسماة شجر الدر . وكان قد عقد عقده عليها ، وصارت زوجة له . وورد معه ولده خليل إلى القاهرة ، لما ملكها ، ومات خليل فى حياة أبيه الملك الصالح نجم الدين أيوب صغيراً .

وكان الملك الصالح نجم الدين أيوب ، لكراهته لابنه الملك المعظم [تورانشاه] ، لم يأذن له فى القدوم عليه إلى مصر ، مع حاجته إلى من يقوم مقامه بها ، ويكون ولىّ عهده إذا مات . وبلغ من كراهيته له ما أخبرنى [به] الأمير حسام الدين محمد بن أبى على [الهذبانى] ، قال : " قال السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب ، إذا قُضى علىّ بالموت ، فلا تسلّم البلاد إلا للخليفة المستعصم بالله ، ليرى فيها رأيه " .

ولما مرض [السلطان الملك الصالح] المرضة التى مات فيها(١) ، كانت نفسه قوية ، وأمله متسعاً ، ولم يغلب على ظنّه أنه يموت من مرضه(٢) ذلك . وكان به ما قدمنا ذكره : الخرّاجة والسلّ . ولم يكن

---

(١) فى الأصل " فيه " .

(٢) فى الأصل " موضعه " .

يشعر أن به سلاً ، بل كان يجتهد فى مداواة الخرّاجة[١] ، فورد عليه السلّ قبل موته بأيام يسيرة ، كما ذكرنا . وكانت الخرّاجة لمّا انقطعت عنها المواد ختمت وصلحت . وكتب [الملك الصالح] كتابا[٢] إلى حسام الدين محمد بن أبى على : " إن الخرّاجة التى فىّ قد صلحت ، وختمت الرطوبات التى فيها ، ولم يبق إلا ركوبى ولعبى بالصوالجة[٣] . فتأخذ بحظك من هذه البشرى " ؛ فسرّ (٣٦١ ب) حسام الدين بذلك .

قال صاحب التاريخ ، فأوقفنى حسام الدين على كتابه ، وقد كنتُ أسمع من الأطباء حقيقة مرضه . ولم يكن جفاف الخراجة إلا بسبب[٤] فناء المواد ، كما ذكرنا ، مع ضعف[٥] القوة عن دفع شىء مما بقى منها[٦] ؛ فلذلك تمّ قبض الملك الصالح نجم الدين أيوب .

ولم ينصّ [الملك الصالح أيوب] على من يقوم بالأمر بعده ؛ ولو أوصى لما خرج عن حسام الدين محمد بن أبى على [الهذبانى] ، إذ لم يكن يعتمد على أحد غيره . و [أما] فخر الدين يوسف بن شيخ الشيوخ ، فلم يكن الملك الصالح نجم الدين أيوب يثق به كل الثقة ، سيما و [أنه] كان متألماً منه ، لرجوعه بالعساكر عن دمياط ، وتهاونه بها حتى أخذها الفرنج .

---

(١) فى الأصل " الجراحة " ، انظر السطر السابق هنا ، وسوف يلتزم الناشر هذه الصيغة ، فيما يلى بالمتن ، بغير تعليق .

(٢) فى الأصل " كتاب " .

(٣) فى الأصل " بالصولجة " .

(٤) فى الأصل " سبب " .

(٥) فى الأصل " وضعف " .

(٦) فى الأصل " اليها " .

ذكر قيام الأمير فخر الدين يوسف بن شيخ الشيوخ بعد موت السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب بتدبير المملكة .

قال ولما توفى السلطان الملك الصالح ، أحضرت شجر الدرّ زوجة الملك الصالح ، الأميرَ فخر الدين يوسف بن شيخ الشيوخ ، والطواشى جمال الدين محسن ، وهو كان[1] أقرب الناس إلى السلطان الملك الصالح ، وإليه كان القيام بأمر مماليكه . وأمرتهما [شجر الدرّ] بكتمان موت السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب ، خوفاً من الفرنج ، فإنهم كما ذكرنا قد ملكوا ثغر دمياط ، وفيها من جموعهم ما لا يحصى ولا يعدّ ، وهم على شرف[2] الاستيلاء على مملكة الديار المصرية .

واتفقوا جميعهم على أن يقوم بتدبير المملكة الأمير فخر الدين يوسف ابن شيخ الشيوخ ، إلى أن يقدم الملك المعظم [تورانشاه] بن الملك الصالح نجم الدين أيوب ، من حصن كيفا ، وأن يَحلِف الناس للملك الصالح نجم الدين أيوب ، ولابنه الملك المعظم [تورانشاه] بعده بولاية العهد ، وللأمير فخر الدين بأتابكية العسكر ، والقيام بأمر الملك .

ثم أُحضر الحكيم فتح الدين بن أبى الحوافر ، رئيس الأطباء ، وهو أحد حكماء السلطان [الصالح نجم الدين أيوب] . وكان كما تقدّم ذكره قد استدعاه السلطان ليداويه[3] ، فسيره حسام الدين من القاهرة إليه ، فوصل إلى (١٣٦٢) المعسكر المنصور ، وقد شارف السلطان الموت . فلما مات أحضروه ، ليغسل السلطان والصلاة عليه ، لئلا يُرتابَ بدخوله

---

(١) كذا فى الأصل .

(٢) كذا فى الأصل .

(٣) فى الأصل " ليداوه " .

غيره إذا دخل بهذا الغرض . فغسَّل فتحُ الدين الطبيب السلطانىّ ، وكفّنه ، وصلّى عليه ، وجعله فى تابوت ؛ وكُتم موت السلطان عن كل أحد .

قال . واستمر الأطباء يلازمون الدهليز [السلطانى] غدوةً وعشيةً ، ليظنّ الناس أن السلطان مريض . ونُقل التابوت الذى فيه السلطان سرًّا إلى قلعة الجزيرة . فترك بها إلى أن نقل إلى القاهرة ، فيما بعد ، على ما سنذكره إن شاء الله تعالى .

ثم أحضرت [شجر الدرّ] الأمراء بالدهليز السلطانى ، وقيل لهم : " إن السلطان قد رسم أن تحلفوا له ، ولابنه الملك المعظم بعده ، وللأمير فخر الدين يوسف بن شيخ الشيوخ بالتقدمة على العساكر ، والقيام بالأتابكية . وتدبير المملكة " ؛ فأجابوا كلهم إلى ذلك ، وحلّفوا الأمراء والأجناد ، ومماليك السلطان .

ثم ورد المرسوم إلى القاهرة إلى الأمير حسام الدين محمد بن أبى على الهذبانى ، بأن يحلّف أكابر الدولة وأجنادها بالقاهرة ، على ما وقع التحليف عليه بالمنصورة ، وأن يخطب على المنابر للملك المعظم تور نشاه ، بعد أبيه السلطان الملك الصالح . فحضر قاضى القضاة بدر الدين يوسف بن الحسن قاضى القاهرة والوجه البحرى ، وبهاء الدين زهير كاتب الإنشاء ؛ وكان الملك الصالح قد عزله لأمر قد نقمه عليه ، وحضر[1] إلى القاهرة [لهذا الغرض] شمس الدين باخل[2] ، [وحضر] غيرهم من الأجناد وأرباب الدولة ؛ ووقع التحليف على الوجه المذكور ، يوم الخميس لاثنتى عشرة ليلة بقيت من شعبان .

---

(١) فى الأصل " وحضروا " .

(٢) فى الأصل " باحل " ، بغير نقط ألبتة .

ثم استدعى بهاء الدين زهير إلى المعسكر [بالمنصورة] ، فمضى [إليه] ، ورجع إلى منصبه .

وبولغ فى كتمان موت السلطان الملك الصالح عن كل أحد ، من كبير فى الدولة وصغير ، حتى على الأمير حسام الدين محمد بن أبى على [الهذبانى] ، نائب السلطنة بالديار المصرية . وكانت الكتب ترد من المعسكر [بالمنصورة] إليه ، ويكتب فيها علامة السلطان التى صورتها : " أيوب ابن محمد بن أبى بكر بن أيوب " ، بخط يشبه خطه جداً ؛ وكان يكتبها خادم من خدام السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب ، يعرف بالسهيلى . وكان حسام الدين محمد بن أبى على [الهذبانى] يظن أن السلطان حى ، وأن الخط الوارد إليه فى الكتب خطه .

قال جمال الدين بن واصل صاحب هذا التاريخ . و [أما] أنا فقد كان تحقق عندى موته بقرائن كثيرة ، [ومنها] أنه يوم التحليف الذى جرى بالقاهرة ، قال لى ابن طبيبه الذى يباشره ويعرف حقيقة مرضه : " إنى فارقت المعسكر ، والسلطان رحمه الله قد امتنع عن الغذاء بالكلية ، وسقطت[١] قواه ، ولا شك أنه قد مات " . وعلمتُ من جهة قريبة أخرى ، أقوى القرائن عندى ، وهو أن السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب ، ما كان يثق بالأمير فخر الدين يوسف بن شيخ الشيوخ ، بالثقة التى توجب أنه يفوّض إليه الأمور بعده ، وهو يعرف همة فخر الدين وتعاليها ، وأنه يوم ملك السلطان الملك الصالح مصر ، وأطلق فخر الدين [من سجنه الذى كان به بقلعة الجبل ، منذ أيام الملك العادل الصغير][٢] ركب فخر الدين ركبة عظيمة ، ودعا له المصريون ، واحتفوا[٣] به .

---

(٣) فى الأصل " وسقط " .

(٢) أضيف ما بين الحاصرتين بعد مراجعة ابن تغرى بردى (النجوم الزاهرة ، ج ٦ ، ص ٣٢٠) ، والمقريزى (كتاب السلوك ، نشر زيادة ، ج ١ ، ص ٢٧٦) ، حيث توجد معلومات إضافية كثيرة ، بشأن حياة الأمير فخر الدين .

(١) فى الأصل " واحفوا " .

فأوجب ذلك أن استشعر [السلطان الملك الصالح] منه ، وألزمه داره ، كما تقدّم ذكره ، إلى أن مات أخوه[1] الصاحب معين الدين [بن شيخ الشيوخ] بدمشق ، فاحتاج السلطان إلى الاستعانة بفخر الدين يوسف ، لشهامته ونجابته ، فأخرجه وقدّمه .

وكان السلطان الملك الصالح لا يعتمد فى حفظ الديار المصرية إلا على حسام الدين محمد بن أبى على [الهذبانى] ، حتى إنه فى السفرة الأولى قال له : " إنى أسافر ، وأخاف أن يعرض لى موت ، وأخى فى قلعة الجبل ، فربما استولى على الأمر ، فيهلككم " ، وذكر له أشياء شتى ، [مما] لا يمكننى أن أسطره . وقال له مرة أخرى : " إن حدث بى موت ، فسلّم البلاد إلى الخليفة المستعصم بالله ، يرى فيها رأيه " ، وقد تقدم ذكر ذلك .

ثم جرى من فخر الدين يوسف [ما جرى] ، من رجوعه عن ثغر دمياط ، حتى بلغنى أنه كان فى نفس الملك الصالح من هذا أمرٌ عظيم ، وحنق عليه ، وعلى جماعة من الأمراء الذين كانوا مع فخر الدين ؛ ولم يتمكن [الملك الصالح] فى ذلك الوقت الصعب أن يحدث حادثاً[2] يوجب الاضطراب ، (١٣٦٣) وخروج الديار المصرية من أيدى المسلمين . فتحقق عندى ، من هذا وما أشبهه ، أن الملك الصالح نجم الدين أيوب لو أوصى إلى أحد بتدبير الملك بعده ، ما عدل عن حسام الدين بن أبى على [الهذبانى] .

فورد على حسام الدين مرةً كتاب فى اقتضاء أمرٍ من الأمور ، قال القاضى جمال الدين قاضى حماه صاحب هذا التاريخ ، فأوقفنى عليه ، وكان قد حصل له بعض الارتياب . فقلت له : " والله العظيم ، ما هذا خط السلطان الملك الصالح ! ! " . فقال : " وكيف عرفت ذلك ؟ " ، فقلت له :

---

(١) فى الأصل " اخاه " .

(٢) فى الأصل " حادث " .

" احضر لى بعض الكتب التى فيها خطه " ، فأحضر لى [ذلك] . فقابلت بين حروفه وحروف ذلك الكتاب ، فتبيّن مخالفة الخط للخط : من ذلك أنه كان يكتب الياء ممتدّة ، وفى ذلك الكتاب تشبه الراء . فغلب على ذهن حسام الدين إذن ما قلته ، وأخذ فى التبيين عنه ، والكشف له من خواص السلطان نجم الدين أيوب بالمعسكر ، فتحقّق موته . وحينئذ اشتدّ خوفه من الأمير فخر الدين يوسف أن يغلب على الملك ، ويستبدّ به لنفسه ، فإن الأمير فخر الدين رحمه الله كان عالى الهمة جداً ، فكانت نفسه تطمع إلى هذا الأمر .

قال ، وشرع فخر الدين يوسف فى إطلاق المحبوسين[1] ، فأفرج عن محيي الدين الجزرى[2] ، وسيف الدين بن عدلان ؛ ثم أفرج عن أكابر من الأعيان كان الملك الصالح نجم الدين أيوب اعتقلهم . وكان السلطان رحمه الله قد غضب على جمال الدين بن مطروح ، وأبعده وعزله عن نيابة السلطنة بدمشق ، فقرّبه فخر الدين بن شيخ الشيوخ ، وأحسن إليه . وأحضر [فخر الدين] بهاء الدين زهير ، كما ذكرنا ، بعد إبعاد السلطان له ، وردّه إلى منصبه .

ثم أخذ [فخر الدين] فى التصرف فى الأموال ، فأطلق منها جملة ، وخلع على خواص الأمراء . فعلم الناس كلهم [من ذلك] موت السلطان ، وتحققوه ، إلا أن أحداً لا يستجرئ أن يتفوّه به ، إقامة للهيبة ، بسبب كون الفرنج فى البلاد ، والخطبة والسكة مستمرّة للملك الصالح ، وبعده لولده الملك المعظم تورانشاه .

وتوجه من المعسكر قصّادٌ لإحضار الملك المعظم [تورانشاه] ، من جهة الطواشى جمال الدين محسن ، وشجر الدر (٣٦٣ ب) ؛ وما أمكن

---

(١) فى الأصل " المحبسين " .

(٢) فى الأصل " الحررى " ، بغير نقط ألبتة .

فخر الدين يوسف إلا الموافقة على ذلك . ومن جملة من توجه لإحضاره الأمير فارس الدين أقطايا[1] ، وكان من الجمدارية. وكانوا [2] يستبعدون وصول الملك المعظم [تورانشاه إلى الديار المصرية] ، بسبب[3] حصن كيفا ، وأنه ربما لا يتمكن بسبب بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل ، والحلبيين .

وسيّر حسام الدين محمد بن أبي على [الهذبانى]من عنده قاصداً ، هو أحد مماليكه الخواص ، يعرف بزين الدين العاشق . وبعث معه كتاباً[4] يحث فيه الملك المعظم [تورانشاه] على سرعة القدوم ، خوفاً من أن تخرج البلاد من يده ، ولم يثق حسام الدين بمن توجه من المعسكر لإحضاره .

وكان التقدم بالخطبة للملك المعظم [تورانشاه] تالياً [5] للخطبة لأبيه ، يوم الاثنين لثمان بقين من شعبان ، سنة سبع وأربعين وستمائة . ورُسم فى ذلك اليوم أن يُنقش اسم الملك المعظم على سكة الدراهم والدنانير ، بعد اسم أبيه ؛ فخطب الخطباء باسم الملك المعظم ، فى يوم الجمعة التالية ليوم الاثنين المذكور .

وكان الملك المغيث بن الملك العادل بن الملك الكامل عند عماته بنات الملك العادل ، فذُكر للأمير حسام الدين محمد بن أبي على [الهذبانى] ، أن فخر الدين بن شيخ الشيوخ ربما طمع فى السلطنة ، ليستولى على المملكة ، ويديرها باسمه . وكان عمر الملك المغيث يومئذ ، على ما بلغنى ، أربع عشرة سنة أو نحوها . قال ، فأحضر حسامُ الدين حين سمع هذا القول شمسَ الدين بن باخل[6] والى القلعة ، وأمره أن ينقل الملك المغيث إلى

---

(١) كذا فى الأصل .

(٢) فى الأصل " وكان " .

(٣) كذا فى الأصل .

(٤) فى الأصل " كتاب " .

(٥) فى الأصل " تالية بالخطبة " .

(٦) فى الأصل " باحل " ، بدون نقط ألبتة . انظر ما سبق ، ص ٢٨٢ .

القلعة ، فنقله إلى القلعة . وصعد حسام الدين إلى القلعة ، وأمر والى القلعة بالاحتفاظ به ، والاحتياط عليه ، وألا يسلّمه إلى من يطلبه منه .

واستمرت المكاتبة متردّدة بين فخر الدين يوسف بن شيخ الشيوخ وحسام الدين محمد بن أبي على [الهذبانى] ، وعنوان المكاتبة من : " فخر الدين الخادم يوسف " ، " ومن حسام [الدين] المملوك أبوعلى بن أبو على ، وبينهما مجاملات فى الظاهر ، وفخر الدين يعمل على الاستبداد ، (١٣٦٤) والاستقلال بالأمر ، إن تعذّر وصول الملك المعظم . وصار لفخر الدن[1] موكب عظيم بالمنصورة ، والأمراء كلهم فى خدمته ، ويترجّلون له كلهم عند النزول ، ويحضرون لسماطه .

قال ، ووصل قاصد حسام الدين [محمد بن أبي على الهذبانى] إلى حصن كيفا ، واجتمع بالملك المعظم [تورانشاه] ، وحثّه على سرعة الوصول إلى الديار المصرية ، وقال له : " إن تأخرتَ فات الأمر ، وتغلّبَ الأمير فخر الدين على البلاد ، وربما جعلها باسم ابن عمك الملك المغيث بن الملك العادل " . ووصل[2] إلى حصن كيفا أيضاً قصّاد المعسكر[3] [بالمنصورة] ، و[معهم] فارس الدين أقطايا[4] الجمدار ، وحثّوه على الحركة .

ذكر مسير الملك المعظم غياث الدين توران شاه بن الملك الصالح إلى الديار المصرية

قال ، ولما حث الملكَ المعظمَ القصّادُ على سرعة الوصول إلى الديار المصرية ، خرج فى جماعة قليلة من أصحابه وخواصّه ، ومعه كاتبه النشو ابن حشيش النصرانى المصرى ، متخفياً ، [خشية] أن يظفر به بدر الدين لؤلؤ

(١) فى الأصل " وصار له " وحذف الضمير وإضافة العائد للتوضيح .

(٢) فى الأصل " وصلت " .

(٣) فى الأصل " العسكر " .

(٤) كذا فى الأصل .

صاحب الموصل ، والحلبيون . وكان خروجه من حصن كيفا ، ليلة السبت لإحدى عشرة ليلة مضت من شهر رمضان المعظم ، من هذه السنة ، أعنى سنة سبع وأربعين وستمائة .

وترك [المعظم تورانشاه] بحصن كيفا ولده الملك الموحد عبد الله ، وعمره على ما سمعتُ منه عشر[1] سنين ؛ وترك عنده من يقوم بتدبير أمره .

وكانت[2] عدة من خرج مع الملك المعظم [تورانشاه] بن الملك الصالح نجم الدين أيوب ، من خواصه وألزامه ، خمسين[3] فارسا . وقصد [المعظم بهم إلى] جهة عانة ، وهى من بلاد الخليفة [المستعصم العباسى] . وبلغ الحلبيين وبدر الدين لؤلؤ خروجُه ، وتوجهه إلى الديار المصرية ، فأرصدوا له جماعة ليقبضوا عليه[4] ، ويتفقوا[5] معه على ما يريدون ؛ فلم يقع أحد منهم به . ووصل [المعظم تورانشاه] إلى عانة ، فعدّى الفرات منها .

ذكر تقدم الفرنج ونزولهم قبالة عسكر المسلمين

قال : ولما تحقق الفرنج من موت السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب ، رحلوا من دمياط بفارسهم وراجلهم ، وشوانيهم فى البحر تحاذيهم[6] . فنزلوا على فارسكور (٣٦٤ ب) ، ثم تقدّموا منها مرحلة ، وذلك فى يوم الخميس ، لخمسٍ بقين من شعبان ، من هذه السنة ، أعنى سنة سبع وأربعين وستمائة .

---

(١) فى الأصل " عشرة " .

(٢) فى الأصل " كان "

(٣) فى الأصل " خمسون " .

(٤) فى الأصل " ليقبضوه " .

(٥) فى الأصل " يتفقون " .

(٦) فى الأصل " تحاديهم " بالدال .

وفى غد هذا اليوم ، وهو يوم الجمعة ، ورد من الأمير فخر الدين يوسف كتاب ينذر[١] الناس ، ويأمرهم بالجهاد ، وفيه علامة تشبه علامة الملك الصالح نجم الدين أيوب ، ليظنّ الناس أنه كتابه ، [و] أوله [بعد البسملة] " انفروا خفافا وثقالا ، وجاهدوا فى سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ، ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون " ، وهو كتاب بليغ ، [وعلمت فيما بعد] أنه من[٢] إنشاء بهاء الدين زهير ، وفيه مواعظ جميلة ، وتحريض على قتال الكفار ، وأن الفرنج قد قصدوا الديار المصرية والبلاد الإسلامية ، بحدّهم وحديدهم ، وقد أطمعتهم أنفسهم بملك البلاد ، وقد وجب على المسلمين كافةً النفرُ إليهم ، ودفعهم عن البلاد . فقرئ هذا الكتاب على الناس بالمنبر بالجامع بالصلاة بالقاهرة ؛ فبكى الناس بكاء كثيرا ، وانزعج الناس لذلك .

وخرج من القاهرة ومصر وسائر النواحى خلق عظيم ، وعظم الخوف لموت السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب .

وتمكن الفرنج بتملك[٣] دمياط وكثّرتهم[٤] ، وتحققوا أنه إنْ اندفع العسكر الذين بالمنصورة إلى ورائهم مرحلة واحدة ، مُلكت ديار مصر أجمعها فى أسرع الأوقات .

ولما كان يوم الثلاثاء ، مستهلّ شهر رمضان ، وقعت بين الفرنج والمسلمين وقعة عظيمة ، استشهد فيها أمير مجلس المعروف بالعلائى ، وجماعة من الأجناد ؛ ونزلت الفرنج بشرمساح .

وفى يوم الاثنين ، لسبع مضين من رمضان ، نزلت الفرنج البرمون ، وكثر الاضطراب بسبب دنوّ مَلِكِ الإفرنج من عساكر المسلمين .

---

(١) فى الأصل " يدر " .

(٢) فى الأصل " انه بانشا " .

(٣) فى الأصل " بملك " .

(٤) فى الأصل " وكبرهم " ، بدون نقط ألبتة .

وفى يوم الأحد ، لثلاث عشرة ليلة مضت من رمضان ، وصلت الفرنج إلى طرف جزيرة دمياط ، وصاروا فى مقابلة المسلمين ، ومعظم عسكر المسلمين فى المنصورة ، وهى فى البرّ الشرق ، و[معهم] جماعة من العسكر ، وأولاد الملك الناصر داود بن الملك المعظم [عيسى صاحب الكرك] ، وهم الملك الأمجد ، (١٣٦٥) والملك الظاهر ، والملك المعظم ، والملك الأوحد ؛ و[كان] الأكابر منهم فى البرّ الغربى . وكان(١) أولاد الملك الناصر [داود] ، الأكابر والأصاغر الذين قدموا القاهرة ، اثنى عشر ولداً ذكراً . وكان بالبرّ [الغربى] أيضا أخوا(٢) الملك الناصر داود ، [وهما] الملك القاهر ، والملك المغيث .

ولما نزل(٣) الفرنج بجموعهم فى طرف الجزيرة التى فيها دمياط ، وصاروا فى مقابلة المسلمين ، خندقوا عليهم خندقاً ، وأداروا عليهم سوراً ستروه بالستائر ، ونصبوا المناجيق(٤) يرمون بها المسلمين . ونزلت شوانيهم بإزائهم(٥) فى بحر النيل ، وشوانى المسلمين بإزاء المنصورة ؛ ونشب القتال بين الفريقين براً وبحراً .

وفى يوم الأربعاء لأربع عشرة ليلة بقيت من شهر رمضان ، قفز إلى المسلمين [ثلاثة](٦) من خيالة الإفرنج ، وأخبروا بضائقة الفرنج .

وفى غد هذا اليوم ، وهو يوم الخميس ، كان وصول الملك المعظم توران شاه بن الملك الصالح إلى عانة ؛ ثم انفصل [المعظم] عن عانة متوجهاً إلى دمشق ، على طريق السماوة .

---

(١) فى الأصل " وكانوا " .

(٢) فى الأصل " اخو " ، والصحيح ما هنا . انظر المقريزى : كتاب السلوك ، نشر زيادة ، ج ١ ، ص ٣٤٧ .

(٣) فى الاصل " نزلت " .

(٤) كذا فى الأصل . انظر ما سبق ، ص ٢٦٧ .

(٥) فى الأصل " باوطم " .

(٦) أضيف ما بين الحاصرتين من المقريزى : كتاب السلوك – نشر زيادة – ، ج ١ ، ص ٣٤٨ .

ذكر وصول الملك المعظم غياث الدين توران شاه إلى دمشق

وكان رحيل[1] [المعظم تورانشاه] من عانة يوم الأحد ، لعشر بقين من شهر رمضان . ثم وصل إلى القصر ، ونزل فى دهليز ضربه له جمال الدين [بن] يغمور ، نائب السلطنـــة بدمشق ، يوم الاثنين لليلتين بقيتا من شهر رمضان .

ودخل [المعظم تورانشاه] غد يوم الاثنين إلى دمشق ، وزينت له ، ودخل بقلعتها ؛ وقام بخدمته جمال الدين بن يغمور . ووصل إليه أيضاً من حماة الخطيب زين الدين بن مرهوب ، رسولاً من صاحبها السلطان الملك المنصور ، رحمه الله ، مهنئاً له بقدومه . ووصل إليه أيضاً رسول السلطان الناصر ، صاحب حلب ، وعيّد [معه] بدمشق .

وفى هذا اليوم أُسر من الفرنج كُند كبير ، من أقارب الملك ريدافرنس . واستمرّ القتال بين الفريقين فى البحر والبرّ ، وكلّ يوم يُقتل من الفرنج ويُؤسر جماعة كبيرة .

وكان الفرنج يجدون من حرافشة المسلمين أذىً كثيراً ، و[كان أولئك الحرافشة] يتخطفون من الفرنج ويقتلون ، فإذا شعروا بالفرنج رموا أنفسهم فى الماء ، وسبحوا إلى أن يخرجوا من جانب المسلمين . وكانوا يتحيلون على التخطف من الفرنج بكل حيلة ، فبلغنى أن إنساناً[2] منهم قوّر بطيخة خضراء ، وجعلها ملبّسة على رأسه ، ثم سبح فى الماء ، وقرب من الفرنج حتى ظنه بعض الفرنج سا بيلة[3] على الماء ، فنزل ليتناولها ، فخطفه ذلك الشخص وأسره ، وأتى به إلى المسلمين ؛ فعجبوا من ذلك .

---

(١) فى الأصل « رحيله » ، وحذف الضمير وإضافة العائد بين حاصرتين للتوضيح .

(٢) فى الأصل « انسان » .

(٣) كذا فى الأصل ، وبدون نقط على التاء المربوطة .

ولأربع ليال ٍ مضين من شوال ، وردت البطائق إلى القاهرة ، بوصول الملك المعظم [تورانشاه] إلى دمشق ، واستقراره بقلعتها . فضُربت البشائر بالقاهرة وبالمعسكر المنصور ، وحصل السرور بذلك .

وفى يوم الأربعاء ، لسبع مضين من شوال ، أخذ المسلمون من الفرنج شينياً ، فيه مائتا[1] رجل وكُند كبير .

وفى يوم الخميس ، منتصف شوال ، ركب[2] الفرنج والمسلمون ، ودخل المسلمون إليهم إلى برّهم ، واقتتلوا فيه قتالاً شديداً . فقتل من الفرنج أربعون فارساً ، وقتلت خيلهم أيضاً .

وفى غدِ هذا اليوم ، وهو يوم الجمعة ، وصل إلى القاهرة سبعة وستون[3] أسيراً ، منهم ثلاثة من أكابر الدولة .

وفى يوم الخميس ، لثمان بقين من شوال ، أحرقت للفرنج مرمة[4] عظيمة فى البحر ، واستظهر عليهم المسلمون استظهاراً عظيماً بيّناً .

ذكر مسير الملك المعظم [تورانشاه] من دمشق إلى الديار المصرية

قال ، وسافر الملك المعظم [تورانشاه] من دمشق ، بعد أن عيّد بها ، متوجهاً إلى الديار المصرية ، بعد أن خلع على الأمير بدر الدين بن يغمور ، وقرّره فى النيابة عنه بها . وخلع على الأمراء القيمرية ، وأعطاهم عطاءً كثيراً ،

---

(١) فى الأصل " مايتى " .

(٢) فى الأصل " ركبت " .

(٣) فى الأصل " سبع وستين " .

(٤) فى الأصل " مراكب " ، وهو خطأ من جملة أخطاء ناسخ هذه المخطوطة ، وصحته المثبتة هنا منقولة عن المقريزى (كتاب السلوك – نشر زيادة – ج ١ ، ص ٣٤٨) ، وغيره من المؤرخين الذين نقلوا أخبار هذه الحوادث من مخطوطة أخرى ، هى أحسن كثيراً مما لدينا هنا ، من تاريخ ابن واصل .

وأخرج من الخزائن جملة من المال ، وفرّقها فى الجند . واستصحب [الملك المعظم تورانشاه] معه القاضى الأسعد شرف الدين الفائزى ، وكنا قد ذكرنا أن السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب جعله فى دمشق ، ناظراً فى ديوانها .

ولما دخل الملك المعظم [تورانشاه] الرمل ، أسلم على يده كاتبه النشو بن حشيش النصرانى ، ولقبه [السلطان بلقب] معين الدين ، ورشّحه للوزارة بالديار المصرية .

ذكر الكبسة التى وقعت على المسلمين بالمنصورة ومقتل الأمير فخر الدين يوسف بن شيخ الشيوخ ثم انتصار المسلمين بعد ذلك على الفرنج

(٣٦٦ ا) قد ذكرنا استقرار الفرنج فى قبالة المسلمين ، واتصال القتال بين الفريقين ، وبينهما بحر أشمون ، وهو بحر صغير ، وفيه مخائض رقاق[١] . فدلّ بعضُ المسلمين [ملكَ] الفرنج على مخاضة بسلمون ، فركب الفرنج وقصدوا المخاضة بكرة الثلاثاء ، لخمس مضين من ذى القعدة ، فلم يشعر المسلمون بهم إلا وقد خالطوا معسكرهم .

وكان الأمير فخر الدين يوسف بن شيخ الشيوخ يغتسل فى الحمام ، فأتاه الصريخ بأن الفرنج قد دهموا المعسكر . فركب [الأمير فخر الدين] دهشاً غير مستعدّ ولا متحفّظ . فصادفه[٢] جماعة من الفرنج ، فقتلوه رحمه الله . وكان أميراً فاضلاً ، عالماً متأدباً ، جواداً سمحاً ، عالى الهمة كبير النفس ، ما كان فى إخوته مثله ، بل ولا فى غير إخوته . [و] نال [الأمير فخر الدين] من الدنيا سعداً عظيماً ، ومكانة عالية ، وانتهى إلى

---

(١) كذا فى الأصل .

(٢) فى الأصل " فصادفوه " .

قريب رتبة الملك الصالح نجم الدين أيوب . وكانت همته تترقى إلى الملك ، وختم الله له بالشهادة ، رحمه الله ورضى عنه .

ودخل ملك الإفرنج[١] ريدافرنس المنصورة ، ووصل إلى القصر الذى للسلطان . وتفرّق الفرنج فى أزقة المنصورة ، وهرب كل مَن فيها من الجند والعامة والسوقة ، يميناً وشمالاً ، وكادت شأفة الإسلام تُستأصل ؛ وأيقن الفرنج بالظفر ، و [لكنه] كان من سعادة المسلمين تفرّق الإفرنج فى الأزقة .

واشتدّ الأمر ، واعضلّ الخطب ، فانتحت الطائفة التركية ، [وهى طائفة] مماليك السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب ، من البحرية والجمدارية ، و [هم] أسود الحرب وفرسان الهيجاء ؛ وحملوا على الفرنج حملة واحدة . وكانت حملة عظيمة ، فزعزعوا بها أركانهم ، وهدّوا بنيانهم . وأخذت الفرنجَ السيوفُ والدبابيسُ من كلّ جانب ، فأثخنوا فيهم القتل والجراح ، وطرحوهم فى أزقة المنصورة ، فكانت عدة من قتل من الفرنج ألف وخمسمائة فارس من فرسانهم ، وصناديدهم وشجعانهم .

وأما رجالة الفرنج فكانوا قد جاءوا على الجسر المصون على بحر أشمون ، ليعدّوا منه ، ولو تراخى الأمر ، وعدّت الرجالة (٣٦٦ ب) إلى المسلمين ، وتكاملوا فيه ، لاعضلّ الداء ، فإن الرجالة كانوا جمعاً عظيما ، وكانوا حموا فرسانهم . ولولا ضيق مجال القتال ، فإن الحرب كان بين الأزقة والدروب ، لكانوا استأصلوا[٢] الفرنج عن آخرهم . لكن سلم الباقون منهم ، ومضوا إلى جديلة ، واجتمعوا بها . ودخل الليل ، ففرّق

---

(١) كذا فى الأصل ، وهو خطأ مشهور ، والصحيح أن أخا الملك لويس التاسع ، واسمه روبرت كونت أرتوا ، هو الذى دخل مدينة المنصورة محارباً ، على رأس فئات الطليعة من الجيش الصليبى ، وهو الذى لقى حتفه فى معركة المنصورة . على أن الملك لويس التاسع جاء إلى مدينة المنصورة أسيراً ، على رأس أفواج من الأسرى الصليبيين .

(٢) فى الأصل " استوصلوا " .

بينهم [وبين المسلمين] . وضربوا على جديلة سوراً ، وخندقوا خندقاً عليهم . وأقامت طائفة منهم فى البرّ الشرقى ، ومعظمهم فى طرف الجزيرة المتصلة بدمياط ، و[صار] على الطائفتين الخندق والسور .

وكانت هذه الواقعة أول النصر ومفتاح الظفر . ووردت البطاقة إلى القاهرة ، فأُحضرت إلى حسام الدين محمد بن أبى على [الهذبانى] ، بعد الظهر من يوم الوقعة ، ومضمونها أنه سرح الطائر ، وقد هجم العدو المنصورة ، والحرب قائمة ، والقتال بين المسلمين والفرنج شديد ؛ وليس فى البطاقة غير ما هذا معناه . فانزعجنا ، وانزعج المسلمون كافة ، وغلب على الظنون بوار الإسلام .

وورد المنهزمون من المسلمين آخر النهار ، وبقى باب النصر مفتوحاً طول ليلته ، وهى ليلة الأربعاء ، والجند والعامة والكتاب والمتصرّفون يدخلون منه منهزمين ، ولا علم لهم بما تجدّد بعد دخول الفرنج المنصورة . وممن دخل تلك الليلة ، وجاء إلى الأمير حسام الدين ، القاضى تاج الدين المعروف بابن بنت الأعز ، وكان متولّى النظر بديوان الصحبة .

وبقيت القلوب منزعجة ، إلى أن طلعت الشمس من يوم الأربعاء ، فوردت البشرى بالنصر . وزيّن البلد ، وضُربت البشائر ، وعظم السرور والفرح ، بالانتصار على الفرنج ؛ وكانت هذه أول واقعة انتصر فيها أسود الترك على كلاب الشرك . ووردت البشرى على الملك المعظم [تورانشاه] بذلك ، وهو فى الطريق ؛ فجدّ فى السير إلى الديار المصرية .

ذكر وصول الملك المعظم [تورانشاه] بن الملك الصالح نجم الدين أيوب إلى المعسكر بالمنصورة

قال ، ولما تواترت الأخبار بقرب [وصول] الملك المعظم [تورانشاه إلى الديار المصرية] ؛ قال صاحب التاريخ ؛ خرج الأمير حسام الدين

[محمد بن أبي على الهذباني] نائب السلطنة إلى لقائه ؛ وخرجتُ أنا فى صحبته ؛ (١٣٦٧ ا) فالتقيناه بالصالحية يوم السبت ، لأربع عشرة ليلة بقيت من ذى القعدة . وكان قاضى القضاة بدر الدين يوسف بن الحسن [السنجارى] قد التقاه من غزّة ؛ فوصل فى صحبته . ونزل الملك المعظم [تورانشاه] بالصالحية بقصر والده ؛ ومن يومئذ أعلن بموت الملك الصالح نجم الدين أيوب ؛ وكان قبل [ذلك] ما يقدر واحد ينطق بموته ؛ وكانت الخطبة مستمرّة للملك الصالح إلى ذلك الوقت .

وخلع الملك المعظم [تورانشاه] بالصالحية على الأمير حسام الدين خلعة سنية تامة ، ومنطقة وسيفاً محلّى بالذهب والجوهر ، وسير إليه فرساً[1] من أجود الخيل بخلعة مذهبة ، وبعث إليه ثلاثة آلاف دينار ؛ فلبس [الأمير حسام الدين] الخلعة ، وقبّل حافر الفرس ، وركبه .

ورحل الملك المعظم [تورانشاه] من الصالحية ، متوجهاً إلى المنصورة ، فنزل بالمنزلة المعروفة بمنزلة حاتم . وحضرتُ يومئذ فى خدمته بعد صلاة العصر ، وجرت بينى وبينه مباحثة فى أنواع شتى من العلوم والآداب : من ذلك أنى أوردتُ أن ابن نباتة الخطيب [قال] ، وأخذه بعض الناس فى قوله : الحمد لله الذى إذا وعد وفا ، وإذا أوعد تجاوز وعفا ، فإن تجاوز البارى تعالى بعد الإخبار عنه ، أنه يعاقب المتجاوَز عنه ، يلزم منه الخلف فى الخبر ، وهو على الله تعالى محال ، وإنما يصحّ مثل هذا فى حق الآدميين ، إذ يجوز فى أخبارهم ، كقول القائل :

وإنى وإن أوعدته أو وعدته لمنجز إيعادى ومخلف موعدى

وإنما يعفو الله تعالى عمن[2] لم يخبر أنه يعاقبه ، وأما من أخبر أنه يعاقبه ،

---

(١) فى الأصل " فرس " .

(٢) فى الأصل " من " .

فلابدّ وأن يعاقبه ، واللا(١) نام أن يخبره مطالعاً للمخبر عنه ، وهذا محال ؛ وانجرّ البحث فى هذا إلى أشياء كثيرة(٢) :

وانتقل البحث إلى مسائل أدبية ، وبحثَ [المعظم تورانشاه] فى ترجيح أبى تمام على المتنبى ، وغير ذلك من الفنون . وكانت عبارته رحمه الله غزيرة ، وعنده استحضار لمسائل كثيرة من العلوم ؛ ولم نزل ذلك الوقت نتجارى فى العلوم إلى أن كادت الشمس تغرب .

ثم رحل [المعظم تورانشاه] من الغد من تلك المنزلة إلى تلبانة ، ثم رحل منها مرحلة قريبة من المنصورة ، ثم وصل [إلى] المنصورة ، (٣٦٧ب) يوم الخميس ، لتسع بقين من ذى القعدة .

وتلقته الأمراء والبحرية مماليك أبيه ، وفرحوا به ، فلو أحسن إليهم وسلك معهم ما كان أبوه يسلكه من البرّ بهم ، لنصروه وشدّوا أزره ، وعاضدوه . ولكنه اطّرحهم وجفاهم ، وقدّم عليهم من لا يصلح للتقدّم . ففسدت أحواله ، كما فسدت أحوال عمه الملك العادل ، بعد أبيه الملك الكامل .

ولما استقرّ [المعظم تورانشاه] بقصره بالمنصورة ، ركب بالعساكر إلى قبالة الفرنج ، وبايتهم(٣) للقتال ، وحاصرهم فى منزلتهم التى نزلوها .

وكان [المعظم تورانشاه] يمدّ السماط كلّ يوم ، ويحضر سماطه الأمراء والأكابر والمعمّمون .

وقدم إلى المنصورة جماعة من العلماء ، منهم الشيخ عز الدين بن عبد السلام ، والفقيه بهاء الدين بن الحميرى ، وفخر الدين بن عماد الدين بن السكرى ، والشريف عماد الدين السلمانى ، والشيخ سراج الدين

---

(١) كذا فى الأصل .

(٢) أودّ هنا أن أشكر لزميل وصديق القديم الدكتور أبو العلا عفيفى ، معونته العلمية على تقويم هذا النص الكلامى ، وما يليه من النصوص الفقهية والأدبية ، بهذا الملحق .

(٣) كذا فى الأصل .

الأرموى ، والقاضى عماد الدين بن القطب ، وكان الملك الصالح قد ولاه قضاء مصر وما معها من الوجه القبلى ، وهو الذى ذكرنا أنه كان قاضى حماة ، ثم عزل منها . وكان الملك المنصور صاحب حمص أرسله إلى الملك الصالح ، فمنعه الملك الصالح من الرجوع اليه ، وقد ذكرنا ذلك . وتوفى القاضى أفضل الدين الخونجى[١] فى سنة ست وأربعين وستمائة ، والسلطان [الصالح أيوب] بالشام ، فلما رجع من الشام ولّى[٢] [عماد الدين بن القطب] الحكم بمصر وما معها من البلاد . وكان الملك المعظم [تورانشاه] يجتمع بهؤلاء الفقهاء ، ويباحثهم ، ويجرى بين يديه فوائد كثيرة .

وحضرتُ عنده بالمنصورة ، وهو يسأل عن قول النبى صلى الله عليه وسلم : " نِعم العبد صُهيب ، لو لم يخفِ الله لم يعصه " . والقاعدة أن"[٣] لو للمثبت بعد ما يكون منفياً ، والمنفى مثبتاً ، ويلزم أن يكون المعنى أنه خاف الله وعصاه . وليس هذا مراد الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، وإنما المعنى أنه لا يعصى الله تبارك وتعالى على تقدير عدم الخوف ، فمن طريق الأولى أنه لا يعصيه فى حال الخوف .

ومال [المعظم تورانشاه] إلىّ ميلاً كثيراً ، ولم أزل ألازمه إلى أن دخلتُ القاهرة ، لما دخلها [الأمير] حسام الدين [محمد بن أبى على الهذبانى] ، وكنتُ على عزم العود اليه ، وجرى ما سنذكره إن شاء الله تعالى .

ذكر وقوع أسطول المسلمين على مراكب الفرنج وضعف الفرنج

ولما استقرّ الفرنج بمنزلتهم ، كانت تأتيهم الميرة من دمياط فى نهر النيل ، فعمد المسلمون إلى مراكب شحنوها بالمقاتلة ، وحملوها على الجمال إلى بحر

---

(١) فى الأصل " الخويجى " .

(٢) فى الأصل " ولاه " ، وحذف الضمير وإضافة العائد بين حاصرتين ، للتوضيح .

(٣) فى الأصل " وقاعدة لوان " ، والصحيح ما هنا بالمتن .

المحلة ، وألقوها فيه ، وفيه ماء من زيادة النيل واقفة ، لكنه متّصل بالنيل . فلما جاوزت مراكب الفرنج وهى مقلعة من دمياط فى بحر المحلة ، وتلك المراكب التى[1] للمسلمين مكمنة ، خرجت عليها تلك المكمنة فى بحر المحلة ، ووقع القتال بين الفريقين . وجاءت أساطيل المسلمين من ناحية المنصورة منحدرة إليهم ، والتقى الأسطول والمراكب التى كانت مكمنة ، فأحاطوا بالفرنج ، فأخذوهم ومراكبهم أخذاً باليد . وكانت عدة المراكب المأخوذة للفرنج اثنين وخمسين مركباً ، وأُسِرَ مَن كان فيها ، [وهم] نحو ألف رجل ، وأُخذ جميع ما فيها من الميرة . ثم حُملت الأسرى على الجمال ، وقُدِم بهم إلى المعسكر .

وانقطعت الميرة بسبب ذلك عن الفرنج ، ووهنوا وهناً عظيماً . واشتدّ عندهم الغلاء ، وبقوا محبوسين لا يستطيعون المقام ولا الذهاب ، واستظهر عليهم المسلمون[2] ، وطمعوا فيهم .

وفى مستهل ذى الحجة ، أخذ الفرنج من مراكب المسلمين التى فى بحر المحلة سبع حراريق ، وهرب من فيها من المسلمين . .

وفى ثانى ذى الحجة ، تقدّم الملك المعظم [تورانشاه] إلى الأمير حسام الدين [محمدبن أبى على الهذبانى] ، فى[3] الدخول إلى القاهرة ، وفى المقام بدار الوزارة ، ليجرى على عادته فى نيابة السلطنة .

قال صاحب التاريخ القاضى جمال الدين بن واصل ، وخلع المعظم [تورانشاه] علىّ وعلى جماعة من الفقهاء الذين وردوا إلى خدمته ، ووصل إحسان الملك المعظم إلى كلّ من قصد بابه . قال ودخلتُ القاهرة مع الأمير حسام الدين .

---

(١) فى الأصل " اللذى " .

(٢) فى الأصل " المسلمين " .

(٣) كذا فى الأصل .

(٣٦٨ ب) وفى يوم الاثنين ، لتسع بقين من ذى الحجة ، وهو يوم عرفة ، خرجت شوانى المسلمين على مراكب وصلت للفرنج على[1] المبرة ؛ فالتقوا عند مسجد النصر[2] . وأخذت شوانى المسلمين من مراكب الفرنج اثنين وثلاثين مركباً ، منها سبعُ شوانٍ[3] . فازداد عند ذلك ضعف الفرنج ووهنهم ، وقوى الغلاء عندهم .

وعند ذلك شرع الفرنج فى مراسلة المسلمين وطلب المهادنة منهم ، ووصلت رسلهم [للملك إلى المعسكر] . فاجتمع بهم الأمير زين الدين أمير جندار ، وقاضى القضاة بدر الدين [يوسف بن الحسن السنجارى] . فرغب الفرنج على أن يسلّموا دمياط للمسلمين ، على أن يأخذوا بذلك بيت المقدس وبعض الساحل ؛ فلم تقع الإجابة إلى ذلك .

وفى يوم الجمعة ، لثلاث بقين من ذى الحجة ، أحرق[4] الفرنج أخشابهم كلها ، وأبقوا مراكبهم ، وعزموا على الهروب إلى دمياط ؛ وخرجت هذه السنة وهم مقيمون بمنزلتهم ، فى مقابلة المسلمين .

ذكر ما تجدّد فى هذه السنة بالشرق

كانت نصيبين قد صارت مشتركة بين بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل والملك السعيد صاحب ماردين ، ولكلّ واحدٍ منهما والٍ [فيها] . فوقع

---

(١) كذا فى الأصل .

(٢) لم يستطع كاتب هذه السطور أن يعثر على موضع هذا المكان ، بالمراجع الأخرى المتداولة بهذه الحواشى ، أو بالخرائط والمعاجم الجغرافية المختلفة ، كما أنه لم يستطع أن يهتدى إلى أىّ أثر لهذا الموضع ، وربما يكون هو موضع البـدالة الحالية . على أنه يوجد فى (Joinville : Op. Cit. p. 161) إشارة لتحديد تقريبى لهذا الموضع ، إذ قال إنه على مسافة سبعة أميال شمالى المنصورة .

(٣) فى الأصل " شوانى " .

(٤) فى الأصل " شرعت " .

(٥) فى الأصل " احرقت " .

بين الولاة تنازع ، وكثر بينهما القال والقيل ، فأدّى ذلك إلى خروج بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل إلى نصيبين ، فاستولى عليها .

ثم سار [بدر الدين] إلى دنيسر ، وهى [كذلك] للملك السعيد صاحب ماردين ، فنهبها . ثم سار إلى رأس عين ، وبها عسكرٌ لصاحب ماردين ، [وأولئك] كانوا قد توجهوا لإنجاد السلطان الملك الناصر صاحب حلب ، على عسكر الملك الصالح نجم الدين أيوب صاحب مصر ، لما كان نازلاً[1] على مدينة حمص . فلما وقع الصلح عادوا ، فوقع عليهم بدر الدين ، فنهبهم ، وأخذ خيولهم ، وقبض على مسومرهم[2] . ثم رجع [بدر الدين] إلى دنيسر ، فنقل ما كان فيها من الغلال إلى نصيبين ، وخرّب دنيسر ، حتى لم يبق فيها قائماً سوى الجامع ، على ما قيل . فبعث صاحب ماردين إلى الملك الناصر صاحب حلب مستغيثاً به ، فجهز الملك الناصر رحمه الله عسكراً من حلب ، وقدّم عليهم عم أبيه الملك المعظم تورانشاه بن صلاح الدين ، فساروا إلى ماردين ، فنزلوا بحرزم[3] . ونزل إليهم الملك السعيد صاحب ماردين ، وتأهبوا للقاء بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل ، وكان نازلا بنصيبين ، وقد عمر قلعتها فى مدة قريبة ، وهو مهتمّ بجمع العساكر والجند .

فبينما هو كذلك إذ ورد رسول الخليفة المستعصم بالله ، ليصلح بينهم ، وطلب من بدر الدين تسليم دارا إلى صاحب ماردين ، فأجاب [بدر الدين] إلى ذلك ، ولم يبق إلا انتظام الصلح .

---

(١) فى الأصل « نازل » .

(٢) كذا فى الأصل .

(٣) فى الأصل « بحردم » ، بغير نقط . انظر ياقوت : معجم البلدان ، ج ٢ ، ص ٢٣٩) ، حيث ورد أن حرزم بليدة بين ماردين ودنيسر .

ثم إن بدر الدين لؤلؤ رجع عن ذلك ، فوقع بين الفريقين مصافٌ[1] ظاهر نصيبين ، فوقعت الكسرة على بدر الدين لؤلؤ ، وهزمه الحلبيون والملك السعيد هزيمة قبيحة ، واستولوا على خيامه وسرادقه وخزائنه . ونزلت العساكر على نصيبين ، ففتحوا قلعتها بالأمان ، ورتبوا فيها الولاة . ثم ساروا إلى دارا ، ونصبوا عليها المجانيق ، وحاصروها ثلاثة أشهر ، ثم ملكوها وأخربوها . ثم توجهت فرقة من عسكر حلب إلى قرقيسيا ، فملكوها . ثم عاد العسكر الحلبي إلى حلب ، وصاحب ماردين إلى بلده .

ودخلت سنة ثمان وأربعين وستمائة ، والحال على ما ذكرناه ، من ضيق الحال على الفرنج ، وعزيمتهم على الهرب إلى دمياط .

ذكر هزيمة الفرنج واستئصالهم قتلاً وأسراً والقبض على ملكهم ريدافرنس

لما جرى ما ذكرناه ، وعيل صبر الفرنج من الضيق ، وقلّت[2] الذخائر عندهم ، وعُدِم القوت . لم يبق لهم لفرط الجوع وانقطاع المادة صبرٌ على المقام ، فأحرقوا كما ذكرنا أخشابهم ، وأبقوا مراكبهم ، وتأهبوا للهرب .

ولما كانت ليلة الأربعاء ، لثلاث مضين من المحرم ، من سنة ثمان وأربعين وستمائة ، وهى الليلة الغرّاء المسفرة عن النصر الأعظم والفتح الأكبر ، (٣٦٩ ب) رحل الفرنج بفارسهم وراجلهم متوجهين إلى دمياط ، ليستعصموا بها ، وأخذت مراكبهم فى الانحدار فى البحر قبالتهم . وعلم المسلمون بذلك ، فتبعوهم ، وركبوا أعناقهم ، بعد أن عدّوا إلى برّهم ، فاتبعوهم .

---

(١) فى الأصل " مصافا " .

(٢) فى الأصل " وقلة " .

وطلع الصباح من يوم الأربعاء المذكور ، وقد أحاط بهم المسلمون ، وبذلوا فيهم سيوفهم ، وأحاطوا عليهم قتلاً وأسراً ، فلم يسلم منهم أحد ؛ فذُكر أن عدّة القتلى بلغت ثلاثين ألفاً . وكان لمماليك السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب البحرية ، فى هذه الوقعة ، الهمة العالية والتقدّم العظيم ، فأذاقوا الفرنج البلاء ، وكان لهم الحظ الأوفى الأوفر ، [و] كانوا قاتلوا قتالاً شديداً ، وهم الذين أقدموا على اتّباع[1] الفرنج ، وهم كانوا داوية الإسلام .

قالوا ، وانحاز الملك ريدافرنس الملعون ، والأكابر من ملوك الفرنج ، إلى تل قونة[2] ، مستسلمين طالبين الأمان . فأمنهم الطواشى جمال الدين محسن الصالحى ، فنزلوا على أمانه ؛ واحتيط عليهم كلهم . ومضوا بالملك ريدافرنس ومن معه من ملوك الفرنج إلى المنصورة ، فضربوا فى رِجل الملك الكبير ريدافرنس القيد ، وكذلك جميع من معه من الملوك . واعتقل [ريدافرنس] فى الدار التى كان نازلا بها كاتب الإنشاء فخر الدين [بن] لقمان ، ووُكِّل به الطواشى صبيح المعظمى ، وهو أحد خُدّام الملك المعظم توران شاه بن الملك الصالح نجم الدين أيوب ، وهو ممن قدِم فى صحبته من حصن كيفا ، فقدّمه وأعلى شأنه وعظّمه فى هذه الكرة .

وفى اعتقال ملك الفرنس[3] ريدافرنس فى دار فخر الدين بن لقمان ، وتوكيل الطواشى صبيح به ، قال جمال الدين يحيى بن مطروح ، رحمه الله تعالى :

---

(١) كذا فى الأصل .

(٢) كذا فى الأصل ، والمعروف أن الملك لويس التاسع لجأ إلى قرية منية الخولى عبد الله ، وهى قرية صغيرة مطلة على النيل ، بين شارمساح وفارسكور الحالية . غير أن كاتب هذه السطور لم يستطع أثناء زيارته لهذه القرية الصغيرة ، أن يحدد موضع هذا التل المذكور .

(٣) كذا فى الأصل .

قل لفرنسيس إذا جئته … مقال حق عن قؤول نصيح
آجرك الله على ما جرى … من قتل عباد يسوع المسيح
(٢٧٠ا) فساقك الحمق إلى موضع … ضاق له عن ناظريك الفسيح
وكل أصحابك أوردتهم … بحسن تدبيرك بطن الضريح
خمسون ألفاً لا يرى منهم … إلا قتيل أو أسير جريح
وفقك الله لأمثالها … لعل عيسى منكمو يستريح
إن كان باباكم بذا راضياً … فرب غش قد أتى من نصيح
وقل لهم أن أضمروا عودة … لأخذ ثأر أو لقصد[1] صحيح
دار ابن لقمان على حالها … والقيد باق والطواشي صبيح

قال ولما جرى ذلك ، رحل [الملك المعظم] تورانشاه والعساكر من المنصورة إلى جهة دمياط ، فنزلوا بفارسكور ، وهى من أعمال دمياط . وضُرب بها دهليز السلطنة ، ونُصب إلى جانبه برج خشب ، [و] كان الملك المعظم [تورانشاه] يصعد اليه فى بعض الأوقات . وأقام [الملك المعظم] متراخياً عن قصدِ دمياط ، ولو أسرع إلى النزول عليها والدخول إليها ، وطلبَ تسليمها من الملك ريدافرانس ، وهو فى قبضته ، لحصل له ذلك فى أقرب الأوقات . لكن أبعده عن ذلك سوء التدبير الذى اقتضاه ، بما سبق له من التقدير .

قال ، وفى يوم الجمعة ، لخمس مضين من المحرم ، ورد أمر الملك المعظم ابن الملك الصالح [نجم الدين أيوب] إلى الأمير حسام الدين محمد بن أبى على [الهذبانى] ، نائب السلطنة [بالقاهرة] ، بالقدوم عليه [فى فارسكور] ؛ واستناب الملك المعظم [تورانشاه] بدله الأمير جمال الدين أقوش التجيبى الصالحى .

---

(١) فى الأصل " لهد " . انظر المقريزى ، المواعظ والاعتبار – بولاق ، ج ١ ، ص ٢٢٠ ، وكذلك أحمد أحمد بدوى : من النقد والأدب ، ص ٣٦ .

قال ، فرحل حسام الدين من القاهرة ، متوجهاً إلى المعسكر بفارسكور ، فنزل به مُطَّرَح الجانب ؛ وحسام الدين الذى كان عمدة أبيه الملك الصالح نجم الدين أيوب ، وعدّته . واطّرح [الملك المعظم تورانشاه] أيضاً أمرَ أمراء أبيه الكبار ، من المماليك الذى أنشأهم الملك الصالح ؛ وكان [الملك الصالح] يعتمد عليهم فى جميع الأمور ، وكانوا معظم العسكر ، وهم البحرية الذين كسروا الفرنج ، وأبلوا بلاءً عظيماً . واطّرح [الملك المعظم] الأمراء من الأكابر[١] ، وغيرهم ؛ وكان بالمعسكر من الأمراء الأكراد جماعة ، منهم الأمير فخر الدين بن أبى ذكرى ، والأمير سيف الدين القيمرى ، والأمير عز الدين القيمرى — ، ولم يكن [هذا الأمير] من القيمرية بأنفسهم ، وإنما كان من أتباعهم ، فنسب إليهم — ، والأمير فخر الدين حسين ، والأمير مجير الدين بن خشترين ، وغيرهم . وكان فيه من غير الأكراد الأمير زين الدين أمير جندار ، والأمير شهاب الدين بن سعد الدين بن كهسا[٢] ، وهؤلاء جماعة كبيرة .

فاطّرح السلطان الملك المعظم [تورانشاه] بن الملك الصالح [نجم الدين أيوب] هؤلاء الجميع ، وجفاهم ، وقدّم أقواماً لا خلاق لهم ، جاءوا معه من الحصن ، منهم رجل يقال له الطورى . وقدّم [الملك المعظم] الطواشى صبيح ، وجعل إليه أموره كلها ؛ واعتمد على وزيره ابن حشيش الذى أسلم على يديه ، ولقبه معين الدين ، ليفوّض إليه ما كان مفوّضاً إلى معين الدين بن شيخ الشيوخ ، ويقيمه مقامه .

وعزم [الملك المعظم تورانشاه] على عزل قاضى القضاة بدر الدين [يوسف بن الحسن السنجارى] ، وكان والده الملك الصالح نجم الدين أيوب يرجع إليه فى الرأى والمشورة . وأراد [الملك المعظم] أن يولّى عوضه

---

(١) كذا فى الأصل ، ولعل المقصود " الأكراد " .
(٢) كذا فى الأصل .

قاضى حصن كيفا ، وكان قد ورد معه ؛ فنفرت بهذه الأفعال قلوب أكثر أهل المعسكر .

واطّرح [الملك المعظم] المماليك البحرية الذين هم كانوا سيوف أبيه الملك الصالح ، وبهم كان يصول ، وبهيبتهم يجول ، وكانوا بطانته ، والنازلين حول دهليزه ؛ وفارس الدين أقطايا الذى هو مقدم البحرية ، هو الذى كان توجه اليه إلى حصن كيفا ، وقاسى الشدائد والمشاق حتى وصل إليه ، ثم عاد به إلى الديار المصرية ؛ فلم ير[1] فارس الدين أقطايا منه — لما ملك الديار (٣٧١ ا) المصرية — ما كان يؤمله .

قال ، وعزم الملك المعظم — على ما ذُكِر — على إرسال فارس الدين أقطايا بالبشرى بالفتح إلى بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل ، وذُكِر أنه أراد من بدر الدين أن يقبض عليه ، ويقتله فى بعض القلاع .

وكذلك قيل إنه عزم على أن يسيّر جماعة من[2] [المماليك البحرية] إلى جماعة من الملوك فى هذا المعنى ، ففطنتْ المماليك والأمراء بذلك ، وعلموا أن مقصوده يفعل معهم ما كان أبوه الملك الصالح سلكه فى الأشرفية ، نوبة الملك العادل [بن الملك الكامل] . فقتل أكثرهم وبدّد شملهم . فاستوحش[3] البحرية وغيرهم منه . وإنما فعل أبوه الملك الصالح ما فعل ، وهو فى قلعة دمشق محبوس[4] فيها ، والملك المعظم [تورانشاه] كان فى المخيّم بينهم .

ذكر مقتل الملك المعظم غياث الدين توران شاه ابن الملك الصالح [نجم الدين أيوب] رحمه الله تعالى

قال ، ولما جرى ما ذكرنا من تغيّر قلوب العسكر منه ، خصوصاً مماليك أبيه البحرية ، اتفق جماعة من مماليك أبيه على قتله :

---

(١) فى الأصل " يرى " .

(٢) فى الأصل " منهم " ، وحذف الضمير وإضافة العائد بين حاصرتين للتوضيح .

(٣) فى الأصل " فاستوحشوا " .

(٤) فى الأصل " مجبور " .

فلما كانت[1] بكرة الاثنين ، لليلة بقيت من المحرم من هذه السنة ، أعنى سنة ثمان وأربعين وستمائة ، مدّ الملك المعظم [تورانشاه] السماط فى دهليزه ، وجلس على طرّاحته ، وأكل الناس بين يديه ، وأكل معهم على ما جرت عادته . ثم فرغت الناس من الأكل ، وتفرقت الأمراء إلى وطاقاتهم . وقام [الملك المعظم] من مجلسه ، وطلب الدخول إلى خيمة له صغيرة ؛ فدخل عليه ركن الدين بيبرس ، وكان أحد جمدارية أبيه ، وكان يعرف بالبندقدارى ، وهو الذى ملك مصر بعد ذلك ، ولُقّب الملك الظاهر ، وهو الذى كسر التتر مع الملك المظفر قطز ، على عين جالوت ، وتبعهم إلى فامية[2] ، ورجع . ولما ملك [بيبرس البندقدارى] فتح أكثر بلاد الإفرنج ، مثل صفد والشقيف وأنطاكية ، وغيرها[3] من البلاد . وفتح بلاد الإسماعيلية ، وكسر التتر مراراً . فضرب [بيبرس البندقدارى] الملك المعظم [تورانشاه] بسيف ، فجرحه فى (٣٧١ ب) كتفه ؛ ورمى ركن الدين السيف من يده ؛

ورجع الملك المعظم [تورانشاه] بن الملك الصالح إلى مجلسه ، واجتمع حوله الناس وأصحابه ، وبعض مماليك أبيه ، فقالوا له : "أى شىء جرى ؟" فقال : " جرحنى أحد البحرية " . وكان ركن الدين بيبرس البندقدارى واقفاً ، فقال : " ربما فعل هذا بعض الإسماعيلية " . فقال [الملك المعظم تورانشاه] : " ما فعل بى هذا إلا البحرية " . فخافت البحرية حينئذ ، واستشعروا منه .

ثم قام [الملك المعظم] ، وصعد إلى البرج ، وأحضر الجرائحى ليداوى يده . فاجتمع مماليك أبيه ، وخافوا لمّا سمعوه ينسبهم إلى أنهم قصدوا قتله ؛ وانضمّ هذا إلى ما كان فى نفوسهم من اطّراحه لهم ، واحتاطوا بالبرج ؛

---

(١) فى الأصل " كان " .

(٢) فى الأصل " مامه " ، بغير نقط ألبتة .

(٣) فى الأصل " وغيرهم " .

فيفتح [الملك المعظم] طاقاته ، واستغاث بالناس ، فلم يجبه أحـــد ، ولا أغاثه[1] أحد . ولم يأت[2] إليه أحد من الأمراء المصرية ، لأن الجميع كانت قلوبهم نافرة منه . واحضرتْ نار ليُحرق بها البرج ، فنزل [الملك المعظم] من البرج . فحمل عليه [بيبرس] البندقدارى الذى كان جرحه ، فهرب [الملك المعظم] إلى جهة البحر . فكانت فيه حراريق له ، فأراد أن يسبق إليها ويعتصم بها ، فأدركه فارس الدين أقطايا ، وضربه بالسيف ، فقتله ، رحمة الله عليه .

وكان [الملك المعظم تورانشاه] شاباً ما أظنه كان استكمل ثلاثين سنة ، ولم أحط علماً بتاريخ مولده ، وكانت[3] مدّة ملكه لمصر شهرين وأياماً .

ذكر سيرته رحمه الله تعالى

كان [الملك المعظم تورانشاه] ، كما تقدّم القول ، عنده مشاركة جيدة فى العلم وفضيلة ، إلا أنه كان فيه هوج واضطراب ، وعدم تأنّ فى الأمور . فلم تحسن سيرته فى مماليك أبيه وأمراء دولته ، لأنه قدّم عليهم الأطراف والأرذال ، فجنى ذلك عليه ، كما جنى على عمه الملك العادل [بن الملك الكامل] .

ولما ورد كتابه على الأمير حسام الدين محمد بن أبى على [الهذبانى] ، يستدعيه من القاهرة ، وكان قد ولاّه نيابة السلطنة[4] بها ، على ما كان الأمر عليه فى أيام (١٣٧٢) الملك الصالح نجم الدين أيوب ، رحمه الله تعالى ، فلم يمهله الملك المعظم إلا شهراً واحداً . فقال لى حسام الدين عنه ذلك ، إنه بلغني سيرة هذا الرجل ، يعنى الملك المعظم ، وما يعتمده من اطّراحه

---

(١) فى الأصل " غاثه " .
(٢) فى الأصل " ياتى " .
(٣) فى الأصل " كان "
(٤) فى الأصل " وكان قد ولاه النيابه بها فى الملك " .

للأكابر من الأمراء ، وما سلكه مع مماليك أبيه من سوء سيرته ، وإنى أظنّ أنه يجرى له تقريباً نظير ما جرى لعمّه الملك العادل بن الملك الكامل ؛ فكان والله كما قال حسام الدين ، فلم تمضِ إلا أيام يسيرة ، وجرى الأمر ، كما قال .

ولما توجه الأمير حسام الدين محمد بن أبى على [الهذبانى] إلى عند الملك المعظم [بفارسكور] ، عزمتُ أنا ، بعد أيام ، على التوجه إلى المعسكر [بفارسكور] . وأخذتُ معى للملك المعظم بن الملك الصالح هدية ، وثلاثة[1] كتب قد ألّفتها : كتابان[2] منها فى التاريخ ، وكتاب قد جمعته لأبيه الملك الصالح نجم الدين أيوب ، ولم تتفق تقدمته له . قال صاحب التاريخ ، وكتاب قد ألّفته فى تلك الأيام التى أقمت فيها بالقاهرة ، بعد دخولى مع حسام الدين ، فى علم الهيئة[3] . فتوجهت من القاهرة نحو المعسكر ، وكان غرضى فى ذلك حضورى فتح دمياط ، ومشاهدة دخول المسلمين إليها . وكان سفرى من القاهرة فى يوم الاثنين ، لليلتين بقيتا من المحرم ، قبل قتل الملك المعظم بيومٍ واحد . فبتُّ بقليوب ، ثم رحلتُ منها إلى مرصفا ، وهى ضيعة من الضياع الجارية فى حيز حسام الدين محمد ابن أبى على [الهذبانى] ، فبتُّ بها ليلة الثلاثاء ، وسريتُ منها لطلب جهة المعسكر . فجاءنى الخبر بقتل الملك المعظم ، فرجعتُ من وقتى ذلك إلى القاهرة .

---

(١) فى الأصل " ثلاث " .

(٢) فى الأصل " كتابين " .

(٣) فى الأصل " الهه " ، بغير نقط ألبتة .

ذكر الاتفاق على تمليك الستر العالى والدة خليل شجر الدرّ ، وعزّ الدين التركمانى [يكون أتابك العسكر]

ولما جرى ما جرى من قتل الملك المعظم [تورانشاه] ، اجتمعت الأمراء والبحرية عند الدهليز السلطانى ، واتفقت كلمتهم على أن تكون شجر الدرّ والدة خليل ، زوجة الملك الصالح نجم الدين أيوب ، هى القائمة (٣٧٢ ب) بأمر السلطنة والملك ، وأن التواقيع السلطانية تخرج بأمرها واسمها ، وعليها علامتها .

وكانوا[1] عرضوا[2] التقدمة على حسام الدين محمد بن أبى على [الهذبانى] ، وقالوا له : " أنت كان الملك الصالح نجم الدين يعتمد عليك ؛ فأنتَ أحقّ بهذا الأمر. فامتنع [حسام الدين] ؛ وأشار بأن يكون الطواشى شهاب الدين رشيد الكبير هو القائم بهذا الأمر ، فعرضوا ذلك عليه فامتنع ؛ فوقع الاتفاق على الأمير عز الدين أيبك التركمانى الصالحى ، وحلف الجماعة كلهم على ذلك .

وورد إلى القاهرة الأمير عز الدين أيبك [التركمانى] الصالحى ، وصعد إلى القلعة ، وأنهى ذلك إلى [شجر الدرّ] والدة خليل بن الملك الصالح نجم الدين أيوب. فصارت الأمور كلها معدوقة بها ، وصارت تبرز من جهتها علامة ما صورته : " والدة خليل " ؛ وخُطب لها بالسلطنة بالقاهرة ومصر، وسائر الديار المصرية .

وذلك الأمر لا يُعرف أنه جرى مثله فى بلد من البلاد فى أيام الإسلام ، وأما الحكم والتصرّف فقد جرى مثله ، فإن ضيفة[3] خاتون بنت السلطان

---

(١) فى الأصل " وكان ".

(٢) فى الأصل " عرضوا هذه التقدمة " ، وضمير الإشارة لا محل له هنا ؛ والمقصود بلفظ التقدمة وظيفة مقدم العسكر ، أى الأتابكية . انظر ما يلى ، ص ٣١٣ .

(٣) فى الأصل " صفيه ".

الملك العادل نظرت فى أمر الملك بحلب وبلادها ، بعد موت ولدها الملك العزيز ، [وظلّ الحال على ذلك بحلب] إلى أن توفيت ؛ لكن الخطبة بالسلطنة كانت لابن ابنها الملك الناصر ، رحمه الله تعالى .

قال ، ولما قُتل الملك المعظم [تورانشاه] بن الملك الصالح ، بقى مطروحاً على ساحل البحر ، لا يجسر أحد يتقدّم إليه . فعدّى بعض الملاحين من الجانب الغربى ، ودفنه فى برّ الغرب(١) .

ذكر فتح دمياط

ولما حلف الأمراء والأجناد ، واستقرّت القاعدة على ما ذكرناه ، وقع الحديث مع ملك الفرنج ريدافرنس ، على تسليم دمياط للمسلمين ؛ وجُعل (٣٧٣ ا) المتحدّث فى ذلك حسام الدين محمد بن أبى على [الهذبانى] ، لاتفاق الجماعة على الاقتداء برأيه ومشورته ، لما يعلمون من عقله ومعرفته ، واعتماد ملكهم الملك الصالح نجم الدين أيوب عليه . فجرت بينه وبين ريدافرنس الملك محاورات ومراجعات ، حتى وقع الاتفاق على(٢) تسليم دمياط ، وأن يذهب [ريدافرنس] بنفسه [عن الديار المصرية] سالماً .

قال القاضى جمال الدين بن واصل ، صاحب هذا التاريخ : حكى لى الأمير حسام الدين قال : " كان ريدافرنس ملك الإفرنج عاقلاً فطناً إلى الغاية ، قلتُ له فى بعض محاورتى ما معناه ، كيف خطر للملك ، مع ما أرى فيه من فضله وعقله ، وصحة ذهنه ، أن يتقدّم على خشب ، ويركب متن هذا البحر ، ويأتى إلى هذه البلاد المملوءة خلقاً من المسلمين والعساكر ، ويعتقد أنها تحصل له ويملكها ، وفيها فعَل غاية التغرير بنفسه ، وبأهل

---

(١) لم يستطع كاتب هذه السطور أن يجد أثراً لهذا القبر ، بين النخيل والمزارع لممتدة على طول الشاطئ الغربى للنيل ، قبالة فارسكور الحالية .

(٢) فى الأصل " فى " .

مملكته؟ قال [حسام الدين] ، فضحك [ريدافرنس] ، ولم يَرِدْ جواباً ، فقلت له : " إنَّ من شريعتنا مَنْ ركب هذا البحر مرّة بعد أخرى مغرِّراً (١) بنفسه وماله ، لا تقبل شهادته إذا شهد " . فقال الملك : ولم ذلك ؟ . قال ، فقلت : " إنا نستدلّ بذلك على نقصان عقله ، ومن كان ناقص العقل لا ينبغي قبول شهادته . قال فضحك [ريدافرنس] ، وقال : " والله لقد صدق هذا القائل ، وما قصَّر فيما حكم به " .

قال صاحب التاريخ ، وهذا الذى ذكره حسام الدين هو قول منقول عن بعض العلماء ، لكنه ليس بقوىّ ، لأن الغالب فى ركوب البحر السلامة . وأما هاهنا وجهان ، إذا لم يكن للإنسان وصول إلى مكة إلا بركوب البحر ، هل يجب عليه الحج ؟ . فأحد الوجهين لا يجب ، لما فى ركوب البحر من الخطر ، والتغرير بالنفس ، والثانى يجب لأن الغالب إنما هو السلامة .

ولما وقع الاتفاق بين ريدافرنس والمسلمين على تسليم دمياط ، أرسل (٣٧٣ ب) ريدافرنس إلى مَن بمدينة دمياط يأمرهم بتسليم البلد إلى المسلمين ؛ فأجابوا إلى ذلك ، بعد امتناع ومراجعات بينه وبينهم ، وسلّموا دمياط إلى المسلمين .

ودخل العلم السلطانى [مدينة دمياط] ، فى يوم الجمعة لثلاث مضين من صفر ، من هذه السنة ، أعنى سنة ثمانٍ وأربعين وستمائة . ورُفع العلم السلطانى على سورها ، وأُعلن فيها بكلمة الإسلام . وأُفرج عن ريدافرانس ، وانتقل هو ومَن بقى من أصحابه إلى البرّ الغربى . ثم ركب [ريدافرانس] البحر غدِ هذا اليوم ، وهو يوم السبت ، هو ومَن معه ، وأقلعوا إلى عكا . وأقام [ريدافرنس] بالساحل مدّة ، ثم رجع إلى بلاده ، وطهّر الله الديار المصرية منهم .

---

(١) فى الأصل " مغر " .

وكانت هذه النصرة أعظم من الأولى ، بأضعاف مضاعفة ، لكثرة من قُتل منهم وأُسر ؛ وامتلاءت[1] الحبوس بالقاهرة من الفرنج . ووردت البشرى بذلك إلى سائر الأقطار ، وأُعلن فيها بالفرح والسرور .

ولما رحل ريدافرنس ، رحلت العساكر [المنصورة] متوجهة إلى القاهرة ، فدخلوها وقد ضُربت البشائر بها أياماً متوالية ، لنصرة المسلمين على الفرنج ، واسترجاع ثغر دمياط ، وهى عقيلة الإسلام ، وثغر الديار المصرية . وكانت هذه [المرّة] ثانية [مرّة] لأخذ الكفار لها ، واسترجاعها منهم ، وانصرافهم مكسورين مفلولين .

وكان دخول العساكر المنصورة إلى القاهرة يوم الخميس ، لتسع مضين من شهر صفر . .

وتوجّه إلى دمشق الخطيب أصيل الدين ، لاستحلاف نائب السلطنة بها ، [وهو] الأمير جمال الدين بن يغمور والأمراء[2] الذين معه بها . وكان بها جماعة من مماليك السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب ، وجماعة أمراء من غيرهم ، منهم ناصر الدين القيمرى ، وضياء الدين القيمرى ؛ وكان سيف الدين القيمرى بالديار المصرية .

ولما قدم أصيل الدين دمشق ، وطَلَبَ (٤٧٤ ا) اليمين لوالدة خليل شجر الدرّ، زوجة الملك الصالح نجم الدين أيوب ، ولمعزّ الدين أيبك التركمانى بالأتابكية وتقدمة العساكر ، وطَلَب إقامة الخطبة لوالدة خليل شجر الدرّ ، فغلطه جمال الدين بن يغمور ولم يجبه[3] إلى ذلك . ونفذت المكاتبات من القيمرية وغيرهم إلى السلطان الملك الناصر بن الملك العزيز صاحب حلب ، يستدعونه للقدوم عليهم ، ليسلموا له دمشق .

---

(١) فى الأصل " وامتلت " .

(٢) فى الأصل " وللامرا " .

(٣) فى الأصل " يجيبه " .

وفى يوم الاثنين ، لثلاث عشرة ليلة خلت من صفر ، خُلع على الأمراء بالقاهرة ، وأعطوا النفقة .

قال ، وورد الخبر فى هذا التاريخ أن الملك السعيد بن الملك العزيز بن الملك العادل قد أخذ ما فى مدينة غزة من المال ، وهرب . وكان الملك السعيد قد أعطى قبل هذا قلعته المعروفة بالصبيبة ، لابن عمه السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب . وكانت قلعة الصبيبة قبل ذلك فى يده ، من حين مات أخوه الملك الظاهر بن الملك العزيز ، كما قدّمنا ذكره . ولما سلّم [الملك السعيد قلعة] الصبيبة ، بقى فى خدمة السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب إلى هذا التاريخ ، وله خُبْزٌ فى الديار المصرية . فلما قتل الملك المعظم [تورانشاه] بن الملك الصالح بفارسكور ، هرب الملك السعيد إلى غزة ، وفعل ما ذكرناه ؛ فاحتيط على داره بالقاهرة . ثم بعد ذلك سلّم البوّاب[1] من جهة الملك الصالح نجم الدين أيوب القلعة إلى الملك السعيد ، ثم كان من آخر أمره ما سنذكره ، إن شاء الله تعالى .

---

(١) فى الأصل . " تسلم البواب من وجهة الملك الصالح . . . " .

ملحق رقم ٢

أخبار معركة المنصورة ووقعة جديلة الكبرى ، وهى مترجمة إلى اللغة العربية من كتاب جوانفيل الذى عنوانه تاريخ القديس لويس[1] . انظر :

(Joinville : Histoire de Saint Louis, texte original accompagné d'une traduction par Natalis de Wailly, Paris, 1874).

وتعتمد الترجمة العربية هنا على هذه الطبعة الفرنسية المعتمدة فى الأوساط العلمية ، وأرقام الصفحات الواردة بالمتن المترجم هى أرقام صفحات هذه الطبعة . وتوجد عدا هذه الطبعة طبعات فرنسية وإنجليزية أخرى ، وأحدثها طبعة إنجليزية مأخوذة من الطبعة الفرنسية المذكورة ، وعنوانها :

(Joinville : The History of St. Louis, Translated and Edited by Joan Evans, Oxford University Press, 1938).

(ص ١١٧) الفصل الخامس والأربعون

ولما رأى الملك لويس ذلك[2] استدعى جميع باروناته ، لعقد مجلس للمشورة ، وانتهى الرأى حينئذ فيما بينهم ، أنهم لن يقدروا (ص ١١٩) على بناء قنطرة ، ليمكن العبور عليها إلى حيث وقف المسلمون ، ما دام رجالنا

---

(١) هذا الجزء من كتاب تاريخ القديس لويس ، مترجم هنا بإذن خاص من الدكتور حسن حبشى ، وهو يقوم على نقل هذا الكتاب كله إلى اللغة العربية ، منذ سنين .

(٢) ضمير الإشارة عائد على ما قبله من المتن فى جوانفيل ، وخلاصته استحالة تشييد قنطرة عبر بحر أشمون طناح ، ليعبر عليها الصليبيون إلى بلدة جديلة ، حيث وقف المسلمون لهم بالمرصاد ، كما هو واضح فى السطور التالية .

لا يستطيعون أن يسدّوا من مجرى الماء فى جانبهم ، بقدر ما استطاع عساكر المسلمين من توسيع المجرى فى الجانب الآخر .

ثم قال السيد إيمبير بوجيه ، كنداصطبل فرنسا ، للملك أن بدوياً جاء إليه ، وأخبره بأن فى استطاعته أن يدلّهم على مخاضة طيبة ، على شرط أن يدفعوا له خمسمائة بيزانتية . وقال الملك إنه يوافق على دفع هذا المبلغ ، على شرط أن يبرهن البدوى على صدق ما وعد به . وتكلم الكند-اصطبل فى ذلك مع البدوىّ ، فأجاب البدوىّ بأنه لن يدلّ على المخاضة إلا بعد أن يدفعوا له البيزانتيات المطلوبة . واستقر الرأى على تسليمها ، وتم فعلاً تسليمها .

ورتب الملك خطته على أن يظل دوق برجنديا ، وكبار الشخصيات المشتركة فى الجيش من الصليبيين المحليين فى أماكنهم ؛ لحراسة المعسكر ، حتى لا يصل إليه أحد بأذى ، وأن يعبر الملك وإخوته مجرى الماء عند المخاضة التى وعد البدوىّ بإرشادهم إليها ؛ واستقر الرأى على أن يكون تنفيذ هذه الخطة يوم ثلاثاء الرُّفاع[1] . وفى ذلك اليوم وصلنا مخاضة البدوىّ المذكور ؛ ففى مطلع الفجر اجتمعنا بعضنا إلى بعض ، من كل ناحية ، وعندما اكتملت صفوفنا تحركنا نحو حافة الماء ، وأعددنا خيولنا للعوم فى المجرى . وحينما صرنا فى وسط المجرى أبصرنا أرضاً ، واستطاعت خيولنا أن تقف عليها ؛ كما أبصرنا على الشاطئ الآخر ثلاثمائة من المسلمين[2] ، وكلهم راكبون على ظهور الخيل .

عند ذلك خاطبتُ عساكرى قائلا : " سادتى ! انظروا إلى يساركم ، ولا تنظروا إلى يمينكم ، مهما كانت الأحوال ، حتى يستطيع كل واحد

---

(١) وافق هذا العيد الكاثوليكى السنوى تلك السنة يوم ٨ فبراير ، سنة ١٢٥٠ م ؛ ويقع هذا العيد دائماً يوم الثلاثاء ، ويكون هو اليوم السابق للصيام الكاثوليكى الكبير .

(٢) يستعمل جوالفيل لفظ (Sarrazins) الدلالة على المسلمين عامة ، ويقصر لفظ (Turcs) على جند المماليك ، وكان معظمهم فعلاً من الأتراك .

منكم أن يصل إلى هناك ، لأن الشواطئ مبللة ، والخيول تسقط فوق الفرسان ، وتغرقهم فى الماء " . وكان حقيقياً أن فرساناً غرقوا أثناء العبور ، ومنهم ضمن آخرين السيد جون أورليان ، وهو الذى كانت ألوان راية رنكه مقسّمة تقسيماً مدرّجاً . وجعلنا صفوفنا بحيث أخذنا نتقدّم فى المجرى صعداً ضد التيار ، ووجدنا التقدّم خالياً من أية عقبة . وعبرنا على هذه الصورة بفضل الربّ ، ولم يسقط أحد منا فى الماء ؛ وبعد عبورنا لم يلبث الأتراك أن ولّوا هاربين .

وكانت الأوامر التى صدرت إلينا ، أن تتقدّم طائفة الفرسان الداوية فى الطليعة ، وأن يكون كونت أرتوا على رأس الكتيبة الثانية ، وراء الفرسان الداوية (ص ١٢١) . غير أنه حدث بعد عبور كونت أرتوا ، أن هجم هو وكتيبته على الأتراك الذين فرّوا هاربين أمامه . فبعث إليه كبار الرسان الداوية بكلمة قالوا له فيها إنه عاملهم معاملة بخسة مهينة ، إذ المفروض أنه يزحف وراءهم لا أمامهم . ورجوه أن يدعهم يسيرون أولاً ، وفقاً للترتيب الذى أقرّه الملك . لكنه حدث أن كونت أرتوا لم يستطع أن يستجيب إلى رجائهم ، خشيةً وخوفاً من السيد فوكولد لميرل ، وهو الذى كان ممسكاً بلجام فرسه ، لأن فوكولد لميرل هذا ، وهو فارس طيب قديم الخبرة بالحروب ، لم يسمع شيئاً مما قاله الداوية للكونت روبرت ، بسبب صمم فى أذنيه ، بل نادى فى العسكر : " إلى الأمام ، والآن إلى الأمام " .

ولما رأى الداوية ذلك أيقنوا أن عاراً سوف يلحق بهم ، إذا هم تركوا كونت أرتوا يسير أمامهم ، ولذا هزوا خيولهم ، وأطلقوا لها العنان ، وكلّ فارس على قدر طاقته ، وطاردوا الأتراك الذين ولّوا هاربين أمامهم ، مخترقين مدينة المنصورة ، وما وراءها من الحقول ، صوب القاهرة . وعندما فكّر الداوية فى العودة ، وجدوا أن الأتراك وضعوا كتلاً وألواحاً من الخشب عبر الشوارع ، وكانت شوارع ضيقة مستقيمة . وهناك لقى كونت

أرتوا حتفه ، وكذلك لورد قوصى واسمه راؤول ، وكثير من الفرسان الذين بلغت عدتهم ثلاثمائة . وخسر الداوية مائتين وثمانين رجلا ، وكلهم من الخيالة ، حسبما أخبرنى مقدمهم بذلك ، فيما بعد[1] .

الفصل السادس والأربعون

واتفقتُ أنا وفرسانى ان نتحرك فى سرعة ، لنبغت جماعة من الأتراك ، وهم واقفون بعدتهم وأسلحتهم ، فى الناحية اليسرى من معسكرهم ؛ وبغتناهم . وبينما نحن نطاردهم داخل المعسكر ، وقعتْ عيناى على أمير مسلم يوشك أن يركب فرسه ، ولجام الفرس بيد أحد فرسانه ؛ وعندما وضع هذا الأمير يديه على السرج ليركب ، طعنتُه برمحى تحت إبطه ، وأرديتُه قتيلاً . ولما رأى الفارس المرافق لهذا الأمير ما حدث ، ترك سيده وفرسه ، واعترضنى بضربة سيف بين أكتافى ، وأنا مارٌّ عليه ، وأحنانى على رقبة فرسى ، ومال بجسمه علىّ ، بحيث لم أستطع أن استل سيفى من غمده والمعلق فى منطقتى ؛ ولذا اضطررت إلى استلال السيف المعلق فى قربوس السرج ، فلما رأى هذا الفارس سيفى مسلولاً سحب رمحه ، وتركنى وشأنى .

ولما خرجتُ أنا وفرسانى من معسكر المسلمين ، وجدنا ستمائة من الأتراك ، بحسب تقديرى ، وقد خرجوا من ثكناتهم ، وانتشروا فى الحقول : فلما أبصرونا اتجهوا نحونا ، وقتلوا السيد هيو تريشاتل ، وهو صاحب جهة كونفلان ، ورايته مثل رايتى . وهمزتُ أنا وفرسانى خيولنا ، وذهبنا لإنقاذ السيد راؤول وانو وهو من فرقتى ، وكان الأتراك أنزلوه عن فرسه ، وألقوه أرضاً .

---

(١) لم يذكر جوانفيل عن معركة المنصورة سوى هذه السطور العابرة ، لسببين اثنين ، أولهما انه لم يشهد بنفسه شيئاً من حوادث هذه المعركة ، وثانيهما أنه تعمد ألا يقف طويلاً عند هذه الكارثة الصليبية ، مع العلم بأنه لا بدّ أستمدّ كثيراً من أخبارها من رئيس الداوية سوناك ، أو من غيره من فئة العائدين القليلين من هذه المعركة الشهيرة .

وبينما أنا راجعٌ من هناك اجتمع الأتراك عليّ ، وأحاطوني برماحهم ، فوقع حصاني على ركبتيه ، لِثقَل ما اجتمع حولي من الأتراك ؛ وانكفأتُ أنا على أذني حصاني ، ووقعتُ إلى الأرض ، رأساً على عقب . ثم نهضتُ واقفاً بأسرع ما استطعت ، وترسي معلّق من رقبتي ، وسيفي في يديّ . وجاءني السيد إفيرار سيفيري (طيّب الربّ ثراه) ، وكان معي ، وقال لي إنه ينبغي لنا أن نأوي إلى دار متخرّبة قريبة ، وأن ننتظر هناك حتى يصل الملك بكتيبة إلى الحقول . وبينما نحن ذاهبون إلى تلك الدار أبصرنا شرذمة كبيرة من الأتراك الخيالة والراجلة ، وهي قادمة للهجوم علينا ، ولم تلبث أن ألقت بي إلى الأرض ، وداستني بأقدامها ، ونزعت ترسي من رقبتي .

وعند ما ذهب هؤلاء الأتراك إلى حال سبيلهم ، عاد إليّ السيد إفيرار سيفيري ، وأخذ بيدي ، ومشينا سوياً حتى بلغنا حيطان الدار المتخربة . وهناك جاء إلينا السيد هيو إيكوه ، والسيد فردريك لوبيه ، والسيد رينو منونكور . وعند ذلك هجم الأتراك علينا من كل ناحية ، ودخلتْ فئة منهم إلى الدار المتخربة ، ورشقتنا بحرابها من السطوح ، ثم طلب مني فرساني أن أمسك بلجم خيولهم ، ففعلتُ ذلك حتى لا تشرد الخيول ، وقاموا هم بالدفاع عن أنفسهم بقوّة ، ضدّ هجوم الأتراك ؛ وحمد لهم ذلك جميع أصحاب المراتب في الجيش ، سواء ممن شهدوا ما حدث فعلاً ، أو ممن سمعوا به فحسب .

وهناك أصيب السيد هيو إيكوه ، بثلاث ضربات (ص ١٢٥) رمح في وجهه ، وكذلك السيد راؤول ، والسيد فردريك لوبيه ، كلّ منهما بضربة رمح بين الكتفين . وكان جُرحُ السيد فردريك بالغاً عظيماً ، بحيث خرج منه الدم كأنما هو من ثقب برميل . وأصيب السيد إفيرار سيفيري بضربة سيف في وجهه ، بحيث سقطت أنفه على شفتيه . وعند ذلك ذكرت أنا سيدي

وشفيعي القديس جيمس ، وقلتُ في صلاتي له : " أيها السيد الجميل القديس جيمس ! ساعدني ، وأغثني في محنتي هذه " .

وبعد أن انتهيت من صلاتي ، قال لي السيد إفرار سيفيري : " سيدي ! إذا أنت قلتَ إني وأعقابي لن نكون ملومين ، لو تركتك أنا هنيهة على هذه الحال ، فإني ذاهب لطلب الغوث لك من كونت آنجو ، وهأنا أراه في الحقول " . فقلتُ له أنا بدوري : " إيه ! يا سيدي إفرار ! ، يبدو لي أنك تجلب لنفسك شرفاً عظيماً ، إذا أنت ذهبتَ للبحث عن نجدة تنقذ حياتنا ، لأن حياتك كذلك في خطر " ؛ ولعمري أني قلت صدقاً ، فإنه مات فيما بعد متأثراً من جرحه الذي أشرت إليه . وكان السيد إفرار يسأل النصيحة من جميع فرساننا الذين كانوا هناك ، فنصحوه جميعاً بنصيحتي . فلما سمع ذلك سألني أن أترك لجام فرسه ، وكنت ممسكاً باللجام مع اللجم الأخرى ؛ وهكذا رضخت لأمره .

وجاء إفرار إلى كونت آنجو ، وسأله أن يأتي لنجدتي وفرساني . وكان مع كونت آنجو رجلٌ من كبار البارونات ، وهو يريد أن يثنيه عن ذلك . لكن كونت آنجو ردّ عليه بأنه سوف ينهض فوراً ، للقيام بما طلبه الفارس إفرار ، وأدار فرسه ، وجاء إلى نجدتنا . وهمز كثير من جاويشيته خيلهم ، وجاءوا معه ؛ وعند ما رآهم المسلمون تركونا . وفي طليعة أولئك الجاويشية كان السيد بطرس أوبيريف ، وهو شاهرٌ سيفه ، فلما رأى أن المسلمين تركونا ، انقضّ هو من فوره على المسلمين الذين أمسكوا بالسيد راؤول وانو ، وخلّصه منهم ، وعاد به مثخناً بجراحٍ كثيرة .

الفصل السابع والأربعون

وبينما أنا واقف وفرساني على هذه الحال ، وكلّنا مثخنون بالجراح ، كما قلتُ ، وصل الملك على رأس كتيبته كلها ، فامتلأ المكان بحركة عظيمة

وضوضاء كبرى ، من الأبواق والطبول . ووقف الملك عند (ص ١٢٧) مكان مرتفع ، وَسْطَ الطريق الممتدّ بين القنوات ، وما أظنني رأيتُ فارساً مزداناً بهذا الجلال ، إذ بدا من كتفه إلى قمة رأسه فوق جميع المحيطين به ، وفوق هامته خوذة مذهبة ، وفى يده سيف من بلاد الأاليمانى .

وعند ما وقف الملك هناك ، هجم فرسانه االصناديد على الأتراك ، وهم فرسان كتيبته الخاصة الذين سميتهم لك أيها القارىء فيما تقدم ، واشترك معهم كثير من الفرسان الشجعان ، التابعين للكتائب الأخرى الزاجفة مع الملك . واعلم أن هذا الهجوم كان عملاً حربياً رائعاً ، ولم يستخدم فيه أحد قوساً عادياً أو مزدوجاً ، بل كانت المعركة بين الأتراك ورجالنا بالدبابيس الحربية والسيوف ؛ ولذا التحموا بعضهم ببعض جميعاً ؛ وعاد إلىّ أحد رجالى ، بعد فراره من المعركة برايتى ، وقدّم إلىّ فرساً فلمنكيا من خيلى ، فركبته ؛ وذهبت إلى حيث وقف الملك ، ووقفت إلى جانبه .

وبينما نحن وقوف هكذا ، على هذه الحال ، جاء السيد جون فالبرى ، وهو فارس نبيل ، وقال إنه يرى أن يميل الملك فى زحفه إلى ناحية اليمين صعداً ، ضد اتجاه التيار ، على طول مجرى الماء ، ليكون على مقربة دائمة من نجدة دوق برجنديا ، وغيره من القادة القائمين على حراسة المعسكر الذى تركناه ، وليستطيع المشاة من عسكره أن يشربوا ، فإن الحرارة بلغت وقتذاك درجة كبيرة من الارتفاع .

وأمر الملك جاويشيته أن يستدعوا إليه فرسانه الذين يعتمد عليهم فى مجلسه الحربى ، وسمّاهم جميعا بأسمائهم . وذهب الجاويشية للبحث عنهم فى ميدان المعركة ، حيث كان النضال مستمرًّا بينهم وبين الأتراك . وجاء هؤلاء الفرسان إلى الملك ، وسألهم رأيهم ، فأجابوه بأن السيد جون فالبرى قال قولاً نصوحاً . عند ذلك أمر الملك حملة راية القديس دنيس ، وأصحاب رايته الملكية الخاصة ، أن يتحوّلوا ذات اليمين صعداً ، ضدّ اتجاه التيار ،

على طول مجرى الماء . وعند ما تحرّك جيش الملك إلى الأمام ، امتلأ الجو مرة أخرى بضوضاء عظيمة ، من الأبواق والطبول والكوسات الإسلامية . ولم يكد الملك يبدأ فى الحركة حتى جاء اليه عدة نقباء (سعاة) ، من عند أخيه كونت بواتييه ، ومن عند كونت فلاندر ، ومن عند كثيرٍ من كبار البارونات الذين وقفوا هناك بكتائبهم ، وكلهم يتوسّلون إليه ألا يتحرّك ، لأنهم كانوا محوطين بالأتراك ، بحيث لم يستطيعوا أن يتبعوه . ولذا استدعى الملك فرسانه إلى مجلسه الحربى مرّة أخرى ، فنصحوه جميعاً بالانتظار . وبعد ذلك بقليل رجع السيد جون فالبرى ، فألحى باللائمة على الملك ومجلسه الحربى (ص ١٢٩) ، بسبب ما حدث من الانتظار . وبناء على ذلك نصح جميع المشيرين على الملك أن يميل إلى اليمين صعداً ، ضدّ اتجاه التيار ، على طول مجرى الماء ، كما قال السيد جون فالبرى سابقاً .

وفى تلك الآونة جاء السيد الكندا اصطبل إيمبر بوجيه إلى الملك ، وأخبره بأن أخاه كونت آرتوا يدافع عن نفسه دفاع المستميت ، وهو محاصرٌ فى دار بالمنصورة ، وأنه ينبغى للملك أن يذهب لإنقاذه . وقال له الملك : " أيها الكنداصطبل . اذهب أنت أولاً ، وسوف أتبعك" . وقلت أنا للكنداصطبل ، بأنى مستعدّ أن أذهب برفقته ، وأكون فارساً له ؛ وشكرنى هو كثيراً . ثم أخذنا فى السير معاً نحو المنصورة .

وجاء وقتذاك إلى الكند اصطبل جاويش من المعيّنين لحمل الصولجان الملكى ، وهو يرتعد خوفاً ، وأخبر بأن الملك سوف يظلّ فى مكانه ، لأن الأتراك جعلوا أنفسهم بينه وبيننا . والتفتنا ، ورأينا أن الملك صار بينه وبيننا ألف من الأتراك وأكثر ، ونحن عصبة قليلة عدتها ستة من الفرسان . عند ذلك قلت أنا للكند اصطبل : " سيدى ! ليس فى استطاعتنا أن نصل إلى الملك ، باختراق صفوف هذه الفئة الكبيرة من الأتراك . لكن هلمّ بنا نسير صعداً على طول مجرى الماء ، حتى نجعل هذا الغدير الذى ترى أمامك فاصلاً بيننا

وبينهم ، أملاً فى أن نصل إلى الملك بهذه الطريقة " . وعمل الكنداصطبل بنصيحتى ، واعلم أنه إذا انتبه الأعداء إلينا ، لكان باستطاعتهم أن يقتلونا جميعاً ، ولكن انتباههم كان منصرفاً نحو الملك والكتائب الكبيرة الأخرى ، على حين ظنوا أننا من عساكرهم .

الفصل الثامن والأربعون

وبينما نحن فى طريقنا راجعون ، منحدرون مع مجرى الماء ، بين الغدير والمجرى نفسه ، أبصرنا أن الملك وصل إلى حافة الماء ، وأن الأتراك يطاردون الكتائب الملكية الأخرى إلى هناك ، وهم يحاربون بالسيوف والدبابيس ، ويدفعون جميع الكتائب الأخرى ، فضلاً عن الكتيبة الملكية الخاصة ، إلى حافة الماء . وحينئذ بلغت هزيمتنا مبلغاً كبيراً من الهول ، بحيث فكّر كثير من فرساننا فى العبور عوماً إلى الجانب الذى فيه دوق برجنديا . غير أنه لم يكن باستطاعتهم ذلك ، لأن الخيل أضناها التعب ، وكان اليوم شديد الحرّ ، بحيث رأينا — ونحن نسير منحدرين مع المجرى — أن الماء غدا عامراً بالحراب والدروع والخيول ، فضلاً عن الرجال الذين غرقوا ، وهلكوا .

(١٣١) ووصلنا إلى قنطرة صغيرة فوق الغدير ، وقلت للكنداصطبل إنه جدير بنا أن نثبت هناك ، لنحرس تلك القنطرة ، لأننا إذا نحن تركناها بدون حراسة ، فلا يلبث الأتراك أن يعبروا منها للهجوم على الملك ، وإذا وقع الهجوم على عساكرنا من ناحيتين ، فلا مناص لنا من الهزيمة . وهكذا وقفنا ، وقيل لنا إنه لم يكن لنا من الموت مفرّ ذلك اليوم ، لو لم يكن الملك هناك بنفسه . ذلك أن السيد كورتنيه والسيد جون سابنيه أخبرانى بأن ستة من الأتراك أمسكوا بسرج حصان الملك ،

وكادوا يأخذونه أسيراً ، وأنه خلّص نفسه منهم ، بفضل الضربات العظيمة التي كالها لهم بسيفه . فلما رأى رجال الملك أنه يدافع عن نفسه ، ثارت حميتهم ، وعدل كثير منهم عن عبور مجرى الماء ، واستداروا نحو الملك لتقديم المساعدة له . وجاء إلينا — نحن الواقفين لحراسة القنطرة — كونت بطرس بريتاني ، راكباً من المنصورة مباشرة ، وكان مصاباً بضربة سيف فى وجهه ، حتى كان الدم يجرى الى فمه . وكان راكباً فرساً قوياً ، وقد رمى لجامه على قربوس برذعته ، وأمسك بالقربوس بكلتا يديه ، لكيلا يحاول اللاحقون به من عسكره أن يخرجوه عن الطريق . ويبدو أنه لم يحمل لهم أىّ احترام ، بدليل قوله لنا مراراً ، بعد أن بصق الدم من فمه : " انظروا وحياة رأس الربّ ، هل رأيتم أوغاداً مثل هؤلاء أبدا ؟ ". وفى ذيل كتيبته جاء كونت سواسون ، والسيد بطرس نويفيل ، واسمه كايير ، وكان ممن تلقّوا كثيراً من ضربات ذلك اليوم .

وعند ما عبروا ، ورأى الأتراك أننا نحرس القنطرة ، وأننا ولّينا وجوهنا نحوهم ، تركوهم وشأنهم . وذهبت أنا إلى كونت سواسون ، وهو الذى تزوجتُ أنا ابنة عمته سابقاً ، وقلت له : " سيدى ! أظنك تحسن صنعاً إذا أنت مكثتَ لحراسة هذه القنطرة ، لأننا إذا تركناها بغير حراسة ، فإن هؤلاء الأتراك الذين ترى أمامك ، لا يلبثون أن يهجموا عليها فوراً ، وبذا يصبح الملك موضع هجوم ، من الأمام والخلف . وسألني كونت سواسون ، هل أنا كذلك راغب فى المكث لحراسة القنطرة ، إذا هو مكث هناك ، فأجبته : " نعم ، وبكل تأكيد " . فلما سمع (ص ١٣٣) ذلك طلب منى ألا أبرح المكان حتى يعود ، وقال لى إنه ذاهب للبحث عن نجدة لنا .

الفصل التاسع والأربعون

وهناك مكثتُ أنا على ظهر حصانى ، وظلّ كونت سواسون معى عن يمينى ، والسيد بطرس نويفيل عن يسارى . ثم لم ألبث أن رأيتُ جندياً

تركياً يأتى من ناحية كتيبة الملك ، وهى وراءنا ، وضرب السيّد بطرس نويفيل من الخلف ضربةً شديدةً بدبوسه ، فسقط السيّد بطرس على رقبة حصانه ، من شدة الضربة التى تلقّاها من الخلف . ثم مرّ هذا الجندى على القنطرة ، وأسرع راكضاً إلى أصحابه من الأتراك . ولما رأى الأتراك أننا لن نترك القنطرة عبروا الغدير ، وجعلوا أنفسهم بين الغدير ومجرى الماء ، كما فعلنا نحن سابقاً ، عندما سرنا منحدرين مع المجرى . ولذا أدرنا خيولنا نحوهم ، بحيث غدونا مستعدّين للهجوم عليهم ، سواء أرادوا السير نحو الملك ، أم أرادوا عبور القنطرة .

وكان أمامنا اثنان من جاويشية الملك ، واسم أحدهما ويليام بون ، والآخر حنا جاماش . فأرسل الأتراك الذين وصلوا إلى ما بين مجرى الماء والغدير عدداً من الفلاحين المشاة . وأخذ هؤلاء الفلاحون يرمون الجاويشية بحفنات وقبضات من الطين ، لكنهم لم يستطيعوا أن يدفعوهم إلى ناحيتنا . وأخيراً جاء الأتراك بفلاح من الفلاحين ، فرمى هذا الفلاح على الجاويشية ثلاث مرّات بنار إغريقية ، وفى إحدى هذه المرّات تلقى وليام بون علبة النار الإغريقية بترسه ، ولو مسّتْ النار شيئاً من ملابسه لمات حريقاً .

وانهالت علينا جميعا أصناف القذائف التى أخطأت الجاويشية ، وحدث أن وجدتُ أنا سترة من النوع الذى يلبسه العسكر المشاة من المسلمين ، وهى محشوّة بالقطن ، ومبطّنة بنسالة الكتان : فأدرتُ فتحتها إلى ناحيتى ، وجعلتُ منها ترساً ، وانتفعتُ بذلك انتفاعاً عظيماً ، ولذا لم تحدث قذائفهم بى جراحاً إلا فى خمس مواضع ، وبحصانى فى خمسة عشر موضعاً فقط . ثم حدث كذلك أن فارساً ، من أهل بلدتى جوانفيل ، أحضر إلىّ راية من راياتى فى رأس دبوس ، وبذا صرنا مستعدّين للهجوم ، فكلما رأينا أنهم يريدون أن يتقدّموا نحو الجاويشية ، هجمنا عليهم حتى هربوا .

(ص ١٣٥) الفصل الخمسون

وفى ساعة الغروب ذلك المساء ، استدعى الكنداصطبل كتيبة الملك من رماة قوس الرِّجْل ، وكان ذلك بعد أن نزلوا عن خيولهم ، فاصطفوا أمام مواقفنا . وعندما رآهم الأتراك ، وهم يضعون أرجلهم فى الأقواس ، استعداداً للرمى ، أخذوا فى الهرب وتركونا . عنـــد ذلك قال لى الكنداصطبل : " يا صنجيل ! هذا عمل حسن ، والآن اذهب إلى الملك ، ولا تتركه ذلك اليوم حتى يعود إلى خيمته " . وساعة وصولى إلى الملك ، جاء إليه السيد حنا فالبرى ، وقال له : " مولاى ! يتوسّل إليك السيد شاتيون أن تتخلّى لى عن مؤخرة الجيش " . فاستجاب الملك لذلك ، عن طيب خاطر ، ولم يلبث أن أخذ طريقه إلى خيمته . وعندما وصلنا نحن إلى هناك ، سألتُ أنا الملك أن يخلع خوذته ، وأعطيتُه بدلها طاقيتى الحديدية لوقاية رأسه ، وبذا استطاع أن يتنسّم الهواء .

وعند ذلك جاء إليه الأخ هنرى روناى ، وهو مدير طائفة الفرسان الاسبتارية ، وكان آتيا من ناحية النهر ، وقبّل يد الملك المزرّدة . وسأله الملك إذا كان لديه أىّ أخبار عن أخيه كونت أرتوا ، فأجابه روناى إن عنده أخباراً بكل تأكيد ، وهى أن كونت أرتوا أخا الملك فى الجنّة ، ولا ريب فى ذلك . ثم قال المدير : " أى نعم يامولاى ! . ينبغى أن يسرّك ذلك ، لأن شرفاً عظيماً لم يتمّ لملك من ملوك فرنسا ، كما تمّ هكذا لك . ثم إنك – فى سبيل محاربة أعدائك – عبرتَ نهراً عوماً فى الماء ، وهزمتَ أعداءك ، وأجليتهم عن معسكرهم ، واستوليتَ على مجانيقهم الحربية ومساكنهم ، حيث تنام أنت هذه الليلة " . وأجاب الملك أنه يحمد الربَّ على جميع ما أولاه من نعمة ، ثم اغرورقت عيناه بالدموع .

وعند ما وصلنا إلى المعسكر ، وجدنا عدداً من مشاة المسلمين (ص ١٣٧) يجذبون إلى ناحيتهم حبال خيمة هدموها ، على حين كان جماعة من

رجالنا يجذبون من ناحية أخرى . فهجمنا عليهم ، وأقصدُ بذلك رئيس طائفة الفرسان الداوية وأنا ؛ فأخذوا فى الهرب ، وبقيت الخيمة فى أيدى رجالنا .

وفى أثناء هذه المعركة عمد إلى الهرب أشخاص كثيرون ، ومنهم رجالٌ ذوو مقام عظيم ، واستطاعوا الفرار عن طريق القنطرة الصغيرة ، وهى التى أخبرتُك بها ؛ وكان الخوف مبعث فرارهم ، ولم نحاول أن نستبقى أحدا منهم معنا . وفى مقدورى أن أذكر منهم كثيرين ، ولكنى أحجم عن ذلك ، لأنهم ماتوا جميعاً . لكنى لا أحجم عن ذكر السيّد جى موفوازان ، فإنه جاء من المنصورة مكلّلا بغار الشرف . والواقع أنه بينما أنا والكندااصطبل سائرون صعداً على طول مجرى الماء ، كان هو سائراً منحدراً مع المجرى . وعندما انقضّ الأتراك على كونت بريتانى وكتيبته ، انقضّوا كذلك على السيد جى موفوازان وكتيبته ؛ ولكنه أبلى فيهم بلاءً عظيماً ، واستحقّ لذلك ثناء كبيراً ذلك اليوم ، هو وعساكره . ولم يكن عجباً أنه أبلى ورجاله أحسن البلاء ذلك اليوم ، لأن العارفين بأفراد كتيبته جيّد المعرفة أخبرونى بأن جميع رجاله ، أو ما يقرب من جميعهم ، فرسانٌ من أهله ، أو فرسانٌ تربطهم به يمين التبعية والولاء .

وعند ما انتصرنا على الأتراك ، وأخرجناهم من مساكنهم ، ولم يبق من رجالنا أحد فى المعسكر ، هجم البدو على خيام المسلمين من أصحاب المراتب العالية ، ولم يتركوا شيئاً من المتاع فى خيام المسلمين ، بل أخذوا كلّ شىء تركه المسلمون . وما سمعتُ أن أحداً من البدو ، وكلهم رعية المسلمين ، ناله أذىً بسبب ما أخذوا أو سلبوا ، فهكذا كانت عادتهم ، وهى الهجوم على الجانب الأضعف ، دائماً وأبداً .

الفصل الحادى والخمسون

ونظراً لما للذلك من علاقة بقصتى ، فإنى أخبرك عن البدو ، وأىّ نوع هم من الناس . فالبدو يتشيّعون (ص ١٣٩) لعلىّ ، وهو [ابن] عمّ [النبى] محمد ، وكذلك يتشيّع شيوخ الجبل لعلىّ ، وهم الذين يؤيدون طائفة الحشيشية . وهم جميعاً يستمسكون بالاعتقاد ، بأنه حين يموت الإنسان فى خدمة سيده ، أو فى سبيل أىّ غرض شريف ، فإن روحه تذهب إلى جسم أحسن ، وإلى حالٍ أحسن من ذى قبل . ولذا لايخشى الحشيشيون كثيراً إذا هم ماتوا أو قتلوا ، وهم ينفّذون أوامر شيخ الجبل ، كائنة ما تكون . وفيما يتعلّق بشيخ الجبل نرى أن نمسك الآن عن الكلام فيه ، وأن نتكلّم عن البدو .

والبدو لا يعيشون فى قرًى ، أو مدنٍ أو حصونٍ ، بل ينامون دائماً فى العراء ، وهم يجعلون لأهلهم ونسائهم وأطفالهم فى الليل ، أو فى النهار حين يكون الجوّ رديئاً ، نوعاً من المأوى ، يصنعونه من حلقات البراميل ، بعد أن يربطوها إلى أعمدة خشبية ، فتصبح كأنها هوادج للنساء . ويطرح البدو فوق هذه الحلقات جلوداً من جلود الأغنام ، وهذه يسمّونها جلود دمشق ، وهى مدبوغة بالشبّ . والبدو أنفسهم يلبسون من هذه الجلود برانسَ عظيمة ، بحيث تغطى أجسامهم وأرجلهم وأقدامهم .

وحينما تمطر السماء فى الليل ، ويمسى الجو رديئاً ، يلتحف البدو برانسهم ، ويخلعون المقاود عن خيولهم ، ويتركونها ترعى على مقربة منهم . وعندما يصبح الصباح ، ينشرون برانسهم فى الشمس ، ويجفّفونها ويدقّونها ؛ وهكذا لا يظهر بها أىّ شىء يدلّ على أنها كانت مبلّلة فى الليل .

أما عقيدتهم ، فهى أن الإنسان لايدركه الموت قبل اليوم المكتوب له ؛ ولذا يرفضون أن يلبسوا دروعاً ، وإذا شتموا أولادهم قالوا للواحد منهم : " عليك من الله لعنة ، كلعنة الفرنجى الذى يلبس الدرع حذَرَ الموت " .

وفى ميدان القتال ، لا يحمل البدو من أدوات الحروب سوى السيوف والدبابيس .

ويلبس معظم البدو بُردة فوقانية كالقسس ، ويلفّون رؤوسهم بقماش يتلثّمون به تحت ذقونهم ، ولذا فهم قوم قباح المنظر ، وليس فى النظر إليهم ما يسرّ العين ، لأن شعر رءوسهم أسود ، وكذلك شعر لحاهم . وهم يعيشون على ألبان ماشيتهم ، ويشترون حقوق الرعى فى أراضى الأغنياء ؛ (ص ١٤١) ومن هذه الأراضى تأكل ماشيتهم . ولا يستطيع أحد أن يعرف عددهم ، وهم يوجدون فى مملكة بيت المقدس ، وفى جميع أراضى المسلمين وغير المسلمين ؛ وهؤلاء وأولئك يدفعون لهم أموالا عظيمة سنوياً .

ورأيتُ فى هذه البلاد[1] ، بعد عودتى من وراء البحار ، جماعة من المسيحيين الخائنين لدينهم ، يعيشون حسب شرائع البدو ، ويقولون إن الإنسان لا يدركه الموت قبل اليوم المكتوب له . وتبلغ عقيدتهم من الفساد إلى درجة القول بأن الربّ غير قادر على إغاثتنا . غير أننا نكون بلهاء ، نحن الذين نطيع الرب فى كل شىء ، إذا نحن لم نعتقد بأنه سبحانه بيده إطالة أعمارنا ، فضلاً عن حفظنا من الشرّ والسوء ؛ ويجب علينا الإيمان به ، فهو على كلّ شىء قدير .

الفصل الثانى والخمسون

والآن نقول كيف رجعنا ليلاً ، نحن والملك ، من هذه المعركة الخطيرة التى أسلفنا شرحها ، وكيف بتنا فى المكان الذى أخرجنا منه أعداءنا . وتفصيل ذلك أن رجالى الذين ظلوا مع الجيش الذى اضطررنا أن ننفصل عنه ، جاءونى وأحضروا معهم خيمة ، أعطانيها سابقاً فرسان الداوية ،

(١) ربما يقصد جوانفيل بذلك فرنسا نفسها ، أو أنه يقصد بعض المدن الصليبية وقتذاك بفلسطين .

ينصبوها لى أمام المجانيق التى استولينا عليها من المسلمين ، وأقام الملك حرساً من العسكر المشاة لحراسة المجانيق .

وعندما ذهبتُ إلى فراشى ، بعد أن صِرْتُ فى حاجة شديدة إلى الراحة ، بسبب جراحى التى أصابتنى فى اليوم السابق ، لم تحدث لى أية راحة ، لأن نداءً انتشر فى معسكرنا ، قبل طلوع النهار : " إلى السلاح ! إلى السلاح ! " وأيقظتُ خادمى النائم عند مؤخرة فراشى ، وأمرتُه أن يذهب لاستطلاع الخبر ، فجاء وقال لى ، وهو فى شدة الاضطراب : " قم سيدى ! ! قم فإن المسلمين جاءوا مشاةً وركباناً ، ودهمونا ، وألحقوا الهزيمة بعساكر الملك القائمين على حراسة المجانيق ، بل طاردوهم حتى دفعوهم بين حبال الخيم " .

ونهضتُ ، ولبستُ سترة مبطّنة ، ووضعتُ على رأسى طاقية من الحديد ، وصحتُ فى فرساننا : " وحياة القديس نيقولا ، لن ندعهم يمكثون هنا " . وجاء إلىّ فرسانى ، برغم ما بهم من جراح كثيرة ، وطاردنا المشاة المسلمين عن المجانيق ؛ حتى أوصلناهم إلى حيث وقفت كتيبة إسلامية كبيرة من الخيالة ، وكانوا على مسافة من المجانيق التى استولينا عليها . وأرسلتُ إلى الملك طالباً نجدته ، لأنى وفرسانى لم نكن قادرين على لبس ملابسنا المزرّدة ، بسبب الجروح التى أصابتنا ؛ فأرسل إلينا الملك السيّد والتر شاتيون ، فاتخذ هذا السيّد موقفه بيننا وبين الأتراك الواقفين أمامنا .

وعند ما دفع السيّد شاتيون المشاة المسلمين إلى الوراء ، تقهقر هؤلاء المشاة نحو كتيبة عظيمة من الخيالة الأتراك وكانت هـذه الكتيبة مصطفة أمام معسكرنا ، لمراقبتنا ، حتى لا نقوم نحن بمباغتة الجيش الإسلامى المعسكر خلفهم . ومن هذه الكتيبة التركية ترجّل ثمانية من أمرائهم ، فى سلاحٍ فاخرٍ ، وأقاموا حاجزاً من أحجار البناء حتى لا يصيبهم رماة أقواس الرِّجْل من عساكرنا بقذائفهم . وأخذ أولئك الأمراء الثمانية يرمون على معسكرنا من غير تصويب ، وجرحوا عدّة من خيالتنا وخيولنا .

وتشاورت أنا وفرسانى فى الأمر ، واتفقنا أن نقوم عندما يخيّم الظلام على إزالة الأحجار التى أقامها أولئك الأمراء الثمانية ، لحماية أنفسهم من قذائفنا . وكان أحد قساوسة كتيبتى ، واسمه حنا فوازى ، حاضراً تلك المشاورة ، لكنه لم يقف بيننا طويلاً ، بل ذهب وحده من معسكرنا ، وسار نحو المسلمين مسلّحاً بسترة مبطنة حول وسطه ، وعلى رأسه طاقيته من الحديد ، وتحت ذراعه حربته ، ورأسها إلى أسفل ، حتى لا يراها المسلمون .

وعند ما اقترب هذا القسيس من المسلمين لم يلتفتوا إليه ، لأنهم رأوا أنه بمفرده ؛ فاستلّ القسيس حربته من تحت ذراعه ، وهجم عليهم . ولم يحاول أحد من الأمراء الثمانية أن يقف فى وجهه ، بل استداروا وأخذوا فى الهرب . وعندما رأت الخيالة التركية أن قادتها يلوذون بالهرب ، همزت خيولها لإنقاذهم . وخرج من معسكرنا ما لا يقلّ عن خمسين من العسكر المشاة ، فركضت نحوهم الخيالة التركية . لكنها لم تجرأ على الهجوم على عساكرنا المشاة ، بل انحرفت عنهم .

(ص ١٤٥) وبعد أن قام الخيالة الأتراك بتلك الحركة مرّتين أو ثلاث مرّات ، أمسك أحد عساكرنا من المشاة رمحه من وسطه ، ورمى به أحد الخيالة الأتراك ، فأصابه الرمح بين أضلاعه ؛ وظلّ ذلك الذى أصابه الرمح يركض بفرسه ، ونصل الرمح بين ضلعيه . وعندما رأى الأتراك ذلك لم يجرأوا على الهجوم ، بل تقهقروا إلى مسافة أبعد مما كانوا ، وأزال عساكرنا المشاة أحجار الحاجز . ومنذئذٍ صار هذا القسيس معروفاً فى المعسكر ، وأشار إليه الجند بعضهم إلى بعض ، قائلين " ها هو قسيس السيد جوانفيل ، وهو الذى هزم ثمانية من المسلمين " .

الفصل الثالث والخمسون

وهذه الحوادث وقعتْ أول يوم من الصيام الكبير ، وفى ذلك اليوم بالذات قام قائد مسلم مشهور(١) بالشجاعة ، وهو الذى أقامه أعداؤنا مقام فخر الدين بن الشيخ ، بعد أن فقدوه ، فى وقعة يوم ثلاثاء الرفاع ، وأخذ معطف كونت أرتوا الذى قُتل فى المعركة ، وعرَضه على جميع الحاضرين من المسلمين ، وقال إنه معطف الملك الذى زعم أنه مات .

وقال هذا القائد ، على ملأٍ من الحاضرين : إنى أريكم هذه الأشياء ، لأن جسماً بلا رأس لا يستطيع بأىّ حال أن يخيف أحداً ، وكذلك الناس بلا ملك . ولذا أرى — إذا أنتم وافقتم على رأيى — أن نقوم بالهجوم عليهم يوم الجمعة ، وينبغى عندى أن توافقوا على ذلك ، لأننا لن نفشل فى أخذهم جميعاً ، بعد أن فقدوا زعيمهم وملكهم ؛ وهكذا اتفقتْ كلمتهم على أن يأتوا ويهجموا علينا ، يوم الجمعة .

وجاء جواسيس الملك الذين كانوا فى جيش المسلمين ، ليخبروا الملك هذه الأخبار ، وعند ذلك أمر الملك جميع قادة الكتائب أن يستعدّوا برجالهم ، قبل أن ينتصف الليل ، وأن يخرجوا بهم عن الخيام إلى حيث السور ، وهو سورٌ مصنوع من أعواد خشبية طويلة ، متقاربة بعضها إلى بعض ، حتى لا يستطيع المسلمون اقتحام المعسكر . والواقع أن الأعواد الخشبية كانت مدقوقة فى الأرض على مسافات قصيرة ، بحيث يستطيع الجندى أن يمرّ بينها سيراً على قدميه ، لا راكباً حصاناً ؛ وحسبما أمر الملك كان التنفيذ .

---

(١) هذا القائد هو بيبرس البندقدارى ، وسماه جوانفيل باسمه هذا ، فى فصل تالٍ من فصول كتابه .

(ص ١٤٧) وعند شروق الشمس قام القائد المسلم المذكور ، وهو الذى جعلوه قائداً عليهم ، وزحف نحونا بجيش عدته أربعة آلاف من الخيالة الأتراك ، وجعلهم حول جميع معسكرنا ، من عند مجرى النيل الآتى من القاهرة ، إلى القناة التى تجرى من معسكرنا إلى بلدة اسمها دراكسة ، كما جعل جماعة من هؤلاء الخيالة الأتراك حوله . وعند ما أتم الخيالة الأتراك ذلك ، أحضر القائد فى مواجهتنا عدداً من العساكر المشاة ، بحيث أحاطوا بمعسكرنا إحاطة تامة ، كما فعل الخيالة الأتراك بدورهم . ووراء هذين الجيشين اللذين ذكرتُ ، اصطفتْ جميع كتائب سلطان القاهرة ، لتقديم المساعدة اللازمة لهذين الجيشين ، إذا احتاج الأمر .

وعندما انتهى ترتيب ذلك ، جاء القائد بنفسه راكباً جواداً صغيراً ، ليرى جيشنا ، وحيث رأى كتيبة من كتائبنا أكثر عدداً فى موضع من مواضعنا ، عنها فى موضع آخر ، رجع إلى الوراء ، وأرسل فى طلب عددٍ من جنده ، وجعل كتائبه قوية بالقياس إلى كتائبنا التى أمامها . ثم أمر البدو ، وكان لديه منهم ثلاثة آلاف على الأقل ، أن يعبروا مجرى الماء إلى المعسكر الذى قام على حراسته دوق برجنديا ، وهو واقعٌ بين النيل والبحر الصغير . وفعل القائد ذلك ، لأنه اعتقد أن الملك سوف يبعث عدداً من عساكره إلى الدوق ، لنجدته ضدّ البدو ، وبذهاب ذلك العدد يغدو جيش الملك هو الجانب الضعيف .

الفصل الرابع والخمسون

واستغرق ترتيب كل هذه الصفوف حتى ساعات الظهر ، من ذلك اليوم . ثم أمر القائد بضرب الطبول التى تسمّى النقّارات ، وعند ذلك بدأ الهجوم علينا ، بالخيالة والمشاة فى آنٍ واحد . وأقصّ عليك أولاً ما حدث للملك صقلية ، وهو كونت آنجو وقتذاك ، فإن موضعه كان فى أول الجيش من

ناحية الطريق المؤدّى إلى القاهرة . وجاءوا إليه فى حركة تشبه حركة الشطرنج ، إذ هجموا عليه أولا بجند المشاة (كأنهم البيادق) ، ليستطيع أولئك الجند — وهم مشاة — أن يرموا عليه بالنار الإغريقيـــة . ثم إنهم شدّدوا عليه الهجوم بالخيالة والمشاة ، حتى إنهم تغلّبوا على ملك صقلية نفسه ، لأنه لم يكن راكباً فرساً ، بل واقفاً على قدميه وسط فرسانه .

وجاء جماعة من الفرسان إلى الملك ، وأخبروه بالحرج الذى تردّى فيه أخوه ، فلما سمع بذلك ركض بحصانه ، وشقّ طريقـــه وسط كتيبة أخيه (ص ١٤٩) ، وبيده السيف . وأوغل الملك إلى الأمام بين الأتراك ، على الرغم من أنهم أشعلوا ذيل حصانه بالنار الإغريقية . وبهذا الهجوم الذى قام به الملك ، أمكن إنقاذ ملك صقلية ورجاله ، كما أمكن دفع الأتراك عن مواضعهم .

وفيما يلى جيش ملك صقلية ، وقفت كتيبة البارونات الصليبيين المحليين ، وزعماؤها الســـيد جى إبلين وأخوه السيد بالدوين . وفيما يلى كتيبتهم ، وقفت كتيبة الســـيد والتر شاتيون ، وكلها فرسان من أصحاب الفضل والفروسية الرفيعة . ودافعت هاتان الكتيبتان عن مواضعهما دفاعاً مجيداً ، بحيث صار من المستحيل على الأتراك تفريقهم ، أو زحزحتهم إلى الوراء .

وفيما يلى كتيبة السيد والتر ، وقفتْ كتيبة الأخ وليام سوناق ، مقدم الفرسان الداوية ، وهو فى فئة قليلة من أولئك الفرسان ، وهم الذين بقوا له بعد معركة يوم الثلاثاء . وكان الأخ سوناق واقفاً بكتيبته عند سور من الخشب ، وهو الذى أمر بإقامة هذا السور أمام المجانيق ، وأعنى بذلك المجانيق التى استولينا عليها سابقاً من المسلمين . فلما هجم المسلمون رموا بالنار الإغريقية على هذا السور الذى أقامه الفرسان الداوية ، واشتعلت النار فيه بسرعة ، لأن الداوية أحاطوه بألواح كثيرة من الخشب الرقيق . وليكن فى علمك أن الأتراك لم ينتظروا حتى تنتهى نار الحريق ، بل هجموا على الداوية من خلال اللهيب المشتعل .

وفى هذه المعركة فقد الأخ وليام سوناق ، مقدّم الفرسان الداوية ، إحدى عينيه ، وهو الذى فقد عينه الأخرى يوم ثلاثاء الرفاع ؛ وهكذا مات السيد المذكور متأثراً بجراحه ، طيّبَ الربّ ثراه . وليكن فى علمك أنه كان وراء الداوية مسافة من الأرض ، تناثرت فيها السهام التى سدّدها المسلمون نحوهم ، حتى كادت الأرض لا تُرى من كثرة ما اجتمع فيها من السهام .

وفيما وراء فرسان الداوية وقفتُ كتيبة السيد جى موفوازان ، وهى الكتيبة التى عجز الأتراك عن التغلّب عليها . ومع هذا حدث أن الأتراك صوّبوا من النار الإغريقية نحو السيد جى موفوازان ما تطلّب من رجاله جهداً كبيراً فى إطفاء لهيبها .

الفصل الخامس والخمسون

ومن موضع كتيبة السيد جى موفوازان (ص ١٥١) امتدّ السور الذى أحاط بمعسكرنا نحو النهر ، مسافة رمية حصاة ، ومن هناك تقوّس السور أمام كتيبة كونت وليام فلاندر ، وامتدّ حتى وصل إلى حافة مجرى الماء نحو البحر(١) . وعلى مقربة من السور الممتدّ من موضع السيد جى موفوازان ، وقفتْ كتيبتنا . ولما كانت كتيبة كونت وليام فلاندر أمام العدوّ وجهاً لوجه ، لم يجرأ العدوّ أن يقترب منا ، وهكذا أكرمنا الربّ أعظم إكرام ، لأنى وفرسانى لم يكن لدينا ملابسَ مزرّدةً ولا تروساً ، بسبب ما أصابنا من جروح يوم ثلاثاء الرفاع .

وهجم الأتراك على كونت فلاندر ، بالخيالة والمشاة ، فى حماسة وشدّة ، فلما رأيتُ ذلك أمرتُ رجالنا رماة أقواس الرّجْل أن يرموا على الخيالة التركية ، وعندما رأى رجال الكونت ذلك ألقوا بأنفسهم من فوق السور ، وهجموا

(١) يقصد جوانفيل بالبحر هنا بحيرة المنزلة ، وهى التى تصب فيها ترعة أشموم طناح ، أى البحر الصغير الحالى .

على المشاة من المسلمين ، وهزموهم . وهناك مات كثيرون ، واستولى المسلمون على تروسهم . وهناك أبلى والتر لاهورنى أحسن البلاء ، وهو حامل راية السيد آبريمون .

وفيما وراء كتيبة كونت فلاندر ، وقفت كتيبة كونت بواتييه ، وهو أخو الملك ، وكانت هذه الكتيبة مكوّنة من المشاة ، ولم يكن فيها راكب فرسه إلا الكونت وحده . وهزم الأتراك هذه الكتيبة ، وأخذوا كونت بواتييه أسيراً . ولما سمع القصّابون والنسوة القائمات على بيع الأطعمة ، وغيرهم من أتباع المعسكر ، بخبر وقوع الكونت أسيراً فى أيدى المسلمين ، ملأوا المعسكر بصياحهم ؛ وبفضل الربّ خلصوا الكونت ؛ وأخرجوا الأتراك من المعسكر .

ووراء كتيبة كونت بواتييه ، وقفت كتيبة السيد جوسيران برانسيون ، وهو الذى جاء مع الكونت بواتييه إلى الأراضى المصرية ، وكان من أحسن الفرسان فى الجيش كله . ورتب السيد جوسيران رجاله ، بحيث غدا جميع فرسانه مشاة فى ذلك اليوم ؛ وامتطى هو فرساً ، كما امتطى ابنه السيد هنرى فرساً ، ومعه ابن السيد جوسيران مانتون كذلك راكباً فرساً . وتوخّى السيد برانسيون أن يظلّ هذان الابنان على ظهور الخيل ، (ص ١٥٣) لأنهما كانا شابّين لا خبرة لهما بشئون القتال . غير أن الأتراك تغلّبوا على رجاله مرّات متعدّدة ، فكان كلما رأى رجاله منهزمين ركض هو بحصانه ، وهجم على الأتراك من ناحية مؤخرتهم ، بحيث تحوّل الأتراك عن رجاله مرة بعد أخرى ، ليلتفتوا إليه . لكن ذلك كلّه لم يُجْدِ شيئاً فى منع الأتراك من التغلب عليهم فى ميدان القتال ، لولا ما قام به السيد هنرى كون ، وهو الذى كان واقفاً عبر مجرى الماء فى طرف جيش دوق برجنديا . وكان السيد هنرى كون فارساً عاقلاً ، كما كان شجاعاً حاذراً ، فكان كلما رأى الأتراك يهجمون على السيد برانسيون ، أصدر أمره إلى الفرقة الملكية من رماة قوس الرِّجْل ، للرمى على الأتراك عبر مجرى الماء . وهكذا تخلص السيد برانسيون من شرّ ذلك

اليوم العصيب ، حيث فقد اثنى عشر من عشرين فارساً كانوا معه ، فضلاً عما فقد من العسكر . وأصابه من الجراح ما جعله عاجزاً عن الوقوف على قدميه ، ومات من تلك الجراح التى أصابته فى خدمة الرب .

وأقصُّ عليك من خبر السيد برانسيون هذا أنه شهد منذ بداية حياته حتى مماته ستاً وثلاثين معركة من المعارك الحربية والاشتباكات الفردية ؛ وكان له الفوز فيها كلها دائماً . ورأيتُه فى فرنسا ذات مرّة ، وهو يعمل فى جيش كونت شالون ابن عمه ، حين جاء إلىّ ، وكان معى أخى ، ذات يوم جمعة حزينة ، وقال لنا : " هلموا يا أبناء إخوتى وساعدونى بأنفسكم ورجالكم ، لأن الألمان يريدون اقتحام الكنيسة " . وذهبنا معه ، وزحفنا ضدّهم ، وسيوفنا مسلولة فى أيدينا ؛ وبعد جهد عظيم ، وصخب أعظم ، أخرجناهم من الكنيسة . ولما انتهى ذلك اليوم ، جاء هذا الفارس النبيل ، وجثا على ركبتيه أمام المذبح ، وشكر الربّ بصوتٍ عالٍ ، وقال : " يا ربى ! أتوسّل إليك أن ترفق بى ، وأن تبعدنى عن هذه الحروب التى تقع بين المسيحيين بعضهم بعضاً ، إذ صرفتُ فيها جزءاً كبيراً من حياتى ، واجعلنى أن أموت على الإيمان فى خدمتك ، حتى أكون فى مملكتك بالجنة " . وإنى أقصّ عليك هذه الأشياء ، لأنى أعتقد أن الربّ قَبِل توسّله ، كما رأيتَ فيما سبق هنا .

وبعد معركة يوم الجمعة الأولى من الصيام الكبير ، أرسل الملك إلى جميع باروناته أن يحضروا إليه ، وخطب فيهم قائلا : " نحن مدينون بالشكر إلى ربّنا ، بعد أن منحنا التوفيق والمجد ، مرّتين فى أسبوعنا هذا . (ص ١٥٥) ففى يوم الثلاثاء ، وهو يوم ثلاثاء الرفاع ، أخرجناهم من معسكرهم ، وحللنا محلّهم ، حيث نحن الآن مقيمون ؛ وفى يوم الجمعة التالى ، وهو اليوم الذى مضى ، دافعنا عن أنفسنا ضدهم ، حين كنا مشاةً وهم ركوبٌ " . وخاطبهم الملك بغير ذلك من العبارات المنمّقة ، تطبيباً لخواطرهم ، ومواساةً لهم .



مراجع عربية ومؤلفات أجنبية[1]

مراجع عربية

ابن أيبك (أبو بكر بن عبد الله) : كنز الدرر وجامع الغرر ، ٩ أجزاء . صور شمسية بدار الكتب المصرية ، رقم ٢٥٧٨ ، وهى مأخوذة من مخطوطة فاتح كتبخانسى ، باستنبول .

ابن تغرى بردى (أبو المحاسن يوسف) : النجوم الزاهرة فى أخبار مصر والقاهرة ؛ طبع منه حتى الآن اثنا عشر جزءاً . (دار الكتب المصرية ، القاهرة ، ١٩٣٠ — ١٩٥٦) .

ابن خلكان (أبو العباس شمس الدين أحمد) : وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ، ٦ أجزاء ، نشر محمد محيى الدين عبد الحميد . (مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ١٩٤٨) .

ابن جبير (أبو الحسين محمد بن أحمد الكنانى) : تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار ، وهو الكتاب المعروف باسم رحلة ابن جبير ، (Edit. Wright) ، فى مطبوعات (Gibb Memorial Series. Vol V. 1907) .

ابن العبرى (أبو الفرج بن هارون) : تاريخ مختصر الدول . (المطبعة الكاثوليكية للآباء اليسوعيين ، بيروت ، ١٨٩٠ م) .

ابن كثير (عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن عمر) : البداية والنهاية فى التاريخ ، ١٤ جزءاً . (مطبعة السعادة ، القاهرة ١٣٤٨ — ١٣٥٨ هـ)

---

(١) تقتصر كل من القائمتين التاليتين على أسماء المراجع والمؤلفات العربية والأجنبية التى ورد ذكرها ، فى المتن والحواشى بهذا الكتاب .

ابن واصل (جمال الدين محمد بن سالم) : مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب ، نشر الدكتور جمال الدين محمد الشيال ؛ طُبع منه حتى الآن جزءان . (المطبعة الأميرية ، القاهرة ، ١٩٥٣ - ١٩٥٧) .

—— : صور شمسية بدار الكتب المصرية ، رقم ٥٣١٩ ، مأخوذة من نسخة خطية بالمكتبة الأهلية ، بباريس .

أبو شامة : (شهاب الدين أبو محمد عبد الرحمن بن إسماعيل) كتاب الروضتين فى أخبار الدولتين ، جزءان . (المطبعة الأميرية - بولاق ، ١٢٨٨ هـ) .

—— : الذيل على الروضتين ، نشر السيد عزت العطار الحسينى . (القاهرة ، ١٩٤٧) .

أحمد أحمد بدوى : من النقــد والأدب . (مطبعة البيان العربى ، القاهرة ، ١٩٦١) .

أحمد لطفى السـيد : قبائل العرب فى مصر . (مطبعة سكر ، القاهرة ، ١٩٣٦) .

أسامة بن منقذ (أبو المظفر بن مرشد بن على بن مقلد بن نصر الشيزرى) : كتاب الاعتبار ، نشر فيليب حتى (Princeton University Press, 1956).

جوزيف نسيم يوسف : لويس التاسع فى الشرق الأوسط . (مؤسسة المطبوعات الحديثة ، القاهرة ، ١٩٥٩) .

حسن حبشى : الشرق الأوسط بين شقى الرحى . (مطبعة الاعتماد ، القاهرة ، ١٩٣٨) .

زكى محمد حسن : كنوز القاطميين ، (دار الآثار العربية ، القاهرة ، ١٩٣٧ م) .

سبط ابن الجوزى (شمس الدين أبو المظفر يوسف بن قزأوغلى) : مرآة الزمان فى تاريخ الأعيان ، ج ٨ : (حيدر أباد ، الهند ، ١٩٥٢) ؛

السيد الباز العرينى : مصر فى عصر الأيوبيين . (وزارة التربية والتعليم ، القاهرة ، ١٩٥٩) .

على مبارك : الخطط التوفيقية ، ٢٠ جزءاً . (المطبعة الأميرية ، بولاق ، ١٣٠٦ هـ) .

العينى (بدر الدين محمود الحنفى) : عقد الجمان : (Recueil. Hist. Or. II 2)

فيشر (هـ . ا . ل) : تاريخ أوربا العصور الوسطى ، ترجمة زيادة والعرينى والعدوى . (دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٥٠ — ١٩٥٤) ؛

القلقشندى (أبو العباس أحمد) : صبح الأعشى فى صناعة الإنشا ، ١٤ جزءاً . (المطبعة الأميرية ، القاهرة ، ١٩١٣ — ١٩١٨) .

المقريزى (تقى الدين أحمد بن على) : كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك ، نشر زيادة ، طُبع منه حتى الآن ستة أقسام ، وهما الجزءان الأول والثانى من هذا الكتاب : (لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، ١٩٣٤) .

ـــــــ : المواعظ والاعتبار ، جزءان ، (المطبعة الأميرية ، بولاق ، ١٢٩٠ هـ) .

ـــ : البيان والإعراب ، نشر إبراهيم رمزى . (مطبعة التأليف ، القاهرة ، ١٩١٢) .

مراجع أجنبية

Barker (Sir Ernest) :

The Crusades. (Oxford University Press, 1925).

Camb. Med. History. 8-Vols. :
(Cambridge University Press, 1924 - 1936).

Davis (Rev. E - J) :

The Invasion of Egypt by Louis IX of France. (Sampson Low, London. 1897).

Grousset (R.) :

Histoire des Croissades, 3 Vols. (Plon, Paris, 1934 - 1936).

Joinville (Jean Sire de) :

Oeuvres. edit. Natalis de Wailly. (Adriens Le Clere, Paris, 1867).

—: Histoire de Saint Louis, edit. Natalis De Wailly, (Firmin Didot, Paris, 1874).

—: The History of St. Louis, Transl. Joan Evans. (Oxford University Press, 1938).

Michaud (J.F.) :

Histoire des Croissades, 5 Vols. (Paris, 1817 - 22)

Minorsky (V) :

Studies in Caucasian History. (Taylor's Foreign Press, London, 1953).

Moore (George) :

Peter Abelard; A Novel, (Gollancz, London 1928).

Muir (Daphne) :

The Lost Crusade, A Novel. (Chatto & Windus, London),

Oman (Sir Charles) :

A History of the Art of War in Middle Ages, 2Vols. (Methuen, London, 1924).

Recueil des Historiens des Croisades :

Publ. Acad. des Inscriptions et Belles Lettres. 14 Vols. (Paris, 1842 - 1906).

Roncaglia (M) :
St. Francis and the Middle East, 3rd Edition, (Franciscan Center of Oriental Studies, Cairo, 1957).

Rothelin Ms. :
(Rec Hist. des Crois Occ. II.).

Runciman (S) :
A History of the Crusades. 3 Vols, (Cambridge University Press. 1951 - 54).

Stevenson (R.) :
Crusaders In The East. (Cambridge University Press 1907).

Throop (P.A.) :
Criticism of the Crusades. (Swets, Amsterdam, 1940).

William of Tyre :
History .... ed. Emily A. Babcock, 2 Vols. (Columbia University Press, 1943).

فهرس أبجدى عام

(ا)

(ب)

(ت)

(ج)

(ح)

(خ)

(ش)

(ص)

(ض)

(ع)

(غ)

(ط)

(ف)

(ق)

(ن)

(هـ)



